يوسف أيها الصديق

تفسير سورة يوسف

الشيخ
أحمد المُهري

نشر عبر

بسم الله الرحمن الرحيم

يوسف أيها الصديق!

الشيخ أحمد العُمري

المؤلف :

فضيلة الشيخ : أحمد المهري

عقدين في تفسير كتاب الله تعالى – أستاذ علم التفسير –المملكة المتحدة

ahmadalmohri@gmail.com
ahmadmohri@freenetname.co.uk
https://www.facebook.com/profile.php?id=100012871152907

كتاب يوسف أيها الصديق

الحقوق الأدبية محفوظة بالكامل للمؤلف ولمركز تطوير الفقه الإسلامي (المقر الرئيس القاهرة)

حق النشر و التبادل المعرفي والفكري مشاع

https://www.facebook.com/Islamijurisprudence/

الطبعة الإلكترونية عبر (نبضات مهاجر)

https://ambmacpc.com/

الطبعة الإلكترونية الأولى 2016 م

5
حكاية ميلاد بني إسرائيل 19
مختصر تفسير سورة يوسف بإذن الله تعالى 19
مقدمة تعريفية: 19
هدف السورة: 19
تفسير مبسط لمقدمة السورة الكريمة: 20
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿1﴾ 20
إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿2﴾ 22
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿3﴾ 24
إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿4﴾ 24
قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿5﴾ 27
وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿6﴾ 32
لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿7﴾ 35
إخوة يوسف : 37
إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿8﴾ 38
اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿9﴾ 39
قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿10﴾ 41
قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿11﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿12﴾ 42
قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿13﴾ 43
قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿14﴾ 44
فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿15﴾ 47
عودة الى إخوة يوسف : 52
الجولة التالية من المؤامرة: 52
وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ ﴿16﴾ 53
قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿17﴾ 53
وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿18﴾ 54
يوسف في الجب؟ 58
وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿19﴾ 58
وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿20﴾ 62
وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿21﴾ 62
وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿22﴾ 67

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿23﴾ 81
وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿24﴾ 83
وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿25﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴿26﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴿27﴾ 87
فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿28﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿29﴾ 91
وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿30﴾ 94
فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿31﴾ 96
قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿32﴾ 107
قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿33﴾ 111
فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿34﴾ 113
ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿35﴾ 115
وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿36﴾ 119
قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿37﴾ 130
وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴿38﴾ 137
يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿39﴾. 144
مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿40﴾. 149
يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿41﴾. 160
وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿42﴾. 169
وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿43﴾. 174
قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ ﴿44﴾. 179
وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿45﴾. 181

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ
لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿46﴾. 187
قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿47﴾ 194
ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿48﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ
عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿49﴾. 197
وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ
رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿50﴾. 207
ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه. 215
قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ
حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿51﴾. 221
ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿52﴾ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿53﴾. 226
وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴿54﴾. 229
قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿55﴾. 231
وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ
﴿56﴾ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿57﴾. 238
وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿58﴾. 244
وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿59﴾ فَإِن
لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴿60﴾. 245
قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿61﴾. 246
وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿62﴾.
246
فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿63﴾ قَالَ هَلْ
آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿64﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ
مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا
وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿65﴾. 250
قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى
مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿66﴾ 260
وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ
إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿67﴾. 265
وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا
وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿68﴾. 273
وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿69﴾. 277

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿70﴾ 280
قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿71﴾. 286

قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴿72﴾. 286

قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿73﴾ 288
قَالُواْ فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿74﴾ قَالُواْ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿75﴾ 290
فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿76﴾ 290
قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿77﴾. 294

قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿78﴾ 298
قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿79﴾ 300
فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿80﴾ 302
ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿81﴾
وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿82﴾ 308
قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿83﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿84﴾. 311
قَالُواْ تَاللّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿85﴾ 318
قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿86﴾ 322
يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿87﴾ 324
فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿88﴾ 328
قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿89﴾ 329
قَالُواْ أَ إِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿90﴾ 330
قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿91﴾ 333
قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿92﴾ 335
اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿93﴾ 341
وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿94﴾ 345
قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ ﴿95﴾ 345

فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿96﴾. 346

قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿97﴾ 348

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿98﴾ 350
فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ ﴿99﴾ 357
وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿100﴾ 359
رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿101﴾. 363
ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿102﴾. 374
وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿103﴾. 377
وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿104﴾ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿105﴾. 379
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿106﴾. 382
أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿107﴾. 384
قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿108﴾. 388
وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿109﴾. 391
حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿110﴾. 393
لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿111﴾. 394

المدخل

الحمد لله الذي خلقنا وكل من نرتبط بهم من البشر من أبوين وخلق أبوينا من نفس واحدة لنحب بعضنا البعض ولنتعامل مع بعضنا البعض بروح المحبة والصدق.

والحمد لله الذي منحنا العقل والفرقان واستخلفنا على الأرض و ما عليها ليختبرنا في نفوسنا فيثيبنا تثبيتا لكرمه وإحسانه أو يعاقبنا تثبيتا لعدله وقسطه.

والصلاة والسلام على أنبياء الله تعالى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وسائر الأنبياء والرسل الكرام وعلى الذين اهتدوا بهداهم وانتهجوا سبيلهم وعلينا جميعا لو سلكنا طريقهم.

أما بعد، فبين يديكم كتابي الذي أرجو أن يكون مفتاحا لفهم قصة يوسف كما هي في القرآن وحده. إنني مسلم أؤمن بالقرآن وبرسول الله محمد صلى الله عليه و آله إضافة إلى من سبقه من النبيين عليهم الصلاة والسلام، فليس لي دافع لكتابة قصة نبي من بني إسرائيل إلا لأن القرآن الكريم حكاها لنا لتكون قصته وقصة غيره من الأنبياء عبرة لنا ولغيرنا إن كنا من أولي الألباب.

فإذا وجد احد القراء الكرام بأن ما ورد في هذه القصة متشابه مع ما قد يكون ورد في أقاصيص اليهود أو غيرهم فإن الأمر لا يرتبط بالترتيب التاريخي لما ورد من كتب قبل القرآن الكريم وإنما بحقيقة وقائع القصة ذاتها فقصة يوسف قصة حقيقية لا بد أن تكون الألسن قد تناقلتها حتى بلغت بعض مدوني الكتب من اليهود سيما من قاموا بتدوين التلمود وجرى تثبيتها هناك. فإذا افترق النص القرآني عن النص التلمودي فلأن القرآن هو كتاب سماوي ينقل وحيا إلهيا يمثل حقائق الأمور بينما التلمود وغيره كتب بشرية تجمع شتات الكلام المتناثر دون القدرة على التمييز بين الغث والسمين منه.

ومع أن النص القرآني ليس كسائر النصوص فإنني أعتقد بأن الإصرار على فهم ذلك النص بأدوات منطقية ولغوية وسياقية وروحية معينة تؤدي دون شك الى انكشاف خفاياه لأن الله تعالى وعد بان يكون

القرآن الكريم كتاباً فيه تبيان كل شيء. وعلى هذا الأساس أطلقت العنان لمخيلتي العلمية المنطقية كثيرا لتحسس الحوادث التاريخية فيها وكأني أعيش مع أبطالها في مختلف حالاتهم وأفكارهم سعيا لقراءة فكرهم وأهدافهم وهم يصنعون ملاحم الحكاية الكبرى، معتمدا دوما على وحدة المنطق وطبائع الأمور كما نعرفها كبشر والابتعاد عما يولد نوعا من التناقض في وحدة النص القرآني الذي لا يقبل وجود الاختلافات فيه.

سعيت أن أتجرد عن كل شيء لأفهم الفرد القبطي في سدة الحكم وفي السجن حينما يكون رفيقا ليوسف ولأتعرف على أبناء يعقوب في مؤامراتهم وفي أهدافهم وطموحاتهم. ولم أزهد في أن ألبس جلابيب الأنبياء فدخلت مع يوسف في غيابت الجب لألمس مشاعر هذا البطل العظيم الذي قدر الله تعالى له أن يصنع الأسرة المرموقة في الأرض كما بعثت بقلبي ليأتيني بخبر عن قلب يعقوب وهو يصبر على ظلم أهل بيته وأولاده.

يعقوب ويوسف هما بانيا تلك الأسرة التي حافظت على تكوينها أكثر من أربعة آلاف سنة فهي أشهر شجرة عائلية في هذا الكوكب وأطولها عمرا دون منازع.

من هذا المنطلق أتيت بتفسير للكثير من غوامض القصة الحقيقية التي شاء لها منزلها أن تتخذ شكل الرواية الخيالية. وأترك الحكم للقراء الكرام ليحكموا لي بالنجاح أو بالإخفاق كما يمليه عليهم إنصافهم وما تمليه عليهم أذواقهم.

وأما عن كاتب السطور فأنا قبل كل شيء شخص بسيط لا أحمل شهادة علمية ولم أنتسب إلى مركز علمي وديني أبدا. تحقيقاتي العلمية تنحصر في الكتاب العزيز وفي بعض التشكيلات السياسية المعارضة الهادفة. فكنت أستفيد من كل شيء وأسعى لأن أدرك المغزى من وراء كل ما يمر أمامي من قضايا كبيرة وصغيرة، فكان الفكر زميلي في كل حركة حتى في الملذات واللعب.

كنت دوما اسعى الى تطوير فهمي عن الحياة في مختلف فصولها .

كنت أزور البلدان وقبل أن أنعم بما أراه من جديد هناك فإني كنت أنظر إلى الفروق الطبقية بين ساكنيها فأرسم في خيالي معادلات رياضية لتقييم حالات الناس في كل بلد على أساس ما أعرفه عن حقائق الاوضاع التي يعيشونها .

لكنني والحمد لله تعالى لم أربط أفق فكري بأي رباط بل كنت أسرح في عالم الفكر والملكوت حتى لو لم أبح لأعز أصدقائي وأهلي بذلك. حتى عرفت بأن الله ليس فوق هرم الوجود كما يتوهم الكثيرون؛ بل إن الوجود الممكن بأسره لا يعدو أن يكون أمورا وهمية أمام سيد الكائنات وهي برمتها متكئة على إرادة الجبار العظيم لتستمر في الوجود وإلا أصبحت أثرا بعد عين لو أخذته تعالى سنة او غفلة والعياذ بالله.

أدركت بأن هناك بلايين المجرات وفي كل مجرة بلايين الأنظمة الشمسية وهي كلها ملاجئ ومستخلفات للبشر من امثالنا . فلله تعالى بلايين البلايين من أمثال محمدنا ونوحنا وإبراهيمنا وموسانا وعيسانا عليهم الصلاة والسلام جميعا .

وأخيرا جزمت بأن ما نقله لنا أسلافنا من شعر للبيد بن ربيعة العامري قاله في رثاء النعمان بن المنذر قبل ظهور الإسلام كان اصدق في وصف زوال ملذات الدنيا وضرورة اللجوء الى الله تعالى وحده. قال لبيد فيما قال :

أرى الناسَ لا يَدرُونَ ما قَدرُ أمرِهِمْ بلى : كلُّ ذي لُبٍّ إلى اللّهِ وَاسِلُ

ألا كُلُّ شيءٍ ما خَـــلا اللّهُ باطِلُ وكـلُّ نعيمٍ لا مَحـــالةَ زائِلُ

وكلُّ أُناسٍ سوْفَ تَدخُـــلُ بَينَهُمْ دُوَيْهيةٌ تصفَرُّ مِنها الأَنَامِـــلُ

وكلُّ امرىءٍ يَوْماً سيعلمُ سـعيهُ إذا كُشِّـفَتْ عندَ الإلَهِ المَحاصِلُ

ولذلك طلقت كل شيء واكتفيت بالقرآن فأصبحت أشعر بالعلم الحقيقي يزيدني إنسانية ويمنحني هدى ونورا مع كل لحظة تأمل أو تفكر.

وبما أننا جميعا في مسيرة التطور التي يتولاها الله سبحانه بنفسه فإن كتابي هذا كما قدمته سابقا سيكون عرضا لأخطائي أكثر من أن يكون مرجعا للحقائق. ولذلك ففي حين أنني أفرح كثيرا بمن يشجعني فإنني لا أعادي من ينتقدني ويسعى لتصحيح أفكاري. لكنني أرجو من الجميع ألا يظلموا أنفسهم ويظلموني في توجيه الانتقاد السلبي قبل أن يقفوا فعلا على أخطائي.

لست من الذين يقلدون بل من الذين يفكرون ويستعملون عقولهم كثيرا ويسعون إلى فهم التفاصيل المتعلقة بكل أمر فليس من السهل اتهامي بالغفلة وأنا بهذا الحرص الشديد على أن لا اغفل أي شيء ولكنه ليس أمرا ممتنعا. إنني أعترف بالضعف وبالجهل لكن علينا جميعا أن نسعى للتعلم ونستعين بالله أن يسدد خطانا ويغفر لنا جهلنا وغفلتنا.

إنني أحب أن أعتذر من الذين قد يشعرون بأني أمسهم ببعض مفاهيم كتابي هذا من الإخوة الفلسطينيين والعرب ومن اليهود وبني إسرائيل، لأنني سعيت لفهم القرآن كما هو دون أن أحمل هدفا أسعى لتطبيق القرآن عليه. ولعلي ظلمت بعضهم وهذا إن كان فإنه من جهلي وليس من عنادي.

إنني أعتذر من كل من يرى في كتابي هذا ما يخالف أفكاره وعقائده التي عاش عليها وأرجو منه أن يعذرني لأنني سعيت أن أكون صادقا مع نفسي ومع الناس جميعا. ولذلك تركت مواريثي وذهبت وراء ما أفهمه من كتاب رب الناس جميعا فهو العليم الخبير بنا وهو وحده يعلم حقائق الوجود وحقائق نفوسنا

البشرية. هذا ما توصلت إليه وقد كتبته بلسان عربي بسيط دون تعقيد ودون أن أضمر شيئا أبخل على القارئ به. وأرجو أن أكون صادقا.

كتبت هذه القصة القرآنية بشكل قصصي وبنفس الطريقة القرآنية فأدمجت كل الموضوعات ضمن التفسير بداية. لكن البعض نصحني بأن أفصل المواضيع الجانبية عن الأصل فجرى الأمر كما نصحوا، فألبس كتابي حلة بديعة منحته الجمال ومنحت قارئه المزيد من الراحة حتى لا يختلط عليه ما يناسب الهامش مما يليق بالمتن. ولا يسعني هنا إلى توجيه الشكر إلى جميع من سددني بنصح أو باقتراح وساهم بذلك في ترشيد وتطوير الكتاب بأي شكل كان.

إن كل المواضيع والتي قد يعتقد البعض بأنها هامشية هي أمور مهمة جدا لمن يريد التعرف على مغزى القصة وخاصة المسائل العلمية العميقة التي تضمنتها السورة الكبرى، فأرجو من القارئ الكريم ألا يترك الكتاب دون أن يقرأ كل الهوامش حين قراءته للمتن، وأن يحاول الغوص معي في أعماق الأحداث لرسم الصورة الأوضح عنها.

إنني أرحب بمن يعلمني ويهديني ولكنني لا أتبارى مع احد وسوف أبذل قصارى جهدي للرد على ما سيردني من تعليقات أو أسئلة رغم أني أرى بأنني أفتقر إلى الوقت الكافي لمطالعة كل ما يردني. عليه فإني أطلب من الإخوة الأكارم أن يعتبروا ما قدمته في هذا الكتاب رأيا شخصيا والخيار متاح أمام الجميع أن يقبل أو يرفض منه ما شاء . فأنا أرغب في إكمال مسيرة التفسير قبل أن يفاجأني الموت، لذلك أدعو الله تعالى أن يوفقني لتقديم ما يمكن به جعل ما أطرحه من أفكاري في هذا الكتاب أمورا حسنة لمن يسمعها يمكن القبول بها إنه سميع الدعاء.

وأما حقوق الطبع.

فقد قمت برعاية الأصول القانونية المرعية في لندن لحماية المطبوعات. ولكني فعلت ذلك لحماية الكتاب وليس بهدف الانتفاع المادي منه. ولذلك فإني بعد حفظ حقوق الطبع لنفسي، أجعل النصّ متاحا ودون مقابل لكل من يريد أن يطبع الكتاب، أو يطبع مقاطع منه أو يقوم بترجمته إلى أية لغة من لغات العالم ويوزعه وينتفع شريطة ذكر المصدر والمؤلف وعدم القيام بأي تغيير في النصوص سواء المتن أو الهوامش ودون الحاجة لأي إذن مسبق مني وفي المقابل فإني أرفض إتاحة الفرصة أمام كل من يريد أن يحتفظ بحقوق الطبع لنفسه وبقدر ما تتيحه لي القوانين والأصول المرعية في مجال النشر والتوزيع. كل ذلك لأن هذا الكتاب جزء من العلم والعلم كله مملوك لله تعالى وليس لأحد أن يدعي المالكية لما سهل الله تعالى نشره من المعارف ولا سيما ما يخص القرآن المنزل من عنده لعبيده في هذا الكوكب. نحن لا نملك أنفسنا فكيف نملك العلم الذي علَّمَناه ربنا المتعالي؟

لكنني أطلب من المترجمين أن يسعفوني بنسخة من الترجمة قبل القيام بالنشر ما دمت حيا لأطمئن من صحة الترجمة بما يتاح لي من إمكانات طبعا. معلنا بأني لا أرى لنفسي أي حق قانوني لمنعهم من الاحتفاظ بحقوق الطبع للنسخ المترجمة. والمترجم يقوم بعمل مهني يستحق معه أن ينتفع من عمله كما أن من حق الذي يطبع النسخة العربية الأصلية أن ينتفع مما طبعه أيضا لكن ليس من حقه أن يحتفظ لنفسه بحقوق الطبع إلا عند الترجمة إلى لغة غير العربية. والحمد لله تعالى على ما أنعم نسأله القبول والغفران والرضوان إنه سميع مجيب.

بقي لي ان اوجه الشكر الخاص الى الاخ العزيز الأستاذ قصي الموسوي على ما بذله من جهد في مراجعة الكتاب واللغة التي كُتب بها والافكار التي وردت فيه وترتيبه العام من توزيع بين المتن والهامش ومناقشتي في العديد من الامور التي اوردتها فيه، دافعا اياي الى إغناء العبارة وتوضيحها بما يحقق عرض الفكرة التي اروم بشكل دقيق، ما ساهم في اخراج الكتاب بحلته الحالية.

بيان سورة يوسف

حكاية ميلاد بني إسرائيل

مختصر تفسير سورة يوسف بإذن الله تعالى

مقدمة تعريفية:

سورة يوسف الكريمة هي الوحيدة في القرآن التي تسرد لنا قصة يوسف بشكل روائي ولكنها حقيقة وليست خيالا.

لقد وضح الله تعالى هذا الموضوع في آخر السورة كما سنرى. هي قصة روائية والروايات تعبر عن خيال الكاتب في الواقع ولكننا هنا لا نرى أثرا واضحا من آثار الخيال لأن الله تعالى لا يتخيل شيئا. إنه يذكر الحقيقة أو يتمثل بحقيقة ممكنة.

فالميزة الروائية لهذه السورة هي أننا نحن نحتاج فقط إلى أن نتخيل كل المواقف لنتمكن من فهم أعماق الآيات الكريمة. فهي رواية باعتبار حاجة القارئ إلى التخيل وليس باعتبار حاجة المنزل العظيم إلى التخيل. والعلم عند الله تعالى.

هدف السورة:

أظن بأن الهدف الأساسي للسورة هو بيان قصة تأسيس أكبر وأهم أسرة نبوية في الأرض. لقد قدر الله تعالى لهذه الأسرة أن تحمل أول رسالة عامة لكل البشر. كان يعقوب وهو المعروف بإسرائيل أبا طبيعيا لهذه الأسرة الكريمة. لكن أبناءه لم يكونوا في مستوى إيماني رفيع يخولهم بأن يبنوا أسراً تؤمن بالله وتتقي ربها وتسعى لأن تقوم بما يرضي الرب العظيم عز اسمه. ولذلك اختبر الله تعالى نفوسهم بمسألة عائلية صعبة ثم وفقهم للتوبة كما سنعرف.

ولعل الله سبحانه يريد أن يوضح لنا بهذه القصة أن الاصطفاءات الدنيوية لا تترتب عليها أية آثار أخروية ولا يمكن لأحد أن يعرف تأويلها ومعانيها قبل يوم القيامة.

فقد أكد الله تعالى بأن العبرة هناك في التقوى والعمل الصالح النابع من الخوف من الله تعالى. كما أكد سبحانه بأن العمل ليس مقياسا للدرجات ولكنه مقياس لاكتشاف حقيقة النفس. فالنفس الطيبة تعمل الطيبات والنفس الخبيثة تعمل الخبائث.

يستحيل عقليا أن تكون العبرة بالعمل ذاته باعتبار أنك يمكن أن تتصنع العمل الطيب أو تقوم بإنجاز عمل تحصل من ورائه فائدة شخصية أخرى. نعرف من القرآن أن الملائكة ينظرون ويكتبون توجهات النفس الإنسانية ولا يهتمون بالعمل ذاته.

ولقد أنزل الله تعالى بعد سورة يوسف سورة الرعد الخطيرة لئلا يتوهم الناس بأن هناك أهمية كونية أو أخروية للأسر والعوائل والأقوام . فالكل أذلاء أمام وجهه الكريم جل جلاله. والعلم عند الله تعالى.

تفسير مبسط لمقدمة السورة الكريمة:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿1﴾

ألالف: إشارة إلى الله تعالى والاسم العظيم مشتق من أله يأله بمعنى خضع يخضع. فالله هو وحده الذي تخضع له كل الكائنات طوعا أو كرها .

اللام: إشارة إلى اللقاء مع الله تعالى.

الراء: إشارة إلى الرسل من البشر. ونلاحظ بأن الله تعالى لم يعتبر الأحرف الثلاثة آية كاملة كما فعل في سور سابقة (ألم/ حم) .

وأظن – والعلم عنده – بأنه سبحانه يشير إلى عدم جواز التمسك بالرسل من البشر. فالميم في (ألم /المر / حم) تشير الى التمسك بما قبلها . وذلك لعدم إمكانية التمسك بالرسل من البشر بسبب غيابهم وموتهم أولاً، ولأنهم بشر مثلنا ثانياً. لكننا نتمسك برسالاتهم باعتبارها واقعة تحت عناية مباشرة من الله تعالى. وهذا الامر يمثل جوهر الرسالات السماوية. والأنبياء مكلفون مثلنا .

هذه المفاهيم الثلاثة هي عناصر القرآن الواضح المبين. فالقرآن يعني الكتاب الذي أرسله الله تعالى ليكون الرسول الذي يتلقاه أول من يعمل به فتكتمل الصورة التشريعية في أذهان البشر ناهيك عن الجن فيما يرتبط بهم، أو فيما يشاركوننا فيه.

ولذلك فليس هناك حاجة حقيقية إلى بقاء الرسول مع القرآن. وربما تنحصر مهمة الرسول في إثبات أن التشريع المنزل قابل للتنفيذ في الدنيا وليكون الرسول حجة علينا .

فالرسول ليس عنصرا ضروريا وجوده طيلة سريان أوامر الكتاب السماوي ولكنه يشكل ضرورة وقتية تنتهي باليوم الذي يقدر الله تعالى فيه وفاته وبه تنتهي مهمته بالكامل ويبدأ عصر جديد يستند إلى القرآن وحده ويهتدي بالصحابة الذين عاشوا في العصر النبوي الشريف.

وهناك مسألة أخرى يجدر الانتباه إليها وهي أن كل السور التي تتضمن فواتحها الحرفية حرف الراء الذي يشير إلى الرسول فإن الله سبحانه بعدها يذكر القرآن الكريم و بأنه هو الذي أنزله. كما لا تخلو مقدمات هذه السور من ذكر الناس.

أغلب الظن عندي هو أنه سبحانه يريد التأكيد على أن القرآن أو الكتب السماوية – وليس الرسل– تمثل الحجة له على خلقه.

إن لسان حال القدوس كما يتراءى لي – والعلم عنده وحده – هو أن الرسل لا يمكن أن يكونوا حججا باعتبار موتهم و بشريتهم وتعرضهم للاختبار ولوساوس الشيطان الذي أتاح الله تعالى له إمكانية الإلقاء في نفوس البشر والاستفادة من أثر ذلك لغرض الاختبار[1].

○ [1] وحتى تتضح المسألة فإننا نورد ما يلي:

- لقد تطور البشر وتكاملوا عقليا منذ توافق المتغيرات الطقسية المختلفة لتصبح جميعا في المتوسط المعتدل قبل حوالي خمسة عشر قرنا فكانت الأمة التي استلمت آخر رسالة سماوية أمة وسطا. كانوا قادرين على تحليل المسائل المختلفة وإدراكها وتمييز الصحيح من السقيم منها فزالت الحاجة إلى بعث المزيد من الرسل الكرام ولذلك ختم الله تعالى النبوة بنبيهم.
- كان البشر قبل بدء التطور العقلي يستقبلون بعض الأنبياء دون كتب ليأخذ الله تعالى منهم نماذج ليوم القيامة وليس لبسط الهداية الكاملة. ثم بدأ عصر الرسالة المشفوعة بالكتاب في أعظم حضارة على وجه الأرض أيام موسى وإلى قوم فرعون وبني إسرائيل معا. لكن التطور المطلوب بقي في حالة النمو فترة لا تقل عن 14 قرنا توالت فيها أنبياء بني إسرائيل لبيان التوراة مطابقا لمختلف الحالات التطورية للبشر خلال القرون المذكورة.
- جاء بعدها الإنجيل لختم الرسالة السماوية بصورة اختبارية مؤقتة. وحينما بلغ الإنسان رشده فإنه سبحانه أنزل القرآن الكريم على خير أمة أخرجت للناس وهي الأمة المكية آنذاك. كان المكيون يومها متطورين وحضاريين فاتحين قلوبهم للغير، يقرون الغرباء ويطعمون الفقراء ويسدون حاجات شعبهم ويهتمون باللغة والشعر حتى يتواصلوا مع الأمم المختلفة.

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿2﴾

حينما يرسل الله تعالى إلى قوم رسالة معينة فإنه ينزل ما يتناسب معهم لغة وعلما . إنه ينزل كتابا كاملا لا نقص فيه ولا يحتاج إلى من يضيف إليه شيئا ولذلك سماه القرآن أي المجموعة المفيدة وبما أن المنزل هو الله تعالى فهو كامل أيضا .

- ولمراعاة العدالة صار إيقاف النبوة ضروريا في منطق السماء، كما أضحى الكتاب المفصل المبين ضروريا ليحل محل النبيين. فلزم أن يغني الكتاب الجديد كل من يتوخى الحقيقة عن الدليل والمرشد والإمام وغير ذلك من مقومات الإيضاح. ذلك لانقطاع الوحي وعدم إمكانية تصحيح المعلومات عن طريقه وضرورة وجود مستمسك سماوي للذين يطلبون الهدى من ربهم. وهكذا أضحى الإنجيل والتوراة غير كافيين للناس. وتفرض الرحمة التي كتبها الله تعالى على نفسه أن يمد المدركين بكتاب كامل يكتفون به لمعرفة ما هو ضروري لهم من مسائل الغيب. فجاء القرآن كتابا كاملا أثبت جدارته إلى اليوم ليكون رسولا قويا من الله تعالى يحل محل الرسل البشريين وبقوة أكبر وملائمة أكثر لظروفهم وأحوالهم المستمرة في التطور.

- وقد بين الله تعالى في القرآن بأن القرآن كامل لا نقص فيه في موارد عديدة. قال تعالى في سورة الأنعام: وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38). وقال سبحانه في بداية الأعراف: كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (3). فالآية الأولى تدل على أن الكتاب كامل لم يفرط في شيء. والشيء هنا يعني ما يريد الله تعالى أن يقوله لعبيده سواء فيه التشريعات أو التذكير بالعهود أو بيان الحقائق الضرورية للناس. وأما الآية الثانية فهي تدل على عدم جواز اتباع أي مصدر غير القرآن. بالطبع فيما يرتبط بالعلاقة بين الله تعالى وعبيده فليس القرآن كتاب طب أو هندسة أو صناعة. نحن كبشر نكتشف بمعونة ربنا حقائق الأشياء ونتعامل معه كما نضع لأنفسنا تشريعات ملزمة لنا بما ألزمنا به أنفسنا . ولو يفكر القارئ اللكريم في سورة الزمر فسيرى المزيد من التأكيد على الاكتفاء بأحسن الحديث وبيان أن القرآن هو أحسن الحديث.

إذن لا يمكن أن يكون الرسل حججا لله تعالى ولا يمكن أن تخلو الكرة الأرضية حين تكامل التطور العقلي للبشر من حجة يمكن التمسك بها توخيا للحقيقة. فتلك الحجة هي القرآن وحده دون غيره كما وضحت بحمد الله تعالى.

نحن جميعا إخوان للأنبياء وعبيد لربنا وربهم، ولو ميز الله تعالى عبدا على عبد في الاختبار فإن مقومات الحساب تضعف في يوم القيامة وسيكون من غير الممكن أن يجمع الله تعالى الرسل والناس والجن جميعا في موقف واحد أمامه ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون كما وعد سبحانه وتعالى بذلك. نهاية الهامش 1 .

إن قرأ وجمع مترادفان حسب الظاهر ولكنك لا ترى عربيا يطلق الجمع على تجميع الأحرف والكلمات تجميعا يعطي المعنى، لكنهم يطلقون القراءة على هذا النوع من التجميع. فقرأ إذن يعني جمع تجميعا مفيدا. قال تعالى في سورة القيامة:

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19).

فالله تعالى هو نفسه الذي يجمع القرآن تجميعا مفيدا ويسمي هذا التجميع قراءة واجبة الاتباع. ثم إنه تعالى هو نفسه الذي يبين القرآن للناس. ولا يمكن أن نتصور بأن الله تعالى ينزل قرآنا بلغتنا لنعقله ونفهمه ثم يجعلنا نحتاج إلى من يؤوله ويفسره لنا !.

والعربي هنا في مقابل الأعجمي. يطلق العرب كلمة العربي على الواضح المفهوم وكلمة الأعجمي على المبهم غير المفهوم. ولذلك استنتج سبحانه بأن السبب في هذا التبيين والتوضيح هو أن يساعد الناس على التعقل ومعناه عمق الإدراك.

فالمرء يفكر في معرفة الكلام ثم يسعى لعرضه على النفس ليرى استجابة النفس للكلام. وحينما تتقبل النفس المدركة الكلام وتطبعه يُقال بأن فلانا عقل الموضوع. والعقال كما نعرف هو ربط الشيء برباط محكم والإدراك العميق يعني ربط النفس بموضوع جديد مضاف إليها إضافة مقبولة لينضم إلى المخزون المصون في وعاء النفس.

وقد قال سبحانه لنبيه في سورة الأعلى:

سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى (6).

أي سوف نثبت الأمر في نفسك فنعقل نفسك برباط علمي جديد كلما أضفنا إليها موضوعا حادثا. تلك إشارة إلى تثبيت القرآن في فؤاد الرسول والفؤاد هو الرابط بين مركز الإدراك في النفس أو ما يسمى بالقلب وبين مركز المعلومات المحيط بالنفس ويسمى الصدر. قال تعالى في سورة الفرقان:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (32).

وحتى نعلم ونستيقن بأن الرسول غير قادر على أن يقص علينا أحسن القصص فإنه تعالى ينتقل من الخطاب لنا جميعا إلى الخطاب له عليه السلام ليشعره ويشعرنا بأنه (عليه السلام) وإيانا في غيبة عن هذا القَصَص.

إن الله تعالى وحده هو الحاضر مع أبطال القصة وأركانها وهو المقدر لكل شيء فهو وحده الذي يفصّل الحق والرسول يتعلم منه ومن القرآن . ولبيان ذلك يقول سبحانه:

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿3﴾

فكان عليه السلام من الغافلين عن هذه القصة قبل أن يوحي بها الله تعالى إليه لتكون جزءا من القرآن. والآية تدل دلالة واضحة على خلو جيب الرسول من غير هذا الكتاب، وهي توضح بأننا نعيش اليوم بدون نبي لعدم الحاجة المستمرة إلى نبي شاخص، والقرآنُ كاف لنا جميعا .

لو كان رسول الله محتاجا لقصص القرآن فهو أكثر حاجة لحكم القرآن ولتشريعاته. ولذلك سوف نهمل خلال شرح هذه القصة الجميلة كل الأحاديث والروايات والإسرائيليات والإنجيليات المنقولة من أهل الكتاب وكل ما تحدث به المؤرخون. لأنهم جميعا دون مستوى نبينا يوم نزول القرآن.

وهكذا نعلم بأن القاعدة العامة هي أن كل قصص الماضين التي نقلها لنا المؤرخون من غير القرآن تعتبر غير صادقة حتى يثبت العكس. وأنى لنا أن نثبت ذلك؟

والآن لنبدأ القصة بأسلوب روائي مستندين الى ما يسعفنا به الخيال من افتراضات تستند الى المنطق العام وما توحيه العبارة القرآنية لفهم الآيات.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿4﴾

يبدو أن إبراهيم عليه السلام قد بعثه الله تعالى إلى قومِ مَلِكٍ في منطقة ما مما يدعى اليوم العراق. ويحتمل بأن اسم ذلك الملك كان نمرود .

سعى إبراهيم أن يدعو قومه قبل أن تأتيه الرسالة وبعد أن جاءته إلى عبادة الله تعالى ولكنه فشل في إكمال رسالته بسبب تعنت أهله وعدم استجابة العدد المعقول من الناس لدعوته والإيمان بها لتكوين النواة الأساسية للدعوة.

كان قومه يؤمنون بالله ويعتقدون كمن سبقهم من أقوام نوح وهود وصالح بعدم إمكانية الطلب من الله تعالى مباشرة وبضرورة توسيط كائنات أخرى من خلقه بينهم وبينه تعالى. وهذا ما يعتبره الله سبحانه شركا وبما أنهم يؤمنون به فإن رحمته اقتضت تنبيههم عن طريق الأنبياء بأن يدعوه وحده ويعبدوه وحده ويخضعوا له وحده.

آزر هو أبو إبراهيم وقد استاء من دعوات ابنه فطرده من عنده وكذلك فعل الملك وحاشيته رغم أنهم قد رأوا منه (عليه السلام) الآيات البينات على صحة دعوته.

لم يؤمن بإبراهيم عدا لوط فخرجا من العراق باتجاه الأرض المقدسة وسكنا فيها. هناك منّ الله تعالى على إبراهيم بولدين هما إسحاق وإسماعيل. ووعد الله تعالى إبراهيم أن يرى هو وزوجته حفيدهما يعقوب.

يعقوب هو المعروف بإسرائيل وقد أكرمه الله تعالى بمجموعة من الأبناء وعددهم اثنا عشر. كان اثنان منهم ولدين لزوجته الأخيرة والتي تزوجها يعقوب بعد وفاة زوجته الأولى احتمالا. مما لا شك فيه أنها لم تكن موجودة حينما انتقلت الأسرة إلى مصر للالتحاق بغائبهم يوسف. ذلك لأن يوسف قد دعا أهله جميعا ولم تكن مع يعقوب أكثر من زوجة واحدة.

وفي ليلة من الليالي رأى يوسف مناما غريبا. رأى بأن أباه وأمه وأخاه من أمه وإخوانه العشرة الآخرين من غير أمه قد سجدوا له جميعا. ولعل في هذا بدايةً دليلٌ على أن أم يوسف كانت الزوجة الحية الوحيدة ليعقوب ليلة حصول الرؤيا أيضا.

تعجب يوسف وفكر بأن يخبر أباه قبل كل شيء بالمنام الغريب. كان يوسف خجلا من أن يقول لأبيه الحقيقة بصراحة فهو يكن له احتراما كبيرا فكيف يصارحه بأنه رآه يسجد له وهو ابنه الصغير ؟.

ولذلك استعمل مثالا جيدا ليقول لأبيه بأن هذا المنام المريب لم يغير أبدا من احترامه لأبويه وإخوانه في قلبه وبأنه لا يشعر بأي كبرياء أو زهو بل هو يوسف الولد القديم الذي يحترم ويحب كل أسرته وعلى رأسهم النبي المكرم يعقوب.

فمثل أبويه بالشمس والقمر ومثل إخوانه بالكواكب ليُشعر أباه بما يحمل في قلبه من احترام وحب لهم جميعا .

كان يوسف يعرف بأن التمثيل بالكواكب ليس دقيقا، فهي ليست بشرا قادرا على الانحناء نحو الأرض واتخاذ هيئة السجود . لكنه أراد أن يحتفظ باحترام أسرته في قلبه فتمثل بالمضيئات ليشير إلى أنهم في عينيه أنوار مضيئة تعطيه ولا تحتاج إليه لتستجديه ولذلك فهو في حيرة من تفسير هذا المنام.

ثم إنه كان على ثقة بعقل أبيه النافذ وبأنه سوف يطبق العدد عليهم وسوف يعرف بأن الشمس والقمر تشيران إلى أبويه. من الواضح أن يوسف لم يكن ليعرف حجم الكوكبين وبأن القمر لا شيء أمام الشمس بل هو جزء بسيط من الشمس نفسها ، وإلا لكان يأتي بتشبيه آخر كما أظن والعلم عند الله تعالى.

تفطن يعقوب بأن هناك مستقبلا مشرقا بانتظار ابنه يوسف وبأن ذلك سوف يثير بقية إخوانه ضده. وأغلب الظن أنه كان يقصد إخوانه الذين هم أكبر منه سنا لا سيما بأنهم ليسوا من أم واحدة. أما أخوه الصغير الشقيق فهو ليس داخلا ضمن الإخوة الذين سيكون لهم الدور التالي من القصة الطويلة.

عاش يعقوب لحظات جميلة وهو يفكر في مستقبل الابن الذي يحبه كثيرا. شعر بأن ما كان منه من الحب في مكانه فهذا الولد هو الذي سيخلفه في النبوة. إنه يعرف بأن النبي الصغير لا يمكن أن يسود إخوانه إلا بعد أن يتخطى عقبات في الحياة العملية تساهم في تطوير شخصيته وإنضاجها، كما شعر بأن يوسف سوف يبتعد عن إخوانه فترة ليكتسب القدرة السياسية أو المالية الدنيوية حتي يهابه إخوانه فيخضعوا لمقامه العظيم المرتقب.

انتبه يعقوب إلى أن رسالة هذا الولد سوف تكون أكبر من رسالته هو والمحصورة في الأسرة وبأنه سوف يُنذر أمة أخرى.

إنه كنبي يعرف بعدم إمكانية أن ينتقل نبي إلى قوم غير قومه إلا إذا كان صغيرا ليعيش بينهم فيصير واحدا منهم. يعقوب فكر في كل ذلك من منطلقه العلمي باعتباره نبيا علمه الله تعالى الكثير من المفاهيم العلمية عن طريق الوحي.

بالطبع أن يعقوب كغيره من الأنبياء كان يسعى بنفسه لكسب العلم ولكن إيمانه العميق الذي أوصله إلى درجة النبوة كان يساعده على درك الحقائق العلمية شيئًا فشيئًا .

وبعد أن عاش يعقوب لحظات مع تأملاته في ذلك المنام وتطبيق معلوماته العلمية على ما فهمه من الرؤيا الغريبة بدأ بتقديم النصيحة لابنه.

قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿5﴾

اختار يعقوب كلمة جميلة حينما أراد أن يمنع ابنه من نشر رؤياه. استعمل كلمة القصة ما يدل على أنه آمن بصحة الرؤيا التي رآها ابنه و اعتبرها حقيقة سوف تظهر وتتجلى.

وحينما ننتبه لتفسيره للرؤيا نعرف بأنه عليه السلام تحدث مطمئنا بنبوة ابنه يوسف في المستقبل وبصحة كلّ ما احتملنا مروره في مخيلته كإنسان مفكر عظيم.

وكلمة القصة مصطلح قرآني يدل على سرد حقيقي لمواقف متعددة وقعت أو ستقع لاحقا. وغالب القصص القرآني منسوب إلى الله تعالى وقلما نجد الله تعالى ينسب القصة إلى أنبيائه كموسى و يوسف في هذه الآية الكريمة.

فقول يعقوب لابنه لا تقصص يعني لا تكشف هذه الحقيقة لإخوانك. فإخوانه الذين طالما امتعضوا من قرب يوسف من قلب يعقوب، لن يتحملوا أن يروه نبيا يسودهم كما يسودهم أبوهم اليوم.

قال يعقوب ذلك لينجي أولاده العشرة من ورطة الكيد لأخيهم فلا يمكن أن يغفر الله تعالى لهم ذنب القتل لو وقع منهم.

إنه سبحانه يعتبر قتل إنسان واحد قتلا لجميع الناس كما كتبه تشريعا على أمة موسى. لكن هؤلاء هم أسرة أنبياء وكان آباؤهم مشرعين لهم وكانوا جميعا مسلمين تشريعا.

يعرف يعقوب بأن جريمة القتل العمد تجلب غضب الله تعالى وإذا جاء الغضب ذهبت الرحمة وذهب معها الهدى. كما أن يوسف المرشح للنبوة كان يعرف ذلك قطعا ولذلك لم يوضح له يعقوب بأن سعيَ إخوانه لقتله سوف يجلب غضب ربهم.

إنهما كانا على يقين من عدم إمكانية قتل يوسف بعد هذا المنام الذي يدل دلالة واضحة كما سنعرف على ما ينتظر يوسف من النبوة. لكنهما لا يريدان تورط الإخوة في جريمة قاطعة يكفي التهيؤ لها لجلب الغضب المميت للقلب موتا أبديا لا رجعة فيه.

بالطبع أن القرآن لم يقل بأن يعقوب كان يقصد القتل حينما استعمل الكيد ولكني أحتمل ذلك باعتبار أن الإخوة قصدوا القتل فعلا لولا أخوهم الأكبر، ثم إن يعقوب بين لهم تخوفه من أن يأكله الذئب وهو يعني بأنه كان يحتمل قيام أولاده بقتل أخيهم أو تعريضه للموت، والعلم عند الله تعالى.

نبه يعقوب ابنه يوسف بأن الشيطان عدو واضح للإنسان ومعروف لدى أهل العلم. فعليه كناصح أمين أن يتحاشى فتح المجال للشيطان فيمتنع عن نقل الرؤيا للإخوة. ومن المؤكد أن يوسف لم ينقل الرؤيا لهم أبدا قبل اليوم الموعود في قصر الملك الفرعوني فيما بعد، وما يقوله اليهود غير صحيح قطعا.

خشي يعقوب وكانت خشيته في محلها أن يقوم هؤلاء الإخوة بالكيد ليوسف لذلك التزما هو وابنه بعدم ذكر القصة. لكنهما كانا على علم الآن بأن يوسف مرشح للابتعاد عن الأسرة لفترة غير قصيرة. كانا يشعران بأن الله تعالى سوف يهيئ الظروف لإبعاد يوسف الشاب الذي يريد ربه أن يؤهله للنبوة ومنه للرسالة إلى إخوانه بعد أبيه. ولعلهما فكرا في أن هذا الابتعاد لا يمكن ألا ينطوي على رسالة للقوم الذين سوف يعيش يوسف بينهم.

فكيف يمكن ليوسف أن يكتسب القدرة الاجتماعية دون قوم وكيف يمكن له أن يرى أخطاء الناس ولا ينصحهم، وكيف يمكن أن يتواجد نبي بين قوم يحتاجون إليه وإلى علمه دون أن يبعثه ربه رسولا إليهم؟ ثم انتقل يعقوب إلى المقطع الأساسي من مقابلته مع ابنه الصغير وهو تفسير الرؤيا[2].

---

[2] للرؤيا تاريخ طويل في هذه الأسرة الكريمة. فقبل يعقوب كانت هناك رؤيا معروفة لجده إبراهيم التي فسرها بشكل خاطئ فظن وابنه إسماعيل بأن الرؤيا تنطوي على أمر إلهي بأن يقوم الأب بقتل ابنه.

بالطبع لا يمكن أن يأمر الله تعالى أحدا بقتل ابنه وبدون ذنب. كما أنه ليس معقولا أن يرسل الله تعالى أمرا لأحد في المنام. إن الكثيرين يؤمنون بعدم حجية المنام ولكنهم يقولون بأن منام الأنبياء حجة عليهم. بالطبع لم يقدم رجال الدين دليلا واضحا على هذا الادعاء لأناقشه.

لعلهم يظنون بأن الشياطين لا توسوس في صدور الأنبياء وهو غير صحيح. قال تعالى في سورة الحج:

كان يعقوب يعرف بأن عمه إسماعيل قد تولى إمامة الكعبة بعد جده إبراهيم وبأنه بدأ ببناء أسرة كبيرة سوف تتمتع باحتضان خاتم النبيين فيما بعد . وأحتمل بأن كل الأسرة كانت على علم بذلك.

فكان يعقوب ينتظر نبيا من بين أبنائه ليخلفه. وقد جاء هذا اليوم فعين الله تعالى ذلك النبي المرتقب في هذه الأسرة دون أسرة إسماعيل العم.

وجدير بالذكر بأن الارتباط بين الأسرتين الصغيرتين المنحدرتين من أب واحد وهما أسرة إسماعيل وأسرة إسحاق، لم ينقطع. ولذلك تعلم يعقوب من منام جده إبراهيم بأن الله تعالى لا يأمر وينهى في المنام.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52).

وقال سبحانه في سورة فصلت:

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36).

وقال عز من قائل في سورة الأنعام:

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68).

فالرسل كبقية الناس يميزون بين الوحي الباطل الشيطاني والوحي الصحيح من الملائكة بالسلب والإيجاب. فالله يأمر دائما بالإيجابيات، بالعدل والإحسان. ولكن الشيطان بعكس ذلك يأمر بالسلبيات، بالإثم والعدوان والطغيان.

ولكن إبراهيم فهم المنام هكذا، وأصبح تجاوبه وابنه مع هذا الفهم الخاطئ الكبير مجالا عظيما لاختبارهما .

لا شك ان الله تعالى نظر إليهما وهما يريدان تحقيق المنام بتفسيره الخاطئ بعين رحمته ورأفته حتى وصلا حد التنفيذ الأخير. هنالك تدخل الرؤوف الرحيم عز اسمه وأوقف قتل الأب لابنه بسبب الخطأ في تفسير الرؤيا .

إلا أن الله تعالى منح إبراهيم وساما عظيما هو أبوة كل من سيأتي بعده من الأنبياء إضافة إلى إمامة الحج المختصة به دون غيره. إنه الإمام الوحيد المنصوص عليه والمعلن عنه في القرآن الكريم وفي كل كوكبنا الأرضي. نهاية الهامش 2.

إنه سبحانه يخبر عن الماضي والمستقبل ويشجع على الخير أحيانا في المنام. لكن الإنسان هو الذي يستفيد من المنام فيأمر وينهى نفسه أو غيره.

هذا ما فعله يعقوب في تفسير رؤيا يوسف وهذا ما فعله يوسف في تفسير رؤيا الملك.

شعر يوسف بأن الله تعالى يريد أن يعلم البشرية التخزين والادخار استعدادا لاحتمالات القحط، ففسر المنام بمصيبة ما قد تحل بمصر واستعمل عقله لبناء المخازن الكبيرة (السايلوهات) بعد أن قيض الله تعالى له ان يكون مسؤولا عن مخازن أرض الكنانة.

فليس في تفسير يعقوب أي أمر مولوي من الله تعالى كما في تفسير إبراهيم الذي ظن بأن الله تعالى يأمره بأن يقتل ابنه بل فسر يعقوب منام ابنه باحتمالات قوية عامة ليس بها أية مخاطرة.

عرف يعقوب بأن يوسف سوف يفسر الأحلام لما رآه من قدرة واضحة لابنه على بيان منامه لأبيه بمنطق حضاري واضح. وأراد أن يوضح ليوسف بأن الله تعالى سوف يصطفيه ويختاره من بين إخوته واحتمل بأن يصبح بارعا في تأويل الرؤيا .

وتفسير الرؤيا هو جزء من تأويل الأحاديث كما سنعرف فيما بعد . إن براعة لأنبياء تتضح من ظهور علامات النبوة في حياتهم.

فنبينا (محمد) كان بارعا في فن التعامل مع المجتمع وجذب الناس إليه وهو أمر ضروري لمثل رسالته الكبرى.

وإبراهيم كان بارعا في المواجهة مع الشرك وكانت رسالته في قطع آمال المشركين بكل قوة والوقوف أمامهم بالمنطق القوي المرافق لجرأته وشجاعته.

وكانت براعة موسى في التحدث إلى الملوك و كان على علم بضرورة تجميع ما يمكن من القوة العلمية لقطع حجة الملوك.

وكانت براعة المسيح وسليمان وداود في تحسين حياة الناس زراعيا وصناعيا وعلميا .

كما أن نوح كان أستاذا في المواجهة مع الإعلام وفي كشف القناع عن أسرار الخلق.

هؤلاء الصفوة الخيرة يؤمنون بالله تعالى إيمانا قويا ويعرفون بأنه سبحانه وراء كل الأحداث فبيده ملكوت كل شيء.

ولذلك أظن بأن التقديرات الالهية في اراءة يوسف هذه الرؤيا الغريبة قد تدل في منطقهم بأن هناك علاجا سماويا طويل الامد لإعداد يوسف للنبوة على أسرته الكبيرة نسبيا وعلى إخوان يوسف الكبار.

والأخ الأكبر يرى – باعتبار كبر سنّه – نفسه أقرب إلى أب الأسرة من غيره ويحترمه الإخوان الصغار عادة.

والأخ الأكبر هو الذي يرث التاج وهو الذي يقوم برعاية إخوانه الصغار إن احتاجوا. والنظر إلى الأخ الأكبر كأب هو شائع بين بعض الناس حتى اليوم.

ولذلك لم يكن اصطفاء يوسف للنبوة والرسالة أمرا سهل القبول بالنسبة لإخوانه الذين يكبرونه سنا.

والحقيقة أن البشرية كانت قبل تكاملها محتاجة إلى مثل هذا النوع من التفكير حتى لا تنجرف مع التيارات المعادية للإنسان.

حالُ البشر قبل التكامل العقلي هو حال الأطفال الأذكياء. فهم مع فهمهم للكثير من المسائل عن طريق الذكاء فانهم يبقون أطفالا محتاجين للرعاية والعناية الخاصة من الأبوين والأقربين.

لا شك إذن بأن يعقوب فكّر بأن قضية انتخاب يوسف واصطفائه على إخوانه الكبار ليس أمرا هينا. فهو يعرف بأن الله تعالى لا يعطي شيئًا مفيدا لأحد دون سعي وإلا لن يكن مستعدا نفسيا لتقلد القوة والسلطة.

وهل هناك أهم من النبوة في منطق السماء بالنسبة للبشر الذين عاشوا قبل بلوغ مرحلة النضج العقلي الكامل ؟

وبما أن يعقوب رأى قدرة يوسف على إبراز مقولة الرؤيا بعد أن تأكد من اصطفائه نبيا فإنه فسر الرؤيا لابنه هكذا:

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿6﴾

ربما قال يعقوب ليوسف: إن في امتناعك عن ذكر الرؤيا لإخوانك وسعيك لعدم إثارتهم طريقا واضحا لتسنم العلياء بالنسبة لك.

اعلم بأن الله تعالى عليم حكيم فلا يمكن أن يجتبيك للنبوة قبل أن تنال حظك من العلم والحكمة.

إنك أكثر من نبي لأنك سوف تنتقل إلى أمة كبيرة فلا بد أن تكون رسولا أيضا. إن في نقل الرسالة إلى الأمم الأخرى حاجة واضحة إلى تأويل الأحاديث. يجب أن تعرف فحوى ما تسمعه من غيرك فيجب أن تتعلم تفسير حديثهم بدقة متناهية حتى لا تخسر قلوبهم. ولعل تأويل الأحلام هو طريقك لفهم الناس وإدراك مقولاتهم.

يمكننا أن نلجأ إلى الظن بأن يعقوب أراد أن يبلغ ابنه يوسف بأن طريق العلياء غير مفروش بالزهور والورود.

وحتى يهيئه لقبول كل المنغصات والمتاعب الأولية بدأ بذكر الاجتباء من الله تعالى.

إن الله عادل لا يمكن أن يجتبي أحداً لأجل أسرته ولا لأجل حاجة أهله إليه. إن عليه أن يستعد للاصطفاء الخاص. ويكون الاصطفاء أحيانا لحمل الرسالة تلميذا عاملا فقط كاصطفائه سبحانه لبني إسرائيل وأحيانا لحملها معلما كاصطفائه للأنبياء والرسل[3].

---

[3] أرجو أن ينتبه القارئ الكريم إلى أن الاجتباء والاصطفاء تضمان معنى الاختيار باعتبار أنهما من باب الافتعال ولكنهما مختلفان من حيثية أخرى.

فالأول مأخوذ من جبى يجبي بمعنى جمع الماء في الحوض والثاني مصاغ من صفا يصفو بمعنى خلص. ولذلك يُستعمل الأول عادة في اختيار الشيء أو الشخص لحمل مهمة كالعلم أو الرسالة كاجتباء الرسل ليحملوا علم الكتاب فهو اصطفاء خاص.

ويُستعمل الثاني عادة لبيان اختيار الشيء أو الشخص لتنفيذ مهمة عملية كاصطفاء بني إسرائيل للعمل بالتوراة وكاصطفاء مريم لتحمل طفلا من جيناتها الشخصية بلا أب من الخارج.

والمعلمون يجنون ثمارا جنيّة من الرزق العلمي الكبير فعليهم ألا ينتظروا المزيد من الراحة بل المزيد من العمل الشاق.

ما نفهمه مما سرده لنا القرآن الكريم من تجارب الانبياء هو أن الله تعالى يجتبي الفرد أولا ليتعلم فإذا نجح في اختباره فإنه يجتبيه ثانية لحمل الرسالة.

ولا ندري فلعل الله تعالى يجتبي أكثر من فرد للتعلم ثم يختار من بينهم الأوفى والأكمل ولكنه لم يذكر لنا شيئا عن غير الذين نجحوا في الاختبار.

عرف يوسف من كلام أبيه بأنه مصون بإذن الله تعالى من الموت ولكن الطريق قد تكون شاقة جدا وبأن الذين يوصلونه إلى الهدف الأسمى هم إخوانه.

سيكون لإخوانه يد في نبوته ورسالته وسيكون مصيره خارج بيته وبعيدا عن والديه وحنانهما وعطفهما .

عرف بأنه سوف يُحرم من أخيه الصغير أيضا، إذ لا معنى لمشاركته معه في سفره الخطير إلى رسالة السماء .

عرف يوسف بأنه مسؤول عن إتمام نعمة الله تعالى على كل بني يعقوب.

قال له أبوه بأن الله سوف يتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب لكنه هو المجتبى وليس آل يعقوب الذين سيكونون المستفيدين من رسالة أخيهم. مثالهم مثال بني إسرائيل مع موسى فهم المختارون لحمل التوراة في أعمالهم وحياتهم وموسى مسؤول في نقل التوراة إليهم وتعليمهم وتهذيب نفوسهم بما يتأتى له.

إنها مهمة شاقة على يوسف الصغير أن يقبل بتحملها وهو الذي يشعر بوجوب احترام إخوانه الكبار وعدم احتقارهم. لم يكن يوسف يعرف أي شيء عن الطريق والنهج المرسوم له.

لعله كان يعرف بأن الله تعالى سوف يستفيد من الحوادث المقبلة لإيصاله إلى الهدف. لعله علم بأن الله تعالى لا يمكن أن يخلق حوادث مصطنعة ولكنه يفتح طريقين أمام إخوانه ليختاروا السبيل الذي يرتضونه فيستغله الله لصالحهم ولصالح آل يعقوب جميعا .

هناك رسل جرت الإرادة الالهية بإرسالهم بالفعل ولكن لا يمكننا أن نستفيد من قصصهم فلم يذكر الله لنا عنهم شيئا .

وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164 النساء) .

فكيف بالمرشحين للرسالة؟ إذن صدق يعقوب، فالله اجتبى يوسف للتعلم ثم يجتبيه للرسالة.

مما لا شك فيه بأن يوسف الصغير فكر كثيرا في كلام أبيه النبي الموهوب. إنه انتبه قطعا بأن طريق المجد بالنسبة له يمر من جادتي العلم والحكمة. لقد ختم يعقوب كلامه بأن ربه الذي يجتبيه هو ربه العليم الحكيم. (وكذلك يجتبيك ربك، إن ربك عليم حكيم) . نهاية الهامش 3.

ولعله عرف وقبل أن يرى المنام بأن هناك حدثا آخر في طريقه إلى التكوّن بينما هو ما يزال مع إخوانه الذين هم أبطال قصة الرسالة الجديدة.

بالطبع هو لم يعرف ما حصل ولكن لابد وأن هناك شيئا ما بين إخوانه. لعله فكر في قول أبيه: ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق. ما هي النعمة التي أتمها على أبويه الذين مضيا ؟ .

هناك نعم كثيرة ينعم الله تعالى بها علينا:

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)

ولكنه سبحانه يتحدث عن نعمة واحدة يكملها على أنبيائه وعلى بقية خلقه.

لا نعرف ما الذي دار في خلد يوسف وهو يحلل كلام والده. لكننا نحن اليوم أهل كتاب سماوي اسمه القرآن فنعرف بأنه سبحانه يتحدث دائما عن إتمامه لنعمة الهدى.

أو يتحدث عن إتمام نعمة توصل إلى الهدى وإلى التسليم لوجهه الكريم، كقوله تعالى في سورة الفتح مخاطبا حبيبنا محمد عليه السلام:

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (2) .

فكان يعقوب منتظرا إتمام نعمة الهدى عليهم بإبقاء النبوة في الأسرة وتوسيعها لتشمل جمعا من البشر، هم غير أولاد إبراهيم.

إن يعقوب على علم بأن هدى الله تعالى لن يتوقف على ما أنزله على نبي من الأنبياء. فالإنسان يتعامل مع الإنسان ويتعامل مع ربه المحيط بكل الكائنات والإنسان في تطور كما أن الكائنات في تطور أيضا .

فنحن نحتاج إلى هديه دائما وأبدا ليعلمنا كيف نتعامل مع أنفسنا ومع إخواننا من بني الإنسان ومع الشياطين الذين لا يتركوننا ومع بقية الكائنات.

نحن نتغير ونتكاثر وتتكاثر معنا الزراعة وتتطور كما تتطور الصناعة والملاحة والبناء وكل شيء في الحياة.

كانت الأسرة تنتظر النبوة لأنهم على علم بأن نبوة العم الكبير إسماعيل سوف تنقطع بانتظار الرسالة الختامية. لكن نبوة بني إسرائيل هي التي ستستمر حتى نزول التوراة ثم تواصل سيرها حتى انتهاء أمد العمل بالتوراة العظيمة.

شعر يوسف بثقل المهمة وهو في سن الطفولة ولكنه ذو فكر ثاقب وعقل جبار. إنه قادر على أن يحكم بصحة الأمر من عدمه بما أوتي من مقدمات علمية وإيمانية باهرة. بات يوسف ومعه أبوه يعقوب منتظرَين لما سيرونه من إخوة يوسف. وكما قال تعالى:

لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿7﴾

سوف تبدأ في المستقبل القريب مسيرة التكوين لأسرة عظيمة لحمل التوراة الكبرى. تلك التي سيهتدي بها الجن والإنس لأول مرة في هذا الكوكب . يشعر كل المهتمين بأن هناك علامات مهمة في إخوة يوسف كما هي في يوسف نفسه.

يمثل يوسف الهدى والعلم والنور وكذلك الزعامة والمرجعية والنبوة. ولكن إخوته مع الأسف يمثلون محاربة العلم والنور لأنهم يشعرون بعدم قدرتهم على حمل المشعل الكبير.

إنهم أحفاد إبراهيم ولكنهم لا يحملون قلب إبراهيم ولا علمه ولا فكره. إنهم يريدون الزعامة والنبوة مع أنهم عاجزون عن محاربة أهوائهم وممارسة الأعمال الصالحة لكسب محبة أبيهم.

إنهم جاهلون لأنهم يظنون بأن عواطف أبيهم وإخلاء وجهه لهم تمثل لهم السعادة الأبدية. إنهم بذلك إنما يعبدون البشر ولا يعرفون المعنى الحقيقي للتوحيد .

لكن يوسف يحب أباه كإنسان مثله إلا أنه يحمل المزيد من الخبرة وأبوه نبي يستفيد يوسف منه العلم ويزداد عن طريقه ما يؤهله سلوك طرق الهدى والدين.

يشعر يوسف بعد التحدث إلى أبيه بأنه سوف يفقد مساعدة أبيه له وسوف يبتعد عنه. عليه أن يستعد لكل تعب وعنت أملا في كسب رضوان الله تعالى ولكن إخوة يوسف يعبدون يعقوب ويسعون لكسب رضاه بالتحايل عليه.

اخوة يوسف

إخوة يوسف :

نعرف من القرآن بأن الله تعالى لا يأخذ قراراً قبل أن تتهيأ كل الأسباب أو قبل أن يهيئها هو سبحانه بنفسه.

أظن أن إخوة يوسف جلسوا للتآمر قبل أن يرى يوسف حلمه المذكور. إنه سبحانه أخذ قراره بإعداد يوسف للمهمة الصعبة لأن إخوانه كان قد ظهر عليهم ضعف نفوسهم وقلة عزيمتهم أمام شهوات النفس. ظهر منهم الضعف فأرى سبحانه يوسف الرؤيا العظيمة.

لنفتح عيوننا قليلا لنرى كيف أن الله تعالى المحيط بهم جميعا يأخذ قراره لمصلحة الهدى العام.

إنه تعالى يريد أن يعين الأنبياء من سلالة إبراهيم لأسباب لا نعرف عنها إلا القليل ولا يريد أن يعين نبيا من سلالة إسماعيل ليخلو الجو هناك لأمة أخرى لها دور بعيد في مستقبل الأيام.

إنه سبحانه مهتم بظهور ما يمكن أن يظهر على الناس فلا يكون للناس حجة على ربهم حينما يأخذ قراره الحكيم.

نحن نعلم بأن حسن الألوهية أن يستبد ربنا برأيه وليس من صالحنا ولا من الممكن أن يهتم الله تعالى بإرادة الخلق، لكنه سبحانه يهتم كثيرا بتكامل حيثيات القرار قبل أن يقرر. إنه سبحانه في منتهى العدالة ويعتني بكل أفراد خلقه دون استثناء ويغلق الباب دون أية حجة للخلق.

فقراره باجتباء يوسف غير منفصل عن عدم كفاءة إخوانه للأمر الخطير. ولذلك اعتبر سبحانه يوسفَ وإخوانه جميعا أبطالا لهذه القصة الغريبة. فحتى نعرف القصة بدقة علينا أن نذهب إلى جلسة الإخوة:

إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿8﴾

جلس الإخوة في معزل عن الأبوين وعن يوسف وأخيه الأصغر منه مهتمين بمسألة حمقاء لا قيمة لها في منطق السماء . إنهم كبار لا يحتاجون إلى أبيهم بل إن أباهم بحاجة إليهم ليساعدوه في أمور دنياه ولكنهم مهتمون بمحبة أبيهم التي يقدمها إلى أخويهم الصغيرين لحاجتهما فعلا إلى المزيد من محبة الأب باعتبار عمرهما الصغير.

وكان استدلالهم أحمقا . إنهم ينظرون إلى وجوب مبادلة أبيهم الحب لهم لأنهم عصبة يحتاج إليهم الأب للحماية. لقد نسوا الطفولة وحاجة يوسف وأخيه إلى حبهم وحب أبيهم وذهبوا تماما وراء وساوس الشيطان كما احتمله أبوهم ودون أن يعلموا شيئًا عن رؤيا أخيهم بل قبل أن يرى تلك الرؤيا .

اعتبروا أباهم في ضلال واضح بأنه يعامل الطفلين الصغيرين بحنان يتناسب مع طفولتيهما ولا يبدي نفس الحنان لهم، ويبدو أن ذلك كان يبدر من يعقوب لأنهم كبار يحتاجون إلى النصيحة التي كان يقدمها لهم أكثر من حاجتهم الى الحنان.

إنه نبي ينصح الغير ويسعى في هدايته فكيف لا يسعى إلى هداية أبناءه؟ والواقع أن ما كانوا يتوقعونه من أبيهم كان مجرد مظهر من مظاهر اتباع الشياطين الذين يسعون لإقناع رجال ناضجين هم آباء وأزواج أن يبقوا أطفالا صغارا في عيون أبيهم.

ليس هناك منطق وراء توقعات هؤلاء الإخوة الضالين المغرر بهم إلا أن نقول بأنهم كانوا يبحثون عن عذر لإبعاد أخيهم يوسف من البيت الكريم.

ولو نفكر فإن الكثير من استدلالاتنا ضد بعضنا البعض هي من هذا النوع ونرى الكثير من الحروب والصراعات بين الناس مبنية على أسس واهية مثل تلك.

عصبة كبيرة من عشرة إخوان يتفقون على التفريق بين يوسف وأخيه بقتل يوسف ليُشعروا يعقوب بأن العصبة الثنائية قد انهارت في مقابل العصبة العشرية الباقية. فكأنهم كانوا يعتبرون كل طفل منهما أكثر من خمسة منهم ولذلك أرادوا ألا يبقى منهما إلا واحداً فيكون أقل من العشرة!

والذي يؤلم العاقل هو أن أبناء البشر لا يتفقون في أكثر أفكارهم الإيجابية ولكنهم يتفقون في السلب بسرعة وبكل جرأة وصلافة ووقاحة. وهذا دليل واضح على وجود قوة غيبية خافية وراء تلك السلبيات تؤيدها فيقتنع الناس بها وينفذونها . وهو بدوره دليل واضح على وجود الشيطان.

هناك بين البشر قضايا مشابهة كثيرة لقضية ابني يعقوب الصغيرين مع إخوانهما الكبار فكيف يتقبل العقل مثل هذه المقارنات الخاطئة إن لم نعتقد بوجود الشيطان الخبيث وسعيه لإقناع البشر بترك الخير واتباع الشر؟ فتعالت أصوات أفراد من العصبة الحمقاء:

اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿9﴾

إنهم لا يريدون التخلي عن الصلاح ولذلك يريدون أن يقتلوا أخا لهم ثم يكونوا من بعده قوما صالحين. هكذا يخلط الإنسان الشرك مع الإيمان وهو لا يعرف بأن الله تعالى لن يتقبل أي عمل مهما كان، من المشرك.

الإماتة لإنسان آخر ليست من حق أحد أبدا بل هي من حق الله تعالى. ذلك لأنه سبحانه لا يميت فعلا بل ينقل الإنسان من عالم المادة إلى عالم المجردات فموت النفس بموت بدنها الذي تتحرك فيه وليس بموتها هي بالنسبة للذي يرى ذلك وهو الله تعالى.

لكن الموت ذاته لو تمّ على يد إنسان لا يرى ذلك الانتقال الجميل فهو إعدام سلبي كامل يخالف المنطق والعقل السليم.

لقد أذن الله تعالى أن نقتل القاتل دون إسراف أو نقتل فقط المفسدَ الذي يخرب الأرض ويهلك الحرث وما يعتاش عليه البشر.

وهؤلاء القوم هم من أسر الأنبياء الذين كانوا مسلمين عالمين بحرمة القتل ولكنهم يقنعون أنفسهم بأن يقتلوا أخاهم ثم يعملوا الصالحات! و بمثل هذا التبرير الأحمق للإثم الكبير يبرر المجرمون أعمال القتلة بأنهم تابوا وأتوا بالشهادتين حين هلاكهم مثلا أو بأنهم اعتدوا وكانوا يتوبون بعد كل اعتداء فلا بأس بهم فهم على كل حال أصحاب أحد الأنبياء أو أهل بيته مثلا! هكذا يخدع الشيطان الناس فلنتورع.

لعل بعض إخوة يوسف لم يقبلوا بالقتل فاقترحوا أن يطرحوه أرضا بعيدة عن أرضهم بحيث لا يمكنه العودة إلى الأرض المقدسة التي كانوا يعيشون فيها أو بجوارها .

هم كانوا يعيشون في الأرض التي عاش فيها جدهم إبراهيم. ولم يكن لإبراهيم غير ابن واحد هناك وأما ابنه الأكبر فقد بقي في مكة ليكمل بناءها ويجعلها مكانا ملائما للحجيج من كل الأرض.

ثم ورث إسحاق بيت إبراهيم ولم يذكر القرآن أولاداً لإسحاق عدا يعقوب. ولكن اليهود يذكرون له أولادا آخرين مثل عيسو. مما لا شك فيه لدى أهل القرآن بأن يعقوب هو الابن الأكبر لإسحاق وهو الذي وعد الله تعالى والديهما إبراهيم وزوجته أن يرياه. قال تعالى في سورة هود:

وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ (71) .

لم يعلم إخوان يوسف بأنهم يفعلون منكرا سوف يوظفه الله تعالى لإعلاء شأن يوسف. لقد كان غائبا عنهم تماما بأنهم هم الذين فرشوا البساط الأحمر لمجد يوسف وبأنهم حفروا قبورهم بأيديهم.

وأكثر الظن بأنه سبحانه أرى يوسف الرؤيا بعد الجلسة التآمرية الخطيرة لإخوانه لئلا يخاف ويخشى مما سيحل به على أيديهم.

يعلم يعقوب كما يعلم يوسف بأن هناك مستقبلا مشرقا أمامه، فعليه أن يصبر وعلى أبيه أن يصبر. بقي المنام خفيا بين يعقوب ويوسف ولم يبدياه لأحد لعلمهما بأن ذلك لا يرضي الله تعالى ولا يعود عليهما بالنفع.

من هنا نسير مع خطَّي مكر، أحدهما باتجاه الباطل والآخر يتحرك في داخل ذلك الخط الباطل باتجاه الحق ولا يعلم أي من أصحابهما شأن الفريق الآخر والمدير هو الله تعالى الذي يدير كل شيء لما يفيد ولا يعبأ بما يقصده المنفذون من خير أو سوء .

لكنه سبحانه يثيب المحسنين ويعذب المسيئين. فكل شيء في الواقع يسير باتجاه الإرادة المهيمنة العليا لكن الناس والجن يُمضون اختبارا عسيرا وخطيرا لنفوسهم في هذه المعمعات الكبرى التي نراها ورآها من سكنوا الأرض قبلنا .

وفي النهاية تفوّق ذلك المسار الرقيق الذي كان محاطا بالباطل على ذلك الباطل فأرغم كل الذين أتوا به على ان يذعنوا للحق كما سنرى.

هكذا يسيّر الله تعالى كل الأعمال لصالح أهدافه الخيرة الكبيرة دون أن يشعر المستكبرون. فلنشكره سبحانه حتى على المصائب لو كنا مؤمنين فعلا ومحبين فعلا وموحدين حقا . قال تعالى في سورة السجدة:

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17) .

فلينظر كل واحد لعمله وليسْعَ لتصحيح أهدافه وتطهير نفسه وكفى.

لقد أبدى كل واحد منهم في الجلسة المشؤومة حقيقته فمنهم من وافق على التخلص حتى ولو بالقتل ومنهم من رأى القتل كبيرا فوافق على النفي. لكن أحدهم ولعله أكبرهم الذي يبدي فيما بعد اهتماما كبيرا بتعهده لأبيه، أصر على عدم القتل هكذا:

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿10﴾

هذا الأخ شعر بوخز شديد للضمير من أن يقوم إخوانه وهم في كمال العمر بقتل أخ صغير لهم لمجرد أن أباهم يعامله نفس المعاملة التي يعاملون أطفالهم الصغار بمثلها .

إنه شعر على ما يبدو بأن هذا الطفل الصغير غير مذنب وليس له مكر ضدهم لاستمالة أبيهم؛ لكن طفولته هي التي تفرض على أبيهم الحنون أن يبدي له ولأخيه الأصغر عطفا أكبر.

ومن أغرب الغرائب أن يقوم من يؤمن بالله تعالى وبنبوة يعقوب بهذه المؤامرة الظالمة ضد أخيه وضد أبيه النبي الأمين.

حقا أن هذا الأخ الأكبر لم يكن موافقا على العملية النكراء ولكنه رأى في ابتعاده عنهم خطرا أكبر على يوسف وأخيه. شعر الأخ المذكور بأن عليه أن يبقى معهم ليمنعهم من القسوة التي أبدوها ومن المحتمل أن يكون هدفه من مشاركتهم هو حماية يوسف وأبويه.

هكذا يختبر الله تعالى النفوس وهكذا يبلي السرائر في الدنيا قبل الآخرة أحيانا .

وأخيرا لم يُبدوا الموافقة النهائية على رأي ولكنهم اتفقوا على التخلص من يوسف بشكل من الأشكال كما اتفقوا على أن يبدأوا بإقناع أبيهم ليرضى بأن يذهب يوسف معهم للتنزه ثم يروا فيه أمرهم. واتفقوا على لحن خاص يخاطبون به أباهم فتقدموا إليه و:

قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿11﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿12﴾

هذه الفئة المتآمرة كانت تبدي الحب والود ليوسف الصغير على أن القلوب لم تكن كما يظهر من حسن المعاملة والكلام الجميل وإغداق العطف.

كان يوسف وأخوه يظنان بأن إخوانهما يحبونهما ولم يبد عليهما إلا الرضا من الإخوة. فمسألة الود والحب وتمني كل خير ليوسف كان أمرا ملحوظا بحيث لم يحتاجوا البحث عن ادلة لإثبات ذلك.

كل الأسرة كانت تعتقد بأن الإخوة ناصحون ليوسف ويريدون له كل الخير، إلا أن يعقوب كان يبدي بعض التحفظ على إرسال يوسف معهم باعتبار صغر سنه وعدم تكافؤه معهم في الركض وفي الدفاع عن النفس.

كانت الرحلات السياحية قديما رحلات سباق وصيد وخاصة بين الشبان فلم يحن بعد الوقت الذي يلتحق فيه الأخ الصغير بمجموعة الفتيان الأقوياء من أهله.

فقالوا لأبيهم: أنت تعرف بأننا نحب أخانا ونحب أن يشاركنا في رحلاتنا وسوف نخصص يوم غد للهو والرتع دون السباق والصيد فلم لا توافق على أن يرافقنا ليلهو ويأكل من صيدنا في أجواء أراضي البلد الذي عاشوا فيه؟ سوف يستمتع كثيرا وسوف نشعر بالفرح في مصاحبة أخينا الصغير ونحن نعدك بأن لا نبتعد عنه لحمايته من كل سوء.

فزع يعقوب احتمالا من عرض أبنائه لأنه قد احتمل فيهم الكيد إن سمعوا ما سمعه من يوسف. إن كل احتمال وارد حين المشاركة في سفرات اللهو واللعب فإن فتح يوسف فمه بالمنام الخطير فسوف يكون مصيره الموت على يد إخوانه.

ولا ريب أنه عليه السلام فكر في أن تأويله لرؤيا ابنه صحيح وبأنهم عاجزون عن الكيد المميت بيوسف ولكنه يكره أن يرى أبناءه قد تورطوا بعمل مشين ضد أخيهم الصغير.

لقد دارت في ذهنه عشرات التعابير لإبداء رأيه قبل أن يفتح فمه ويحرّك لسانه احتمالا.

شعر بأن الطلب معقول وبأن ظهوره بعد المنام دليل واضح بأن طريق العلياء يمر من أبنائه العشرة لصالح يوسف.

فكر في كل شيء فرأى بأنه عاجز عن الممانعة لأن هناك إرادة قوية وراء العملية ولا يجب أن يستمع لوما من ربه الرؤوف الرحيم. لا يريد أن يسمع من الله تعالى ما سمعه نوح حينما أخطأ في تفسير ما يحدث أمامه بدقة ليعرف بأن ابنه ليس من أهله ولولاه لما قدر الله تعالى له الغرق أو أنه سبحانه لم يعد نوحا بأن ينجي أولاده جميعا. لم يعد الله نوحا بأن ينجي زوجته ولكنه وعد بأن ينجي بقية أهله.

لم يكن أمام يعقوب حيلة غير الموافقة ولكنه أراد أن يقفل عليهم كل باب فلا يقولوا فاتنا ذلك وما انتبهنا لهذه وعميت علينا تلك. ولذلك فإن الأب العجوز وبلحن لا يدل على المنع المؤكد بل ينطوي على الموافقة المشروطة:

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿13﴾

هذا كل ما يمكن أن يقوله يعقوب ردا على طلب أولاده الذين هم – احتمالا – أسباب لتقدير إلهي كبير.

يعرف يعقوب بأن الله تعالى لا يسمح لأي فعل أن يتحقق دون أن يكون فيه فائدة مرجوة وإلا فقدَ هيمنته على أعمال الكائنات. ولذلك يقوى الاحتمال بأن الله تعالى أرى ابنه المنام بعد أن اتفق أبناؤه على أمر يساعد على تسنم يوسف ذروة المجد. ولعله رأى بأن من الخير أن يصارحهم بأنه يتألم أن يرافقهم يوسف خوفا من أن يغفلوا عنه فيأكله الذئب.

من يدري فلعل الله تعالى وضع الجملة على لسانه ليكون مخرجا للإخوة الذين نووا القيام بعمل قبيح لهم وضار بهم وبكل الأسرة ولكن نتائجه ستكون مفيدة مرضية للجميع بإذن الله تعالى.

لم يكن الإخوة بحاجة إلى أن يتفطنوا لكل ما يمكن أن يسمعوا من جواب لطلبهم فهم يعرفون أباهم ويعرفون بأنه شديد الخوف على يوسف وأخيه. هو هذا الذي ينغصهم ويشعل في قلوبهم نار الحقد، فكيف لا تخاف علينا من أن يأكلنا

الذئب؟ كان الشيطان مستوليا عليهم ويوحي لهم بكل ما يزيد الشقة القلبية سعة وابتعادا عن الحق والعدل. وبكل وقاحة وإضمار للشر:

قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿14﴾

من الطبيعي أن ينتظر يعقوب هذا الرد المستنكر منهم. إنه لا يعرف ما يضمرونه ولكن كان عليه أن يصارحهم بكل مخاوفه فلا يلومنَّ نفسه في المساء ولا يلومه أحد بأنه لم يتفوه بما كان يتوقع. هم دائما عصبة! عصبة قوية تتوقع الحنان المماثل لحنان الأب مع الطفل الصغير وعصبة قوية يعيب عليه أن يتعرض أخوهم المرافق لهم لهجوم الذئاب!

كان يوسف يمر بنشوة من انتظار النبوة ويعرف بأن إخوانه مشغولون بالصيد والسباق والرعي وكل شيء إلا العلم وكسب الفضائل ولن يقدر الله النبوة للاعبين. إنه يعرف بأنه هو بنفسه أكثرهم اهتماما برسالة السماء وأعلاهم لياقة لأن يتعلم أصول النبوة والكتاب.

بالطبع أن أباه قد نبهه بكل دقة أن يتحاشى إخوانه إذ كان متوقعا ان يكيدوا له كيدا. ولعل فزَع يعقوب لم ينتقل إلى يوسف بل حل محله المزيد من الاطمئنان. إنه في مقتبل العمر وينتظر المزيد من القوة والجَلَدْ في المستقبل بعكس أبيه العجوز الذي لا ينتظر إلا المزيد من الضعف والفتور.

إنه يستقبل الحياة وهذا يودعها. ليس صعبا على يوسف أن يستقبل المشاق ولكن القسوة تكسر ظهر يعقوب في المقابل.

بدأت سفرة النبوة وأمام يعقوب ويوسف ساعات حتى يحل الغد الموعود. كلاهما يكرران في خيالهما: أرسله معنا غدا. يوسف فرح بأن المنام الذي رآه لم يدم أكثر من ساعات –احتمالا– حتى ظهرت البوادر ولكن يعقوب يتوقع طول الغيبة حتى تتغير كل الحيثيات الفعلية. هذا الطفل يريد أن يسود عشرة إخوان كبار أقوياء والوعد وعد الله تعالى الغالب على أمره.

لعل يعقوب هو الذي بدأ بمخاطبة يوسف سرا: يجب أن نضع بيننا علامة لأعلم ما يحل بك غدا. إنهم لن يقتلوك فلو أنهم سعوا لإبعادك فليكن بيننا قميصك علامة لأتعرف على سلامتك. ضع قميصك في سلة الأكل وحاول ألا يراه إخوانك. والبس قميص أخيك الصغير.

فلعل يوسف قال لأبيه: كيف ألبس قميص أخي وهم يرونني وسوف يعلمون سرنا .

يعقوب: إنهم متآمرون عليك قطعا وهم الآن يفكرون في ما سيفعلون بك ولن يلتفتوا إلى ملابسك.

لبس يوسف قميص أخيه دون أن يعلم أخوه وضم قميصه الأصلي إلى زاده تحت الخبز والنواشف المحمولة في السلة استجابة لطلب أبيه.

مما لا شك فيه أن يعقوب ضم ابنه إلى صدره وتزود منه الكثير ليودعه وداعا طويلا يعلم بأنه سيسير تحت رعاية الله تعالى ولكنه أب يقتله بُعد ابنه الحبيب يوسف عن ناظريه.

أما أمه فلم تعرف شيئا عن القصة ولكنها كأم لم تكن مقتنعة بأن يوسف سوف يعود قريبا . بالتأكيد أنها انتبهت إلى أن يوسف سرق قميص أخيه ولبسه ولكنها لم تر أن يوسف قد خبأ قميصه الشخصي في السلة.

كانت في حيص بيص لا تقدر أن تفصح عن هواجسها خوفا من زوجها النبي الكريم يعقوب الذي وافق أن يرسل ابنها مع أبناء غيرها .

انفصل الإخوة بمن فيهم يوسف عن الأبوين و عن الأخ الصغير وأخذوا طريقهم نحو البرية وكأنهم يريدون الصيد .

الأم والأخ الصغير لا يدركان شيئا من القصة ولكنهما يريان وجوها لا تعبر عما في كوامنها . هما اللذان يقفان ناظرين إلى المجموعة التي تخفي أمرا أو أمورا ولا أدري هل كان ليوسف أخوات أيضا فيقفن مع الأم والأخ متفرجات يقرأن أمورا غريبة على الوجوه ولا يعرفن القصة؟ ولعلهما أو لعلهم شعروا بأن هناك مؤامرتان متداخلتان بين هذين الفريقين ولكن كلا منهم يحتفظ بما في قلبه لنفسه.

وجه يعقوب حزين وفرح في آن واحد . إنه حفيد إبراهيم الذي أخذ ابنه بيده ليذبحه في سبيل الله فهو الآن يسترجع تلك القصة الغريبة التي ختمها الله تعالى بهذا الذبح العظيم الذي نراه سنويا في مكة وخارج مكة احتفالا بنجاة إسماعيل من الموت ذبحا . فالله تعالى ليس فقط يساعد عبيده بل يزيدهم عطاءً ومنّا .

لا يمكن أن نتصور أمراً دار في خَلَدِ إسماعيل غير التوجه إلى الله تعالى لينجي أباه من التورط في دم ابنه. هذا الدعاء الخفي الذي استجابه الله تعالى في لحظة واحدة فنادى إبراهيم بالتوقف.

نفس الموقف يتكرر ولكن ليس بتلك السرعة ولا بذلك الاختصار. فيعقوب الآن يبعث ابنه لعملية مشابهة مع العلم بأنه لن يموت على يد إخوانه ولكنها غيبة تطول وتطول.

هناك سكين وصلت إلى عنق مَنْ سماه ربه صادق الوعد. كان إسماعيل صادقا حينما وعد أباه بأن يصبر. أعتقد شخصيا بأننا لو نحلل الصبر الذي أتى به إسماعيل لساعات فقط بل نحلل الدقائق الأخيرة ونقارنها بصبر يوسف سنوات طويلة؛ حيث يسمع يوسف المؤامرة علنية قبل إنزاله إلى البئر ثم بضاعة للبيع ثم عبدا لدى الوزير المصري ثم محاولة الاعتداء الجنسي عليه من امرأة العزيز ثم السجن، لرأينا بأن صبر الدقائق الأخيرة من إسماعيل الذي يرى الموت بعد لحظات ويفكر في أبيه إبراهيم ومصيره مع أمه ومع الناس أعظم من صبر حفيد الأخ الصغير.

يعقوب ويوسف يعلمان بأن الموت غير وارد في القضية ولكن هناك تعب وجهد وكفاح مضمون النجاح فهما يثقان بربهما ثقة إسماعيل بربه[4].

---

[4] إسماعيل لا يحمل غير الثقة بالله تعالى ويرجح احتمال وقوع الموت المقبل إليه بعد وصول السكين حد الرقبة. هكذا نعرف مَن منهما أهم من الآخر. وهكذا نحلل أهمية أبينا إسماعيل وأهمية آباء بني إسرائيل.

كلا الولدين إسماعيل وإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب بنيا أسرتين عظيمتين لحمل أهم رسالتين سماويتين إلى كل أهل الأرض إنسا وجنا.

ولكن أولاد إسحاق هم الذين بدأوا بنيان الأسرة الإسرائيلية بالاعتداء على أخيهم وسموا أنفسهم بني إسرائيل. وإسماعيل بدأ بناء الأسرة التي ستحمل القرآن، بدون اسم الأسرة، على الحب الخالص لله تعالى وعلى الحب المعقول لأبيه ولا أرى مجالا لأي أنانية في المشهد الإسماعيلي وسمى نفسه مسلما يدعو أبناءه إلى التسليم لوجه الله فحسب.

بينما نحن نرى أنانية تبلغ حد الحمق في إخوان يوسف ونرى بالطبع كل الإخلاص في يوسف ويعقوب. ولو أردنا أن نقيس الرسائل الكبرى بمقياس أتباعها لوجدنا أن الرسالة المحمدية أكثر جدارة لأن تكون عالمية من الرسالة الموسوية على كليهما سلام الله تعالى وصلواته، لا نفرق بين أي منهما فنحن أبناء القرآن وهكذا علمنا ربنا العليم الحكيم.

قال إبراهيم وإسماعيل كما ذكر الله تعالى قصتهما في البقرة:

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسماعيل رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (129). نهاية الهامش 4.

لنعد إلى إخوان يوسف:

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿15﴾

وهكذا اجتمع الإخوة مرة أخرى للاتفاق الأخير على مرأى ومسمع من يوسف الذي ظنوا بأنه شعر من تلك اللحظة بأنه أسير بين أيديهم وبأنه لن ير أبويه بعد هذا .

بالطبع لم يكن الموقف مفاجئًا ليوسف لأنه احتفظ لنفسه بالرؤيا التي رآها وبتفسيرها اتباعا لنصيحة أبيه، لكن الإخوة العشرة وبكل وقاحة وقسوة جلسوا يتآمرون ضد أخيهم أمامه.

كانوا في البرية ولم يكن تحت تصرفهم غرف ولا مخابئ ليبعدوا يوسف. كان الأمر الذي يتحدثون بشأنه أكبر من أن يجرؤوا على اتخاذ قرار غير جمعي فيه خوفا من أن يصل الخبر الصحيح إلى أبيهم يعقوب.

كان ضروريا لهم أن يتحدثوا في كل الحيثيات قبل البدء بالتنفيذ لئلا يتمكن أحد من أن يلوم الآخرين.

هذه هي الطريقة التي يتفق عليها اللصوص والمجرمون قبل تنفيذ أية جريمة وخاصة لو كانوا يعيشون جميعهم في بيت واحد كإخوة يوسف.

دار الحديث مع الأخ الأكبر احتمالا الذي لم يكن موافقا بالكامل معهم ولكنه لا يريد أن ينفرد بموقفه عنهم فلا يمكنه مساعدة يوسف كما لا يمكنه أن ينجو بنفسه.

أقنعهم بأن الموت ليس جزاء مناسبا لمن لا ذنب له وليس لديهم أي مخرج للتوبة إلى الله تعالى بعده فلا يمكنهم أن يكونوا قوما صالحين. إنهم يريدون أن يخلو لهم وجه أبيهم فقط فعليهم أن يبعدوا يوسف بأقل درجة من القسوة.

اتفقوا بعد المناقشة على أن يلقوا يوسف بكل هدوء في جب في طريق القوافل التي تمر من تلك المنطقة ليكون بضاعة يطمع فيه أصحاب القوافل كسباً للمال فلعله يدخل بيت من لا يظلمه ويعيش بسلام عندهم.

هكذا تقل قسوتهم ويصغر ذنبهم. قالوا لأخيهم بأنهم لا يريدون له الموت ولكنهم يريدون أن يكسبوا ود أبيهم بأن يفصلوا بينه وبين أخيه الصغير حتى لا يشكلا حزبا ثنائيا قويا ضدهم.

و قالوا بأن عليه أن يصبر حتى تمر القوافل. وأغلب الظن بأنهم رأوا قافلة من بعيد فأضافوا إلى حمالته بعض الأكل والشراب ليعيش يوسف عليها حتى يصل الذين سيأخذونه.

لم يبد يوسف أي استرحام لأنه كان يظن بأنه منذ تلك الرؤيا مرشح للنبوة. كان يعرف بأن الترشيح للنبوة لا يعني النبوة بل يعني بأن عليه أن يصلح عمله ويسعى للمزيد من التعلم حتى لا يفقد هذا الامتياز الكبير. و لذلك لم يبد أي اعتراض لأنه كان على علم بأن الله تعالى سوف يصطنعه على عينه ليساعده على أن يصير صالحاً للرسالة[5].

إن الله تعالى يساعد عبيده دائما ليستفيدوا من مواهبه ولكننا نحن الذين نبتعد عن الله تعالى فلا نتمتع بهداه للحد الذي يمكن أن نتمتع به. نظن دائما بأن الطريق إلى الله تعالى مفروشة بالورود والرياحين، كما أننا قلما نطلب الطريق من الله تعالى نفسه فنستفيد من وحيه العام وأحيانا من الهمس مع الملك الرحيم العظيم.

يوسف وهو في بداية المسيرة يسعى ليصحح كل أعماله وينتظر مواصلة الرحيم إغداق رحمته الخاصة عليه. استمر يوسف بالهمس مع ربه يدعو ويطلب منه السكينة والرحمة دون ريب.

---

[5] لاشك أنه كان يعلم بإن الله تعالى لا يمنح العلم لأحد لا يستحقه، والنبوة مقام علمي كبير وصاحبه مستعد دائما لحمل الرسالة إن وجد. ألم نر بأن الله تعالى قال لنبينا كما في سورة الإسراء:

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86).

وقال في سورة الزمر:

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65).

فالأنبياء دائما وأبدا مهددون بأن يخسروا النبوة الفعلية إن هم عصوا ربهم. هذا يعني بأنهم أدوا اختبارا استحقوا معه أن يصيروا أنبياء. ومن الطبيعي أن يساعد الله تعالى بعض الناس الطيبين ليصيروا في معرض استلام النبوة كما ذكر سبحانه بأنه فعل ذلك مع موسى وعيسى. نهاية الهامش5.

لقد أخذ الإخوة قرارهم الأحمق وسمع يوسف بأذنيه اتفاقهم ولكنه شعر بنفس الوقت في قلبه بوحي الرحمن:

لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون.

اطمأن يوسف بأنه أصبح فعلا بعين الله تعالى وبدأ بتفسير الحديث النفسي. إنه بدأ يتعلم ما وعده النبي الكريم يعقوب.

لننظر إلى الآية العربية نظرة عربية ولا ننس بأن الوحي لم يكن بالعربية ولعله لم يكن بأية لغة بشرية.

اللام للتأكيد، فبكل تأكيد سوف أنبؤهم بما فعلوه ضدي وضد أخي الصغير، بما أوحاه إلي ربي. إنه ربي لأن الشيطان لا يوحي بما يعطيني الاطمئنان. لو كان هو الشيطان لقال لي: حاول أن تسترحمهم وتلجأ إليهم، ولكن الله تعالى هو الذي لا ينسى عبيده فيعدهم إيجابيا بما هو أعلى لئلا يحتاجوا إلى خلقه إن كانوا يعبدونه وحده لا شريك له.

هذا الوحي يعني بأنهم سوف يأتوني محتاجين لا يرون غير أن ينالوا مما سيعطيني ربي. سوف لا يفكرون في الذي أمامهم من شدة الحاجة بل ستكون عيونهم وأفكارهم في ما يساعدهم على البقاء. سيكون حالهم مشابها إلى حد كبير لحالهم اليوم ولكن في شأن آخر. إنهم في معمعة أخرى ولم يلتفتوا مع طول الساعات التي جلست بينهم بأني ألبس قميص أخي وليس قميصي.

لقد صدق أبي بأنهم سوف لا ينتبهون إلي ولا إلى ملابسي. إنهم في فقر شديد يشعرون بأنهم في حاجة ماسة إلى التخلص مني وسيأتي اليوم الذي يشعرون فيه بنفس النسبة من الشعور بالفقر بأنهم يحتاجون إلي أنا الجديد الذي أنعم الله تعالى عليه.

اشتد شوق يوسف لتلك النعمة التي بدأ يشعر بها أمام عينيه واستهزأ في قلبه بإخوانه ولم يعبأ بهم ولم يطلب منهم أي شيء وتركهم يأخذون قرارهم كما يشاءون واكتفى بالله حسيبا. ونعم بالله كافيا وحسيبا.

فكر يوسف احتمالا بأبيه الأكبر إبراهيم الذي خرج من بيته وأسرته وحيدا بدون أي قريب من أهله فأوحى إليه ربه بأنه اتخذه خليلا.

شعر يوسف بأنه أصبح يتبع ملة أبيه إبراهيم وقد ساعده الله تعالى قبل الدخول في الجب بالوحي المطمئن الذي أنساه كل خوف ووحشة.

عرف يوسف معرفة عيانية بأن الله تعالى حينما اتخذ إبراهيم خليلا فهو ليس إلا رب إبراهيم وقد رأى عبده وحيدا فأبى له الوحشة من الانفراد والانعزال عن المجتمع وقد عامل سبحانه حفيد إبراهيم الآن نفس المعاملة.

شعر بأن الله تعالى اتخذه خليلا لأنه انعزل عن أهله. لقد علم واستيقن بأن الله تعالى أكرم من أن ينتظر لعبده المخلَص البلاء فهو يُخرجه من وحشة البلاء بمجرد أن يراه جادا في طاعته وعبادته. اتبع يوسف ملة أبيه إبراهيم كما اتبع ملة أبيه يعقوب.

اتبع الملة ولم يتبع الأفراد ولم يتبع العادات ولم يلبس مثلهم ولم يَسِر مثلهم بل اتبع الملة التي تعني عمق الانقياد للمنعم وهو الله تعالى.

لا معنى لأن يلبس ما لبسه إبراهيم ولا لأن يأكل ما أكله في نظام الله تعالى. إنه يفهم أكثر من إبراهيم كيف يأكل وكيف يلبس وكيف يختار المركب والمسكن ولكن إبراهيم قدوة له في التقرب إلى العزيز الكريم فحسب.

رأى يوسف بأن أباه إبراهيم قد خرج من بيوت الملوك ومن راحة العيش في عراق الخير والزرع والعمران إلى طريق خارجي باتجاه المجهول. لكن يوسف قد خرج من بيت لا يمكن أن يوصف بالثروة والغنى إلى مكان يعلم بأنه أكثر رخاء من بيته.

إنه سوف يُباع إلى من يقدر أن يشتري مثل يوسف وسوف يكسب القدرة والقوة التي تُحوِج إليه إخوانه مستقبلا. فهما يسيران في خطين مختلفين ولكنهما هو وإبراهيم متوجهان إلى ربهما وحده ومستأنسان بوحيه وكلامه ونداءه وحده. هذا هو معنى الاتباع المطلوب عند الله تعالى وليس التمسك بالأشخاص[6].

[6] لم يشجع الله تعالى على التمسك بغير العروة الوثقى وهو سبحانه وحده العروة الوثقى التي يتمسك بها الأنبياء والصالحون وكذلك الملائكة والأرواح القدسية، جل جلاله.

كل العالم العلوي وكل ذوي الألباب وكل العارفين الحقيقيين يتمسكون به وحده؛ ولكن الذين يتمسكون بالأنبياء ليسوا عارفين بل هم يحتاجون إلى المزيد من العلم والتفكر لعلهم يعرفون موارد خطإهم فيصححوها إن هداهم الله تعالى ربهم.

وحينما نتعمق في هذا الوحي السماوي المعطاء نرى بأن الذي استلمه قد مر بخمسة مراحل أساسية فيعني ذلك بأن ليوسف يدا في الاستيحاء. تلك المراحل هي:

أولا: الكتمان ونرمز إليه (ك) لنعرف الموضوع من نفس القرآن ذلك الكتاب المجيد. لقد كتم يوسف رؤياه عن غير أبيه بعد أن أعلمه أبوه بوجوب الكتمان. كان المنام الذي رآه إشارة سماوية مهمة ولقد كتمه يوسف وكتم معه كل ما يدور في قلبه فمر حقيقة بالمرحلة الأولى من أمر آخر.

ثانيا: الهمس ونرمز إليه (هـ). يقول الله تعالى لعبيده: ادعوني أستجب لكم. ومعناه أن يذهب العبد بقلبه إلى الله تعالى قبل أن ينتظر وصول الإمداد إليه من منطلق الغيب القدسي.

لم يستلم يوسف وحي النبوة الذي يأتي للنبي ليجعله إماما بالنسبة للناس، ولكنه استلم وحيا يهمه هو شخصيا. فهو يجب أن يبدأ بالتضرع ثم ينتظر الوحي ولقد فعل يوسف ذلك قطعا. عرف يوسف بأن الأدب أمام الساحة القدسية واجب على العبد فلم يتحدث مع ربه بغير الهمس القلبي. إنه سبحانه يعرف ما تخفي الصدور فالحديث بالكلام وبالصوت الخارج من اللسان يُعتبر قلة أدب في حضرة سيد الكائنات جل جلاله.

ولا ننس بأن يوسف بين إخوانه ولم يكن ممكنا له أن يتوجه إلى ربه باللسان فكان التوجه القلبي هو الطريق الوحيد له وقد سلكها دون شك.

ثالثا: اليقين وهو من مادة يقن فنرمز إليه بـ (ي). إذا قال لنا ربُنا: ادعوني أستجب لكم، فهو يعني بأن الاستجابة قطعية لو دعوته وحده بكل أدب. إذن اليقين شرط من شروط الإيمان بالله تعالى عند الطلب من القدوس العزيز عز اسمه. وكان عدم اهتمام يوسف بإخوانه دليلا على يقينه بأن الله تعالى سوف يستجيب دعاءه وتضرعه واستجارته بوجهه الكريم.

رابعا: عزل الداعي نفسه عن الناس ونرمز إليه بـ (ع): حقا بأن يوسف كان يسير ببدنه مع إخوته المذنبين ولكن قلبه كان متوجها إلى ربه فقط. فقد عزل يوسف نفسه عنهم تماما فكان يناجي ربه فعلا.

خامسا: الصبر ونرمز إليه بـ (ص): مما لا شك فيه بأن العاقل يخاف من أن يمسَّ المجرمون بدنه بالسوء. لا أحد يُحبّ الأذى إن كان في كمال من عقله. لكن يوسف لم يخف أبدا وهو يُجَرّ إلى المجهول. ذلك يعني بأنه التزم آنذاك بالصبر بانتظار الفرج من ربه حتى:

فتحت أمامه أبواب الرحمة وشعر بالسكينة كالذي تقر عينه بعد انتظار طويل.

والصبر في كل مجال مختلف زمانيا. فبالنسبة ليوسف وفي تلك الحالة، فإن كل دقيقة أطول بكثير من 60 ثانية. فصبَرَ يوسف صبرا طويلا فعلا. وكان مستعدا للمزيد ولكن الله تعالى لا يريد له أن يغمره الخوف وهم يلقون به في غيابت الجب!

دعنا الآن نجمع الحروف التي ذكرناها لنرى انها تكون كلمة: كهيعص. وما ذكرناه معنىً لفاتحة سورة مريم بإذن الله تعالى. وكل أبطال السورة الكريمة أنبياء وكلهم مروا بالمراحل الخمسة في دعواتهم المختلفة. نهاية الهامش 6.

عودة الى إخوة يوسف :

أنزلوا الأخ المؤمن الصغير إلى الجب بعد أن نزعوا قميصه وهو ساكت وكأنه على موعد مع كل هذه الممارسات المريبة. ولعلهم انتظروا قليلا ليطمئنوا من أن أناسا من القوافل أتوا ليأخذوه، أو أن أخاهم الكبير قد عاد ليطمئن بأن أخاه انتقل مع الناس ولم يبق وحيدا في الجب. هذا ما يمكن أن نتخيله ولكننا لا نجزم لأن الرحمن سبحانه لم يهتم بأن يحدثنا عن ذلك.

الجولة التالية من المؤامرة:

كيف يعودون إلى البيت وبأي شكل ويقابلون من منهم أولا وفي أي وقت؟ لنلطخ القميص بدم الصيد دليلا على تعرض يوسف للهجوم من قبل الحيوانات.

لم يفكروا في حيوان غير نفس الذئب الذي احتمله أبوهم. لقد قال أبوهم ذلك كمثال وليس بالجد. كان يوسف غلاما آنذاك والغلام يعني الظاهرة غرةَ شواربه فلم يكن عمره أقل من ثلاث عشرة سنة.

كانوا سابقا يحملون العصي والأكل معهم في أسفارهم وتنزهاتهم للدفاع عن النفس. حتى الذئاب الخطيرة فهي تهرب من العصا ومن شاب يتجاوز الثانية عشر عاما.

فظنوا بأن تكرار ما احتمله أبوهم سيفيدهم ويزيد أباهم يقينا بالحادث الكذب. كان من الأنسب لهم أن يتهموا حيوانا أكبر وأشد فتكا من الذئب. ثم أي ذئب يقوى على أكل شاب بالكامل؟ كان عليهم أن يأتوا بالجسد المقتول دليلا على صدقهم ولكن ادعاءاتهم كانت حمقاء مثلهم.

ثم اتفقوا على تصنع البكاء وعلى الدخول على أبيهم دون زوجته وأن يكون الوقت ليلا ليصدق استباقهم وطول غيابهم عن يوسف. يعقوب أب لهم جميعا ولكن أم يوسف ليست أما لهم فسوف تنفجر مشكلة كبيرة لو بدأوا بها.

وصلوا البيت ليلا وقد ساعدهم الهلع أن يتصنعوا البكاء بل أن يبكوا فعلا. إنهم يعلمون بأن ما فعلوه منكر كبير والمفقود هو في النهاية أخوهم الصغير الذي داعبوه طويلا. فاستعدوا لدخول البيت حذرين من أن لا يصل صوت بكائهم إلى غير الأب الذي يحمل قلبا كبيرا. فمشوا الهوينا،

وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ ﴿16﴾

كان يعقوب ينتظر ذلك فلم يبد على وجهه أمارات المفاجأة مما أضاف إلى خوفهم قدرا آخر من الخوف. وبعد البكاء أو التباكي،

قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿17﴾

توقعوا تبادل البكاء مع الأب حتى تضيع القضية ويتشارك الجميع في المصيبة وكأنها مصيبة نزلت من السماء وليست من صنع أيديهم.

وكما يبدو فإن الأب الكبير لم يساعدهم بالبكاء بل انتظر المزيد من الأخبار قبل أن تظهر على وجهه أمارات ردة الفعل.

لم يكن لديهم أي مجال للتفكير فكل ما يأتون به يعبر عن اتفاق على كل المشاهد التي يلعبونها والتي سيلعبونها فيما بعد[7].

إخوان يوسف لم يتمكنوا من تدارك الموقف حينما رأوا أباهم لا يشاركهم البكاء بل ينتظر ليسمع منهم حديثهم. أحتمل أنهم شعروا بأن الأب الحكيم انشغل بتحليل الموقف بدلا من الانفعال والانخراط بالبكاء.

وهكذا فإن المؤامرات تنكشف بسرعة أمام الذين أوتوا الحكمة والعلم. واستمروا في إظهار المشهد الثاني من المؤامرة،

---

[7] حينما نقرأ قصص أنبياء الله تعالى على لسان ربهم وهو لسان الصدق والحق، نرى بأنهم لا يتفاجؤون بل يفاجئون الآخرين بتصرفاتهم العقلانية التي تفوق كل المؤامرات.

فمثلا محاولة فرعون لإفزاع موسى بإحضار مقادير كبيرة من المواد السحرية المعمولة والآخذة أشكالا كبيرة تفوق طول الحية التي رآها في قصره فإذا بموسى يقف أمام الناس ويستغل التجمع الكبير ليدعوهم إلى الله تعالى ويخوفهم من أن يسحتهم بعذاب لو استمروا في افتراء الكذب على الله عز اسمه. فانهار فرعون واضطر أن يجمع وزراءه فورا لتدارك الموقف. نهاية الهامش 7.

وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿18﴾

لم يخطر ببالهم أن يكون القميص الذي لطخوه بالدم غير قميص يوسف. نظر أبوهم إلى القميص قائلا ليس هذا قميص يوسف بل هو قميص أخيه!. إنكم تكذبون علي.

فتحوا عيونهم وإذا به قميص الأخ وليس قميص يوسف. اندهشوا ولم يعرفوا ما الذي فعلوه. هل أخذوا الأصغر بدل الأكبر أم تركوا يوسف مع قميصه ينحدر نحو قاع الجب العميق أم ماذا؟ هذا فعلا ليس قميص يوسف. انكشفت المؤامرة أمام حكمة يعقوب واضطرب الإخوة المجرمون وعرفوا بأنهم أخطأوا.

إنهم لن ينالوا وجه أبيهم بل سوف تقل محبة الأب لهم. لقد عرف الأب كل شيء ولكنه لم يبد لهم معرفته سوى ما أتى به من استنكار لكذبهم.

شعروا بأن أباهم يضمر أشياء لا يقولها لهم. لقد هابوا أباهم وعرفوا بأنهم دون أن ينالوا عظمة قلبه أو يغيروا أعماق نفسه. إنه ينظر بنور ربه الذي يعلم منه ما لا يعلمون. شعروا بأن أباهم واثق من أن يوسف على قيد الحياة ولكنه لا يقول لهم كيف ذلك.

لقد علم آباء بني إسرائيل كم هم جاهلون!!

فكروا في كلام أبيهم: بل سولت لكم أنفسكم أمرا، يعني بأنهم هم الذين فعلوا شيئا وليس هناك ذئب ولا حيوان مفترس في القضية.

ثم فكروا في ما أضافه أبوهم: فصبر جميل. يعني بأن الأب ينتظر عودة ابنه فكيف يمكن أن يخلو وجهه لهم؟

إنه كان يرى يوسف يوميا وينشغل به وبزهرة شبابه ويعطيهم أقل وجها ولكنه من اليوم سوف يفكر في استعادة الابن وسوف يراهم كل يوم بعين الادانة لانهم هم الذين تآمروا على أخيهم الصغير.

إنه نبي مرسل من الله تعالى وهو يستجير بربه: والله المستعان على ما تصفون، فما الذي سوف يحل بهم من الآن؟ تبددت كل آمالهم ولم يعرف كبيرُهم كيف يُقنع أباه بأنه ليس مذنبا ولو فتح فمه فسوف لا ينجو من إخوانه التسعة الذين لا يتورعون عن عمل أي شيء ضده حينذاك. شعر الأخ الكبير بأن واجبه كان أن يخبر أباه بالمؤامرة قبل أن يذهبوا ولم يعرف بأن مشيئة القدر أعمته وأعمت كل إخوانه.

وأما أم يوسف فإنها استقبلت زوجها النبي الكريم يهدؤها ويقول لها كما أظن: لا تجزعي فإن ابنك سيعود إليك ولكن بعد فترة طويلة احتمالا. إنه قطعا حي وله مهمة سوف ينهيها ويعود إلينا.

وكيف تعرف ذلك يا يعقوب؟

يعقوب: لا أقدر أن أفصح عن كل شيء ولكن اعلمي بأني أعلم من الله ما لا تعلمون!

هدأت الأسرة الكبيرة ولم يتعالَ النحيب والبكاء كما تصور الإخوة الضالون. إنها أسرة النبوة وإن يعقوب بينهم ويعرف كيف يهدّئهم. لقد اسود وجه الإخوة ولكن الأم ولعل الأخوات سمعوا من يعقوب في غياب الأخوة ما يطمئنهن بأن يوسف عائد وبقوة. خسر الإخوة الحمقى وجه أبيهم وخسروا وجه زوجته ولعل وجه أخواتهم إن كان لهم أخوات في البيت. وهذا جزاء المسيئين.

ومما لا ريب فيه بأن يعقوب أخفى عنهم ما قاله لأم يوسف لأنهم لا يستحقون أن يطمئنوا بأن أخاهم راجع. عرفوا بأنهم خسروا أباهم وخسروا أخاهم ولكنهم لم يعرفوا ولم يفكروا أبدا في الموقف الذي ينتظرهم أمام يوسف الوزير المصري من خذلان وخزي.

وحينما راجعوا أنفسهم في جلسة لاكتشاف أسباب الخطأ، دار بينهم الحديث عن القميص. خافوا كثيرا من قصة القميص وصاروا يحسون بأن وراء القميص حدثا كبيرا بانتظارهم. بحث الجميع عن

قميص يوسف في البيت فلم يهتدوا . لقد استغرب كل من في البيت إلا يعقوب الذي التزم الهدوء تجاه قصة القميص . اختفى القميص وبقي الشك يراود الأم وبقية الأهل حول الإخوان .

ما كان في إمكان يعقوب أن يخبرهم بالموضوع فهو سر يجب أن يبقى حتى يأتي وقته بإذن الله تعالى . لكن الإخوة في أعماقهم قالوا ولعلهم تداولوها بينهم بأن يوسف قد سرق قميص أخيه الصغير دون أن يعرفوا السبب . ولعلهم ظنوا بأنه لم يعثر على قميصه فسرق قميص أخيه لحاجته إليه أو لأنه كان مشتاقا للسفر في أول سفرة له مع إخوانه . والخلاصة أنهم قد مكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

ولعلهم فكروا فيما بعد بأن الأسرة لم تطالبهم بمكان عظام يوسف أو قبره فلا يمكن أن يأكل الذئب كل البدن بما ضمنه العظام . ولعلهم خافوا من ذلك أيضا .

يوسف في بيت العزيز

يوسف في الجب؟

وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿19﴾

بقي يوسف في الجب وحيدا ليس له إلا الله تعالى. هذا ما حصل لإبراهيم جده الأكبر وهو يُغادر وطنه ولكن يوسف الآن في سجن صغير محدود الحركة. جدران البئر أعلى من أن يفكر في تسلقها . لبس يوسف قميصه ليقيه من البرد والحشرات بانتظار الخروج بفضل ربه. لعل هذه المرحلة تعادل لحظات النار التي أحاطت بابراهيم ذات يوم.

لم يبق يوسف كثيرا، يناجي ربه وهو مستمتع بالحديث القلبي مع الله جلت عظمته. هكذا يصل الأنبياء إلى الدرجات العلا وليس هناك طريق آخر.

لا يفكر الإخوة بأن نظام العدالة الذي يحكم الكائنات لا يمكن أن يتحرك بغير أن يستعد ويتأهل المستفيد وغاب عنهم أن العزيز الحكيم لا يظلم مثقال ذرة. ولولا ذلك لما استقر شيء في الكون المهيب.

إنه سبحانه أقر قانونا للميراث باعتبار أن لأهل الميت أثر إيجابي في ثروة معيلهم ولذلك يورثهم الله تعالى القسم الأكبر من الميراث. وإذا اختار الله تعالى الأنبياء من أسرة واحدة فهو باعتبار تأثير المورثات الجينية فلا يمكن أن يكتفي سبحانه بها .

ألم يروا بأن يوسف وإخوانه كانوا جميعا أسرة نبي كريم واحد فلم يستفيدوا عدا يوسف من مواريث الأنبياء ؟ مما لا شك فيه أن يعقوب كان في ريب من أن تبقى النبوة في أسرته حينما طال العهد وكبر أكثر أولاده دون أن يرى البوادر.

وصلت القافلة بعد وقت غير طويل احتمالا واتجهوا نحو الجب الذي يدعو منه يوسف ربه، وكأنهم على موعد معه. هكذا يقدر الرحمن لعبيده أن يكونوا في عون بعضهم إن يريد هو العون ولو أنهم يريدون

غير ذلك كما يُقدِّر سبحانه أن يضروا بعضهم أحيانا إن كان يرى في الإضرار مصلحة ولو أنهم يريدون النفع.

أرسلت السيارة الواردة ساقيَها ليجلب لهم الماء من البئر العميق. هذه عادة القوافل أن يتقدمهم الوارد ليحضر لهم الماء. أدلى الساقي دلوه بانتظار الماء فركب يوسف الدلو بدل الماء. ليس غريبا لو نظن بأن الساقي ذهل حينما رأى الدلو يحمل غلاما بدل الماء. ولعله كاد أن يترك الدلو ولكن الذي قدَّر ذلك فهو الذي يحفظ أيضا إنه حميد مجيد.

تمالك الساقي نفسه مناديا زملاءه ومقدما لهم البشرى بأنهم حصلوا على غلام. لم تكن اللغة غريبة عليهم وكان بإمكانهم التحدث إليه. كما لا نشك بأنهم توسموا فيه أنه ابن أسرة مرموقة وبأن هناك مشكلة بسيطة وراء وجود هذا الفتى في البئر.

إن المروءة والشرف تفرض عليهم أن يسألوه عن أهله ليعيدوه إليهم إن لم يكن في إعادته خطر على حياته. ومن أكثر الاحتمالات قبولا بأن يوسف قال لهم شيئا عن أمره وبأن أباه وأمه ينتظران أي خبر منه. لكن السيارة أو أصحاب القرار فيها رأوا بأن من مصلحتهم أن يخفوا أمره ويعتبروه بضاعة ليستفيدوا من بيعه.

هؤلاء هم المجموعة الثانية التي تؤدي اختبارها بعد إخوانه فتفشل أمام ربها كما فشل إخوة يوسف. ويكتفي الله تعالى بأن يهدد عبيده بعلمه وبأنه مترصد لهم. إنه سبحانه لا يخاف أن يهرب منه أحد ولا يخشى أن يشاء أحد أمرا خارج نظام مشيئته جل وعلا. قال سبحانه في سورة التكوير:

وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29).

يفزع العاقل حينما يتصور الناس يفعلون ما يفعلون ضد بعضهم غافلين أن ملك الكون المهيب معهم يراقبهم ويعد أنفاسهم.

إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95/مريم).

والبضاعة تُطلق أصلا على القطعة الطيبة الهبرة من اللحم. ولكن يحتمل أنه قد اصطلح فيما بعد على ما يملكه المرء من طيب المتاع ليستعمله في تجارته. فالتاجر لن يتسنى له المتاجرة بغير الحسن الثمين مما يملكه. ولذلك فالبضاعة مال للتجارة وهو من أطيب المال.

ولم ترد هذه الكلمة بهذا المعنى في غير سورة يوسف في القرآن الكريم. فوردت كتعريف لمن لا يعرف يوسف بعلمه وتقواه ولكنه يعرفه بأنه مال طيب للتجارة، كما وردت لما قدمه إخوان يوسف ثمنا للحبوب ولذلك وبعد أن اضمحلت أحوالهم سموا بضاعتهم بالمزجاة. فنعرف بأن البضاعة في القرآن تعني فعلا الطيب من المال ولو استعمل أحد الرديء للتجارة فهي بضاعة غير نقية بل هي مزجاة، والعلم عند من أنزل القرآن سبحانه وتعالى.

اصطحبت قافلة التجار يوسف معها لتبيعه في مصر. فلعلهم كانوا فعلا تجار مصر لكنهم لم يعلموا بأنهم يبيعون من سوف يحكمهم ويتحكم في طعام بطونهم طيلة سبع أو أربعة عشر عاما بالأحرى.

عرضوا يوسف بكل حذر وخوف في سوق النخاسة. كانوا يخافون من أن تتفتح قريحة يوسف ليفهم الناس قصته فيواجهوا مشكلة كبيرة. إن النُخّاس عادة ما يتعاملون مع الأباعد من البلدان البعيدة جدا أو يتداولون ما ملكت أيدي شعوبهم خلال الحروب.

والأهم من ذلك أنهم لم يكونوا تجار عبيد وإماء فالشكوك قد تحوم حولهم بأنهم سرقوا الغلام من بيت من بيوت أغنياء مصر. والطامة الكبرى تكون إن نودي في المدينة بأن غلاما قد ضاع من الوزير أو العزيز أو النبيل. بقي يوسف في معرض البيع لحظات حتى حام حوله الزبائن وكذلك تجار العبيد.

ومن طرف آخر فإن أحد وزراء فرعون كان عقيما أو كانت امرأته عاقرا. كان هو وزوجته يتمنيان الولد فكأن الوزير كان بصدد شراء طفل أو تبنيه.

ولا نعلم ما الذي أوصل الوزير إلى سوق النخاسة؟! على أننا نعلم بأن بيع يوسف ما كان ممكناً خارج السوق. فكل بيع من ذلك الشكل يُعتبر نوعا من التخفي وغير مأمون العواقب. كما نعلم بأن الوزير لن يقبل أن يشتري عبدا من المارة. فيا ترى هل أوصى الوزير أحدا ليُعلمه عن أي غلام أو طفل مميز يدخل السوق أو أنه كان مارا في عودته ظهرا إلى قصره وكان السوق في طريقه فانتبه إلى أن أهل السوق يحومون حول بضاعة جديدة دخلت السوق أو أي احتمال آخر؟

المهم أن الوزير انتبه لذلك وبمجرد دخوله السوق ابتعد الآخرون احتراما له وخوفا منه. رأى الذين انتحلوا يوسف بضاعة بأن من الخير لهم أن يرضوا الوزير فلا ينكشف أمرهم. لعلهم تمنوا أنهم لم يأتوا به في السوق بل لم يأخذوه من المنطقة التي أخرجوه فيها من الجب.

من الطبيعي أن تتوقف المزايدة حينما دخل العزيز واختار يوسف ليشتريه. ولو فرضنا أن المزايدة كانت في بدايتها فمن يجرؤ أن يزيد على سوم الرجل الحكومي الخطير. ولذلك باعوه بما تسنى لهم دون تعطيل. لم يحصلوا على سعر معقول بل باعوه بسعر أرخص بكثير مما يُباع أمثاله، لو فرضنا وجود أمثال له. حالهم كان حال لص سرق ابن ملك من الملوك وعرضه للبيع فهو في خوف وذعر ويبيع بأي سعر لأنه لص كبير. وصدق الحق المتعالي حيث قال:

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿20﴾

انتقل ابن إسرائيل إلى قصر الوزير المصري الذي اشتراه بسعر زهيد ولكنه لمس كبرياء في الغلام يستحق معه أن يتبناه. لو كان يوسف طفلا لما كان هناك إشكال في تبنيه ولكنه كان غلاما في بداية الرجولة. لكن العزيز على أي حال لم يرض بأن يسميه عبدا أو خادما . فلم يقل عسى أن يخدمنا أو يحرس بيتنا مثلا. لقد أوصى زوجته في يوسف قائلا: **أكرمي مثواه**. وهو يعني ما يقول بأن يجعله عضوا أساسيا في البيت كما لو كان لهما ولد .

لا ندري ما الذي جذب الوزير وليس لنا أن نقول إلا أنه الذي اجتباه ربه للنبوة. وأنه سيدخل بيتا غريبا عليه لغرض تربوي كبير. في الحقيقة أنه لا يمثل في منطق السماء دور المالك بل هو الذي اشتراه من مصر. إن له دورا هاما في هذه المسيرة الكبيرة ولكنه يجهل دوره.

الغريب في قصة يوسف أن كل الأشخاص يقومون بأدوار لصالح القضية ولكنهم يقصدون شيئا آخر. والعجب من ربنا العظيم الذي له هدف خاص يستعمل فيه من يشاء من أصحاب القدرات بالشكل الذي يريده في حين أنه سبحانه يختبرهم ويُبلي نفوسهم أيضا . حكمة غريبة لا يسع الإنسان إلا أن يخضع إجلالا للعليم الحكيم. دعنا نقول كما قال ربنا وهو يصف لقاء العزيز بزوجته مصطحبا يوسف:

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿21﴾

يظن الوزير المسكين أنه اشترى من سيبقى عنده إما ولدا أو مساعدا مكرما . وهو أيضا يجهل بأن هذا الذي اشتراه من مصر سوف يدخل قلب ملك مصر قريبا فيصير الوزير المقتدر تحت ظلاله.

لنقرأ قصة يوسف مع الوزير المصري الذي سيفتح الأبواب أمام يوسف دون أن يخطر بباله ما سينتج من إكرامه ليوسف. ولنكن واقعيين فإن العزيز فعلا أكرم يوسف وما يقوله اليهود بأن الملك طرد العزيز وأخذ منه زوجته وزوجها بيوسف هو غير صحيح.

ينظر اليهود إلى يوسف نظرتهم إلى أنفسهم التي لا تتعدى مصالحهم وقلما نراهم يهتمون بالمبادئ والمثاليات. كيف يمكن أن نتصور هذا اللؤم في نبي عظيم مثل يوسف؟ سنرى بأن كل مواقف العزيز كانت جميلة محمودة تدل على أنه أحب يوسف واعتبره ابنا له فعلا. ولا نعرف من الذي أرسل يوسف إلى السجن، فالقرآن لم يصرح بأنه العزيز نفسه.

وكان يوسف مهتما أن يعلم العزيز بأنه لم يخنه بالغيب. فالعزيز برأيي هو أحد أفضل أبطال القصة. إنه كريم ولذلك يقول لها: أكرمي مثواه. لقد رأى يوسفَ دقائق أو ساعة مثلا وأكرمه وأمر بإكرامه فهو إنسان طيب بالمفهوم الإنساني.

وذكر سببين لأمره بالإكرام وهما: أن ينفعهما، أولا. ذلك يعني أن يستفيدا من ذكائه وعلمه والكرماء يكرمون العلماء. لم يقل أن نستفيد منه فيعني أنهما يشغلانه فيتنفعان من عمله. بل نسب النفع إلى يوسف بأنه هو الذي ينفع فقال ينفعنا. هذا يعني بأن العزيز شعر بأن الضيف الجديد إنسان كريم لا يحتاج إلى من يأمره بأمر، بل هو الذي يقدم ما بيده لينفع الآخرين.

وحتى يقفل الطريق أمام زوجته فلا تُشكِّك في حسن نيته أضاف بأنه لائق لأن نتخذه ولدا، ثانيا. ويعني بأنه يمكن أن يسد النقص الذي منينا به. ولعل السبب الأساسي في أنه بدأ بما يمكن أن يصلهم من نفع من يوسف هو أن النساء يكرهن عادة أن يُنظر إلى كبر عمرهن. فأن يُقال بأن هذا الغلام ابن لسيدة البيت يعني بأنها ليست صغيرة كما تنظر هي إلى نفسها ولذلك بدأ بما ينتظره من نفع من وراء يوسف ثم ذكر النقص الموجود بينهما. وكلا السببين يدلان على أنه صار مشدودا ليوسف ولا يريد أن يخسره بأي ثمن.

أما السيدة فسنعرف بأنها فعلا لم تنظر إلى يوسف كولد لها بل نظرت إليه نظرة أخرى. ويمكن أن نقول بأنها أرادت أن تصفع زوجها الذي عرض عليها تبني غلام مثل يوسف فهي أصغر من أن تكون أما لهذا الغلام. لعلها كانت تنتظر الأولاد ولعلها كانت تظن بأن زوجها هو السبب، لكنها على أية حال لا تتوقع أن تكون أما لفتى في هذا العمر. وسوف نحلل الموضوع فيما بعد بإذن الله تعالى.

وأما المشهد الخفي لهذه القضية فهو أن الله تعالى أراد للعزيز وقصره وكل من يزوره، أن يكون مدرسة تأهيلية للنبي المقبل على تحمل مسؤولية جسيمة ليتعلم تأويل الأحاديث.

وتأويل الأحاديث أعم من تأويل الأحلام ولكن وجود عدة رؤى في مسيرة النبي يوسف جعل المفسرين يظنون بأن الله تعالى أراد أن يعلمه تأويل الأحلام[8].

---

[8] إنه تعلم تفسير الأحاديث وعن طريقها تمكن من تأويل الأحلام في الواقع.

لننظر نظرة سريعة إلى مفهوم الأحاديث في القرآن الكريم. وقبل البدء في الموضوع دعنا نفهم أن تأويل الأحلام غير تأويل الأحاديث.

فقد استعمل القرآن لفظ تأويل الأحلام في سورة يوسف ولو كان ذلك مرادفا لتأويل الأحاديث لكان ممكنا أن يكتفي بواحد منهما حتى لا نضيع في معناهما. ولم يقل الله تعالى ولا يعقوب بأن الله أراد ليوسف أن يتعلم تأويل الأحلام. إنه سبحانه سمى قصة يوسف حديثا في آخر السورة حينما قال سبحانه: ما كان حديثا يُفترى، كما سمى قصة ضيف إبراهيم حديثا أيضا. إنه سبحانه سمى القرآن حديثا بل سماه أحسن الحديث. فالحديث هو عامة الكلام الذي يخرج من شفتي المبتكر في الواقع فيكون حديثا بالنسبة لما ألفه الناس. دعنا نحاول فهم الموضوع بطريقة اوسع.

لو أننا نسعى لتدبر السر في القضايا التالية في القرآن فسوف نصل إلى بعض الحقائق العلمية، بصورة طبيعية:

1. كان نوح قريبا من الذين يحكمون قومه قال تعالى في سورة الشعراء:

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111).

فقوم نوح الأصليون هم الملأ الذين كذبوه وهم الحاكمون هناك. كانوا يشعرون بأن هذه الدعوة لا تفرق بين النبيل والرجل العادي ولذلك خالفوه بشدة. وهكذا قوم هود وصالح فلقد خاطب الله تعالى الحاكمين بأنهم قومهم الحقيقيون واستعمل لهم كلمة الأخ.

2. كان إبراهيم قريبا من الملك العراقي ولعله نمرود وكان آزر أبوه وهو من المقربين إلى الملك. ولقد رأينا بأن إبراهيم دخل على الملك وقام بمناقشته وهو أمر مستحيل للأباعد.
3. تربى موسى في قصر فرعون منذ نعومة أظفاره حتى اشتد ساعده. ثم عاد مرة أخرى إلى قصر أبيه الذي تبناه، فدعاه وصبر عليه فترة طويلة لعله يتذكر أو يخشى.
4. تربى عيسى في حضن زكريا وهو سيد قومه بل هو سيد بني إسرائيل وهم أكبر قوم احتفظوا بقيمهم العائلية هناك.
5. لم يكن محمد بعيدا عن سادة قريش فعمه كان موئلا لهم وبنو أمية الحاكمون يشعرون بحقوق بني هاشم في الأسرة القرشية الكبيرة ويعترفون بها.

لنسعَ الان لفهم الأسباب الحقيقية وراء اختيار الله تعالى أنبياءه من بين الأسر والأقوام القريبة من الملك والسلطة.

إن من ذكرناهم عدا هود وصالح فهم المعروفون بأولي العزم بيننا نحن المسلمين. وأما داود وسليمان فهما قد بنيا لنفسيهما سلطانا بقوتهما. والذي نعرفه بأن داود هو الذي بنى المجد بانتصاره على الفلسطينيين القدماء ثم آتاه الله الملك والنبوة. فهو ملك قبل أن يكون نبيا فيكون سليمان متربيا في ظلال العرش السلطاني. ولعلنا نستوحي لذلك الامر الأسباب التالية من كتاب الله تعالى:

1. الدعوة السماوية تأتي للقرون وليس للأفراد، والقرون هم المجموعات المتكاملة المتقارنة مع بعضها والذين يشكلون أمما كاملة. فيهم الملوك والنبلاء والعلماء والأغنياء والصناعيون والحرفيون والعمال والفقراء.
2. الأنبياء ليسوا مأمورين بدعوة كل البشر وإلا لكانوا متواجدين في كل زمان ومكان. ذلك لأن نظام الألوهية لا يريد من بعض الأقوام الكاملة إلا أن يصيروا نماذج لغيرهم من البشر. هكذا يمكن انتخاب مجموعة أكبر من الناس لدخول جنات النعيم. ومن السهل معرفة أن الله تعالى كريم يريد أن يتوقى إرسال عبيده إلى النار. إنه سبحانه يحب أن يهتدي الناس جميعا فتعمُّ عليهم نعمه وأرزاقه ويُظهر بهم كرمَه وجوده. وما يأتي به من اختبار فهو من ضرورات عدالته التي لا يمكن أن يتجاهلها. فهو رب العالمين جميعا.
3. إن الملوك هم مراجع القدرات المالية والعسكرية وهكذا القضاء والتنفيذ وأحيانا التشريع، لهم جاذبية خاصة يجتمع في حضرتهم العلماء في كل الفنون. فمنهم ومن مجالسهم ومؤسساتهم يظهر وينتشر ما استحدث من ابتكارات علمية ومن عندهم تبدأ اللغات الجديدة. ولذلك فلا يمكن إدراك مغزى الجمل الجديدة والاستعمالات المستحدثة للكلمات في اللغات الأصلية إن ابتعد الإنسان عن مجالس الملوك. فاللغة والحضارة والثقافة العامة ليست إلا اتفاقا اجتماعيا على استعمال كلمة أو اتخاذ عادة أو إبداع علاج لأمراض المجتمع وأمراض أفراده، فتحتاج إلى مجمع يتفق فيه المجتمع، والملك هو المسيطر على تلك المجامع المختلفة. والنبي إنسان يريد أن يتحدث

إلى الأمة فعليه أن يبدأ بملوكها لأن الناس على دين ملوكهم. ثم عليه بأن يتعرف على حضارة الأمة ويفهم لغتها ويتعرف على استعمالها لكل مفردة لغوية وخاصة المفردات الحديثة فعليه أن يتواجد في المجالس الملكية، حتى لا يكون بعيدا عن التطور العام لمجتمعه وقومه.

لهذه الأسباب الجوهرية في تبليغ أوامر الله تعالى ونواهيه وحكمه وعامة تشريعاته وخاصة قبل الدعوة الختامية – التي لها خاصية أخرى، نسعى لنتحدث عنها في نهاية هذا البحث – فإن الله تعالى قدّر أن ينبثق أنبياؤه من بيوت الملوك أو يتواجدوا بينهم من الصغر أو من عهد الشباب ليتعلموا لغة المجتمع ويتعرفوا على بديهيات الأمة التي سيتولون تبليغ رسالة السماء فيها.

فتأويل الحديث هو بمعنى تفسير الكلمات والجمل المستحدثة الخاصة بالأمة التي يكون المرشح للنبوة والرسالة مستعدا لمواجهتها والاندماج معها. أضف إلى ذلك بقية علامات التواصل من إيماءات وإشارات وعادات وتقاليد ووو.

وحتى يسهل على القارئ فهم هذه المسألة الجوهرية فيمكن له أن يفكر قليلا في الذين يرشحون أنفسهم للمناصب العليا مثل رئاسة الجمهورية وحتى الذين يترشحون للنيابة في البرلمان فإن الناخبين يهتمون كثيرا بخطبهم وبالمناقشات العلنية معهم. إنهم من خلال ذلك يتعرفون على حقيقة الشخص فيصوتون له أو لا يصوتون.

وطيلة حكمه ونيابته فإن خطبه هي التي تقنع الناس ليساندوه وبها يستولي على أذهان الكثير من المنتقدين وبها يبدل كل إشكال لصالحه. ولذلك نرى بأن القوانين المتطورة تفرض على المرشح للرئاسة أن يكون مقيما في وطنه زمنا أكبر من أزمان أسفاره. ذلك ليكون على علم مستمر ومتواصل بالتطور الثقافي والحضاري وليكون قادرا على التفاهم مع مجتمعه. وأصل التفاهم هو اللغة وفهم اللغة ليعرف كيف يوصل رسالته كما يعرف في المقابل رسائل المستمعين والمرسلين إليه. ولولا ذلك لا يمكن أن ينجح في رسالته ولا يمكن أن يصل إلى هدفه متسلحا بالقوة النفسية المطلوبة.

فمن ضروريات الرسول الإلهي أن يكون على علم كامل بلغة الناس ولولا ذلك فإنه سيكون عديم الشأن.

هذا لا يعني أن يكون بليغا بالضرورة ولا يعني أن يعرف النحو والصرف. فموسى بن عمران لم يكن بليغا ولكنه كان يعرف لغة الأقباط ويعرف تأويلها بالكامل كما يعرف كيف يتحدث إليهم بحيث يفهمونه.

والحقيقة أن مسألة التحدث المباشر إلى الناس لا تحتاج إلى المزيد من العلم بالبلاغة وخفايا الكلمات الغريبة. ذلك لأن الذي يعرف ما يريد أن يقوله فإنه يضيف إلى رسالته الخطابية إشاراته اليدوية والعينية وكذلك يفيض على الحاضرين وحيه النفسي والقلبي. ولكن المهم أن يعرف ما يقول الناس له.

بالطبع أن البلاغة الخطابية تساعده كثيرا ولكن المهم ألا يستعمل الألفاظ والكلمات التي تدل على مفاهيم أخرى بعيدة عن موضوع حديثه وبحثه أو خطابه. ولو تعمق في المسألة لتدبر مسألة رسالة السماء التي لا يحملها إلا من هو لائق بالارتباط بالله تعالى وبالناس. فالرسول الذي

وقبل أن نكمل الكلام حول تأويل الأحاديث جدير بأن نلتفت إلى أن الله تعالى أشار إلى دخول يوسف في قصر العزيز هكذا:

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ.

ولم نسمع طيلة وجود يوسف في القصر أي رؤيا أو منام. إنه بدأ بتأويل الأحلام بعد أن ترك القصر مُكرها إلى السجن. وسنرى أن الحديث في القصر كان حول شخصية يوسف وقدرته على البيان إضافة إلى عفته وسماحته وأمانته.

فكيف نتصور مدرسة لتأويل الاحلام دون أن يذكروا فيها الرؤى والمنامات؟ فهي مثل مدرسة للموسيقى و مدرسوها حرفيون يصنعون الأحذية الجلدية؟!

والحقيقة أن قصر الوزير الفرعوني كان مجمعا للوزراء والأدباء وأهل اللغة وكبار موظفي الدولة ومدرسيها. ولذلك كان مكانا مناسبا ليتعلم يوسف تأويل الكلمات اللغوية من مصدرها. ثم إنه في ذلك القصر اشتهر بين المرموقين وعرفوه شابا مهذبا عفيفا. ومن ذلك القصر انتقل إلى سجن خاص بالشخصيات وليس سجنا عاديا. ولذلك وضح الله تعالى النتيجة المتوخاة بقوله الكريم:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿22﴾

لنعد إلى نهاية الآية السابقة التي تركناها دون أن نتعرف على مغزاها قبل أن نفهم حقيقة الآية الكريمة في أعلاه.

يجهل التواصل مع الناس لا يليق بالله أيضا. كيف يمكن لرسول لا يعرف العربية مثلا أن يحمل القرآن العظيم أو لا يعرف العبرية أن يحمل التوراة العظيمة؟. نهاية الهامش8.

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ.

الواقع بأننا لو لم نلاحظهما معا فسيكون فهمنا للآيتين فهما مرتبكا ضعيفا . بل من الأفضل أن نلتفت إلى آية أخرى داخل السورة بعد أن قابل يوسف الملك وأخذ منه المنصب الوزاري الهام، وهي قوله تعالى :

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) .

وواضح أن التمكين الثاني في الآية 56 هو فعلية التمكين وأما التمكين الأول فهو باعتبار إعداده ليكون قادرا على تسلم المنصب. فمدرسة الوزارة ليوسف كانت في بيت أحد الوزراء . وبكل بساطة فإن الله تعالى في الآية 21 أراد أن يعلم يوسف كيف يتمكن من الأرض وكيف يتعلم الحديث مع الناس.

ولما بلغ أشده أكمل له الحكم الذي يفيده للتمكن من الأرض وأكمل علمه لتأويل أحاديث الناس. ولقد سمى التمكن في الأرض حكما وسمى تأويل الأحاديث علما .

بالطبع معرفة الأمر الثاني أهون من الأول بعد أن فهمنا معنى التأويل المذكور. ذلك لأنه سبحانه قال: (ولنعلمه) ثم أشار سبحانه إليه في الآية التالية: (وعلما) . فتكون الجملة الكاملة علمناه علما . والعلم كان معلوما في الآية السابقة بأنه علم تأويل الأحاديث وهو علم كشف المدلولات اللغوية الدارجة بين الناس وبين العلماء .

وكما وعدنا فسنتحدث في نهاية شرحنا لهذه الآيات حول عدم مشاركة نبينا التواجد في بيوت الحاكمين كما كان عليه إخوانه الأنبياء من قبل.

فلنعد مرة أخرى إلى الآية 21:

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

لقد وفق الله تعالى بين حاجة الوزير إلى ولد وبين عرض أصحاب القوافل يوسف للبيع وبين خروج الوزير من مكتبه أو أيِّ سيناريو آخر ليرى يوسف المعروض للبيع، ثم أدخل حب يوسف في قلبه ليقول لامرأته ما قال.

ولقد وفّق سبحانه بين ما فعله الإخوة وبين ورود السيارة في الوقت المناسب وبأن تكون القافلة متجهة إلى مصر وبأن يفكروا في عرضه في مكان يمر فيه الوزير. وهناك الكثير من التوفيقات الأخرى حتى أدخل يوسف بالشكل الذي يريده ربه الكريم في قصر الوزير المصري. هكذا مكَّن ليوسف في الأرض.

بالتأكيد أن من كانوا في قصر العزيز كانوا في خدمة العزيز وزوجته وليس في خدمة يوسف بدليل أنهم حينما رأوا إرساله إلى السجن فعلوا ذلك، فلم يكن يوسف ذا مكنة في القصر. إنما كان القصر وكل ما مر به من حوادث مَدرسةً له ليعرف كيف يتمكن في الأرض.

ونعرف جميعا بأن يوسف وحين تفعيل هذا التمكين قام ببناء أبراج تخزين الحنطة كما برمج لتجميع الحبوب ثم نظم البيع على العائلات بأسلوب فني يتناسب مع إمكانات عصره.

فما ارتباط موارد تمكينه مع ما رآه في سفرته إلى الجب وإلى مصر وإلى قصر الوزير وما واجهه في القصر؟

يمكننا تحليل كل ما أتى به يوسف من تجاوب مع القضايا التي واجهها حتى وصل إلى سدة الحكم وأصبح وليا لخزائن الأرض لنرى آثار التطور العلمي واضحة في المسيرة ونرجو أن يكون في مناسبة أخرى.

إلا أن كل محقِّق يمكنه أن يقوم بالإمعان فيما ذكرت ويتدبر في الوقائع ويشعر بأن يوسف كان فعلا في مدرسة علمية يتعلم من خلق الله تعالى ثم يطبع الله في قلبه الحكمة من كل حركة يراها أو يقوم بها .

هناك تعلم يوسف بفهمه لحكم الأفعال أن يحكم بما يجب أن يفعله في المستقبل. وواضح أن حكمة الشيء هو ما يمكن لنا معرفته بالتحليل للفعل ولأسبابه ولكن الفعل قد مضى وقوعه، وأما الحكم فهو لما نريد أن نفعله في المستقبل. فالحكم الصحيح هو ما يصدر ممن أمعن في كل ما واجهه في ما مضى من عمره وكشف موارد الخطأ والإصابة فصار خبيرا في تعيين العواقب. هناك يمكنه أن يحكم بما يجب أن يفعله مستقبلا.

فالذي تعلمه يوسف هو طريقة أخذ القرار ليكون مديرا قويا قادرا على إنجاز مهمته بدقة ودراية حتى لو كانت المهمة جديدة عليه. المدراء العصريون لا يبالون كثيرا بتغير مناطق عملهم فهم يستفيدون من الخبراء ومن الموظفين والعمال لفهم كل فنون العمل ولكنهم يحتاجون إلى خبرة كبيرة ليكملوا مسيرة أخذ القرار بعناية ودقة ويصدروا قرارات قابلة للتنفيذ . خاصة وأن المدير يصدر قرارا لينفذه غيره فيجب أن يكون القرار في منتهى الدقة والصلاحية والتكافؤ مع الإمكانات البشرية وغير البشرية الموجودة في مؤسسته.

هذا هو الحكم الذي تعلمه يوسف في حضرة وزير والوزير لا يعلم بأنه يُعلِّم وزيرا للمستقبل العام للبلاد بل يظن بأنه يُعلِّم ابنا يتبناه لمستقبله هو وأسرته.

وحتى لا ننسى يعقوب الذي أشار إلى ابنه يوسف بأن الله سوف يعلمه من تأويل الأحاديث، فكيف نرد على سؤال من يسأل عن يعقوب الذي فهم ذلك بمجرد أن سمع المنام من فم ابنه، فكيف عرف ذلك؟

إنه أمر سهل جدا فهو بالإضافة إلى معرفته السابقة بابنه فإنه رأى بأن ابنه لم يسرع إليه في نقل رؤياه بل فكر في كيفية عرض الرؤيا على أبيه بحيث لا ينزعج أبوه منه وبحيث لا يكون قد أساء الأدب مع أبيه، ثم إنه فكر مع غرابة المنام نفسه بأن ينقله لأبيه مهما كان ذكره محرجا .

عرف يعقوب بأن ابنه قادر على أن يدبر الامور ويديرها كما كان هو بنفسه مدبرا .

لو ننظر إلى يعقوب وهو يدير هذه الأمة الصغيرة المختلفة في رؤاها بكل هدوء ويفرض عليها حبه وسلطانه، فسنعرف بأنه كان مديرا غير عادي.

إن أبناءه على سذاجة تفكيرهم الأحمق في أن يخلو لهم وجه أبيهم كانوا يحلون هذا الأب ويركبون الإثم الكبير لأجل كسب وده. إنه رجل عجوز وغير موسر احتمالا ولكنه مدير قوي يعرف كيف يتعامل مع الناس وبتحليل بسيط لعلاقاته مع أولاده نعرف قدرته العلمية وحكمته التي غطت على كل مكر أبنائه الذين هم جيل جديد يُفترض أن يكونوا أكثر من أبيهم دراية بحكم التطور.

ثم لو نفكر في إبقائه لهؤلاء الأبناء الآثمين تحت سلطته بعد أن عرف بكل دقة ما قاموا به أكثر من عقد من الزمان ثم سخرهم ليذهبوا إلى يوسف في السفرة الثانية والثالثة بالطريقة التي فرضها عليهم؛ كل ذلك يبين قوة يعقوب في الإدارة والحكم بما يجب أن يفعل.

لما بلغ أشده

بقي أن نعرف معنى قوله تعالى (**فلما بلغ أشده**) .

بلوغ الأشد في القرآن ورد في عدة أعمار. فحينما يبلغ اليتيم سن الرشد وحينما يبلغ المرء أربعين سنة وحينما يصل حد الإدراك العلمي. ولذلك لا يمكن توصيف هذا التعبير بسن معين فعلا.

مما لا شك فيه بأن يوسف كان أقل من أربعين سنة إذ أنه كان غلاما حين دخوله بيت العزيز فلا معنى لأن تصبر امرأة العزيز خمسا وعشرين سنة أو أكثر حتى تبدأ بعرض نفسها عليه. فأظن بأن بلوغ الأشد هنا يعني بلوغ الرشد العلمي وهو يبدأ من سن الدخول في الجامعة عندنا وينتهي بابتداء المرحلة التعليمية العالية الثانية بعد ما لا يقل عن أربع سنوات حينما يسعى للماجستير أو الدكتوراه.

فبلوغ هذا الأشد حتى يتمكن يوسف من استيعاب العلم والحكم يطول أربع سنوات على الأقل إن لم يكن أكثر من ذلك. هناك يشتد احتماله للضربات الفكرية الكبيرة اللازمة لدفع الريب وبلوغ عين الحقيقة.

حتى العباقرة يحتاجون إلى زمان كبير ليتمكنوا من الحكم ويحصلوا على اليقين في المسائل العلمية المعقدة. ناهيك عن أن كل المتعلمين يحتاجون إلى الخبرة العلمية ليصلوا حد الحكم في المسائل. والخبرة تحتاج إلى زمان طويل.

وحينما دخل يوسف بيت العزيز وعلى الرغم من نبوغه الفكري كما رأيناه يتحدث لأبيه النبي العظيم يعقوب فإنه لم يكن بالغا أشده العلمي. إلا أنه هناك في بيت العزيز وبعد مرور زمن غير قصير بلغ أشده كما نعرف من الآية الكريمة.

وأما قوله الكريم:

وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

فباختصار فإن الأمر هو فعل يصدر من الله تعالى ولو لم يكن الله تعالى غالبا عليه لما أخذ الفعل مسارا دقيقا يبلغ بعده الهدف المنشود بكل عناية. وغلبته واضحة من إحاطته بالحاضر والغائب علميا وكذلك إحاطته بالإمكانات المتاحة إضافة إلى قدرته على إتاحة الفرص وإضافة الإمكانات متى ما شاء أو أراد جل جلاله.

وأما اهتمامه سبحانه بذكر المقطع الأخير الدال على جهل أكثر الناس بغلبة ربهم على أمره هو ما نراه من قيام الكثير من أصحاب الرسل الكرام والكثير من ذوي العلم ومن حملة التوراة والقرآن بالإثم والبغي. ذلك لأنهم لا يشعرون بتلك القوة القاهرة المحيطة بهم.

فلنفرض أن الله تعالى كان يُري الناس قدرته فهل يمكن أن نتصور أحدا يعصيه؟ إن الناس كل الناس يخافون من ملك أو زعيم قوي يدير شؤونهم فلا يعصونه لعلمهم بالمواجهة الصعبة والقاسية ولكنهم بكل سهولة يعصون الله تعالى وهو بنفسه لا بملائكته محيط بكل شيء ومحيط بالملائكة ويتتبع كل أفعال وحركات خلقه بصورة عرضية وليست بصورة طولية. فهو فعلا معنا أينما كنا وهو فعلا الأول والآخر والظاهر والباطن وهو فعلا على كل شيء قدير. ولكن أكثرنا لا يعلم.

ولنكمل فهمنا للآية التالية:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22).

بلوغ الاشدّ هنا مقصود منه الأشد العلمي وليس الأشد البدني. لأن الحديث عن الحكم والعلم وليس عن الفروسية أو المقارعة بالسيوف.

بالطبع أنه كان احتمالا في سن العشرين وليس سن البلوغ ولا سن الأربعين. والمحسن هو الذي يحسن التعلم برأيي والعلم عند الله تعالى. وقد اشتهر بيننا مثلا ولعله من أقوال الإمام علي بن أبي طالب: قيمة كل امرئ ما يحسنه. ويقصد به ما يحسنه علميا وتطبيقيا. فيوسف كان يتعلم وكان يطبق علمه ما أتيحت له الفرصة كما سنراه في رحلتنا معه إن شاء الله تعالى[9].

[9] والآن لنعرف ما هو السر في عدم تعرض خاتم الأنبياء للتواجد في حضرة السلاطين؟.

بكل بساطة يمكن القول بأنه لم يكن محتاجا إلى ذلك. إنه كان فوق كل شيء أميا لا يعرف القراءة والكتابة وحمَلَ رسالة أكبر من رسالة سلفه.

إن الأمر لا يتعلق بمحمد بقدر ما يتعلق بأهل مكة. قال الله تعالى في شأنهم في سورة آل عمران:

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110).

ولولاهم لما أنزل الله تعالى القرآن عليهم. إنهم من المهاجرين الأولين مع رسول الله. ولو ننظر إلى مواثيقهم مثل عهد الفضول وإلى قوانينهم مثل الأشهر الحرم لأدركنا بأنهم متطورون على كل أهل الأرض فعلا. نحن لم نسمع من الصينيين ولا من اليونانيين أي نوع من هذا التطور الاجتماعي الكبير المنبثق من مكة.

ويقول سبحانه في شأنهم في سورة آل عمران :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (192) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195).

هؤلاء كانوا قبل رسول الله ولذلك قبلوا دعوته واعتبروه مناديا ينادي للإيمان. هذا يعني بأنهم شعروا بأن الرسول يتحدث بما يؤمنون به ويعلمونه ولكن بلغة رسالية أقوى من لغتهم. إنهم اعتبروه مناديا لا معلما لأنهم يعلمون الكثير.

وللمزيد فهم ليسوا رجالا فقط بل هم مجموعة من الرجال والنساء. إنه تطور أسبق بكثير من التطور الغربي الذي وصل إلى أن المرأة إنسانة قبل عدة مئات من السنين فقط.

ثم لو ننظر فإن المكيين كانوا بجانب كل صفاتهم الطيبة يقيمون أسواق الشعر وهو عمل إيجابي كبير لنشر العلم ولنشر اللغة بين مختلف طبقات المجتمع. إنهم آمنوا بأن التفاهم باللغة يفتح أمامهم طرق السلام وهو ما يريده الله تعالى لحمل القرآن.

لكن الحكومات التي حكمت مصر والعراق وغيرها ممن سبقوهم كانوا يؤمنون باحتكار العلم في قصورهم ودواوينهم حتى لا تطغى عليهم الشعوب. ولنا في قصة المشائين اليونانيين دليلا واضحا على ذلك. فأرسطو كان أول من قام بنشر المعلومات الفلسفية بين الناس بإيعاز من المقدونيين طبعا لأنهم أرادوا أن يُكوِّنوا جيشا قادرا على سحق أكبر الحكومات فكان لزاما عليهم أن يزودوهم بالعلم والمعرفة ليتفوقوا على جيوش الحكومات الكبرى وقد نجحوا في خططهم.

وأما الإيرانيون فحتى بعد طردهم لليونانيين وقبل ظهور الإسلام فقد كانوا يحتكرون العلم في القصور الملكية. كان أنوشيروان المعروف بالعادل وهو من أكبر الظالمين يحتكر العلم لأبنائه وأهله.

إن محمد بن عبد الله لم يكن بحاجة إلى أن يتعلم ثقافة كانت في متناول يده ولا يحتاج أن يتعلم قوانين اجتماعية متاحة لكل أهله على السواء. وأخيرا سلام الله على نوح وإبراهم وموسى وعيسى ومحمد وعلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وعلى كل الأنبياء والصالحين. والسلام على أهل مكة الذين آزروا رسولنا الحبيب وعلينا جميعا إن اتبعنا الرسول الأمين واتبعنا رسالته الحكيمة في القرآن العظيم. نهاية الهامش 9.

امرأة العزيز

امرأة العزيز:

لهذه المرأة دور حيوي في تعليم يوسف ولكن المسكينة انهارت أمام علم يوسف وفهمه فظنت بأن الارتواء الجنسي منه يشفي غليلها .

ولو قال أحد بأن الزوجين كانا يتنافسان على تعليم يوسف ويتباريان فيكسب العزيز وتخسر امرأته لما اعتبرتُ قولَه مجافيا للحقيقة.

فيوسف في مدرسة الحُكم وتأويل الأحاديث والمعلم الأول هو الوزير ثم زوجته التي أمرها بإكرام مثوى يوسف.

وقد عطف الله تعالى قصتها المشينة على قصة تعلم يوسف وأنه كان يحسن التعلم والفهم. بالطبع أن ما يقال من أن يوسف كان جميل الوجه مثيرا للنساء كلام غير دقيق برأيي ولا دليل عليه من كتاب الله تعالى.

اهتمت امرأة العزيز بإكرام يوسف بأن تعلمه وتدربه على استقبال كبار الضيوف وتُفهمه الثقافة المصرية وثقافة القصور وثقافة الحكام.

والإكرام هنا لا يعني تقديم الأكلات الطيبة فذلك متاح لمن يدخل قصر العزيز وهو أحد أركان الدولة المصرية الكبرى. دولة احتضنت حضارة مرموقة لا زلنا نسعى بعد آلاف السنين لنفهم عمق مقوماتها وندرك مدى توسعها وانتشارها .

كان الزوجان يفكران في اتخاذه ولدا لهما والمهمة مناطة بامرأة العزيز. وواضح أن المرأة محببة للوزير بعقلها وربما بجمالها أيضا لكني لا أحمل دليلا قرآنيا على جمالها . وهي في نفس الوقت تهاب زوجها وتشعر بأنها تحت رحمة هذا الزوج ذا المقام الخطير في الدولة.

التقى يوسف بالكثير من الوزراء الذين يزورون العزيز واشتهر بينهم بعقله وذكائه واستدراكه لأخطائهم في مقولاتهم وأفكارهم. حتى الملك كان يعرفه ولذلك سماه باسمه حينما جمع زوجات الشخصيات الكبرى ليسألهم عن السر في استمالتهن ليوسف.

وهذا أمر طبيعي بالنسبة لإنسان بعظمة يوسف وهو في نفس الوقت محبوبُ زعيمِ القصر وزوجته فكانا بالطبع يقدمانه لضيوفهما كنوع من إبراز ثروتهما البشرية في القصر.

وكان الملك من بين الذين يحلّون أحيانا ضيوفا على العزيز بطبيعة الحال. كل الملوك وكبار الشخصيات يزورون كبار موظفيهم ولا يمكن أن يبقوا محصورين في قصورهم. ليس بمقدور فرعون أن يسير براحة في شوارع مصر ولكنه بكل راحة يدخل قصر وزيره ويتخلى عن البروتوكولات ليشعر بأنه إنسان مثلهم.

فاشتهر يوسف العبد بين كل أقطاب مصر بأنه فتى امرأة العزيز. والفتى يعني العبد المحبوب المدلل. ذلك لأن الفتى في الواقع يعني الذي يعطي غيره وعلى هذا الأساس أطلق على الكريم وعلى البطل الذي يدافع عن أهله وأمته ووطنه وعلى الشاب القادر على إدارة البيت وهكذا الشابة القادرة وقد استعير للذين يقدمون شيئًا لغيرهم أو يعرضونه فوقعت الكلمة بكثرة على المدللين الشباب من العبيد والإماء.

والواقع أن الذين تملك أيمانهم ذلك النوع من الفتيان والفتيات فهم يحبونهم جميعا لما ينتظرونه منهم من عطاء حتى لو كان العطاء أعمالا مفيدة تصدر منهم لصالح الأسياد.

ولعل السبب في تسمية ما يصدر من المفتي بالفتوى هو أن المفتي يمنح غيره من عطائه العلمي والعلم عند الله تعالى.

وامرأة العزيز باعتبارها امرأة شابة ترى بوضوح أمارات العبقرية على يوسف مما لا يوجد نظير له في زوجها وهو رجل قوي في الدولة.

وسنرى في سرد قصتها بعد قليل بأنها شديدة الذكاء قوية الشخصية مدبرة مفكرة لا تقوم بعمل دون سابق تدبير. حتى القصة الشهوانية التي نحن بصدد بيانها الآن فهي لم تبادر بها دون سابق تدبير. وإن صدور مثل هذه المراودة المشينة من امرأة حكيمة ليس عاديا. فلا بد من أن تكون هناك دوافع كبيرة في قلب سيدة القصر بحيث لم تتمكن من تجاوزها فطغت الدوافع على حكمتها ورزانتها فوضعت نفسها في اختيار فتاها ليقضي منها وطرا.

ثم إن مسألة مثل هذه لا يمكن بيانها بكل صراحة في كتاب الله تعالى ولعلها تكون غير مجدية ولا مصيبة لأهداف القرآن، ولذلك اختصر الله تعالى الموقف الذي يحتاج في عرفنا نحن البشر إلى شرح طويل جدا. ونحن احتراما لكتابنا العزيز فسوف لا نسهب في بيان القصة كثيرا. ونكتفي باحتمال الدوافع فلعل القرآن يساعدنا حينما يوضح بأنهما أرادا اتخاذه ولدا.

هناك دون شك نقص في أحدهما مما يحول دون إنجابهما. و مما لا شك فيه بأن كلا من الزوجين يحتمل العلة في شريكه ولو لم يتهم الآخر بأنه السبب. وحتى لو لم يفتحا قلبيهما فإن كلا منهما يبحث عن الأسباب لإثبات أن النقص ليس فيه.

ولعل اهتمام امرأة العزيز كان يفوق اهتمام العزيز نفسه. والسبب أنه كان مشغولا بتصريف شؤون وزارته واستقبال ضيوفه وحضور المجالس والضيافات الكثيرة والكبيرة التي يُدعى إليها بينما هي قلما تشارك زوجها في غدوه ورواحه ولطالما بقيت في منزلها تهتم بشؤون القصر. إنها لم تكن تزاول أية مهنة في القصر عدا الإدارة بطبيعة شخصيتها كزوجة لأحد المقربين من فرعون مصر العظيم.

ونعرف بأن الأفكار المتضاربة تزاحم الذين تقل أعمالهم ومسؤولياتهم وتخيم عليهم منغصاتها . حتى شعورها بالضعف الإداري والمالي أمام زوجها يحثها على عمل شيء لإثبات أن النقص منه هو وليس منها هي.

نعرف هذا من كون الزوجة برمجت بكل دقة للخيانة الزوجية وفكرت ومكرت للحمل المتوقع من يوسف في حين أنها لم تحمل من زوجها بعد أن مرت فترة غير قصيرة على زواجهما . سوف تتجلى الخيانة للزوج ولم يكن في حوزة الماضين وسائل للتخلص من الجنين في أي عمر كان.

ومما لا يمكن تجاهله أنها كانت منتبهة تماما لما يمكن أن تؤدي اليه الدعوة المعيبة إلى عواقب خطيرة.

ولذلك فإني أظن بأنها كانت تطلب الحمل من يوسف لتري زوجها إن حملت بأنها ليست السبب في عدم الإنجاب.

وجدير بنا أن نعرف بأن تلك الأسرة لم تكن على نفس التفكير الشائع بين معتنقي الأديان السماوية حول العفة الجنسية، فلم يكن وقع الحادث قاسياً على المجتمع آنذاك . لعل أهمية إثبات قدرتها على الإنجاب كانت في منطقهم أهم بكثير من البقاء على الأمانة الزوجية.

غب تفكير امرأة القصر الأولى في مشاكلها ثم عزمها على مواقعة يوسف جنسيا فإنها جلست تبرمج للعملية.

اختارت نفس غرفة نومها لتدعو فيها فتاها فتوحي لأهل القصر بأنها تحتاج إلى تنظيم أو استشارة ديكورية أو مناقشة مسألة أو تقديم تعليمات خاصة للذي يُعتبر تلميذا للسيدة الأولى.

كانت غرفة النوم ذات عدة أبواب لا أقل من ثلاثة. وهذا شائع لدى الشخصيات الكبيرة أن يهيئوا لأنفسهم مخارج كثيرة لما يطرأ من احداث كمهاجمة لصوص وإرهابيين أو ربما ضد اشتعال النار أو أية مشكلة مشابهة أخرى.

وهذا سبب آخر لاختيارها لهذه الغرفة. بالطبع أنها فكرت بكل دقة في مفاجأة زوجها لها فربما كانت تنوي أن تُخرج يوسف حينئذ من باب آخر بسرعة قبل أن تفتح الباب للزوج.

أما استعدادها البدني من ملابس خاصة وزينة وعطور فتستخدمها لإثبات حبها لزوجها وبأنها مستعدة لاستقباله بكل ترحيب. أكملت امرأة العزيز التخطيط لليوم الموعود وشعرت بالسعادة والبهجة باستكمال الخطة. وليس غريبا إن قلنا بأنها أرادت متعمدة أن تقوم بالمراودة قبيل موعد عودة زوجها لتثبت له بأنها تزينت من أجله.

لعلها فكرت في أن مفاجأة الزوج ممكنة في كل لحظة فلو فاجأها فترة طويلة قبل الموعد العادي ورآها متزينة فسوف يشك فيها . ولذلك كانت امرأة العزيز في ضيق وقتي شديد لا يمكن تحاشيه.

حان الموعد المدبر وانشغل كل عمال القصر ومسؤولوه بالأعمال المناطة بهم،

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿23﴾

جميل هذا التعبير القرآني الشامل مع قصر الجملة، فلقد عبر الله سبحانه وتعالى عن مجموعة من المسائل في جملة متوسطة الحجم.

1. تبدأ الآية بالدفاع عن يوسف بأنه كان في بيتها وتحت خدمتها فلا بد له من الانصياع للدعوة الأولى بالحضور في غرفة النوم.

2. تذكر الآية مراودتها له قبل الدفاع ليكون للدفاع عن نزاهة يوسف معنى في هذه القصة المشابهة للقصص الغرامية. ليست السورة ولا الآية قصة غرام أبدا. كل الغرام المحتمل وجوده في العبارة إن وجد فهو ما يوحي به المقطع الأول من الآية وهو أقصر بكثير من المقطع الثاني إن قطعنا منه جملة الدفاع (التي هو في بيتها).

3. دخل يوسف غرفة النوم انصياعا لعقد التملك المعترف به بجوزة سيد القصر وسيدته. من الواضح أن الذي يريد أن يعلمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب، يعرف تماما بأن يوسف الآن في معرض اختبار خطير ولكن يوسف أهل لهذا الاختبار طبعا. وهذا، بالمناسبة، يؤكد لنا بأن التعيينات الأولية للأنبياء كما فعل سبحانه بيوسف وموسى وعيسى ليست إلا بيانا لتثبيت النبوة المشروطة لهم فهم أنبياء بالقوة لا بالفعل.

4. قامت امرأة العزيز بإغلاق الأبواب بيدها بعد دعوة يوسف لغرفة النوم لتضمن عدم مفاجأة أحد. شتان بينه وبين غيره فهو فتى مملوك تخدمه سيدته بيديها. لقد أغلقت الأبواب من أجله ثم من أجلها. ذلك لأننا رأينا بأنها تمكنت من التخلص من عقاب زوجها حتى بعد ثبوت محاولتها مراودة يوسف عن نفسه ولكن يوسف هو الذي دخل السجن حماية لشرفها، وأي شرف!!.

5. "هيت لك" لغة غير واضحة لنا نحن العرب الذين نعيش 15 قرنا بعد نزول الكتاب المجيد. ويدّعي البعض بأنه ترجمة لتعبير قبطي أو أنه نفس لفظ التعبير القبطي القديم لتفعيل هذه الدعوة ولعلهم على حق. ولو نراجع كتب اللغة العربية فقد لا نصل إلى نتيجة. لكننا بكل سهولة نلمس رسالة الآية الكريمة في استعمال هذه الكلمة الغريبة وهي أن امرأة العزيز عرضت نفسها متبسمة على يوسف وهمت لتضمه إلى صفحة بدنها. لا أظن بأن هناك كلمة قيلت بل هي تمايلت إليه بدون مناقشة. لكن الله تعالى عبر عن رسالتها العملية بقوله: (هيت لك) وتعني إظهارها لكامل الرغبة وبأن الغرفة في أمان ولا خوف

عليه. هي في مثل هذه الحالات رسالة طبيعية لا تحتاج المرسلة معها إلى استعمال تركيبات لغوية، فهي بعملها قالت ما يمكن أن يقال في مثل تلك الحالة.

6. وفي نفس الآية المتوسطة التي هي أقرب إلى الآيات القصيرة، بيَّن الله تعالى ردّ يوسف القاطع. سنعرف في الآية التي تليها بأن هناك اضطراب طبيعي وقع ليوسف ثم فاجأها بالجواب ولكن الله تعالى كره أن يذكر اضطراب يوسف أو لحظة وجومه واضطرابه واكتفى بجوابه الذي أخرج السكوت المطلوب في هذه الأجواء الغرامية. فيوسف قد قال جملة ألقمتها حجرا دون شك: **معاذ الله**. فقال لها لا يمكن ذلك، كما قال لها بأنه يخاف من ربه، كما أضاف إلى رسالته بأنه يلجأ إلى ربه لينجيه من هذه الورطة المربكة التي يصعب التخلص منها.

7. أعلن الله تعالى بأن يوسف كان إنسانا يحمل نفسا إنسانية قوية شاعرة تساعده على ألا يستسلم لأية غواية مهما كانت قوية ليثبت شكره لربه الكريم الذي أحسن مثواه. فقال يوسف لسيدة القصر وأفهمها بأنه يعزو كل ما يراه منها ومن زوجها وبقية أهل القصر من احترام وإكرام يلقاه منهم إلى الله تعالى الذي قدَّر له كل ما أُكرم به. حقا أثبت يوسف بأنه يحترمهم تعاقديا واتباعا للأصول الشرعية وليس اتباعا فطريا وراء العادات السائدة لدى عامة الناس. كانت الجملة ضربة قاضية لآمال المرأة المتعالية في تلك اللحظة على الأقل. لقد شعرت بأن التدبير لم يكن دقيقا فعلا قبل أن يأتي الإمداد الغيبي من رب يوسف لعبده يوسف.

حقا، أنها قد غدرت به، وقد خانته،

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿24﴾

من الثابت أنها قد همت به حينما تحركت لتضمه وتسقيه من جاذبيتها فلو أنّ يوسف لم يعر أي اهتمام لها ولإغراءاتها لقلنا بأن يوسف لم يتأثر نفسيا ولم يستولِ عليه أي ميل للتجاوب معها لأنه كان عنينا

أو حصورا مبتلى بالبرود والعجز. لكن يوسف لم يكن كذلك بل همَّ بها ولو بحصول الاضطراب في كيانه أو تقدم بقدر حركة الرأس شيئا بسيطا إلى الأمام ثم الالتفاف نصف دائرة أو بقدرها ليأخذ طريقه إلى الهروب باتجاه نفس الباب الذي طرقه العزيز الذي صادف قدومه في اللحظة الحاسمة.

بالطبع أنها ليست صدفة بل تقدير من العزيز العليم لمساعدة يوسف.

وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه.

ظاهرُ مقطع الآية يدل على عدم حصول أي تقدم من يوسف باتجاه المرأة المصممة على الغواية. هناك في القرآن آية بل آيات أخرى شبيهة بهذه الآية مثل قوله تعالى في البقرة:

فذبحوها وما كادوا يفعلون.

والواقع أنهم لم يذبحوها ولذلك قال سبحانه: **وما كادوا يفعلون**، يعني ما فعلوا. وهنا أيضا تعني بأن يوسف كان على أتم الاستعداد نفسيا وقد فارت شهوته بصورة طبيعية ولكنه فكر في برهان ربه.

والبرهان هو الحجة القوية التي تقطع المحاجة كأن يشك أحد في طلوع الشمس ثم تخرج الشمس من تحت الغيم فهو برهان واضح لوجودها في السماء.

وأظن أن الذي فكر فيه يوسف هو ربوبية الله تعالى الذي أكرم مثواه إلى تلك اللحظة لأنه كان من عباده المخلَصين. ولذلك أضاف سبحانه البرهان إلى الربوبية لا إلى الألوهية. عرف يوسف أن أقل لمسة قاصدة منه للطراوة المعطرة التي تفوح من المرأة المغمورة بالشهوة الجنسية، سوف تؤثر سلبيا في تلك المكرمة العظمى التي نالها بوفرة طيلة إقامته في ذلك القصر الفاخر.

إنها خيانة كبيرة للعزيز الذي تولى تنفيذ مكرمة الله تعالى ولله تعالى نفسه فهو شرك بالله. إنه سيكون مشركا شهواته مع ربه.

اضطرب يوسف متأثرا بوساوس المرأة المهيأة له ثم اضطرب مرة أخرى وبنفس اللحظة ولكن في مرحلة متأخرة خوفا من الله تعالى.

هكذا يحفظ الله تعالى عبيده المخلَصين من شياطين الجن والإنس. حقا إن المؤمنين يهتمون بالسلام الحقيقي من ربهم ولا يفضلون السلام المؤقت للتخلص من شهواتهم على السلام بجوار ربهم[10].

---

[10] قبل أن ننتقل للمرحلة التالية من الحكاية لنحاول فهم الفرق بين السوء والفحشاء في الآية الكريمة.

ظن البعض بأن يوسف عليه السلام همَّ بضرب سيدته أو رفع يده عليها أو أهانها بأي شكل من الأشكال ليفرقوا بين السوء والفحشاء. ذلك لأن الفحشاء تدل على الزنا فلا معنى لإضافة السوء إليها كما تصوروا.

بالطبع أن ذلك مستحيل فيوسف كان مؤدبا بآداب القصور وكان تلميذا حقيقيا لامرأة العزيز التي بقيت تحبه وأظهرت ذلك مرة أخرى أمام صديقاتها ولم تقل لهن بأن يوسف قليل الأدب. قالت فقط بأنه لم يستجب لها وإن لم يفعل ما تأمره ليسجنن.

الذين ظنوا المعنى المشار اليه في اعلاه اعتقد أنهم لم يتصوروا بدقة معنى رفع اليد على سيدة القصر أو الإهانة الكلامية التي تعتبر كبيرة جدا غير قابلة للغفران وسوف يُعاقب عليها الفاعل ولا يمكن أن يبقى حب في قلب امرأة العزيز تجاه يوسف. إن أهم أمر عند أهل القصور هو صيانة رفعتهم وسيادتهم ويأتي الحب والعواطف والغرام في المرحلة التالية.

وأظن بأنهم لم يدققوا في الكتاب الكريم أنه سبحانه يتحدث عن السوء والفحشاء في عدة آيات أخرى في القرآن العظيم. فنعرف من ملاحظة هذه الآيات الكريمة بأن السوء والفحشاء تأتيان معا في القرآن لبيان أن الزنا فاحشة باعتبار الإثم وسبيل سيء للتكاثر. وللعلم فإن السبيل في القرآن غالبا ما يعني سبيل التكاثر.

ففي سورة البقرة يتحدث سبحانه في الآية 169 بصورة عامة بأن الشيطان يأمر بالسوء والفحشاء. لكنه سبحانه يوضحها في السور الأخرى، فيقول عز من قائل في سورة النساء:

وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً (22).

فالفاحشة سبيل سيء للتكاثر. وفي سورة الإسراء يقول سبحانه:

وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً (32).

كما قلنا فإن امرأة العزيز وزوجها كانا محرومين من الأولاد وأراد العزيز اتخاذ يوسف ولدا لهما . وامرأة العزيز أذكى من ألا تنتبه إلى توابع اللقاء مع يوسف حيث كان من الممكن أن تحمل وهي كانت تريد ذلك لإثبات سلامتها لزوجها وللآخرين. والفاحشة لأهل القصور ليست مسألة كبيرة كما عليه الحال بيننا نحن المؤمنين ولكن المهم عندهم أن يكون الأولاد من نسلهم فعلا. لنعرف جميعا بأن الزنا شائع في القصور وعيبه ليس كبيرا كما أنه كذنب مغتفر بينهم دائما .

ليتصور المؤمن أنه يرى زوجته (والعياذ بالله) تدعو غريبا للفاحشة، فهل يكتفي بأن يقول لها ما قاله العزيز لزوجته بعد أن ثبتت له براءة يوسف: **استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ! !

إن أبسط أمر يقوم به الإنسان الملتزم أن يطلق زوجته ويرتاح منها .

وقد عبر الله تعالى عن السوء في حكاية يوسف منسوبا إلى يوسف وامرأة العزيز وليس إلى أحدهما . ولو كان المقصود الضرب أو رفع اليد لنسب السوء إلى امرأة العزيز مفعولا به وإلى يوسف فاعلا، وهو ليس كذلك.

قال سبحانه على لسان امرأة العزيز: أراد (يوسف) بأهلك سوء؛ وقال سبحانه لبيان ما فعله سبحانه بيوسف: كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء. ذلك لأن السوء بالمعنى القرآني يمس الزاني والزانية بأنهما يمهدان لطفل لم يأت عن الطريق الصحيح بل عن طريق الزنا . فالنتاج سوف يجلب لهما كليهما السوء وكما هو معروف بيننا بأنه يسيء إلى سمعتهما . والعلم عند الله تعالى.

وأخيرا في سورة العنكبوت يوضح السوء والسبيل ببيان مختصر وكامل لا نحتاج معه إلى المزيد من البحث حيث يقول تعالى:

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) . نهاية الهامش 10 .

لحظات فاصلة مرت بامرأة العزيز وفتاها، هي في غاية النشوة بانتظار اللذة الجنسية التي كان من المفترض أن تعقبها نشوة إثبات السلامة البدنية لزوجها، وهو في غاية الحبور والسرور بأنه لم يخن ربه ولم يشرك به شيئًا .

والنتيجة حين سمعا دقات الباب أن انهارت المرأة اللعوب وشعرت بأن قيامتها ستقوم الآن كما استأسد يوسف وعلم بأن ربه قد أسرع في فتح باب الرحمة والنجاة على قلبه بمصراعيه.

وعلى المتفكر العاقل أن يتدبر مثل تلك اللحظات الخطيرة ويتأمل ليرى أي الطريقين أكثر قبولا لمن أكرمه ربه بالعقل فيختار طريقه بعقلانية ودراية.

لعل تعبير اللحظات غير صادقة فهي أقل من اللحظات بل أقل من لحظة مهما ساعدنا تصورنا الفكري أن نقصر من طول اللحظة. فبلمح البصر انقلب سحر امرأة العزيز عليها فاستعملت كل عبقريتها للخروج من الشرك الذي حاكته بيدها وظنت أنها نجحت، كما ارتاح يوسف بأنه ارتبط بسيد الكائنات وهو الذي غير الموقف،

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿25﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴿26﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴿27﴾

جاء النصر من الله تعالى فعاد الزوج المستغفل إلى منزله قبل وقته المعتاد قليلا كما أحتمل، فرأى الباب الذي قصده مغلقا فدق الباب. لم تكن أقفال الأبواب القديمة للغرف تحمل مفاتيح مثل مفاتيحنا . ولذلك كان القفل والمفتاح للتعامل مع الباب من الداخل. فلم يحمل العزيز مفتاحاً لغرفته التي يأوي إليها مع زوجته.

تزاحمت مشاعر مختلفة لدى كل منهما في غرفة النوم المغلقة. يوسف يشعر بأن ربه أرسل له العزيز لينجيه من الإثم وامرأة العزيز تشعر بأن الوقت حان للتمتع بمكرها المدبر لكل احتمال فعليها الآن إخراج يوسف بسرعة من باب آخر قبل فتح باب العزيز. ذاك يفكر في ربه وفي شرفه وكرامته واحترامه لما قدمه له العزيز من خدمة وحب، وهي تفكر في أن تنجي نفسها ولو على حساب حبيبها يوسف.

هذا الاختبار الخطير يرينا مدى حب هذا النوع من النساء الشهوانيات لغير أزواجهن. إنه طفرة غرام و محاولة لإشباع شهوات جسدية فقط.

بادر يوسف فورا لفتح باب النجاة للعزيز قبل أن يدنس شرفه بيديه كما بادر بفتح باب النجاة لنفسه قبل أن تثور شهواته فتقطع عليه سبل العودة إلى الله الكريم المتفضل عز اسمه.

لقد أدار يوسف ظهره للمرأة قبل سماعها لدقات العزيز فساعده الإدبار على التقدم عليها لفتح الباب، لكنها جمعت كل قدراتها لإخراج يوسف من باب آخر درءا للفضيحة، فاتجهت هي أيضا طرف باب العزيز لإزاحة يوسف وليس لفتح الباب.

لم تساعدها قواها وسرعة رجليها على إزاحة يوسف ولكنها وصلت إلى قميص يوسف فتقطع القميص من الخلف ووصل يوسف إلى الباب وفتحه وهي تجري من خلفه.

أسرعت لتكون في مقدمة يوسف قبل أن يطل العزيز على الغرفة ويتعرف على حقيقة ما حصل.

الذي فتح الباب هو يوسف والتي بدأت بالشكوى هي امرأة العزيز لتتهم يوسف بأنه أراد بأهل العزيز سوءا[11].

[11] هذا هو معنى حب الغانيات وهذا مدى صدقهن! لو كانت الحياة أكلا وشربا وتمتعا بالجنس وتفاخرا بالأموال والأولاد وبالملابس والقصور والمراكب لما وُصِف الإنسان بالإنسان. قال تعالى في سورة القيامة:

يوسف النبي في موقف الخادم لسيدةِ قصرِ وزيرِ فرعونِ مصرَ، ولكنه مع علمه وتقواه وحب سيد القصر له لم يعرف كيف يدافع عن نفسه. لم يقل يوسف شيئًا إلا أنه ذكر الواقعة بكل صدق بقوله البريء:

هي راودتني عن نفسي.

لم تكن هذه الجملة مفيدة له في مقابل منطق المرأة وسعيها لاستدرار عواطف زوجها وكذلك تحريك مشاعر الغيرة لدى العزيز.

ثم إنها تمكنت من الابتداء بالخطاب وهو أمر مفيد جدا لمن يريد الظهور بمظهر المظلوم. إنها هي التي اشتكت ويوسف هو الذي دافع. إن شكواها مقبولة للزوج وللسلطاتِ القضائية لأنها امرأة تشكو من

أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (36).

كم هو سبحانه جميل وحميد. يرسل العظيم سورة بعد هذه الآية ليري الإنسان بأنه إنسان لو تخلى عن ملذاته وقدم من حقه لغيره ليعينه على التخلص من الجوع، وسمى السورة سورة الإنسان. لقد أخطأت امرأة العزيز ولكنها أثمت حينما اتهمت يوسف بالذي فعلته هي بيوسف.

قال سبحانه في سورة النور:

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23).

يهمني أن أوضح لمن يطلع على هذه القصة أن الله تعالى يخاطب الذين يكثر عنوان الخطاب بحضرتهم ويقصد الجميع. إن الذين يتأثرون بمثل هذه التهم هم النساء ولذلك حذر الرجال ولو حصل العكس فإن الذي رمى هو الذي يصيبه اللعن ولو كان امرأة.

في هذا الموقف رمت امرأة العزيز يوسف بالإقدام على الزنا مع امرأة محصنة أمام زوجها، فهي التي تُحرم من الرحمة ويوسف هو الذي ينال الرحمة من الله تعالى. قال سبحانه في سورة الحج:

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38).

والمظلوم هنا يوسف والخوّان هنا امرأة العزيز فلننظر كيف دافع الله تعالى عنه. نهاية الهامش 11.

سعي رجل قوي لاغتصابها . ثم إنها كانت بحالة استعداد لاستقبال زوجها فتبدو عليها أمارات الإثارة الجنسية والهدف حسب الظاهر هو الزوج؛ إلا أن يوسف قد أثير ولم يتمكن من أن يقي نفسه ضد شهواته. هذا ما يتراءى لمن يشاهد القضية كطرفٍ ثالث.

لم يكن أمام العزيز أي سبيل إلا الدفاع عن زوجته خاصة وأن الأصوات التي تعالت من الركض الثنائي إلى الباب ثم فتح القفل بقوة ثم صياح امرأة العزيز بقصد التأثير في زوجها، كل ذلك قد فتح عيون وأسماع خدم القصر وجعلهم يهرعون لمكان الحادث. كان من واجبهم ذلك لمساعدة سيدهم وسيدتهم.

في هذه اللحظة الحاسمة يدافع الله تعالى عن المؤمن الصالح بين هذه اللمة.

وإذا بالعزيز ينتبه إلى نداء الوجدان ونداء العقل معا يقولان له: لو تريد أن تعرف القصة وهي من حقوقك المشروعة فانظر إلى قميص يوسف المشقوق. بالطبع أن الذي شق القميص هو زوجتك وليس يوسف. فلو كانت امرأتك هي التي تهرب من هجوم يوسف عليها وكان يوسف هو الذي يريد اغتصابها ويريد إبقاءها في الغرفة لحظة سماع دقات الباب ليخرج من باب آخر وأرادت المرأة التخلص منه لكان الشق في القبل لأن من المفروض أن يكونا وجها لوجه، لتشق هي قميصه. وأما لو كانت زوجتك هي التي تريد اغتصاب يوسف وهو الذي هرب منها لينجو وهي التي أرادت أن تمسك به لتخرجه من باب آخر فسيكون الشق في الخلف لأنها التي جرت وراء يوسف.

الوجدان يناديه بألا يظلم إنسانا أسيرا في بيتهم يخدمهم بكل إخلاص ويساعدهم أكثر من كل خدم القصر. والعقل يقول له بأنهما (يوسف وزوجة العزيز) جمعا موظفي القصر بصياحهما وخاصة صياح الزوجة وسيرون القضية ويفكرون فيها وسيعلمون من الجاني ومن المجنى عليه فتصرف يا أيها العزيز بعقلانية حتى لا تلام غدا.

لاحظ العزيز واستمع بقلبه الندائين من قلبه وعقله فاضطر أن يستعمل العقل ويترك عواطف الدفاع عن شريكة الحياة.

انتبه العزيز إلى أن الوجدان والعقل يناديانه بالمعقول والعادل فبادر بفتح عينيه وترك التفكير في زوجته فرأى بأن القميص مشقوق من الخلف. هذا يعني بأن الهارب هو يوسف والملاحِق هي زوجته.

كان العزيز يحب يوسف كثيرا ورأى بأن يوسف الآن في غاية الحاجة إلى من يحميه ويرفع عنه التهمة التي تؤدي إلى سجنه أو تعذيبه عذابا أليما. وفتح عينيه ثانية ليرى خدم القصر هرعوا لمساعدتهما ولكنهم شاهدوا القصة وسمعوا الأصوات ورأوا قميص يوسف مشقوقا وليس قميصها هي.

أظلمت الدنيا على العزيز ولكنه اتبع العقل والوجدان حقا ولم يستعمل العنجهية والاستبداد. العزيز هو من أهل المرأة التي تشكو ضد يوسف وهو الذي يشهد بقلبه ووجدانه كذب امرأته وصدق يوسف.

هذا موقف صادق ثان من العزيز ليرى ويعلم يوسف بأن ربه قد قدَّر له راعيا كريما يحافظ على حبه له حتى في أحلك الظروف. انتهى دور القلوب فلنشاهد العيان:

فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿28﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿29﴾

نجح العزيز في محاربة نفسه ونظر إلى القميص وقال لزوجته خطابا عاما لكل النساء. كان يحب زوجته كثيرا ويشعر بأن هناك نقصا يحول دون أن تنجب ويحتمل بأن يكون هو الذي فيه عيب فتكبر زوجته في عينه ويسعى دائما لإرضائها.

ولذلك خاطب النساء جميعا ليخفف من حدة الألم على زوجته التي ظلمت يوسف في كل مواقفها ذلك اليوم.

لكن خطابه ليوسف كان خطابا فرديا ليعلمه بأنه لا يزال يحبه ويكرمه ويسعى للدفاع عنه ضد أقرب أهله إليه. لم يكتف بحماية يوسف ودعوته للإعراض عما حصل إكراما للوزير الذي ليس له أي دور جنائي في القضية بل دعا زوجته بخطاب فردي أيضا قائلا:

استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين.

ولسان حال العزيز في خطابه لزوجته: لقد تجاوزتِ كل الحدود وقمتِ بالظلم تلو الظلم ضد إنسان بريء جعله الله تعالى تحت سيطرتك. إنك خاطئة بكل المعايير ولا مجال للدفاع عنك فقد شهد عليك شاهد من أهلك وهو زوجك ولم تتمكني من أي مكر أمام المنطق والبرهان المحكم فلم يبق لك إلا العودة إلى نفسك والاستغفار لعل الله تعالى يغفر لك ذنبك. فحَكَم العزيز ضدها ولكنه عفا عنها بأن طلب منها الاستغفار من ربهما .

وهكذا نجح العزيز في السيطرة على الموقف وأعاد الامور إلى مجاريها ولو بالظاهر وعاد يوسف إلى عمله في القصر واستعاد هو وامرأة العزيز منزلتهما لدى سيد القصر وعادت كل الخفيات في مقارها في أعماق النفوس محملة بما استجد إثر الصدمة الكبرى لحين آخر.

والآن لنحلل المشهد العظيم بكل حرص لنأخذ منه العبر. إن ربنا ذكره لنا لنعتبر إن كنا من أولي الأبصار.

1. لا نعرف كم فكرت امرأة العزيز بهذا التدبير الذي فشل خلال لحظات ولكنها أدخلت يوسف في غرفة النوم وأغلقت عليه الأبواب وأرته نضارة الأنثى وشبقها وشوقها إليه وهو شاب في مقتبل العمر يلمس غضارة العيش الهنيء في قصر المترفين. فلا يمكن الاعتماد على التدبير إن لم يكن الهدف مشروعا . ذلك لأننا نمكر ولكن الله أيضا يمكر والله خير الماكرين.

2. لننصح أنفسنا وننصح شباننا من الجنسين أن لا ننسى الله تعالى في أي حال لئلا نقع في متاهات لا يمكن الخروج منها .

3. لولا عناية الله تعالى لوقع يوسف في السجن أو العذاب بتهمة السعي لاغتصاب سيدته، إذ لم يكن دفاعه بمُنج له فعلا. لكنه ترك كل حيلة في تلك اللحظة واكتفى بقول الصدق دون تفكير في العواقب، إلا أنه توجه بقلبه إلى ربه وساعده حبُّه لله تعالى واهتمامُه بذكر العزيز الحكيم. فأنجاه الله تعالى بأن ألقى في قلب العزيز ما ألقى. يا له من رب رؤوف رحيم يحمي المظلوم المحتمي بربه في أحلك اللحظات بكل قوة.

4. وأقول: لو أنكم وقعتم في مثل هذا المأزق فاتركوا كل حيلة لأنكم عاجزون عن مواجهة مثل هذه المسائل بالحيلة والمكر. في المقابل استعينوا بالصدق وحده كما فعل يوسف. وفي نفس الوقت توجهوا فورا إلى ربكم واطلبوا منه المعونة السريعة فإنه أسرع الحاسبين وأسرع المستجيبين. إنه سبحانه وحده المأمول أن يساعدكم حتى لو كنتم مخطئين. استغفروه فورا واطلبوا رضوانه ومساعدته ولكن فقط بقلوبكم. لا تتحدثوا باللسان واكتفوا بالهمس القلبي. لا تجعلوا اللغة حاجزا بينكم وبينه. اتركوا التعابير اللغوية واطلبوا منه سبحانه بقلبكم بكل بساطة وبكل خضوع.

لقد حاولت سيدة القصر أن تخفي شيَن نزواتها عن أعين الناس جميعا عدا يوسف وحاول العزيز أن يقفل باب القضية بأي شكل خوفا من انتشار الفضيحة ضد الأسرة المرموقة في مصر. لكن الله تعالى أظهرها للعزيز ثم لخدم القصر فخرجت السيطرة من يد العزيز ومن يد زوجته. إن قضية غريبة مثل هذه سوف تصل قطعا إلى أسماع المرتبطين بهم على الأقل. إن في القصور الملكية جواسيس لا يمكن اكتشافهم ولا مؤاخذتهم، لأصحاب القصور الأخرى. فكل سيد وسيدة من النبلاء والأمراء يتمنى أن يتعرف على أسرار بيوت منافسيه ليستفيد من تلك المعلومات عند الحاجة. ولذلك فإن لكل واحد صديقا أو صديقة من خدم القصور التي يهتم بها لينقلوا له الخبر. ليس هؤلاء مسجلون ولا يتقاضون رواتب ولكنهم يسمعون

كلمات الود والرفق وبعض الهدايا العادية أحيانا . إنهم لا يعرفون بأنهم جواسيس يعملون للغير كما لا يمكن التحري حولهم ولا يصدر منهم أخطار أمنية كبيرة. لكنهم يصلحون لنقل مثل هذه الأخبار إلى الذين يترددون إليهم من أصحاب القصور الأخرى. إنهم كخدم يشعرون بضرورة خلق بدائل لأنفسهم لو خسروا أعمالهم كما أن الدولة مضطرة أن تشجع هذه العلاقات حتى لا ينتقل خدم القصور إلى معارضيهم وأعدائهم. حتى العبيد فإنهم يحتاجون إلى من يتوسط لهم ويدافع عنهم من أهل القصور الأخرى. وهكذا انتشر الخبر المثير بين نساء الوزراء الآخرين بسرعة،

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿30﴾

والمشكلة الكبرى في مثل هذه الإشاعات المحصورة بين نزلاء القصور هي أن الخبر لا ينتشر عن طريق أصحاب القصور أنفسهم فيصل بدقة إلى الآخرين. لكنه ينتقل عن طريق الخدم الذين يجهلون الكثير من الأسباب فيشيع الخبر ليكون أكثر ضررا مما لو أنه نقل بكل دقة.

والذي يزيد الطين بلة هو أن الأخبار تنتقل بصورة مجتزأة لكل ذات شأن من نساء النبلاء وقد مر بعضها عن طريق خادم لخادم آخر ومنه للسيدة ثم تجلس النساء في مجالسهن ويقمن بتلصيق الأخبار ببعضها البعض ويحصلن على نتيجة قد تكون خاطئة ولكن المسألة تشيع بينهن بعد أن تتخذ شكلا مقبولا بغض النظر عن الحقيقة.

مثل هذه النزوة المشينة كثيرة في بيوت المترفين فهم يسعون لمعرفة أسرار أندادهم بغية استعمالها لضمان الستر على أنفسهم. فكل واحدة تحب أن تعرف سراً قبيحا لصاحبتها أو زميلتها حتى لا تسعى هي للوشاية ضدها . والذي يبدو من هذه الآية أنهن كن مفتقرات إلى سر قبيح من أسرار امرأة العزيز المعروفة بينهن بالشرف والوقار وعدم الخيانة.

ومن المحتمل أن امرأة العزيز كانت أحيانا تغمز وتلمز الزميلات والصديقات. ولعلها كانت تتكلم عنهن وعن عشاقهن. هي حالة متفشية في قصور الملوك وكبار حواشيهم.

ولذلك تداولوا القصة الجديدة بينهم بصورة مشينة تنم عن الرغبة في الانتقام إلى حد ما. وعادة ما يكون أصدقاء كبار النسوة من نفس الوزراء أو الأمراء أو كبار رجال الدولة. وحتى ينتقمن منها ومن فتاها الذي كانت تتفاخر به عليهن فإنهن ذكرن نزوتها وهي مراودة فتاها، وبأن عشيقها فتاها وليس شخصية كبيرة وبأنها أسيرة حب لا يمكنها التخلص منه وبأنهن شريفات يرونها هي في ضلال واضح. وبتعبيرنا كان النسوة يعقبن لمزاتهن بكلمة: غلطانة فلانة. وكأنهن غير غلطانات؟!

المراودة عن النفس:

راود أحدٌ أحداً يعني أراد شيئًا منه فقام بعمل ليقوم الشخص المقابل بنفس العمل طوعا فيشتركان في الإرادة.

ذلك لأن المراودة من باب المفاعلة وهي رغبة الطرفين في إنجاز عمل أو في التفاعل مع بعضهما كالمحاربة والمقاتلة.

وراوده عن نفسه يعني بأنه أراد ولكن الطرف المقابل لم يرد فأراد فرض الرغبة في نفسه ليريد هو أيضا على الرغم من عدم رغبته.

وقد استعمل التعبير ست مرات في سورة يوسف وسنشرحها هنا باختصار:

1. وراودته . . . عن نفسه: يعني أنها سعت بإظهار مفاتنها ليقع في حبها فيقع عليها على الرغم من أنه لا يُظهر أي رغبة في ذلك ابتداء.
2. راودتني عن نفسي: يعني أنها أرادت أن تغويني وتستولي على نفسي بالرغم من رفضي.

3. تراود فتاها عن نفسه: يعني أنها تسعى لإقناع فتاها أن يبادلها الحب ولذلك أردفن: قد شغفها حبا .

4. ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه: يعني هل رأيتم من يوسف ميلا للغرام فسعت كل واحدة منكن لتطلبه وتجذبه إلى نفسها .

5. أنا راودته عن نفسه: مثل المعنى الأول.

6. سنراود عنه أباه: سوف نسعى لإقناع أبينا أن يقبل بما نريده على الرغم من تمسكه بإبقاء أخينا عنده.

7. وحتى تتم الفائدة ويتبلور المعنى فإن في القرآن آية آخرة تستعمل نفس التعبير وهي في سورة القمر حول قوم لوط:

وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (37) .

يعني بأنهم أرادوا من لوط أن لا يمنعهم دفاعا عن ضيفه. إنه كان يريد أن يمنعهم وأرادوا منه أن يقاوم إرادته بإرادة أخرى للسماح لهم بما يريدون فعله في ضيفه. والعلم عند الله تعالى.

إذن كان هناك مكر نسائي ضد امرأة العزيز،

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿31﴾

لم تمض أيام طويلة على تداول الخبر بين زميلاتها المترصدات لمثله من الاخبار منذ أمد حتى عاد الخبر إلى امرأة العزيز مزودا بتعليقات الزميلات.

اهتمت امرأة العزيز بنجوات الخدم والصديقات المخلصات وكل من يمكن أن يتحدث عن هذه القضية التي تصدرت مجالس الخواص من حاشية الملك حتى وصلت إلى الملك عن طريق زوجته وبناته أو النساء المرتبطات به كائنا من كانوا.

بالطبع أن مثل هذه الأخبار لا تؤثر أبدا في اهتمام الملك بوزرائه ممن يُشاع عنهم شيء من هذا القبيل ولن يقلص من اعتماد النظام عليهم ولا يقلل من منازلهم الوظيفية[12].

فلما استكملت امرأة العزيز ما يمكنها من تحريات حول الإشاعة فكرت في أن تعد لهن مجلسا ترفيهيا ليشعرن بالراحة وبأنها لا تعرف شيئا عما أخفوه عنها حول يوسف.

أدركت المرأة العبقرية عدم إمكانية الإنكار فقد ترسخت القضية في أذهان الزميلات فعليها الآن أن تثبت لهن بأنها على حق في ما فعلت. فعليها أن تبرهن لهن بصورة عملية بأن ليوسف ميزات كبيرة تفوق زوجها ولذلك رضيت بأن تخونه لتتقرب من قلب يوسف.

---

[12] ذلك لأن كل المرتبطين بالسلطة بمن فيهم الملوك ولو كانوا من الحكومات المعروفة بالدينية فإنهم مغمورون على الأغلب بالإجرام وبالزنا وبالقتل ولنا في الآية التالية خير مونس لقلوبنا إن كنا مؤمنين نتحاشى هذه القبائح الظالمة التي تزيد العصاة إثما. إنها من سورة الفرقان التي هي فرقان حقا:

وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68).

أنظر بأن هذه القبائح كلها مترابطة ببعضها البعض، قتل النفس والزنا ودعوة غير الله مع الله تعالى.

ولو نفتح عيوننا قليلا لنرى القتلة تحت أي لباس كانوا وبأية ذريعة اقترفوا القتل فإنهم يأتون بالزنا بكل وقاحة ويبررونه كما أنهم يشركون بالله المفتين والملوك وغيرهم ممن يوجبون على أنفسهم طاعتهم. نهاية الهامش 12.

لم تر المرأة أية ضرورة لتبوح بكل أسرارها وراء العملية ولعلها استغلت الفرصة لتبدي لهم عدم اهتمامها بمشكلة عدم الإنجاب التي تكاد تستولي على عقلها كأنثى تعرف اهتمام الزوج بالإنجاب وتعرف بأن الأنثى هي المتهمة بالقصور عادة. ولذلك فكرت في دعوتهن لجلسة طويلة نسبيا وهادئة بعيدة عن الشكليات والرسميات ليأخذن راحتهن ويشعرن بالطمأنينة وبأنها لا تعرف شيئًا عما شاع بينهن من قصتها.

وارتأت أيضا أن تذكر لكل واحدة منهن إعجابها بشخصيتها وبأهمية أسرتها وبما تنطوي عليه من اهتمام بالشرف وبالأمانة. ذلك لتفرح كل واحدة منهن بأن في يدها شهادة من امرأة العزيز بشرفها وشرف أسرتها فتخلو يدها من أن تكيل لهن التهم ولذلك لا يشعرن بضرورة التستر على ما في قلوبهن ويزددن طمأنينة وسلاما منها.

ثم فكرت في ضرورة إظهار علم يوسف وعلو أخلاقه وفضائله النفسية. فرأت بأن لسان الحال هنا أوسع بيانا من لسان المقال. ولذلك أعدت الجلسة النسائية بشكل يمكن ليوسف أن يحضرها بكل راحة لتبدي لهن عظمة شخصيته.

هذا يعني بأن الجلسة يجب أن تخلو من التحدث عن الأزواج وعن ارتباطاتهن وسيطرتهن عليهم وحبهم لهن حد الغرام كما تفعل النساء عادة. فعليها بأن تجعل الحديث يدور مدار المعلومات العلمية وإدراك الحقائق والتوسع الذهني. هكذا ستظهر شخصية يوسف وينكشف السر الكامن في تلك الشخصية المهابة التي تملك بدن يوسف.

هناك تشعر كل واحدة منهن بضرورة إرضاء يوسف بإرضاء شهواته كشاب في مقتبل العمر لعلهن يملكن ركنا من أركان قلب هذا الإنسان العظيم. ثم تبوح لهن بأنها هي التي راودته عن نفسه.

قامت المرأة التي علَّمت يوسفَ تأويلَ الأحاديث عمليا بإظهار تفوقها عليهن وبأن تلميذها أكبر بكثير من زوجها ولذلك السبب أرادت أن تستولي على قلبه بإرضاء شهواته.

وأرادت في نفس الوقت بأن توضح لهن مدى كرامة يوسف وترفعه عن أن يطلب الجنس من خادمات القصر الجميلات الحسناوات والشابات. فهو في عطش آخر يسعى من خلاله للتفوق على رغبات النفس بالاستئناس بعلمه وبخالقه العظيم.

هكذا يشعرن بأن يوسف ليس إنسانا عاديا فيسقطن في غرامه وحبه. هناك تتحول النساء اللائمات بعد أن يتورطن بحب يوسف إلى نساء مدافعات عنها.

لابد للرجال أن يعلموا بأن الجنس ليس دائما مسيطرا على المرأة ولكنها تستعمل الجنس لإرضاء الرجل لما له من دور كبير في إرغام الرجال للطاعة لهن والاستماع إليهن. إنها بالطبع تستمتع بالجنس ولكنها ليست ضعيفة أمام نزواتها بقدر ضعف الرجل.

والذين تناولوا قصة يوسف وأشبعوها بالجنس وظنوا بأن النساء قمن بتقطيع أيديهن فيزيائيا إثر انبهارهن بجمال شكل يوسف قد وقعوا في خطأٍ كبير بظني.

وحينما نمعن في تدبير المرأة لمثل تلك الجلسة العلمية الفاخرة نشعر بأنها لم تكن طالبة هوى رخيصة حينما أعدت تلك الحادثة الكبرى لاستمالة قلب يوسف. إنها دبرت لأمر كبير فعلا كما قلنا ولكن الذي دمر تدبيرها الكبير هو الله تعالى الذي أراد أن يكمل فضله على عبده المخلَص يوسف وليس يوسف نفسه.

ذلك لأن الله تعالى يعرف بأنه هو سبحانه الذي أدخل يوسف في هذه الورطة الكبرى لتزكية قلبه ونفسه إعدادا له للرسالة من ربه فهو سبحانه أجدر من يوسف نفسه لأن ينجيه في اللحظة الحاسمة.

ولهذا السبب سماه العبد المخلَص ليشعرنا بأنه سبحانه كان معه يساعده على أن يتحمل تبعات تلك الدعوة الأنثوية القارعة على كل ما ينطوي عليه يوسف من قوة جهادية لمحاربة الشهوات النفسية.

حتى العزيز نفسه قد وقع في اختبار أكبر من قابليته ولكننا يجب أن نعرف بأنه إنسان طيب لا تتأثر إنسانيته بما صدر منه كثيرا ولكنه ليس بسعة قلب يوسف.

علينا أن نعرف بأن المقارنة بين إنسان مبتلى بالملك مع إنسان مثله مرشح للرسالة العظمى ومبتلى بالعبودية للعزيز ليس أمرا سهلا.

يكفي جميع أبطال القصة سواء العزيز أو امراته بأن الله تعالى ربى عبده يوسف في بيتهم وبأنهم نالوا شرف إكرام نبي عظيم قدر الله تعالى له أن يكمل بناء أمة لها شأنها في تاريخ البشرية وهي أمة بني إسرائيل.

إنه هو السبب في تزكية نفوس إخوانه وفي إثبات أنهم مع ما ظهر منهم من قسوة فإنهم في النهاية لم يكونوا كافرين بربهم بل انساقوا وراء وساوس الشياطين.

لكن الله تعالى في مقام المقايسة بين يوسف النبي وبين ملوك مصر وحواشيهم. إن رسالته الكبيرة هنا هي دفعُنا نحن لأن نميز بين أصحاب العلم وأصحاب الملابس والألقاب؛ أن لا نغتر بما نراه من ظاهر الشخصية فلا نطيعهم لأنهم تمكنوا من تسنم الذروة العليا بمكرهم بل نمعن ونفكر في كل شيء.

هذه السورة دخلت غرف النوم ودخلت غرف الجلوس والاستراحة الملكية وستدخل قصر فرعون كما دخلت بيوت الأنبياء ونقلت لنا صورا عن ساكنيها وما يدور فيها ودخلت سجون الذين لا يملكون سجنا فيلقوا أعداءهم في الآبار المظلمة وستدخل سجون البيوت الكبرى وقصور كبار رجالات الدولة.

هذه السورة لم تكتف بالظاهر بل دخلت قلوب الأنبياء وأبنائهم كما دخلت قلوب الحكام وقلوب زوجاتهم وستدخل قلوب الملوك أنفسهم وقلوب المسجونين والمحتاجين.

إنها سورة غريبة تعلمنا بألا نغلو في البشر ولا نغتر بالدعايات والألقاب ولا نثق في غير ربنا الرؤوف الرحيم سبحانه وتعالى.

سنرى فيها بأن الأهل والأقربين والأبعدين والأصدقاء والمغرمين بنا يتركوننا للحوادث حينما يرون الخطر محدقا بهم ولن يضحوا في سبيلنا إن كانوا عقلاء. أما المجانين فلا داعي لأن نتحدث عنهم.

وقبل الدخول في الجلسة الهامة التي يختصرها الله تعالى بآية صغيرة نسبيا وكبيرة في المعاني، من الأفضل أن نمر سريعا على شرح لغوي مختصر لبعض تعابير الآية:

سمعت بمكرهن: ولازمه أن يصدر منهن مكر وأن يسعين لإخفائه عنها. وقد حصل الاثنان. مكرنَ لأنهن لم يقلن بأن يوسف أراد الاعتداء على سيدته ولكن قُلنَ العكس وسعين لإخفاء ما قلنه عنها لأنها هي التي سمعت ولسن هن اللاتي قلن لها.

ثم إنها هي التي استنتجت أنهن مكرن بها وليس اللائي ذكرن لها القصص. ذلك لأن السمع في القرآن يعني الوعي عن طريق السمع وليس مجرد وصول الأمواج الصوتية الى الأُذُن.

أرسلت إليهن: يعني أرسلت إليهن رسلها تدعوهن برفق واحترام. لأن الرَّسْل معناه الانبعاث بالرفق والتُّؤَدَة.

وأعتدت لهن متكأً: يعني هيأت لهن مجلسا يجلسن فيه مرتاحات لجلسة استراحة طويلة نسبيا وبعيدة عن الرسميات. والمتكأ يعني المكان أو الفراش الذي يستند الإنسان ببدنه أو بقسم من بدنه عليه للراحة.

وآتت كل واحدة منهن سكينا: هذا التعبير في السرد الروائي لا يعني أن يعطي بيد كل واحدة سكينا فيزيائية. هذه السورة تستعير الجمل لتوصل المفاهيم بشكل روائي إلى قلوبنا وكما قلت في بداية القصة فإننا كبشر نحتاج إلى إعمال الفكر والخيال لتصوير المواقف كلها ولتدبر جزئياتها ثم الحكم بما يمليه علينا العقل.

إن امرأة العزيز بحاجة ماسة إلى أن تثيرهن واحدة واحدة ضدها لتحصل لهن الطمأنينة بأن كل واحدة منهن تحمل الحربة الضرورية ضدها فلا يبخلن بإظهار ما يجول في خواطرهن بكل راحة.

إنها قدمت لكل واحدة منهن ترحيبا حارا يتضمن وصف الضيف ووصف أسرته بالشرف وبالأمانة وعدم الخيانة في حال أنها هي المتهمة بالخيانة.

هناك سيشعرن أولا بأنها تعترف لهن ضمنيا بما فعلت ولكنها تمدحهن حتى يكفينها شرهن وشر الدعايات المضادة لها.

هذا بالإضافة إلى أن صيغة الدعوة كانت صيغة مرنة لطيفة أدخلت في أنفسهن الشعور باعتراف امرأة العزيز بالذنب وبأنها لا تريد الإنكار بل تطلب منهن أن يساعدنها بتركها وشأنها وكتمان أمرها.

وقالت اخرج عليهن: يجب أن نفرق بين الخروج عليهن والدخول عليهن. لقد فسروا الجملة عمليا بالدخول عليهن. وبأنها أمرت يوسف بأن يخرج من مخبأه إليهن ليروا وجهه الجميل وجاذبيته القوية للإناث الكامنة في وجهه.

كما ظنوا بأن النسوة قطعن أيديهن تقطيعا فيزيائيا برؤية واحدة. لم نسمع بمثل هذا أبدا في قضايا الغرام. لو كانت المسألة كما ظنوا فكان لزاما أن تقطع امرأة العزيز يديها عدة مرات كل يوم!!

كل ذلك من وحي الشيطان الذي يوحي دائما للناس بالغلو في المسائل حينما يتعذر عليه صرف الناس عما لا يريده.

والواقع أن الخروج عليهن يعني إظهار نفسه ومكنونات شخصيته لهن. إنها تريد أن توحي إليهن بأن يوسف يفوق زوجها ويفوق أزواجهن شخصية وعلما . ولا تنطوي الجملة على أي وصف للبدن بل تقتصر على السعي لإظهار الحقيقة العلمية لدى الشخص المنوه عنه.

فلما رأينه: كان قد مر على وجود يوسف حتى ذلك اليوم في بيت العزيز عدة سنوات. لم يكن يوسف في سجن مغلق الأبواب فهو واحد من أبناء القصر وكان على مرأى ومسمع من أصدقاء وصديقات القصر.

ولا أدري كيف ظن بعض المفسرين بأنه كان خفيا عن أنظار الناس حتى ذلك اليوم أو هكذا نستوحي من تفسيراتهم.

ولم يكن يوسف فتاة حتى يغيروا شكلها بالماكياج والأصباغ والمساحيق المعطرة كما يفعلون في الأعراس. أولئك النسوة كن يعشن في أحضان العلم والحضارة ويهتم أهل العلم بالقدرات العلمية ويستمتعون بما يرونه في أحد من حلٍّ للألغاز العلمية والفكرية. لقد نسي الإخوة بأن يوسف نبي والنبي مميز بالعلم لا بجمال الوجه.

ولم يذكر القرآن الكريم أي شيء عن جمال يوسف.

اعتقد بان ما يقال حول يوسف ناجم عن أحاديث غير قابلة للوثوق بها نسبت الى الرسول بينما القرآن الكريم يشير إلى أن معرفة الرسول بيوسف لا تزيد عن معرفتنا نحن به لأننا جميعا نستند إلى القرآن الكريم للتعرف على يوسف.

لقد قال له الله تعالى في مقدمة هذه السورة بأنه هو الذي يقص عليه أحسن القصص بالقرآن وبأنه كان من قبله من الغافلين.

دعنا ننظر إلى هذه الآية الكريمة في سورة الأنعام :

وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) .

فهل رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض بعينه أم ببصيرته؟

أو ننظر إلى هذه الآية من سورة الأنبياء:

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (30) .

فهل يمكن أن يرى أحد ما حصل قبل بلايين السنين حينما كانت الأرض ملتصقة بالشمس أم يرى ذلك بفكره وعقله؟ فالنسوة رأين شخصية يوسف بحقيقتها العلمية والفكرية. تلك التي قال الله تعالى عنها قبل أن يذكر لنا قصة امرأة العزيز مباشرة:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) .

يريد الله تعالى بكل قصة المرأة أن يرينا علمه وحكمه وبأنه يحكم بصورة عقلانية في المسائل. إن شكل القصة غرامي ولكن الحديث حول نبي عالم وليس عن شاب أصبح قبلة للغانيات المتزوجات. ولذلك قال سبحانه بعد أن رأينه:

أكبرنه: هل رأيتم أحدا يتحدث عن شاب جميل بأنه كبير أو بأن الذين رأوه يكبرونه؟ والواقع أنهن أكبرن علمه وذكاءه. رأين ثقافته الواسعة واطلاعه العميق بالقضايا السائدة وتحليلاته السياسية والعلمية.

هذا يعني بأن يوسف جلس معهن ساعات حتى أُسقط في أيديهن ورأين أن امرأة العزيز كانت أمام جبل من الكبرياء العلمي والفكري ولذلك فضلته على زوجها وأرادت أن ترتبط به لعلها تكسب قلبه فيبقى بجوارها .

والذي خفي عنهن برأيي أنها أرادات أن تحمل من يوسف. علمن أن من حق امرأة العزيز أن تسقط أمام كبريائه.

ولو ندقق في الآية الكريمة فليس فيها أية إشارة إلى الغناء والموسيقى والرقص وكل أنواع الطرب. وليس بها أي حديث عن النعومة والجمال ولا عن الزينة والمجوهرات. إنهن فقط أكبرنه،

وقطعن أيديهن: انهارت قواهن أمام كبرياء يوسف الذي ظنوه فتى امرأة العزيز قبل ذلك اليوم. لكنه اليوم رجل علمي وثقافي كبير وليس فتى زميلتهن فحسب. ونعبر عن اليد بالقوة. لقد ذكر الله تعالى اليد لنفسه أيضا باعتبار قوته وذكر لداود أيادي على أنه لا يملك أكثر من يدين عضويين في بدنه، لكنه ذو قدرات مختلفة.

حتى هذا المقطع لم نر فيه أي حديث عن الغرام، فلننتقل إلى بقية مقاطع الآية العظيمة:

وقلن حاش لله ما هذا بشرا: إنهن الآن يقمن بالمقايسة بينه وبين أزواجهن وأهليهن والمِلك الذي يسودهم جميعهم.

إنهن رأينه أكبر من البشر. يجب ألا ننسى بأنهن نسوة الوزراء وليسوا بناتهم. إنهن نخبة فتيات مصر اللائي أصبحن زوجات كبار رجال مصر مركز العلم والثقافة البشرية المحترمة في كل الأرض آنذاك.

لقد وصلت امرأة العزيز إلى هدفها بأن تعترف اللاتي مدحتهن بأجمل الأوصاف بأن يوسف أكثر رفعة ممن لهن معهم ارتباط بالزواج .

وأما قولهن: **حاش لله**، فتعني سبحان الله. إنهن يؤمن بالله ويعتبرنه فوق الكائنات وخالقها وسيدها فحينما يكبرن أحدا يسبحن الله تعالى ليقلن بأن الله أكبر من أن نفضل عليه أحدا .

حاشا يعني بعيد عنه، والتسبيح يعني منزه عن مجانسة الخلق فمعناهما واحد . لكن التسبيح أجمل من حاش لله والاختصار لا يسمح لي بأن أشرح كل تعبير هنا فمعذرة من القارئ الكريم.

إن هذا إلا ملك كريم: لقد نزهن الله تعالى فقط وارتفع يوسف في عيونهن فلم يبق إلا الملائكة ليشبهوا يوسف بهم.

هنا نحتاج إلى وقفة لنعرف عمق هذا التشبيه. ولنفتح عيوننا إلى توصيفهن للملَك بالكريم.

والكريم هو تعبير ربنا العظيم ولكنه سبحانه يترجم لنا بدقة ما قصدنه فيكفينا بأن نعرف معنى الكريم باللغة العربية.

لو كن عربيات لكان ممكنا أن نقول بأن الله تعالى ذكر عين كلامهن باعتبار أمانة النقل ولكنهن غير عرب فالله تعالى ترجم كلامهن ترجمة أمينة فعلينا فعلا أن نعرف المعنى بلغتنا .

سأضع معنى للكرم وأسعى لتطبيق بياني على بعض موارد ذكر الكرم في القرآن نفسه. الكرم يعني العطاء ماديا ومعنويا بسخاء دون انتظار التعويض [13].

---

[13] قال تعالى في سورة النساء 31:

إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً .

فأولئك المسرفون في الدنيا سيدخلون الجنة دخولا محترما لا يشعرون معه بأنهم لا يستحقونه. وقال سبحانه في سورة الأنفال 4:

أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ.

فالنسوة لم يصفن الملَك بالعفة بل وصفنه بالكرم. ذلك يعني أنهن وصفن يوسف بأنه كثير العطاء ولا ينتظر شيئًا من أحد كالملائكة التي تعطينا وتساعدنا بأمر الله تعالى دون أن تنتظر منا شيئًا .

انتهى بيان تأثير يوسف في ضيفات امرأة العزيز وحان دورها لتجني الثمرات. وحينما نحقق في مقولتها هنا نشعر بأنها حينما واجهت يوسف بكل شدة أمام زوجها بعد أن فتح يوسف الباب له، إنما كانت تقول ليوسف بأنه هو الذي خالفها فهو مقصر وليست هي. ثم إنها هي التي مُنيت باللوم الشديد من زوجها كما مُنيت قبل ذلك بالرد القاسي لطلبها من فتاها فتريد أن تستعيد كرامتها التي حطمها يوسف أيضا . ولذلك سمعن منها أنها،

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿32﴾

بدأت بإعادة اللوم عليهن بأنهن خلال ساعة وقعن في حب يوسف فكيف بها وهي تعيش معه سنوات طويلة؟ .

فلهم رزق سخي دون أن يُطالَبوا بدفع الثمن. قال العزيز لامرأته أن تكرم مثوى يوسف كما في الآية 21 من هذه السورة. ذلك يعني أن تبالغ المرأة في احترام يوسف وإكرامه دون أن تنتظر منه عملا في المقابل أملا في مستقبل مشرق بجوار يوسف. قال تعالى في الإسراء:

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

فيقول الإبن لأبويه قولا جميلا فيه احترام وتوقير لهما دون انتظار الشكر والثناء منهما . وتطلق صفة الكريم على أزواج النبات والحجارة الكريمة والمقام يعني المنزل باعتبار أن كل هذه النعم تعطينا دون أن تنتظر منا شيئًا . وحق الكرم هو عطاء الله تعالى الغني جل جلاله. نهاية الهامش 13 .

لقد تمكنت المرأة العاقلة من إشراك عدد من نساء النبلاء معها في حب يوسف وفي الخضوع لعلمه وأخلاقه وفضائله ومكرماته.

إنهن جميعا شعرن بأنه أكبر من أزواجهن وهذه المقولة عند نساء محدودات الأخلاق ومحدودات الكرامة تعني بأنهن يدعونه ليقابلن عطاءه ولطفه بعطاء من أجسادهن.

تلتزم الغانيات عادة بتفضيل أزواجهن على كل الرجال كما يقوم بعض الرجال أيضا بتفضيل زوجاتهن على بقية السيدات.

هذا يعني بأن اولئك الأزواج من الرجال ونسائهم لا يطمعون في الارتباط بأحد غير شركائهم في الحياة الزوجية. وهذا القول منهن دليل على أنهن سقطن على أعتاب يوسف يطلبن المزيد منه.

ثم أرادت امرأة العزيز أن تستعيد كرامتها من يوسف ولو شئنا سمينا ما تقوم به انتقاما من يوسف.

لقد زال الخوف من قلبها في تلك الجلسة بأن يوسف استجاب لأمرها وجلس في مجلس يخلو من الرجال سواه وأظهر قدراته لكبار نسوة المدينة في غياب أزواجهن.

لسان مقالها ليوسف بأنك لم تستنكف عن الجلوس بين هؤلاء النسوة في جلسة استراحة نسائية ولسان مقالها لهن بأنكن جميعا فضلتم يوسف على البشر بمن فيهم أزواجكن. فاعلموا بأني أنا أيضا قمت بما قمتن به لا أكثر ولكنه أهانني.

أنا الذي راودته عن نفسه فعلا كما فعلتن دون أن ترين منه أي تجاوب وراء إظهار شخصيته المعرفية الكبيرة وإبراز خصائله الكريمة. لكنه استعصم على أنني صارحته بكل حب وإخلاص فأنا أهدده أمامكن بأنه لو لم يستجب لي فسوف أبعثه إلى السجن وأقوم بتحقيره على الرغم مما له من احترام كبير في هذا القصر.

وكلمة استعصم مشتقة من عصم بمعنى مسك. والمقصود بأن يوسف يحتاج إلى أنثى مثلي وليس هناك حب أو غنى أو عجز أو كره لي يمنعه من أن يستجيب لي.

لقد صارحتهن بأن يوسف أيضا يميل إلي ولكنه ضغط على رغباته النفسية فأمسك عن التمتع بجسدي. لم توضح امرأة العزيز السبب في إمساك يوسف نفسه ولعلها لم تعرف ذلك. من الصعب جدا أن نقرأ تفكير امرأة العزيز وتحليلها أسباب امتناع يوسف ولكننا نشعر بأن يوسف كان يلمع بينهن بعظم الشخصية وبكبرياء النفس الأبية.

لقد قال يوسف لها في الغرفة المغلقة عليهما بأنه يخاف ربه وغير مستعد أن يفرط بما أكرمه به ربه مقابل إرضاء شهواته حينما قال:

معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون.

بل قال يوسف أكثر من ذلك. قال بأنه مغرم بحب ربه فليس في قلبه أي مجال ليحل إنسان محل ربه الذي غمره بكرمه ولطفه. والواقع أن تلك الجمل الثلاث القصيرة التي صدرت من يوسف في وقت لا يمكن معه أن يظن أحد شيئا عدا أنه عليه السلام ترجم أعماق قلبه باللغة البشرية وبأنه أراد من صميم قلبه أن تفهم سيدة القصر بأنه يكرمها ويحترمها ويحبها حبا بريئا ولكنه يحب ربه ويخاف من غضبه.

والجمل الثلاث خليط فعلا بالحب والخوف بالنسبة للذات القدسية المهابة جل جلاله. هو حال الأنبياء فعلا. قال تعالى في سورة الأنبياء:

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90).

كل الأنبياء وكل المؤمنين الصالحين يخافونه ويطمعون فيه، جلَّ الحميد المجيد . ويا له من حميد مجيد .

ولعل امرأة العزيز وباعتبار ضعف إيمانها بالله تعالى كانت تنتظر من يوسف أن يعصي ربه ثم يستغفره كما يفعل عامة الناس. ولعلها كانت تفضل شهواتها على حرمة ربها . ولعلها فقدت عقلها ووعيها أمام أنانيتها وشعورها غير المنطقي بالكبرياء فهددت يوسف الطيب الوديع العالم المؤمن الذي لا يسرف على نفسه أبدا بالسجن.

لقد وقعت المرأة الذكية في ضلال حقيقي وابتعدت كثيرا عن المنطق كما ابتعدت عن ربها الذي أكرمها بكل ما بيدها من ترف وغضارة عيش.

كان عليها أن تقول بأنها أرادت من يوسف أن يستجيب لها باعتبار أنها دعته للمتعة وليس للعنت، ولكنها تحترم اهتمام يوسف بربه وتعتبر ذلك حسنا آخر من محاسن يوسف.

أما تهديدها بالسجن فهو منتهى الأنانية ودليل على الضياع في الهوى وعلى فقدان مستمسكات الشرف والوقار.

المهم أنها استأسدت على نساء المدينة بعد أن أوقعتهن في حب يوسف وخدعتهن ليظهرن هذا الحب أمامها وبمرأى بعضهن البعض فأخمدت أصواتهن ولذلك باحت بالكثير مما يجول في خواطرها دون حذر. من الطبيعي أن يسكتن كلهن عنها بعد أن تلاشى كيدهن وتجلى كيد امرأة العزيز في تلك الجلسة.

لكن يوسف النبي العزيز ازداد خوفا وهلعا إثر ازدياد العاشقات من النساء الغانيات اللاتي لا يمكن له أن يستجيب لشهواتهن باعتبار الحرمة الشرعية والحرمة الخُلُقية والإنسانية.

ولذلك توجه إلى سيد الكائنات ملتمسا رحمته بربوبيته المرنة المحببة إلى قلوب المؤمنين فارتفعت زفرات قلبه إلى السماء وهو جالس بين المتنافسات بالحب والقدرة والمغمورات بحب الدنيا وبدون صوت أو لغة ولكن بقلب مملوء بالخوف والرعب من الله تعالى فـ

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿33﴾

وإن أجمل شيء بين العبد وربه أن يعترف المرء بضعفه أمام سيده ومولاه ليستدر رحمته. فيوسف بشر وشاب وليس هناك امرأة تستجيب لصبابة شبابه وتخفف من هيجان الشهوات في قلبه فتكون لباسا له وسترا على نزواته الطبيعية.

يوسف يعرف بأن ربه يعرف عنه ذلك فرأى بأن أحلى وأكمل الدعاء أن يفرغ قلبه لرب العالمين ويعترف أمامه بانهيار قدراته.

واللطيف في دعاء يوسف وتوجهه إلى ربه هو أنه لم يتحدث عن الضغوط البدنية والنفسية الأخرى عليه بل تقبلها بقوله العاطفي المثير للرحمة:

رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه.

والغريب أنه استعمل كل ذكائه وعبقريته حينما توجه إلى ربه فلم يصر على السجن كما يفعله بعض السذج ولم يعين لربه كيفية النجاة بل أراد أن يبدي لربه بأن السجن الذي يخوفونه به أحب إليه مما يبعده عن رحمة ربه ويدخله في زمرة الآثمين.

ثم وبعد إظهاره للرضا بأي حكم يحكمه ربه حتى السجن فإنه طلب ما يريده بلسان غريب أيضا. لم يقل اصرف عني كيدهن، ليبتعد عن صيغة الأمر بل دعا بصيغة الضعف والحاجة وبأن كل قدراته

أشرفت على الانهيار وكل رصيده قارب على النفاد فلو أن ربه لم يسعفه بشحنة روحانية ليصرف عنه كيدهن فإن الضغوط الجنسية سوف تُقطِّع يديه وتدمر كبرياءه فينهار ويصبح أسيرا بين أيديهن.

فذكر لربه ضعفه وطلب منه بكل خضوع أن يصرف عنه مكائد النسوة الطامعات فيه دون أن يحدد كيفية ذلك. لكنه عليه السلام بدأ بذكر أن السجن مقبول لديه ليعترف بحقيقة أن قيود الحرية أحب إليه من انفلات الشهوات ومن الانغماس في الملذات.

لقد ترك يوسف الأمر كله لله تعالى ربه ولم يعين أي طريق محبب للخروج من المأزق.

هذه هي صيغة الدعاء المؤدبة التي يقدمها المؤمن لسيد الكائنات جل جلاله.

على العاقل ألا يُعلِّم ربه بل يعرض عليه مشكلته ويطلب منه سبحانه المساعدة للخروج من الأزمة بالشكل الذي يراه الله تعالى نفسه فيكون دعاؤه مزيجا من التماس الخلاص ومن الرضا بما يقدره الرحمن الرحيم عز اسمه.

و صبا: يعني ترك حرمته وتنازل عن كبرياء الأدب ومراسيم الارتباط المعقول بين البشر وتمثل بفعل الصبيان الذين لا يجدون لما تشتاقه نفوسهم وازعا ولا مانعا.

ولنعلم بأن مثل هذا الاعتراف عيب على الإنسان حتى أمام أقرب الناس إليه ولكنه جميل أمام الله تعالى العالم بالسرائر. فكأن يوسف يقول لربه بأنه يعلم بأن ربه يعلم حقيقته ولكنه يرضى ولا يشعر بأي حرج من أن ينظر إليه ربه ويكتشف مكنون قلبه ويطلع على عمق ضعفه. إنه ربه ومالكه ومن حقه أن يطلع على كل شيء عنده.

لا بل إن لحن القول لدى يوسف يدل على أنه يشعر بحاجته إلى أن يطلع ربه على كل أسراره فهو ضعيف يحتاج إلى عناية ربه ولن تتأتى العناية الصحيحة دون العلم بكل الخفيات فيوسف يشعر بالمتعة أن يراه ربه ولذلك سعى وسيسعى ألا يأتي بما لا يتناسب مع وجوده في مرأى الرحمن جل جلاله.

وماذا ننتظر من رب رحيم وحكيم وسميع وعليم إلا أن نسمع منه سبحانه:

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿34﴾

لنفتح عيوننا قليلا وندقق بأن الله تعالى يؤكد هنا بأنه سميع عليم. ذلك يعني بأنه سبحانه يعرف ما يحتاج إليه عبده يوسف ويعلم كل القضية فلماذا يستجيب للعبد؟ ثم لماذا لم يقم الله تعالى بدفع الكيد عنه ما دام يسمع ويعلم؟ إنه يساعد كثيرا دون أن نطلب منه ولكنه يزداد رحمة لنا حينما نشكره. قال تعالى في سورة إبراهيم:

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7).

ولو نحلل دعاء يوسف فهو كله تعبير عن الرضا والشكر لله تعالى ولذلك خصه الله تعالى بمساعدة خاصة وليست عامة. إنه يساعد المرء حينما يقع في مأزق بدني أو مالي أو أي ضغط نفسي ولكنه يُبقي عادة كل عوامل الاختبار مفتوحة فعالة لأنه سبحانه يريد أن يختبرنا.

فالذي فعله هنا هو أنه أزال عن يوسف كل أسباب الاختبار واعتبره كمن أدى امتحانه قبل انتهاء أسئلة الاختبار.

إن الأمر الطبيعي في هذه الدنيا هي أن يسقط الأفراد في مثل هذه الاختبارات النفسية لتتجلى حقيقة النفوس ومدى قدرتها على الصمود أمام الشهوات ومدى استعدادها للتضحية في سبيل الله تعالى.

لقد قاوم يوسف مُنزَلَقا فرديا خطيرا بينه وبين امرأة حسناء تحكمه وتأمره بالانقياد لشهواتها ونسيان كل المبادئ. ثم قاوم دعوة جماعية للمزيد من التمتع الجنسي ثم شعر بالانهيار فدعا ربه شاكرا معترفا بالضعف ومقدرا رحمته في أن نجاه من امرأة العزيز كما نجاه ذلك اليوم أيضا ولكنه عليه السلام يرجو ربه أن يوقف هذا الاختبار ولا مانع لديه مما يهددنه به.

والغريب بأن الذي يقاوم أول مرة ضد أمر ما فهو أجدر بأن يقاوم في المرات القادمة مادام في نفس العمر وفي نفس القدرات النفسية التي ينطوي عليها قبل انقضاء ذلك المقطع السِّني والدخول في مقطع سني آخر. لكن يوسف لا يريد المخاطرة على حساب خسارة الإيمان والحب العميق للرحمان وعلى حساب أن تطغى عليه الشهوة فتحل المتعة البدنية محل المتعة النفسية الرفيعة بالتناجي مع خالق الكون العظيم جل جلاله.

ثم إن يوسف اعترف ضمنيا بعلمه وبأنه نال قسطا كبيرا من رحمة الله التعليمية فلا يريد أن ينخرط في سلك الجاهلين فيخسر بعض علمه. إنه يشعر بأنه ينظر ببرهان ربه كما فعل في المواجهة مع استعراض سيدة قصر العزيز لمفاتنها. هذا البرهان هو جزء من العلم الذي أكرمه به ربه فلا يريد أن يخسره. ولذلك أرفق دعاءه بسبب وجيه ومنطقي. إنه سبحانه يحب الشاكرين وكمال الشكر لنعمة العلم أن يسعى المتعلم لحراسة مكارم ربه العلمية عليه. إنه سبب رائع لمثل هذا النوع من الدعاء فسلام على يوسف.

ولذلك استجاب الله دعاء يوسف بما يتناسب مع صيانة علمه ومنحه المزيد. إن يوسف بحاجة إلى أن يبقى مع الحاكمين ليزداد علما بتأويل الأحاديث و لئلا يبتعد عن ثقافة العصر ليستفيد منها في دعوته إياهم إلى الله تعالى.

وإذا كان موسى قد ابتعد عن قصور الملوك فإنه استعان بربه ليرسل معه أخاه هارون الذي بقي في مصر وكان على علم كامل بالتطورات التي تمت خلال العقد الذي غاب فيه موسى.

وليس ليوسف أخ مرتبط بقصور الملوك ليساعده مثلا مستقبلا حينما يعود إلى القصور لأداء مهمته. فمن الضروري أن يبقى معهم لئلا يخسر تأويل الأحاديث. ولذلك نرى بأن استجابة الدعاء كانت بالموافقة على سجن يوسف في سجن خاص بالطبع.

لقد رأت امرأة العزيز وزوجها كيف تحولا لا شعوريا إلى مدافعين عن يوسف الذي اشترياه من مصر. دافع عنه العزيز ضد زوجته ودافعت هي عنه بشق قميصه من الخلف وهي تؤمن بعبقريتها كثيرا.

ولم تكتف بذلك بل حاولت إغراء نساء المدينة بعظمة يوسف بعد أن أمرته بالجلوس بينهن ولكنه كبر في أعينهن ولم يعبأ بمظاهر الدعوة للمصادقة معه.

لقد أجبر يوسف سيدة القصر أن تعترف أمام نساء الوزراء بأنها هي التي دعته للمواقعة وبأن يوسف هو الذي امتنع عنها. لقد اضطرت المرأة أن تفعل ذلك حتى تُسكت النسوة عن مداولة قصة غرامها من جانب واحد مع يوسف. لقد خرجت القصة إلى نساء الوزراء على الرغم من محاولة العزيز تغطيتها بكل قوة:

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿35﴾

من الصعب التكهن بمن هم الذين بدا لهم سَجن يوسف ولكن مما لا شك فيه أن العزيز وامرأته كانا فيمن بدا لهم ذلك. وليس مقبولا أن يبعث العزيز الذي أحب يوسف من أول ساعة ودافع عنه حتى ضد زوجته وأصر على أن تستغفر امرأته وتستمر في إكرام يوسف، من الصعب القول بأن العزيز سجن يوسف ليعذبه. لقد سجنوه ليمسحوا العار عن أسرتهم فقط وليس لأمر آخر. لقد أرادوا إبعاده أياما ثم إعادته إليهم لأنهم قد تعودوا عليه ولا يمكنهم الاستغناء عنه. ليس بين أفرادهم أحد يشابه يوسف في العلم والفهم

والإدراك. إنه هو الذي استولى على عقل ملكهم فيما بعد في عملية واحدة صدرت منه فكيف بالذين عاش يوسف بينهم ورأوا منه الكثير من المكرمات والافكار النيرة وحسن الخصال؟ إنهم اضطروا لإبعاده عن قصرهم أياما أو أشهر ولم يفعلوا ذلك بنية العقاب.

لنتصور نبيا من أنبياء الله الكرام يعيش معنا عدة سنوات فكيف يتأتى لنا أن نبعده عن أعيننا بأيدينا؟ أضف إلى ذلك الشعور العاطفي الذي انتاب امرأة العزيز تجاه يوسف!

فمن غير السهل أن نفهم ما كان يدور في أعماق امرأة العزيز التي كانت مصرة على حبها ليوسف ولم تقتنع بغير الارتباط العاطفي البدني معه.

ولكن من السهل أن نفهم ما انطوت عليه نفس يوسف من أفكار وهو ينتقل إلى السجن. كان يوسف يعيش في متعة غامرة مسيطرة على مشاعره لأنه هو الذي طلب السجن من ربه ضمنيا فتحققت رغبته واستجيب دعاؤه.

فالرابح هنا هو يوسف أيضا والخاسر هم العزيز وامرأته وأهل القصر ونسوة المدينة وكل الذين تعرفوا على حدة ذكاء يوسف وحسن أدبه وتعمقه في المسائل وتحليلاته العلمية والفكرية الممتعة.

لقد خسروا فعلا وربح يوسف بحق. إنهم رأوا آيات براءة يوسف ورأوا علامات قوته وارتباطه بربه وكيف قدر الله تعالى ليوسف أن يدخل العزيزُ بيته في أخطر لحظات امرأته وهي تعيش سكرة الشهوات وتسعى لإطفاء غليلها بالاعتداء على يوسف وإجباره بالممارسة المشينة معها.

إنهم مذنبون ويوسف هو الذي وقاه ربه مكرهم. هذا هو معنى نصر الله تعالى. سنعرف قبل أن ندخل قصر فرعون مصر مع أخينا يوسف المزيد من اهتمامات النبي العظيم عليه السلام.

وبما أن السجن خاص بالشخصيات السياسية وليس سجنا مظلما كما تصوره البعض فإن دعاء يوسف لربه لم ينتج السجن الحقيقي المتعب له. وبالعكس فإنه استحب هذا السجن ليريح نفسه الطيبة الشريفة من دعوات الفاحشة التي انطلقت باتجاهه من نسوة مصر الجميلات.

حكاية هذا السجن دنيويا كان بأمر وزير فرعون فسوف يكون سجنا سهلا؛ وأما حكايته غيبيا فكان من تقدير رب العالمين لينجي عبده الطيب فسوف يكون سجنا سهلا أيضا. فالله تعالى استجاب دعاء يوسف بسجنه إكراما ليوسف ولكنه سبحانه جعل له سجنا هينا من السجون الخاصة عطاء منه سبحانه. نعمّا أنت يا ربنا دام عطاؤك ودام خضوعنا لك وحدك لا شريك لك.

يوسف في السجن

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿36﴾

غريبة حكاية هذين الشابين الذين دخلا مع يوسف السجن. فهما بالتأكيد سُجِنا بأمر ممن هم مثل العزيز أو أعلى منه رتبة في الدولة. وأحدهم بالتأكيد مرتبط بالملك لأن يوسف قال له بأنه سوف يسقي ربه خمرا ثم أصبح ساقي الملك. ذلك يعني بأن الملك هو ربه حينما دخل السجن.

ومن أكبر مشاكل المفسرين أنهم ظنوا بأنهما كانا في حيرة من تأويل مناميهما والواقع غير ذلك. فالآية تنبؤنا عنهما بأنهما طلبا تأويله وهما منامان وليسا مناما واحدا. ثم إن يوسف بعد أن فسر لهما المنامين قال: قضي الأمر الذي فيه تستفتيان.

والمفسرون ظنوا بأن يوسف لبى طلبهما بتأويل مناميهما فلو كانوا مصيبين لسمعنا يوسف يقول: قضي الأمران وليس الأمر.

ثم كيف تمكن يوسف من أن يقول بأن الله تعالى قد قضى أمرا وهو لا يعلم الغيب؟ في الحقيقة لا يمكن تفسير سورة يوسف ولا آياتها قبل أن يتصور المرء المشهد ويتواجد مع أصحاب الشأن في المكان والزمان ويخلق لنفسه الحالة التي كانوا فيها ليعلم حقيقة الأمر.

والذي يزيد من صعوبة فهم القضية أن يوسف أسرع في وصف قدرته على تفسير الغائب وبيان إيمانه وإيمان آبائه وسعى لتخويفهما من عبادة غير الله تعالى ثم فسر الرؤيا وأعقبها ما قاله بشأن الأمر وهو غير المنامين.

فلنبدأ بتصوير موقف صاحبي السجن. كان أحدهما من خدم الملك وكان يوسف من موظفي قصر الوزير فكان الثالث دون شك يعمل لدى ذي شأن مثل ربَّي عمل يوسف مع الصاحب الأول. فالسجن كان سجنا خاصا لمن هو مرتبط بالسلطة. كان السجن سجنا تأديبيا لا يحتاج المسئول في إدخال

من يشاء فيه إلى حكم قضائي. نعرف ذلك لأننا رأينا يوسف لم يتمكن من أخذ أخيه عنوة من إخوانه دون تدبير قضية السرقة. هذا يعني بأن هناك قانون صارم يحكم أرباب السلطة، إذ كان يوسف آنذاك وزيرا أقوى من الذي كان في بيته بأن نزهه الملك نفسه ودعاه ولم يأت يوسف في أول دعوة بل أتاه بعد أن أثبت براءته من كل ما نُسب اليه من تهمٍ كانت لا تهم الملك. لكن يوسف أراد أن يدخل بكل نزاهة فكسب المزيد من القوة على زملائه الوزراء.

متى عرضا قصتهما على يوسف:

مما لا شك فيه أن الثلاثة دخلوا السجن معا أو في يوم واحد لقوله تعالى: ودخل معه السجن فتيان. وواضح أنهما لم يتعرفا على يوسف قبل ذلك. وضروري أن نعرف بأن خدم كل قصر من قصور أرباب السلطة قلما يتعرفون على خدم قصر آخر. وهذا طبيعي فإن ذوي الشأن يزورون بيوت بعضهم البعض ولكن خدمهم لا يزورون إلا أهليهم ويندر أن يتعرف خادم غريب على خادم في قصر آخر. هذا ما يسعى المسيطرون تحاشيه دائما حتى لا تنتقل أسرارهم بين خدم القصور بسرعة وبكثرة.

فبقيا فترة ولو قصيرة دون أن يذكرا شيئا ليوسف حتى اطمأنا إليه وعرفا بأنه من المحسنين. يمكن لنا تقدير مثل هذا الزمان لأن اعتبار الشخص محسنا مؤمنا وهو يعمل في قصر المسرفين أمر غير عادي وغير طبيعي. ولذلك فأحتمل بكل شدة أنهما رأيا رؤيهما في السجن بعد أن تعرفا على يوسف، لكنهما تداولا الرؤيتين بينهما قبل عرضهما على يوسف.

وسوف نعرف المزيد لنضمن صحة هذا الاحتمال قريبا. والرؤيا أمر يراه الشخص نفسه ولا يعرف عنه الآخرون شيئا وهو يحتاج إلى معرفة للشخص الذي يعرض عليه قصته. فهما كانا صديقين قبل دخولهما السجن وقد أباحا قصتي رؤيهما لبعضهما البعض لأنني احتمل بانهما قاما من النوم مذهولين في ليلة واحدة.

هناك مسألة جلبت انتباههما وهو أن الأول رأى الشراب في النوم والثاني رأى الطعام. ثم إنهما لم يتمكنا من الربط بين المنامين اللذين تراءيا لصديقين في وقت واحد .

لابد أنهما استبشرا بحلميهما خيرا وفسراه بالخير ولكنهما تعجبا من ذلك التوافق الغريب. حلمين لسجينين في وقت واحد أحدهما شراب والآخر طعام! ولذلك قررا أن يعرضا هذا التوافق الغريب على الذي رأوه وشعروا به شخصا محسنا يصعب رؤية مثله في القصور الملكية لعله يعرف أمر الارتباط بين مناميهما .

ارتباك يوسف عند سماع المنامين :

إن كان صاحباه قد تعجبا من ذلك التوافق الغريب فإن يوسف قد تعجب أكثر منهما، تعجبا بلغ حد الارتباك، بنظري.

ذلك لأنه عرف بأنهما أخطآ فعلا في تفسير مناميهما قبل كل شيء ثم إن المنامين الغريبين حصلا بتوافق ملفت مع دخوله هو السجن إضافة إلى ما يحيط بشخصه من غرابة بالقياس مع بقية نزلاء مثل هذه السجون الخاصة.

رأى بأن توافق هذين الحلمين مع دخوله السجن وبعد أن عرف الفتيان بأنه رجل مؤمن هو الطريق الذي سيحقق منامه هو الذي رآه في بلده وبين أهله بالأرض المقدسة أو بأرض كنعان.

إنه تأكد من ارتباط الرؤيا به هو، فارتبك في كيفية عرض الارتباط عليهما أيضا . تخيل، إنسانا ينتظر أمرا منذ سنوات ثم يرى نفسه مقتربا من الهدف عن طريق شخصين تعرف عليهما محبوسين معه وهما يظنان بأنهما يحملان خبرا غيبيا لنفسيهما ! وهو يعرف بأن من غير المتاح له نقل ما يفهمه من الحادث الجديد بالكامل، كما لا يجوز له أن يكذب.

وسنرى حينما نحلل مقولته أنه عليه السلام بنفسه لم ينج من الوقوع في خطأٍ غير هيّن حين التحدث إلى صاحبيه في السجن. وقد عوقب عقابا تأديبيا أو تهذيبيا على أساسه، لأن ما ذكره يمثل نوعا من الصبغة النفسية التي كان يوسف مبتلى بها وتَحُول دون أن يزكي الله تعالى صاحبها قبل أن يصير لائقا فعلا لحمل رسالة ربه.

ويبدو أن يوسف سمع منهما تفاؤلهما المشترك بما رأياه في نومهما وبأنهما سوف يديران أو يملكان أو يكونان مسؤولين عن مشروع غذائي أو تجاري كمصنع للخمور أو إدارة الغذاء والشراب في قصر مثل قصر الملك احتمالاً. ذلك لأن الطعام الذي يرتزقه الإنسان لا يمكن أن يمثل طعام السجن[14].

---

[14] وسوف نتعرض لمفهوم الرزق ثم مفهوم الطعام في القرآن باختصار هنا ليتجلى للقارئ حقيقة الآية التالية فيمكننا تحليل كلام النبي يوسف بدقة ودراية.

لست بصدد الرد على من يظن بأن الرزق معناه الغذاء الذي نأكله، فلا أظن أن مفسرا محققا أو عالما لغويا يجهل بأن الرزق أعم من الطعام.

قال الراغب في المفردات: الرزق يقال للعطاء الجاري تارة، دنيويا كان أم أخرويا، وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة. يقال: أعطى السلطان رزق الجند، ورزقت علما، قال: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾ [المنافقون/10]، أي: من المال والجاه والعلم، وكذلك قوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ [البقرة/3]، ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ [البقرة/172]، وقوله: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ [الواقعة/82]، أي: وتجعلون نصيبكم من النعمة تحري الكذب. انتهى كلام الراغب.

وفي لسان العرب: والأَرزاقُ نوعانِ: ظاهرة للأَبدان كالأَقْوات، وباطنة للقلوب والنُّفوس كالمَعارِف والعلوم؛ انتهى ما أردت نقله من ابن منظور.

هذا ما قاله اللغويان المعروفان ونكتفي بهما ونذهب إلى القرآن نفسه لنعرف كيف استعمل القرآن كلمة الرزق. وبما أننا نريد الاختصار في هذا التفسير الجزئي المجمل لسورة يوسف فسوف لا أذكر موارد الرزق بمعنى الغذاء في القرآن لوضوحه ولكن يهمني أن يعرف القراء بأن الرزق في القرآن أعم من الأكل أو الطعام وغيره.

1. قال تعالى في سورة آل عمران:

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37) .

من الواضح أن الرزق هنا ليس هو الطعام. ذلك لأن المحراب ليس مكانا للطعام بل هو مخصص للعبادة أولا. والدليل الثاني بأن مريم كانت تحتاج إلى سفرة الأكل لحظة الولادة وهي في مكان غير المحراب ولا إشكال من الأكل هناك فأين المائدة اليومية كما ظنوا؟ إنها تئن من آلام الولادة والروح القدوس على لسان ولدها يقول لها: هزي إليك بجذع النخلة. فعليها بأن تسعى وتتعب لتحصل على الأكل ولو قليلا. هذا هو نظام الربوبية ولا يمكن تخطيه. ولو نفتح قلوبنا وعيوننا فسنرى بأن زكريا تعلَّم منها شيئا يفيده للدعاء ولذلك ذهب ليناجي ربه فورا حتى يجني ثمار دعائه. قال تعالى بعدها:

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) .

ونرى بجلاء أن زكريا دخل الصلاة ليستفيد من تعليمات مريم. قال تعالى بعد الآية السابقة:

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (39) .

فالرزق المقدم لمريم هو رزق علمي وليس طعاما أو غذاء كما تصوره البعض.

2. قال تعالى في سورة آل عمران:

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) .

لنتصور الذين قتلوا في معارك بحضور أنبيائهم ولينصروا ربهم فهم مقتولون حقا في سبيل الله. إنهم ماتوا وتركوا أبدانهم بما فيها أفواههم وبطونهم في الدنيا وانتقلوا بأنفسهم عند ربهم كما ينتقل كل الموتى. فكيف يأكلون الطعام هناك؟ إنهم ليسوا في جنات النعيم التي لم تُخلق بعد وقد وعد الله تعالى بأن يخلقها بعد أن يهدم الكون ويعيد بناءه ليعطيه القدرة على البقاء الأبدي كما وعد في القرآن. والواقع بأنهم يُرزقون الأمان هناك والموتى أحوج ما يكونون إلى الشعور بالسلام والأمان. قال تعالى بعدها موضحا هذا الموقف:

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) .

فالرزق هنا هو الأمان وليس الأكل.

3. قال تعالى في سورة هود:

قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88) .

فالرزق الذي يتحدث عنه رسول الله هو الرزق العلمي وليس المال ولا الأكل ولا أية مادة أخرى. إنه بعلمه وهداه يدعو غيره وليس بالطعام ولا بأي رزق مادي آخر.

4. قال تعالى في سورة النساء:

وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قَرِينًا (38) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيمًا (39) . والرزق هنا هو المال وليس الطعام المعروف الذي نأكله.

5. قال تعالى في سورة المائدة:

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) .

لقد أضاف المسيح طلب الرزق على طلب المائدة. والمائدة هي الطعام هنا لأنهم طلبوا ذلك في الآية السابقة:

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (112) قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) .

ولكنهم طلبوا ذلك رجاء اطمئنان قلوبهم وأن يزدادوا علما بصدق نبيهم. إنهما من مراحل الهدى فطلب المسيح من ربه أن يهديهم بعد أن يهنئوا بالمائدة السماوية. فالرزق هنا بمعنى الهدى.

6. قال تعالى في سورة الحج:

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) .

هؤلاء أيضا مقتولون أو ميتون لا يملكون أبدانا يأكلون وقد وضح الله تعالى رزقهم في الآية الثانية بأن ربهم سوف يدخلهم مدخلا يرضونه. ذلك بأنهم سوف يشعرون بنوع من عدم الراحة النفسية بأنهم لم يحاربوا ولكنه تعالى سوف يحشرهم مع المقاتلين في سبيله. سيشعرون بأنهم لا يستحقون ولكنه سبحانه يعدهم بأنه من كرمه يُدخلهم مدخلا يرضونه. إنه الرحيم فعلا وسوف يُدخلهم يوم القيامة الجنة دخولا مرضيا لقلوبهم حتى لا يشعروا بأنهم لا يستحقون تلك الدرجات العلا. ولا مجال هنا طبعا لنشرح الموضوع أكثر من ذلك. والله العالم.

7. قال تعالى في سورة الروم:

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) .

والرزق هنا هم الخدم أو ما يعرف بالعبيد الذين ملكتهم أيمانهم.

وأما الطعام في القرآن فهو أيضا لا يُطلق دائما على الأكل بل هو في الواقع ما يقوي الإنسان أو أي شيء آخر. وبهذا الاعتبار يسمى طعاما. كما سنعرف من هذا البحث القرآني المختصر أيضا:

1. قال تعالى في سورة البقرة:

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) .

لقد فصل طالوت بين من يشرب الماء قليلا ليسد عطشه وبين من يطعم الماء. فيقصد بالطعام هنا أن يتقوى الإنسان بالماء ويروي عضلاته بالكامل. وليس الماء غذاء لمعدة الإنسان في الواقع، لكنه يعتبر مروحا و منشطا للعضلات.

2. قال تعالى في سورة يس:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (47) .

ويقصدون به أنهم يكرهون تقوية من لم يشإ الله أن يقويه ماديا عاما وليس غذائيا فقط.

3. قال سبحانه في سورة الأنعام:

قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) . قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) .

فهل الله تعالى موجود قابل للطعام الغذائي حتى يُطعم؟ وما ارتباط الطعام الغذائي باتخاذه سبحانه وليا؟ والواقع أن الله تعالى قوي يقوي غيره ولا يتقوى بغيره. ولذلك فهو خير ولي لمن يعقل ذلك. فيقول النبي بأنه يأبى أن يتخذ غير القوي القاهر الذي فطر السماوات والأرض بقوته دون أن يحتاج إلى من يمنحه القوة، سبحانه وتعالى. ذلك لأن الولي هو القريب الذي يفيدك، فهل هناك خير من الله تعالى الذي يفيدنا ولا ينتظر أن نفيده، ويقوينا ولا يتوقع منا منحه أية قدرة؟ ولذلك فهو سبحانه وحده الجدير بأن يشرع من عنده ما يجب على من وجه إليهم تشريعه العمل به. فكل قدراتنا منه سبحانه ومن حقه أن يأمر وينهى لينظم استفادتنا مما منحنا إياه من قدرات وإمكانات مملوكة له وستبقى مملوكة له وحده ولكننا مخولون بالتمتع بها ضمن نظام وتشريع سماوي. و إن

الله تعالى وليس غيره، هو الولي القريب من الرسول ومن كل عبيده والقادر على أن يمدهم بما يحتاجون إليه دون أن يستمد من عبيده شيئًا .

4. قال تعالى في سورة الذاريات:

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) .

ويمكننا أن نتعرف على معنى الرزق والطعام من هذه الآيات بكل جلاء . فالله تعالى ليس كائنا فيزيائيا يأكل ولا يصح الحديث عن عدم أكله. ذلك كأن تقول بأن القلم لا يفكر والإنسان لا يأكل الحجر والماء لا يكتب. ولكن يمكن أن يقول أحد بأنه يزود ربه بالمعلومات أو بأنه يساعد ربه ويعطيه المزيد من القوة والقدرة بإضافة قدراته إلى قدرة ربه. فالله تعالى يقول بأنه خلق الجن والإنس ليخضعوا له باعتباره الحق المطلق ولا يحتاج إلى المزيد من العلم لتصحيح أوامره فلا يريد منهم أي رزق وهو يعني أي علم ومعرفة بل هو الذي يمنحهم العلم وذلك في المقاطع التالية من الآيات:

ما أريد منهم من رزق، إن الله هو الرزاق.

ثم يتحدث عن موضوع القوة في المقاطع الأخرى من الآيتين الأخيرتين:

وما أريد أن يطعمون، إن الله. . . ذو القوة المتين.

فهو سبحانه لا يريد أي تقوية أو تنشيط لأنه هو مالك القوة كلها وهو بنفسه متين لا يعوزه أي إسناد . ويعني بأنه لا يحتاج إلى قوة خارجية لا لذاته القدسية ولا لأفعاله وتصرفاته في خلقه. إنه هو القوي المتين الذي يمد كل الكائنات بالقوة والطاقة. فليس للكائنات إلا الخضوع الفعلي. بالطبع أن ما نراه من عدم خضوع من بعض الإنس والجن فهو باعتبار أنه سبحانه منحهم الإرادة في وجوداتهم ليختبرهم ولكن ماهياتهم خاضعة له سبحانه بالكامل. ولذلك يعتبر الخارجين عن تشريعه ظالمين سوف يحاسبهم فيما بعد كما وضح في الآيات التالية لها وهي:

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60) .

والذنوب يعني طويل الذنب ويُطلق عادة على الفرس الطويل أو الغليظ الذنب. وهنا إشارة إلى كلا المعنيين بأن للظالمين تبعات خطيرة تنتظرهم كما تنتظر الذين سبقوهم من الظالمين أمثالهم.

نستخلص مما مضى بأن الطعام والرزق ليسا مقصورين على المأكولات والأطعمة المعروفة بل ليسا مقصورين على الماديات. فالرزق عطاء قد يكون مالا أو ملبسا أو مقتنيات مختلفة أو غذاء أو علما والطعام قد يكون أكلا أو طاقة أو قدرات معنوية أخرى. والفرق بينهما من حيث المصداق بدون قيد هو أن الرزق هو عين الإضافة المادية أو المعنوية ولكن الطعام هو نفسها بإضافة إمكانية استزادة المستفيد منه بالطاقة والقوة. ولذلك لا يمكن إطلاق الطعام على المجوهرات أو المأكولات التي لا تحمل قيمة غذائية ولكن الرزق يشملها جميعا . بالطبع أن العطاء أوسع من الرزق لأنه يشمل الحب والغفران وما في حكمهما أيضا . نهاية الهامش 14 .

هناك فتَيان من فِتْية القصور دخلا السجن مع يوسف. رأى أحدهما مناما وهو أنه يعمل كعاصر للخمر في مصنع من المصانع. وعصار الخمور عادة ما يعصر لغيره حتى لو شرب من نتاجه. وأما الآخر فقد رأى نفسه يحمل خبزا فوق رأسه والطيور تنزل على مستقر الخُبيزات وتبدأ بأخذ طعامها من الخبز المحمول.

وبما أنهما رأيا مناميهما معا في وقت واحد أو ليلة واحدة ثم أفصحا عنهما لبعضهما البعض فإنهما ظنا بأن التفسير واحد وهو أنهما سوف يحصلان على مرتبة أو منزلة متكاملة باعتبار أنهما رأيا الأكل والشرب معا وهما يكملان أحدهما الآخر.

لم يشكا في تفسيرهما ولكن تعجبا من حصول ذلك في وقت وزمان واحد وهو الذي أدى إلى احتمالهما بأنهما سوف يشتركان معا في مشروع واحد، أو يحصلان على منحة واحدة. ولعلهما انتبها إلى أن هذين المنامين قد رأياهما في وقت غريب وهو اشتراك فتى مؤمن ومحسن من فتيان القصور معهم في السجن. وهو أمر غريب لعدم اهتمام أصحاب القصور بالمؤمنين أولا ثم إن المؤمنين عادة ما لا يقومون بالمخالفات التي تؤدي إلى السجن. وواضح لهما بأن السجن تأديبي وليس سجنا سياسيا ولا جنائيا.

اتفقا كما يبدو أن يعرضا مناميهما وتفسيرهما على يوسف لعله يتمكن من تأويل هذا التوافق الغريب بين المنامين من شخصين في سجن واحد فيفسر لهما المكسب الذي ينتظرانه حسب تأويلهما البدائي. وكما قلنا فإن يوسف ارتبك لأنه رأى بأنهما مخطئان في تفسير المنامين أولا ثم إنهما قد رأيا رؤيين تفسران ليوسف نفسه اقترابه من تحقق حلمه الذي رآه بين أهله في صباه.

انتبه يوسف بأن الأول رأى أنه يعصر خمرا ولم ير أنه يُعصر له الخمر فهو لا يعني بأنه يملك أو يرتزق شيئا بل يخدم غيره فقط. ثم تفطن بأن الآخر رأى بأن الطير تأكل منه وهو يعني بأنه يخسر ولا يعني بأنه يكسب أيضا. فلقد انتقص منه ولم يزدد عليه شيء.

هكذا استيقن بأنهما مخطئان في استبشارهما بحلميهما . عرف يوسف بأن أحدهما سوف يخسر عمره ولا يكسب شيئا وليس لهما رزق مشترك قطعا . لكنه كيف يوضح لهما ذلك وينقل لهما ما يعرفه من تأويل الحلمين قبل أن يتحدث عن السبب في ذلك التوافق الغريب؟

وانتبه يوسف أيضا بأن الله تعالى يعطي الذين يكفرون بالرحمن أحسن المنازل، لو كان ممكنا دنيويا . ذلك لأنهم لا خَلاق لهم في الآخرة. فرأى من واجبه أن يفند لهما تفسيرهما أولا ثم يقدم نصحه لهما باعتباره ناصحا من أهل بيت النبوة الذين يحسن بهم النصح ليساعدهما على التخلص من ضغوط الشهوات والاهتمام بالله تعالى وباللقاء معه مستعينا ومستشهدا بالعلم الذي كسبه من عناية الله تعالى وبفضل إيمانه باللقاء مع ربه.

قرر يوسف أن يبدأ بقطع الأمل لديهما في ما ينتظرانه من خير من وراء مناميهما . لعله أراد بذلك جلب انتباههما إلى أن تفسير المنامين ليس أمرا بسيطا بل يحتاج إلى التدبر لو كان المنام مرتبطا بوحي الحقيقة.

هكذا يفتحان قلبيهما للاستماع إليه وإلى كيفية تفنيده لرأييهما في تأويل المنامين. ثم عليه أن يذكر لهما سرَّ شخصيته العلمية المرتبطة بوحي السماء . هناك يتجلى لهما صدق شعورهما بأنه محسن فعلا.

إن ذلك ضروري لأنهما فسرا رؤييهما كما فسرا شخصية يوسف ولكن يوسف رأى بأنهما أخطآ في الأولى وأصابا في الثانية. ثم أحتمل أنه فكر في كيفية بيان شخصيته لهما فبدأ بتوضيح ارتباطه بربه وبأن علمه ناتج عن استحقاقه العملي في الخضوع الخاشع لرب العالمين وفي الاعتقاد باللقاء مع الله تعالى.

إنه في خضوعه لربه مال وانحرف عن طريق من عاش بينهم من غير المؤمنين ولم يغتر بما في يدهم من مال وجاه وجمال وشباب. ثم فكر بأن يُبدي لهم بأنه من أسرة النبوة وبأنه حينما يعبد الله تعالى وحده فهو إنما يتبع ملة آبائه.

بالطبع أن خطأ يوسف كامن في موقفه ذلك حيث بث حقيقة خاطئة في نفوس المستمعين إليه دون أن يشعر وفقد معه خاصية مميزة من خواص التمسك بالله تعالى وحده ولذلك تمكن منه الشيطان في ما بعد فلم يكن حينذاك مخلَصا كما كان يوم نجاه الله تعالى من الفاحشة المشينة كما سيأتي. والعلم عند الله تعالى.

لعله فكر في أنه لو أبرز قدرته العلمية والعائلية وبأن الأسرة التي ينتمي إليها هي فوق بقية الأسر فسوف يرق له قلبهما فيستعدان للإيمان. وصاحباه في السجن فهما من ضمن تلك البقية طبعا.

لكن يوسف كان مخطئا في محاسباته وسوف نحللها بعد قليل بإذن الله تعالى، حيث أبعدهما عن الإيمان به احتمالا. كان على يوسف أن يفكر قليلا قبل أن يذهب وراء وساوس الشيطان فيتذكر بأن إخوانه الذين أرادوا قتله بدون أي ذنب وهو أصغر إخوانهم تقريبا هم أيضا أولاد إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهم جميعا يعتبرون أنفسهم متبعين لملة آبائهم. إنهم قد أشركوا بالله فعلا حينما استحلوا دم يوسف ثم أشركوا أيضا بعد ترك القتل فأخرجوه من بيته وأبعدوه عن أهله وهو ليس شأنا بشريا وليس مسموحا لأحد أن يطرد أحدا من بيته وبلده. ثم إنهم فرضوا على أخيهم الرق وهو أيضا تدخُّلٌ سافر في شؤون الربوبية وشرك قطعي بالرحمن عز اسمه، على أن كل المعاصي تعتبر شركا إلى حد ما.

ثم انتقل إلى الهدف الرسالي الذي يشعر به يوسف كمرشح للنبوة وهو أن يثبت لهما وهما يؤمنان بالله تعالى بأنهما في ضلال من الخضوع لغير الله تعالى ويعطيهما عليه البرهان. كان ذلك واجبا عليه بعد أن يذكر لهما بأنه من الذين منحهم الله تعالى علما مميزا حتى لا يخضعان له هو قبل كل شيء.

والواقع، أن هذا واجب كل الذين يتحدثون عن رسالات السماء ولو نقلاً أن يبادروا قبل كل شيء بنفي أهليتهما لأن يُقدَّم لهم أيُّ نوع من الخضوع كما سنعرف بعد قليل بإذنه سبحانه. ثم يفسر لهما المنام و

يأوله تأويلا صحيحا ويذكر لهما بأن الأمر الذي يستفتيان فيه وهو التوافق الغريب فهو من قضاء الله تعالى وليس مقتصرا على التقدير. والقضاء أمر جازم مؤكد الوقوع.

ولعل من الضروري أن أؤكد للقارئ مرة أخرى بأن القصة روائية في حين أنها حقيقية فالكلمات المستعملة فيها غالبا ما تكون مستعارة لمعاني لا يسعنا فهمها دون أن نتخيل. فالطعام ليس هو الأكل، والرزق ليس هو المال كما نستعمل الكلمتين. وسوف نقوم بشرح كل ذلك بإذن الله تعالى ولنستمع إلى القرآن الكريم وهو يقص علينا كيفية ابتداء يوسف ببيان ما يريد بيانه:

قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿37﴾

المشكلة في هذه الآية هي الاداة (إِلاَّ)والتي تحتاج الى توضيح قبل مواصلة التفسير[15].

انا شخصيا أظن بأن الرسالة القرآنية تهدينا إلى أن نقول بأن يوسف قال لصاحبي سجنه ما اختصره القرآن في الآية وهي احتمالا: ليس هناك بشارة مشتركة تنتظركما في الواقع. لا يأتيكما مكسب

---

[15] ليس هناك لدى النحويين الذين اطلعت على كتبهم وهم من كبار أئمة اللغة والنحو، بيان دقيق للاستثناء ولست إماما في النحو. ولذلك أذكر رسالة الآية الكريمة كما أفهما فهما ظنيا، وأترك التوفيقات النحوية للغير.

إنني من الذين لا يلتزمون كثيرا بالنحو العربي الذي بدئوا تدوينه بعد فترة طويلة من نزول القرآن فلا يمكن أن نلزم القرآن بذلك العلم المتأخر.

لعلنا نكون صادقين لو قلنا بأن أرباب النحو قد انخرطوا في سلك المحدثين والمفسرين ليطبقوا علماً بالغ الأهمية على آراء أولئك النفر من المحدثين والمفسرين الذين وقعوا تحت ضغوط السلطات السياسية من جهة ومن جهة أخرى فهم كانوا محتاجين لمن يساعدهم ماديا ليتصلب عودهم وتترطب محابر أقلامهم وتتكاثر صفحات أوراقهم فيقووا على كتابة علم النحو وبقية العلوم العربية.

والمتبرعون سواء دولا وحكومات أو أثرياء وشعوبا فهم كانوا يفرضون مطالبهم على المحققين من أرباب العلوم حتى لا يخسروا تماسكهم مع عامة شعوبهم التي لن ترضى بالتغيير بل تميل إلى إبقاء الأساطير الموروثة خوفا من التبدد و الابتعاد عن السواد. والسواد هو ما يزينه لهم الشيطان وليس هناك في الوقع سواد يدين بدين أو يتمسك و يوالي عقيدة متكاملة حقا. نهاية الهامش 15.

يمكن اعتباره رزقا مشتركا ثمينا . لو يهدينا مناماكما إلى ما يقوي إمكاناتكما فأنا جدير بأن أفسر لكما ذلك الرزق المتوقع. جدير بأن أبشركما به قبل أن يصلكما وهو ما تنتظرانه من المنامين لكن تفسيركما خاطئ للأسف.

تابع يوسف القول: وبما أن المنامات الحقيقية متصلة بإرادة الخالق العظيم جل شأنه فإن إدراك عمقها يحتاج إلى إيمان خالص بالله تعالى مصحوبا بقبول اللقاء به حد التضحية في سبيل تلك العقيدة الفذة. وأنا ذلك الشخص.

لعل يوسف كان مبدعا في دعوته لهما بالعودة إلى الله تعالى بأن يبدأ ببيان حاله وما استفاده هو من تضحياته في سبيل إرضاء ربه، أو أنه استفاد من تجارب سلفه. وعلى أي تقدير فإنه كان مصيبا إعلاميا لأنه استغل خطأ المخاطبين مصحوبا بقلقهما ليدعوهما إلى الله تعالى.

وعليه أكمل قوله عن نفسه بأنه وهو في قصر من قصور نبلاء مصر، فهو لم يتأثر بالزخرف والثروة ولم يهتم بالتسهيلات المتاحة له بل بقي يفكر في ملة الموحدين من آبائه وأهله. ولذلك استعمل كلمة: (تركت ملة قوم) . والترك يتحقق بسبق التجاوب مع الشيء .

فهو شاب جدير بأن يتمتع بما كان متاحا له في قصر الوزير الفرعوني حد عرض السيدة الأولى نفسها له. ولولا أن يكون هناك مجال للتفاعل فلم يكن للترك أثرا إيجابيا ومنحة ربانية من الذي يعلم خائنة الأعين سبحانه. وهو ما عبر عنه الكتاب الكريم: (فهمَّت به وهمَّ بها) . همَّ بها بطبيعته وشبابه وتركها بعد أن استمع إلى نداء عقيدته وإيمانه العميق بربه.

والآن دعنا نفكر في المقطع الأخير من الآية التي تقول:

ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون.

أصل الملة من أملل يُملل كما يقول اللغويون من أمللت الكتاب. فكأنها كلمة تُطلق على ما تمليه الأمة أو الشخص القوي الذي يكون أمة بنفسه، على الأفراد من طقوس والتزامات نفسية يدينون بها ويخضعون لتبعاتها ومظاهرها.

وليس ضروريا أن يكون الإملال بالقوة الجبرية بل المهم قناعة الناس واستعدادهم لاتباع الملة والدفاع عنها فهي حينذاك ملّتهم وشريعتهم الشخصية. وأما الدين فهو ما يجب أن يكون عليه الناس بالنسبة لربهم باعتباره الدائن الحقيقي الذي يجب أن يُظهر الناس عبوديتهم له ويعترفون بالمديونية لكبريائه ولنعمه[16].

---

[16] الملة تشابه المذهب تقريبا الذي يظهر ويتولد تحت لواء دين واحد.

ولكل أحد مناسكه التي تُظهر شخصيته كمتدين ملتزم بالدين. فالمنسك لكل شخص والملة للأمة والدين هو ما أقر به الله تعالى لنفسه فرضا تشريعيا على عبيده.

فكان إبراهيم أمة باعتبار أنه ذهب مذهبا رائدا في العبودية والخلوص للذات القدسية وقد أقر الله تعالى له بالصحة، فمن اتبعه في خلوصه فهو سائر على ملته المقبولة عند الله تعالى وكلهم يدينون لرب العالمين ويسعون لإظهار المديونية والعبودية له كما يرتضيه هو سبحانه أو هكذا يجب أن يكونوا.

وملة أهل مصر كبقية الملل التي لا تعيش النبوة أو التي مات أنبياؤها فإنهم يتبعون طقوسا تساعدهم على إقناع أنفسهم بأن دينهم يسمح لهم بأن يشبعوا شهواتهم ويضمن لهم آخرتهم مع ربهم.

هكذا ينسون حقيقة الله تعالى فلا يعطون الأولوية لأي اهتمام توحيدي بل يتحركون باتجاه الشرك شيئا فشيئا. فليس صحيحا قول من يقول بأن فرعون مصر وحاشيته كانوا كافرين بالله، وليس ممكنا أن يرسل الله تعالى نبيا إلى قوم لا يملكون أوليات العقيدة بالذات الربوبية جل وعلا.

كان المصريون معتقدين بالله تعالى ولذلك بنوا الأهرامات لملوكهم استعدادا للملك في الحياة الأخروية، فهم يؤمنون بالمعاد أيضا. قال العزيز ليوسف وامرأته:

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29).

والإيمان لا يعني الاعتقاد فحسب بل يعني سيطرة الاعتقاد على النفس بحيث يوجه صاحبه لاتباع مقولة العقيدة. فالمؤمن بالله تعالى هو الذي يترك نفسه وأهواءه طلبا لمرضاة ربه وليس المؤمن من شهد الشهادتين حسب تعبيرنا أو الذي انحدر من أسرة تؤمن بالله تعالى.

فقوله عليه السلام: لا يؤمنون بالله، يعني لا يلتزمون بما يترتب على قبول العاقل المدرك لوجود الله تعالى من تقوى وحذر ومن استبشار بالرضوان وباللقاء المقبول مع إله السماوات عز اسمه. ولذلك لم يعطف جحودهم بالآخرة على عدم إيمانهم بل وضح مقصوده من عدم إيمانهم بأنهم يكفرون بالآخرة. فالواو قبل "هم" الأولى للحال وليست للعطف. فكأنه قال: كيف يؤمن بالله من يعمل عملا يتنافى مع الخوف من اللقاء بربه؟ إنهم كانوا يؤمنون بالآخرة بمعنى الاعتقاد بها ولكنهم لا يستعدون لها كما يجب فكأنهم يعتقدون بها ولكنها لا توجههم ولا تؤثر في الحيلولة دون اتباعهم للشهوات. واستعمل ما فسره القرآن بالكفر بالآخرة بدل عدم الاهتمام ليقول بأن الآخرة لا تحد من ملذاتهم ولا تقف عائقا أمام شهواتهم ومتعهم وتنافسهم وتسابقهم على المعاصي والآثام فكأنهم يجحدون بها .

فهم يؤمنون بالله ويؤمنون بالمعاد ويهتمون بطلب المغفرة من الرب العظيم سبحانه وتعالى. لكنهم يبررون متعهم وظلمهم بأنها مسموحة لهم أو بأنهم يحبون من يحبه الله تعالى فيخلصهم من خطورة الوقوف أمام رب العالمين.

ولذلك فهم يعترفون بالذنوب ولكنهم يتخلصون من تبعاتها بما يأفكون وينسبونه إلى الله تعالى فلا يرون داعيا لأخذ الحيطة والحذر من عذاب ربهم وسخطه. هذا الالتزام المتعثر يسمى ملة أيضا . فهي تعبير عام ينطبق على الأديان السماوية والأديان أو المذاهب البشرية.

فملة إبراهيم هي التزامه بالتوحيد وبوجوب إرضاء ربه وحده دون أن يخضع لأي ذي شأن آخر وهو الصحيح الحق. وأما ملة حكام مصر فهي التزامهم باتباع ما خلقوه وأوجدوه بأنفسهم من زعامات وطقوس دينية وترك حقيقة الألوهية وعدم الاكتراث بالبحث عنها أو أخذ الحذر من اللقاء مع تلك الحقيقة والاكتفاء بالأوهام والأساطير. نهاية الهامش 16 .

ونفهم من خطاب يوسف لصاحبيه بأن النبوة ليست منحة بقدر ما هي استحقاق للنبي الإنسان وبأن النبي ليس ضامنا للوحي بل شديد الحذر ألا يخسر ما حباه الله تعالى به فهو يعيش الخوف ويبتعد عن المعصية جهد الإمكان وليس له عصمة بل هو معرض للإثم بصورة كبيرة وموسعة.

إنه هو الذي يؤمن وهو الذي يتجنب المعصية وليس هناك مانع نفسي يقطع عنه سبل العصيان أو يمنع عنه وساوس الشيطان. وسنرى بعد قليل بأن يوسف النبي نفسه قد أتى بذنب يحتاج معه الى الغفران وهو منهمك بالدعوة إلى ربه دون أن يشعر فأخذه الله تعالى بذنبه وعاقبه ولم يهمل عبده فلم يمهله، سبحانه، ثم سبحانه.

إنه سبحانه منزه من أن يقبل الانتساب المشوب إليه ومنزه من أن يساعد أنبياءه أكثر من أن يساعد عبيده المحرومين من نعمة النبوة. إنه ليس مَلِكا من ملوك الأرض الذين يهتمون بأولادهم لا لشيء إلا لأنهم أولادهم، بل هو سبحانه عادل يسعى للقسط ولا يفضل أحدا على أحد دون أن يكون لدى الموهوب نفسه مرجح يفضله على غيره.

ونضيف على فهمنا من خطاب يوسف بأنه لم يكن ليكسب العلم الذي به فند تفسير المنامين بكل قناعة ويقين لو أنه كان من المذنبين، وبأنه سوف يُعدُّ من المذنبين لو أنه لم يمنع نفسه من اتباع الشيطان ولم يجاهد ضد أهوائه وشهواته.

كان على يوسف أن يعتزل القوم الذين لم يؤمنوا بالله وباللقاء بالله ليحظى بالعلم الحقيقي الصحيح الذي يعطيه الأهلية لاستلام الوحي. قال تعالى في سورة مريم متحدثا عن جد يوسف الأعلى إبراهيم:

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50).

فالاعتزال شرط من شروط استجابة الدعاء. وبعد أن رأى يوسف الرؤيا في صباه تاقت نفسه للنبوة فوضع سياسة حياته المستقبلية على أساس كسب النبوة والعلم الإلهي متبعا ملة سلفه الصالح الطيب.

كان يوسف يعرف بأن النبوة التي أخبره أبوه عنها ليست مضمونة إن لم يهيئ نفسه لاستقبالها. ليس لأحد قرابة مع الله تعالى ولا لأحد دالة على الذات القدسية جل جلاله.

إن الله تعالى هو الذي يهدد باسترجاع النبوة الممنوحة فكيف بالنبوة بالقوة والتي لم تتحقق بعد ؟.

وهنا جدير بأن نعرف بأن النبوة التي يتحدث عنها القرآن بالنسبة للبعض قبل أن تظهر نتائج أعمالهم فهي نبوة بالقوة وليست بالفعل كنبوة موسى وعيسى الموعودين بها قبل أن يولدا. ذلك لتسعى والدتاهما في مساعدتهما ليكسبا النبوة احتمالا. فلم يكن عيسى نبيا حقيقيا في المهد بل كان يحمل نفسا مستعدة للنبوة[17].

---

[17] قال تعالى في سورة آل عمران:

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (48) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. . . .

فالرسالة تتحقق بعد أن يعلمه الله تعالى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

ولعل قائلا يقول بأن الإنجيل مرسل إلى قومه فكيف يتقدم إرساله على رسالته، فهو رسول حينما استلم الإنجيل. والواقع أن موسى استلم التوراة كاملة قبل أن يرسله ربه إلى بني إسرائيل بالكتاب. إن إرسال التوراة مغاير لإرسال القرآن لأسباب لا مجال لذكرها هنا. وأما الإنجيل فهو احتمالا اتخذ نفس شكل التوراة في الإرسال ولعل رسالة المسيح الأولى بدأت بعد استلامه وتعلمه للتوراة والإنجيل. إنه أُرسل إلى قوم يحملون التوراة فلم يكن ضروريا أن يمهد الله تعالى لكتاب سماوي دون مستوى الكتاب الذي بين أيديهم بغية منحهم بعض التسهيلات وإجراء تجربة جديدة عليهم للحياة مع الكتاب السماوي دون الأنبياء التي بدأت مع وفاة المسيح وانتهت بظهور نبينا.

ولعل من يدعي بأن المسيح تعلَّم كل شيء قبل الولادة كما يقول بعضهم وهو كلام غير مستدل ومخالف لنص قرآني آخر. قال تعالى في سورة النحل:

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78).

فوسائل الإدراك الدنيوية المحصورة في أن يتحول السمع الأذني والبصر العيني إلى سمع وبصر مدركين بمساعدة الفؤاد أو بربطهما بالفؤاد وهو حركة فيزيائية تحتاج أن تمر على مراحل التطور ولا يمكن أن تدرك العين قبل الولادة حيث لا مجال هناك لا للرؤية ولا للاستماع فيحتاج العضوان الرئيسيان إلى تطور فيزيائي وإلى تجارب للرؤية والسمع قبل أن يمنحهما الله تعالى الإدراك بربطهما ربطا مباشرا بالفؤاد. والفؤاد هو الرابط الطاقوي بين البدن الفيزيائي والنفس الطاقوية.

مما علمني ربي: تصريح من يوسف بأن ربه قد علمه فعلا وبأنه علمه من منطلق الربوبية وليس من منطلق الألوهية وبأنه سبحانه قد علمه علوما أخرى منها ما استعان به يوسف لفهم خطإ صاحبيه ولمعرفة حقيقة الأمر وبكل دقة.

فمسألة الربوبية هي نظام دقيق يطوِّر به الله تعالى مختلف الكائنات باعتباره رب العالمين. وبما أن الإنسان موجود مختار يتكامل بَدَنيا ضمن نظام الطبيعة كما تتكامل الشمس والنجوم والحيوانات ومختلف الكائنات الأخرى فان تكامله العلمي يتوقف على سعيه هو بنفسه.

وأما الجانب الإلهي فإن الله تعالى ضمن نظامه العام لا يمكن أن يخصص أحدا بالعلم أو يميزه عن بقية الناس وإنما يبعث بالعلم إلى أهل كل كوكب ضمن الزمان والمكان المناسب لينتهل منه من أراد أن ينتهل.

والسبب في أننا لا نرى الأنبياء اليوم ليس عائدا للأنبياء بل هو عائد للنظام الربوبي الذي يعطي كل مكان وزمان حقه من العلم.

وبدون أن نشرح المسألة بتفصيل فإني أطلب من الجميع أن ينظروا إلى التطور العلمي العام لأهل كوكبنا ليروا بأن الناس يتكاثرون وتتكاثر معهم أساليب الزراعة والتسهيلات وتظهر مع تكاثرهم الصناعات.

ثم إنهم يترابطون بعد التكاثر الشديد فتظهر لهم قدرات مختلفة لاكتشاف المزيد من القوى الكامنة في الطبيعيات فيخترعون الحاسوب ويتعرفون على الالكترونات ويكتشفون أنواع الطاقة.

ثم إنهم اكتشفوا الذخائر الأرضية في الوقت المناسب والضروري لهم ولو كان السلف على علم بها لأسرفوا فيها ولم يبق للمتكاثرين شيء اليوم. حتى الإعلام ووسائل النشر تطورت مع تكاثرنا وتطورنا وهذا دليل واضح على وجود قوة خارقة وراء الطبيعة التي نشعر بها وهي التي تنظم الحياة العامة وتقسم الثروة وتعطي العلم والحكمة والإدراك الحضاري بما يتناسب مع شؤون البشر.

إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون:

عرفنا معنى المقطع الكريم وعرفنا بأن الواو قبل "هم" الأولى هي للحال ويعني حال كونهم كافرين بالآخرة. وتكرار "هم" ضروري حتى لا يلتبس على القارئ موضوع عطف "هم" الأولى على عدم إيمانهم الصادق بالله تعالى.

حينذاك سوف يكون المعنى بأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله كما يكفرون بالآخرة ولكن مقصود الآية أن تقول بأن عدم الإيمان بالآخرة نتيجة حتمية لعدم الإيمان الحقيقي والصحيح بالله تعالى.

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴿38﴾

هنا يكمن الخطأ الأكبر ليوسف برأيي. ذلك الخطأ الذي سلبه تلك العناية الخاصة التي ملأت حياته روعة وعلما وقرارات حاسمة ورائدة، وكان أجلاها في ذلك التقدير الدقيق لوصول العزيز في اللحظة الحاسمة قبل أن يقع يوسف فريسة سهلة في أحضان المرأة الماجنة.

وليس هناك علم يصل الإنسان دون أن يسعى كما يدعي الكثيرون. إذ أن لله تعالى يذكر بنفسه حقيقة أخرى في كتابه الكريم تتعارض تماما مع مقولة العلم اللدني أو ما شابه ذلك من تعابير غير دقيقة نسمعها هنا وهناك. ألا وهي ما قاله سبحانه في سورة النجم:

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى (39).

والعلم هو إضافة إنسانية تجعل الإنسان أكثر إنسانية فلا يمكن أن يكسبه المرء بدون أن يسعى.

والجانب الربوبي في المسألة هو مساعدة الله تعالى كرب لكل فرد منا أن ينال حظه من العلم بما يتناسب مع كيانه ومسؤولياته وسعيه.

ونكتفي بهذا القدر من بيان الحقيقية القرآنية دون إثباتها علميا حتى لا نبتعد كثيرا عن قصة يوسف. نهاية الهامش 17.

(**وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه**، هو برهان الربوبية وليس برهان الألوهية) . هنا وفي هذه اللحظة خسر يوسف شيئًا كبيرا فلم يعد من عباده المخلَصين (بفتح اللام) .

هنا وفي هذه اللحظة فُتح الباب على مصراعيه للشيطان ليضاعف الغرور الذي تمثل به أخونا الكبير يوسف بن يعقوب حفيد إسحاق وحفيد إبراهيم. إنها مشكلة كل أو غالبية بني إسرائيل. وسنرى في آخر المطاف وبتحليل بسيط أن إسماعيل الذي أبعده ربه عن التحفظات العائلية الموروثة للكبرياء قد فاز على يعقوب الذي بنى أسرة عريقة كبيرة متمثلة في أولاده وأحفاده. حرية إسماعيل تغلبت على محافظة إسحاق.

ولعل أول من اهتم بالتحفظ العائلي هو ابنه يعقوب المعروف بإسرائيل. ولا يفوتنا هنا أن نلفت إلى أهمية الالتفات إلى ما يحكم علاقات اتباع الأديان الثلاثة من كراهية وشحناء فيما بينهم ونسعى جميعا الى إصلاحه ومحاولة القبول بالعيش المشترك في هذه الحياة الدنيا سيما وأننا نعود في الاصل لى جذور واحدة ونكون معا هذه العائلة البشرية الكبيرة.

أضاف يوسف بأنه اتبع ملة آبائه وذكرهم بالاسم و هم إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وكما عرفنا فإن اتباع الملة لا تعني أن يقلد أحدا بل يسير على الخط العام لهم.

إنهم مشوا على درب التوحيد خاضعين لله ناسين غير الله تعالى ولكن سار كل واحد منهم بطريقته والتزم بمناسكه الخاصة. إن كل إنسان يعيش في محيط خاص به ومع أسرة ترتبط بكيانه الشخصي وكل مجموعة من الأسر يعيشون في وطن يخصهم ويحتضنهم ويساعدهم ليهنئوا ويؤدوا واجباتهم بسلام. وإن كل مجموعة من الأوطان تدين بدين وتؤدي واجباتها تجاه ربها ضمن إطار خاص بتلك المجموعة.

فليس من الضروري أن يلبسوا جميعا مثل بعض أو يأكلوا ما يأكله الأكثرية أو يركبوا نفس المراكب أو يبنوا بيوتا على طرز واحد[18].

[18] وهكذا ليس معنى هذا التشابه في الملة أن يطلقوا جميعهم اللحى مثلا كما يظن بعض المؤمنين. لو كان كذلك فإن النساء سيكن عاجزات عن اتباع ملة إبراهيم! وقد أمر الله تعالى المسلمين كما أمر أهل الكتابين السماويين من قبلهم أن يتبعوا ملة إبراهيم.

ملة إبراهيم تتميز بتوحيد الألوهية والخلوص لله وحده وليس شيئا آخر وهو المطلوب. فإبراهيم كان موحدا وهو في قصور العراق كما كان موحدا وهو مطرود إلى المجهول كما كان موحدا في الأرض المقدسة وموحدا أيضا في المدينة المحرمة. كذلك كان إسحاق وكذلك كان يعقوب وهما لا يعيشان حياة مشابهة لحياة إبراهيم.

وها هو يوسف يتبع ملة إبراهيم تحت عناية أبويه، يتبعه في الجب المظلم ويتبعه مسروقا بين يدي تجار مصر ويتبعه عبدا في قصر العزيز.

إنها ملة إبراهيم التي جعلته يطيع سيدة القصر في كل شيء مشروع ولكنه وقف أمامها ممتنعا عن الاستجابة حينما طلبت منه الفاحشة. قال تعالى في سورة البقرة:

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131).

فاتباع ملة إبراهيم يعني أن يسلم لرب العالمين كما أسلم إبراهيم وجهه له سبحانه وتعالى وليس أمرا آخر.

اتبع يوسف ملة إبراهيم وهو يلبس ملابس الكنعانيين البسيطة كما اتبعه وهو يلبس ديباج القصور المصرية الفاخرة. اتبع يوسف ملة إبراهيم وهو يعيش في أسرة النبوة كما اتبعه وهو عضو في أسرة مشركة. اتبع يوسف ملة إبراهيم وهو حر طليق كما اتبعه وهو في ظلمات الجب أو في سجن مصر. قال تعالى في نفس سورة البقرة:

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135).

فإبراهيم أسلم إيجابيا لربه ومال عن قومه وترك شرك المشركين.

أظن بأن ربنا الرحيم قد وضح الملة الإبراهيمية بكل دقة وأزال كل غموض عن كيفية اتباع ملة إبراهيم. والمطلوب لكل من أتى بعد إبراهيم أن يتبع ملة إبراهيم لا غيره. وبعد حوالي 3000 سنة من يوسف عاد القرآن ليأمر محمدا بأن يتبع ملة إبراهيم أيضا.

لكن يوسف أضاف إسحاق ويعقوب على إبراهيم ليكبر أسرته. لسان حال يوسف بأن بني إسرائيل هم الصفوة الخيرة المتفوقة على بقية الناس فعلى الناس أن يحذو حذوهم. بل لسان حاله أن بني إسرائيل وحدهم يسودون الناس فعلى الناس أن يأتمروا بأمرهم.

إن وجود أمة مؤمنة مثل بني إسرائيل هو فضل من الله تعالى على بني إسرائيل وعلى الناس جميعا! نسي يوسف بأنه هناك في السجن لأن أولاد إبراهيم وإسحاق ويعقوب من غير أمه قد أرادوا لأخيهم الموت فكيف يتعاملون مع بقية الناس؟! هل ذلك من فضل الله على بني إسرائيل وعلى الناس يا أخانا يوسف؟!.

لقد ذكر لنا القرآن بأن يوسف فضل نفسه وأسرته على الناس ولم يقل بأن أولاد إسماعيل بمن فيهم نبينا محمدا قد فضلوا أنفسهم على الناس.

الحقيقة أن كل المسلمين يشعرون بأن محمدا هو صاحبهم وأخوهم الكبير ولكن لا زال اليهود بعد انبعاث نبي عظيم غير إسرائيلي وبقوة كبيرة، لا زالوا يعيشون الخيال والظن الإسرائيلي الجاهل الذي ورثوه من بني يعقوب.

والله تعالى لم يرفع أمة على أمة ولا إنسانا على إنسان بالوراثة. قال تعالى في سورة النحل:

وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92) وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (93).

وقال سبحانه في سورة الحجرات:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13).

وقال تعالى في سورة الكهف مخاطبا خاتم النبيين:

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110).

لا يمكن توقع أن يفضل الله تعالى أحدا على أحد وإنما تقتضي ضرورات الابتلاء الإلهي أن يكون هناك تشابك غريب في أوضاع الناس لا تتجلى فيه حقائقهم وحقيقة فضل بعضهم على بعض. فالله تعالى أتاح لأبي سفيان أن يكون حاكما ويكون محمد تحت حكمه ردحا من الزمن كما جعل موسى يعيش عقودا تحت حكم الاقباط وهكذا.

وحينما أراد الله تعالى إرسال موسى إلى المصريين فإنه سبحانه قدر له أن يعيش حياتين إسرائيلية وقبطية ثم قدر له أن يعيش عقدا من الزمان بعيدا عن بني إسرائيل وبعيدا عن فرعون مصر الكبير.

إن يوسف رجل مؤمن طيب القلب وفي غاية الخضوع والخشوع لله ولكنه مبتلى بما ابتلي به بنو إسرائيل من كبرياء. إنه بحاجة إلى أن يبقى فترة في السجن ليتطهر نفسيا ويشعر بالتواضع مع بني البشر فيترك كبرياء بني إسرائيل ثم يتأهل للنبوة.

أظن بأنه لهذا السبب بقي بأمر ربه وبتقديره الكريم سبحانه بضع سنين في السجن. لكن هناك نظاما ألوهيا يجب مراعاته لتبرير بقائه الفعلي في السجن. هذه العنجهية محفورة في قلوب بني إسرائيل قاطبة فهل يقدر الله تعالى لهم جميعا السجن؟

وحتى لا نظلم يوسف فإن موسى عاش فقيرا يخدم الغير عدة سنوات حتى جاء على قدر فمن صالح يوسف أن يعيش فترة في السجن ليأتي على قدر.

ولنعد إلى أخينا يوسف لنراه كيف استمر في الإنصات إلى الشيطان. أكمل يوسف:

ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء.

وهو يعني بأن الشرك عمل غير جميل لهم ولا يتناسب مع شأنهم. ألم نر الله تعالى يقول في سورة مريم على لسان المسيح:

مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (35)؟

وهو يعني بأن اتخاذ الولد ليس مناسبا لشأن إله العالمين جل جلاله ولا جميلا له.

هكذا جاء موسى على قدر بعد ما فقد هويته الإسرائيلية المحضة وأصبح قادرا على استيعاب الغير. إنه أُمر أن يبلغ فرعون والأقباط قبل بني إسرائيل ليعلم ويستيقن بأن الله تعالى الذي أرسله هو رب العالمين وليس رب بني إسرائيل فحسب.

لكن أباه يوسف الذي عاش الظلم الذي أورده عليه أبناء إسرائيل المباشرون في غيابت الجب والذي عاش الرق ولم يزل عبدا وهو في السجن فإن العنجهية الإسرائيلية لم تفارقه. نهاية الهامش 18.

لا يعني قول يوسف بأنهم عاجزون عن أن يُشركوا بالله تعالى كما تراءى للبعض فظنوا بأن الأنبياء معصومون عن الخطإ، بل يعني أن الشرك ليس جميلا لهم.

والمشكلة الكبرى أن يوسف قال ذلك باعتبار السلالة وليس باعتبار النبوة وليس في كلامه مع صاحبيه في السجن أية إشارة إلى النبوة وليس لدينا أي دليل على أنه كان نبيا في ذلك اليوم. والأحرى بنا أن نقول بأنه فعل ما فعل قبل أن يتشرف بالنبوة.

من الخير لنا أن نرى أنبياء الله تعالى بعيدين عن دنس المعاصي والآثام. إنهم قدوة لنا فليفعلوا ما يفعلوا قبل أن يصيروا قدوة للأنام. فيوسف قال ذلك باعتباره من بني إبراهيم وليس باعتبار آخر وكان حديثه عن آبائه بغض النظر عن نبوتهم. والدليل على غروره وكبريائه أنه أكمل قوله ذلك بقوله التالي:

ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

يعني يوسف فيما يعنيه للسامعين وأنا أقول ما أقول كسامع وأضع نفسي مكان صاحبيه في السجن فأنصت معهما إلى يوسف الذي أبدى علما وقدرة على بيان حقائق الأحاديث حتى في المنام وبأن الله تعالى علمه هو دون عامة خلقه. لو كنت معهم لقلت: هذا الرجل أفضل مني وقد منحني الله تعالى مكرمة كبيرة أن حضرت في مجلسه فأشكر الله تعالى على أن حشرني صحابيا ليوسف.

ولكن هل ليوسف أن يقول ذلك عني أم عليه أن يتواضع أمامي ويقول لي: **إن أنا إلا بشر مثلكم**؟!

لقد أقر يوسف بداية بأنه كسب ما كسب من علم لأنه ترك عبادة غير الله تعالى لغير الله تعالى وهو كلام جميل وصحيح. لكنه أردف بأنه اتبع ملة آبائه، وبأن أباءه غير بقية الناس وبأن الله تعالى فضلهم على غيرهم وعلى الغير أن يشكروا ربهم بوجود أهل بيت النبي إبراهيم بينهم.

هذا هو الكبرياء الذي ظهر على لسان يوسف وهو دليل واضح بأن يوسف ما كان بعد مستوليا على كبرياء نفسه فما كان قادرا على أن يكون نبيا لأهل مصر الذين هم ليسوا من بني إسرائيل ولا يوجد إسرائيلي غيره هناك آنذاك.

نحن نشكر الله تعالى بأنه لم يُقدِّر لأخينا الطيب يوسف أن ينجو من السجن ولم يقدر له ما قدر له من السلطة إلا بعد عدة سنوات. كان الكبرياء سيأخذ من يوسف مأخذا لا يعلم أحد غير الله تعالى ما كان سيفعله في وزارته وقوته تحت تأثير ذلك الكبرياء[19].

---

[19] قرب من الله تعالى أم تقرّب إليه: هذه مسألة أود أن أوضحها باختصار هنا للمناسبة.

نحن نسمع كثيرا عن الذين يسمون أنفسهم عرفاء ونسمع كثيرا عن مكاشفاتهم وعن تحدثهم بالغيبيات وقيامهم بما يعجز عنه بقية الناس.

بالطبع يمكنني القول بضرس قاطع بأن كل ذلك محض وهم ولا يوجد لأحد مكاشفات مع الله تعالى ولا يعلم أحد شيئًا من الغيب إلا ما أباحه الله تعالى لجميع خلقه من العلم الغيبي وهو اليوم محصور في القرآن الكريم.

لفهم ما اقول علينا ان نفكر قليلا في قوله تعالى عن الملائكة بأنهم مقربون وتسميته بعض عباده من البشر بالمقربين وهو سبحانه لم يعبر عن أي مخلوق بالقريب. حتى الأرواح القدسية ومنهم جبريل فهو ليس بالقريب من الله تعالى بل هو أيضا مقرَّب فقط.

والمقرَّب إلى الله تعالى لا يعني بأن الله تعالى قد قرَّبه إلى ذاته أو أناله بعض صفاته أو فوض إليه بعض أعماله. إن كل خصائص الربوبية خاصة بالقدوس وغير قابلة للانتقال إلى المخلوق وإلا كان المخلوق شريكا فعليا لله تعالى ، معاذ الله.

كل التقريب لا يتجاوز المعرفة بالقدوس فلو نمعن بأن الشخص الذي يعرف عن الله تعالى شيئًا قليلا، فإنه لو بقي متقربا إلى الله تعالى فهو يعني بأنه كان محتاجا إلى المزيد حينما استحق صفة التقرب. و حينما يستمر في التقرب فهو يعني بأنه لن يبلغ حد الكمال أبدا ليكسب شرف القرب مثلا وإلا وصفه الله تعالى بالقريب لا بالمقرب.

هذا يعني بأن التقريب لا يعني التقريب الفيزيائي أو المعنوي إلى القدوس بل يعني تقريبه إلى معرفة القدوس. ذلك لأن الحقيقة هي أن التعرف على الهوة الساحقة بيننا وبين خالق السماوات والأرض ليس بالأمر الهين. فنحن كلما نزداد تقربا أي طلبا للمعرفة فإننا نزداد معرفة بالبعد الشاسع بيننا وبين الله تعالى.

انتهى يوسف خاطئًا من تمجيد نفسه وأسرته وعاد بعد ذلك لينصح صاحبيه في السجن بما يمكن لأي مؤمن عالم بحقائق الدين أن ينصح به غيره. لم ينس يوسف الله تعالى في كل كلامه مع صاحبي السجن وبما أنه لم ينس الله تعالى فإن الله لا يمكن أن ينساه أيضا ولكنه مع الأسف فقد بعضا من خاصيته حينما كان مخلَصا فلم يمنع الله تعالى الشيطان من الاستمرار في إغوائه فحصل ما حصل بعد هذه الجلسة بالطبع.

استمر يوسف في كلامه قائلا:

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿39﴾.

لم يترك يوسف الكبرياء وهو يخاطب صاحبيه في السجن أن يقول لهم كلاما أجمل من ذلك. لننظر إلى إخوانه الأنبياء قليلا: قال هود لقومه كما في سورة الأعراف:

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ

ولذلك فحق انتسابنا إلى بعض لا يمكن أن يتجاوز الأخوة التي تناسب كياناتنا. علينا أن نبتعد عن أي تسمية تدل على أي أمر فوق بشري لأي بشر وهذا هو السر في إصرار القرآن الكريم على أن الأنبياء ليسوا إلا بشرا. قال تعالى في سورة إبراهيم:

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11).

فالذي يُقرَّب، يُقرَّب إلى المزيد من العلم بالهوة بين الخلق والخالق وليس بالقرب، إذ لا قرب فعلا. ولذلك فأي شعور بالفوقية على أي مخلوق هو ظلم حقيقي للنفس.

والشيطان يعرف بعض الشيء عن هذا البعد الحقيقي فيسعى لإقناع الناس بأن النسب والتعرض لفضل الله تعالى يقربان البشر من الله تعالى كمقدمة لإقناعهم بوجود أشخاص قريبين من القدوس بحيث يمكنهم أن يصيروا وسائط بين الخالق وخلقه. نهاية الهامش 19.

ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) .

اعتبره الله تعالى أخا لهم فقد خاطبهم بكل تواضع بأنه ليس به سفاهة وبأنه رجل منهم وقد جاءه الذكر من ربهم عليه باعتباره واحدا منهم لينذرهم. لم يمدح هود نفسه بل مدحهم هم بأنهم خلفاء من بعد نوح وبأنهم أقوياء منعمون من الله تعالى.

لكن يوسف لم يقبل بأنهما أخواه ولا صاحباه بل صاحباه في السجن. فلم يقل لهما يوسف بأنه واحد مثلهما ليصغيا إليه ويثقا بإخلاصه لهما .

وقال سبحانه مخاطبا نبينا في سورة الكهف:

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) .

بخع كما يقول أرباب اللغة تعني قتل نفسه غما . وقد استشهد الراغب لنفس المعنى بالآية التالية من سورة فاطر:

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8) .

قارن بين الخلوص الواضح والتواضع الممزوج بالحب في خطاب نبينا مع قومه؛ وبين خطاب أخينا يوسف لصاحبيه في السجن وهو يتحدث عن نفسه وأسرته وبأن الله تعالى قد منَّ على الناس بهم وبأنهما صاحباه في السجن فقط. . . ألا ترى الكبرياء متجليا في خطابه والترفعَ واضحا في نصيحته لهما ؟ هذه هي المشكلة النفسية ليوسف ولكل بني إسرائيل تقريبا مع الأسف.

وأما فحوى خطابه العلمي البليغ فهو بأن الربوبية التي تعني العناية المحيطة بالكائنات لينعموا بالحياة وبالهدى تحت رحمته لا يمكن أن تأتي من أكثر من مصدر واحد[20].

[20] إن الكائنات برمتها مرتبطة ببعضها البعض ومحتاجة فقيرة لمن يسندها وينظم علاقاتها وارتباطاتها .

يجب أن يكون الرب مخضوعا له ومقبولا لدى الجميع ويجب أن يكون واحدا حتى يربط الجميع برباط الألفة والمحبة وينظم علاقات الكائنات المتباينة وحتى لا يختلط الهدى على الكائنات.

يجب أن يكون الرب قهارا فلا يتمكن أحد من عدم الانصياع لأوامره فيعم السلام ويتثبت التوافق والوئام بين خلقه. لو كان الرب غير الله تعالى الخالق العظيم فإن تباين المصالح سوف يخلط الأمر ويرفع الانسجام بين الكائنات. والواقع أننا نرى الكائنات اليوم ومنذ بلايين السنين تسير وفق نظام مفروض عليها فمدير ذلك النظام وحده قادر على أن يهدينا للسير بسلام مع بقية الكائنات. ولذلك قال يوسف عليه السلام بكل ثقة ودراية:

أ أرباب متفرقون خير، أم الله الواحد القهار؟

فبمجرد ما تتعدد الأرباب فهم يتفرقون لأن كل واحد منهم يسعى لجذب الكائنات لنفسه وليس أحد أجدر من الخالق نفسه أن يصون خلقه تحت رعايته. وبما أن الله تعالى يرتبط مع خلقه بالنور أو الطاقة فإن كل إله افتراضي يجب أن يكون كذلك.

إن علماء الفيزياء يعلمون بأن الطاقة كما تنفذ من جهة الى جهة فهي تجذب أيضا . ثم إنها تتحرك باتجاه ما يتناسب معها لتزيده نورا . فلنتصور تعدد مصادر الطاقة والمصيبة التي ستحصل لنا ولبقية الكائنات لو وجدت.

وقد وجه يوسف خطابه بلحن السؤال ليدعوهما إلى التفكر وإلى بذل الجهد للمعرفة الشخصية دون التقليد للغير. معرفة الله تعالى والإيمان بربوبيته وبأنه مستحق فعلا لأن يُعبد هو أصل يجب على كل شخص أن يطمئن إلى صحته فلا يمكن أن نطيع فيه الغير. وتكمن في الآية الكريمة عدة مسائل يجدر بنا معرفتها:

1. أن الله تعالى هو خالق الكائنات وهو يدير ما خلقه بصورة تلقائية تثبيتا لملكه، وأن الأرباب الآخرين لا يمكن أن يسعوا لمساعدة أمثالهم إلا لمصلحة لهم فيها . ولذلك فعلى الذي يشعر بالحاجة لهم أن يؤمِّن لهم مصالحهم ولكن ليس عليه أن يؤمن مصالح الله تعالى.

أضف إلى ذلك أن ليس لله مصلحة شخصية ولا حاجة إلى أحد . ونرى في الواقع أن الذين يتشبثون بغير الله تعالى كالموتى في القبور أو الذين يتشبثون بالملائكة بأن يصنعوا لهم أصناما فكلهم يسعى لإحاطة إلهه الذي عينه لنفسه بالمزيد من المال الذي يصرفه على ضريحه أو على مكان صنمه.

نصرف مال الله تعالى معترفين بأنه مال الله على ما خلقناه بأيدينا لنطلب منه المساعدة. والله تعالى يقول في سورة الإسراء:

قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً (56) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (57) .

ويعني بكل بساطة أن الذين تدعونهم غير الله تعالى فهم بأنفسهم يدعون الله فأيهم أقرب إليكم، هل الله –الذي أقرب إليكم من حبل الوريد– أم الذي يبحث عن وسيلة يتقرب بها إلى الله تعالى مثلكم؟ ثم إنهم مثلكم يخافون الله تعالى ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

2. إن الذين تطلبون منهم العون مهما كانوا أقوياء فإنهم غير مهيمنين على الكائنات ولا مناص لهم من أن يراعوا قوانين الربوبية الصادرة من الله تعالى بينما الله تعالى غير واقع تحت هيمنة أحد وهو القهار الذي يقهر كل شيء ليثبت أمره فالعقل يحكم بأن نطلب حوائجنا منه سبحانه لا من غيره، ولا سيما أنه سبحانه دعا عبيده ليدعوه ويطلبوا منه لطفا وكرما وليمنحهم المزيد من الهدى فلا يبحثوا عن من يساعدهم من خلقه. والمقصود من الدعاء هو تغيير مسار النظام الصاعد بلا توقف لنتجنب وقعه علينا، أو نطلب المزيد من الخير منه. نطلب تغيير المسار العادي للنعمة أو للغضب ولكن لا يمكن لغير القهار أن يقوم بذلك التغيير.

3. إنكم تخضعون للبعض لحاجة لكم تريدون أن تقضوها على أيديهم وهم لا يملكون شيئا . إنهم ليسوا أربابا حقيقيين وهم متفرقون بمعنى أن هناك الكثيرين يحملون نفس الصفات ونفس القدرات التي تتراءى لكم، ولكن ليس كمثل الله شيء، وهو واحد لا شريك له فالعقل يحكم بأن نستظل بظلاله وهو القهار القوي القادر ولا نتفرق تحت رحمة الذين نظن بأنهم يملكون شيئا .

أنظر إلى قوم نوح الأقدمين فقد اعترفوا بأن لهم مجموعة من الأصنام وهكذا الذين أتوا من بعدهم.

المسيحيون ينظرون إلى المسيح والروح القدس على أنهما وسيلتان إلى الله تعالى والنصارى منهم يضيفون إليهما مريم العذراء.

اليهود يتشبثون بموسى وهارون وعزير وبقية أنبيائهم ويهتمون بداود وسليمان وبقية الأقوياء منهم وهم جميعا متفرقون ضعفاء أمام الله تعالى.

المسلمون يطلبون من النبي وصحابته أو أهل بيته.

وبتحليل بسيط نشعر بأن كل هؤلاء يحسون بأن موسى والمسيح ومحمد ليسوا منفردين وليسوا بكامل القوة ولذلك يتشبثون بمن دونهم فلعلهم يكونوا أكثر فائدة لهم من كبارهم. لكن الذين يكتفون بالله تعالى فهو حسبهم ويشعرون معه وحده بالطمأنينة الكاملة وبأنهم قد تمسكوا بحبل لا ريب في قوته ومكنته.

4. إن صاحبي يوسف قد أُدخلا السجن على يد الذين يسمونهم أربابا لأن مصالح الأرباب اقتضت سجنهم ولكن الله تعالى حليم يصبر على عبيده لعلهم يرجعوا إليه فيثيبهم بالحسنى. كان اهتمامهما واضحا في أن يُرضيا الملك الذي يعتبرانه ربهما وقد فسرا مناميهما بما يتناسب مع رضا الملك وهما غافلان عن الله الواحد القهار الذي هو ربهما فعلا.

هذه الغفلة مشهودة لدى بني إسرائيل اليوم ولدى أتباع المسيح كما هي لدى المسلمين. ولنعم ما قال سبحانه في سورة الزمر:

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (48) فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (51) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (55) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59).

5. أضف إلى المسألة الرابعة أعلاه أن الله باعتبار قدرته وقهره فهو لا يحتاج إلى أن يستعجل بالعذاب بل يصبر ويعطي الفرصة مرات ومرات ولكن الملوك الدنيويين يستعجلون بالعذاب لأنهم ضعفاء يخافون من أن يفقدوا السيطرة على مخالفيهم. لنتذكر المثل الشعبي المعروف الذي يمثل حالة ملوك الأرض: تغدى به قبل أن يتعشى بك.

6. لسان حال يوسف يقول: إن الذين كبروا في عيونكم هم صنائعكم فأنتم الذين قويتموهم ليتحكموا فيكم وإلا فهم ضعفاء مثلكم ليسوا منفردين في السلطة والقدرة وليسوا قاهرين لأحد لأنهم أمثالكم، بشرٌ يملكون نفس قدراتكم وتملكون نفس قدراتهم ولكن الله تعالى قاهر للكل دون الحاجة إلى أن يستعين بكم أو بأحد عليكم.

ويضيف يوسف:

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿40﴾.

يريد يوسف أن يحل مشكلة التوارث التي خدع الشيطان بها عباد الله تعالى. فكل المتدينين وغير المتدينين من الذين يؤمنون بالله تعالى يهتمون بالتراث الذي وصلهم من آبائهم.

هكذا ينتفي دور العقل بين أهل الديانات ويصبحون فريسة للطامعين من المخادعين والضالين المضلين[21].

---

7. وأخيرا فإن القوي بطبيعته صاحب النظام الألوهي الذي يتحكم في كل الوجود، خير للضعفاء من الذين يستمدون منه القوة بأنه وحده الله تعالى، وبالرغم من اعتراف الشعب المصري بالله تعالى، فإنه كان يعبد غيره، كما يعترف المسيحيون واليهود والمسلمون اليوم بأن الله تعالى هو الخالق الواحد ولكنهم يستعينون بالأنبياء والأولياء و الصالحين. نهاية الهامش 20.

[21] ولنبدأ ببيان مختصر لمفهوم العبادة فإن إبليس اللعين الرجيم قد غيَّر مفهوم العبادة في أذهان المؤمنين حتى ظن الأكثرية بأن العبادة تعني الصلاة أو ما شابهها من الممارسات العبادية المعروفة.

والواقع أن العبادة تعني الخضوع وتتمثل غالبا في الحب المفرط والطاعة العمياء والشكر الجزيل.

فكل عمل من الأعمال الثلاثة يصل حد الخضوع فهو عبادة باعتبار أن العابد يشعر بفقدان الإرادة أمام المعبود وبأن عليه أن يخضع مطيعا شاكرا محبا.

ولذلك يصفون احيانا العشق المفرط بين المغرمين من النساء والرجال بأنه حب عبادة.

والعبرة فيه أن المحب يطيع المحبوب دون تردد ولا تفكير أو اهتمام بالعواقب.

والعبادات التي نراها في معابد الذين يتخذون الأصنام وسيلة للارتباط بالله تعالى هي عين العبادات التي نراها في المزارات المعروفة وحتى الكثير من الزيارات التي يقوم بها المسلمون أمام قبر رسول الله عليه السلام معتبرينه حيا يسمعهم ويرد عليهم ولكنهم هم الذين لا يسمعونه، كلها أمور ينطبق عليها مفهوم العبادة دون أدنى شك.

وعبارة "من دون الله" تعني عادة، غير الله تعالى أو تعني ضد الله تعالى كما قال سبحانه في سورة البقرة:

مِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167).

ولكن العبارة في آية سورة يوسف تعني غيره سبحانه. فعُبّاد الأصنام يعبدون الله تعالى أحيانا ولكنهم يحبون ويفضلون الخضوع للأصنام. والأصنام مثل القبور، تشير إلى ذوات مقصودة وتكون الذوات عادة من الملائكة.

وأما عجل السامري فكان يشير ويرمز إلى موسى الرسول وقد اتخذوه معبودا حتى يرجع إليهم موسى. والعبادة المشتركة بأي شكل هي في حقيقتها عبادة المشركين.

إن كل من يعبد غير الله تعالى يظن بأن للمعبود المخضوع له يدا في التصرف بالمتغيرات، وهو خطأ.

إن المتغيرات جميعها بيد الله تعالى حتى التي نراها بيد البشر. لو ننظر في أعماق الحركات الكبرى والاحداث التي تقع في الأرض كالحروب والفتوحات والصناعات الكبرى والمتاجر والمباني الفاخرة والأنظمة والتشريعات المتطورة فإنها جميعا تسير وفق نظام تطوري واحد ولو أن هناك أشخاصا من البشر يديرون هذه الحركات الكبيرة.

فنرى هناك رقعة جغرافية محدودة وقعت تحت سيطرة المسيحيين ومثلها تحت قيادة المسلمين ومثلها تحت النفوذ البوذي على الرغم من أن جميع أصحاب الديانات الكبرى سعوا حين قدرتهم على تحويل كل الأرض إلى عقيدتهم ليسودوا فلم يفلحوا.

نرى بأن هناك مجموعات قوية من الدول المتحدة معا، ولكن ليس لأية مجموعة أن تحكم الأرض منفردة، بل إنها محتاجة لبعضها البعض، كما نرى في المقابل أن أية مجموعة تتعدى حدا من القدرة والقوة والتسلط فإنها تسقط كما سقطت الحكومات الأموية والعباسية والعثمانية وكما سقط الفرس والروم والمغول وغيرهم.

أن خيرات الأرض موزعة توزيعا دقيقا فكل أمة في الواقع قادرة على أن تتحكم في دخلها على أساس الثروات الطبيعية الممنوحة لهم من قبل قوة غيبية ولكن الشعوب تتكاسل أحيانا فيعمها الفقر أو تتصارع فيما بينها فتخسر وتفشل.

ونرى بأن القوى الكبرى مع علمها وإمكاناتها التقنية، تخطئ كثيرا وتخسر كثيرا مما يدل على أن المدير العام جل جلاله لا يريد لها السيطرة الكاملة.

لقد شرح يوسف لصاحبيه كثيرا من المعاني المتعلقة بالعبادة، ولكن الله تعالى يختصر الموضوع بقوله:

نرى بأن هناك الكثير من الأمراض والعاهات الكبرى تظهر على وجه الأرض فتخلق الذعر بين البشر ثم تزول دون أن نعرف في الواقع كيف أتت وكيف انتشرت ثم كيف زالت أو خفت خطورتها . فهل يمكن أن نتصور بأن هذه المتغيرات بيد غير الله تعالى المحيط المهيمن؟ .

إن البعض يعتبر الأولياء أقوياء ووسائط للرحمن وسادة وملوكا ويخضع حتى لرفات عظامهم وقبورهم، ويظن بأن لهم خطرا كبيرا، والواقع أنهم ضعفاء لا حيلة لهم. قال تعالى في سورة يونس:

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36) .

إن القدماء غلوا في بعض الأشخاص فانتقل الغلو بمساعدة الشياطين إلى أبنائهم وبقي ينحدر بينهم من جيل الى جيل، وكلما ابتعدوا عن حقيقة الأشخاص وهم في غمرة الغلو فإن السلبيات الطبيعية زالت من صور تلك المسميات ولكن الإيجابيات الوهمية بقيت وتلألأت وتطورت شيئا فشيئا في عالم الظن والخيال.

ثم تحولت المسميات إلى مقدسات لا يسع المرء أن يفكر مجرد تفكير في إمكانية الشك في قدسيتها، بل عليه أن يتقبلها فهي رموز الأمة وعناوين الملة وبغيرها يموت الناس وينقطع ارتباطهم مع ربهم! . والحقيقة أن كل الأشخاص من البشر، مهما كانوا متسامين ومترقين في درجات العبودية و الخلوص فهم كانوا يأكلون الطعام ويشربون وينامون ويُحدثون فيغسلون ويجنبون ويغتسلون.

إنهم جميعا ضعفاء أمام القدرات الطبيعية وأمام الأمراض بنص القرآن. إنهم جميعا ماتوا ولم يتمكنوا من دفع الموت عن أنفسهم. كل مظاهر الضعف هذه زالت من الأذهان وحلت محلها العظمة والقدرة والتفوق والسمو.

إن الموتى جميعا أحياء عند ربهم وليسوا أحياء عندنا وهم لو كانوا مؤمنين فهم يُرزقون الأمان من الخوف ولو كانوا كافرين فاسقين فسوف يُصيبهم الخوف والذعر من مستقبل الحساب أمام ربهم لا غير.

ليس للموتى أن يعرفوا عنا شيئا كما ليس لنا أن نعرف عنهم شيئا وهذا معنى البرزخ الفاصل بين الحياتين الدنيوية والأخروية. وكل هذه المفاهيم موضحة في كتاب الله تعالى.

إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم.

ومعنى ذلك أن السير التطوري الطبيعي و الحقيقي من الحاضر إلى المستقبل قد انقلب في أذهانهم وأصبح من الحاضر إلى الماضي.

كان عليهم أن يفكروا في مقولات الآباء ولا يتعاملون معها على انها حقائق ثابتة. آباؤنا ونحن وليس نحن وآباؤنا. فلو انتقلت المعلومة من أبي إلي وفكرت فيها لأستبين حقيقتها فإني سأجد الكثير من السلبيات فيها، باعتبار التطور الطبيعي لمن يلحق على من مضى.

هكذا ينتفي التقديس ونضع كل شيء في اختيار العقل والفكر متحررين من كل قيد من الماضي.

والغريب أن الناس يرون التطور العلمي الطبيعي ويستعملون النعم الجديدة التي أباحها الله تعالى لهم بعد أولئك الأنبياء الذين ماتوا ولكنهم يقولون بأن الذين مضوا أكثر منا علما !

لو قلت لمسلم معاصر بأنه قد يكون أعلم من أحد الانبياء في حقل معين من حقول العلم مثلا لرأيته يرتعش خوفا وذعرا من أنه سمح لك بالتفوه بمثل هذا الكلام.

إن الناس ينسون بأن الله تعالى الحي القيوم يطور الناس فلو كان انبياء الله تعالى الماضين أعلم منا فهذا يعني بأن الله تعالى لم يطورنا .

إنهم ينسبون الفشل إلى الله تعالى لتقديس نبيهم. ذلك لأنهم يظنون بأن آباءهم أكثر منهم علما وفضلا. ولذلك أعقب يوسف:

ما أنزل[22] الله بها من سلطان.

[22] الإنزال في لغة القرآن يعني التدرج التطوري من حيز القوة والامكان إلى حيز الفعلية. قال تعالى في سورة الزمر:

ويعني ليس لأولئك أية سيطرة عليكم وليس لهم أي سلطان من الله تعالى بل إنكم أنتم الذين تفرضون لهم سلطانا وقوة.

هذه حقيقة قَلَّ من يفكر فيها مع الأسف على أن من السهل فهمها .

لو ننظر إلى مراكب الأقدمين في البر والبحر ونقارن بينها وبين مراكبنا التي تسبح اليوم في الأجواء بل وحتى في الفضاء الخارجي سنرى بكل بساطة أن نظام الألوهية لم يضع للقِدم سلطانا بل سلط الجديد على القديم.

وحقيقة الأمر أن البشر لا يملكون شيئا بل إنهم مملوكون بأنفسهم لله تعالى فكيف ننصاع لحكم البشر وخاصة الذين ماتوا منهم؟ .

ثم يوضح ذلك بأن نظام الألوهية هو الذي يسيّر الأمور وليس هناك أمر بيد البشر فيقول:

إن الحكم إلا لله.

والحكم معناه الخطاب الفاصل الذي يميز الذي يجب أن يكون من الذي هو كائن فعلا. فالكائن فعلا قد ينطوي على ظلم وإجحاف نحتاج معه إلى معرفة الحقيقة والذي يعرف الحقيقة هو الله تعالى وحده وليس غيره.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6) .

فالله تعالى طور الأنعام من حالة إلى حالة ولم ينزلها من علو إلى أسفل كما أنه سبحانه ينزل الغيث بمعنى أن المطر يتحول من حالة الجمود إلى حالة السيولة بعمليات طاقوية تتم داخل الغيوم حتى تجذبه الأرض وليس هناك بحر من المياه في السماء فينهمر منها حينما يفتح الله تعالى صمامات البحار السماوية مثلا. فحينما يستعمل الإنزال فهو يتضمن معنى التطور بصورة طبيعية. نهاية الهامش 22

ذلك لأن معرفة الذي يجب أن يكون تحتاج إلى معرفة الكائنات وإمكاناتها ومعرفة المتغيرات ومداها وكلها واضحة لله تعالى لأنه هو وحده الذي يقدر كلَ شيء ويقضي بما يشاء أو بما يريد .

والمحتاج بطبيعته يخضع للمنعم ويلوذ به عند الشدائد . ومن رحمة الله تعالى أن يهدي المختارين من عبيده ليلتمسوا الحق من مصدره ولذلك قال يوسف متابعا:

أمر ألا تعبدوا إلا إياه.

هذا الأمر بالنسبة لنا نحن البشر أمر تشريعي ليعلمنا الطريق الصحيح لمعرفة الحقيقة ولكسب الهدى ثم لنجني ما هو مقدر لنا من نعم الله تعالى[23].

---

[23] لمزيد من التوضيح: فإن الكائنات برمتها خاضعة لوجه القدوس جل جلاله ونحن نحتاج كثيرا إلى هذه الكائنات فلو أننا خضعنا بإرادتنا لمن تخضع له الكائنات جميعها فإننا نقع في الطريق الواضح الموصل إلى الهدف الذي نتوخاه. ولكننا لو سعينا لنفس الهدف من طريق أخرى فقد نضل وقد لا نصل أو تطول بنا الطريق.

أما قولنا بأنه أمر تشريعي فباعتبار العبادة التي تمثل الخضوع الاختياري ولذلك أمرنا أن نأتي بها بمحض إرادتنا . أما الكائنات غير المدركة أو المدركة غير المختارة فهي جميعها خاضعة لوجهه سبحانه جبرا وفاقدة للإرادة أمام حكم الجبار العظيم جل جلاله.

وليكن واضحا أيضا أن الملائكة المكرمين لا يعبدون الله تعالى بل يسجدون له؛ وأما قوله تعالى بأنهم:

لا يستكبرون عن عبادته

فهو ليس باعتبار الفعلية بل باعتبار القوة. ذلك لأن الله تعالى قادر على أن يعطيهم الخيار إن شاء فيصيرون ملائكة يمشون على الأرض مثلا. والآية واضحة في حصر العبادة والخضوع بالذات الإلهية. ذلك لأن الخضوع لا يجوز لمن هو مثلك.

وكل الكائنات المخلوقة ممكنة في ذواتها وفي أعمالها إلا الله تعالى الواجب في ذاته والذي لا يمكن لشيء أن يتخطى أمره سبحانه وتعالى. والكائنات برمتها مدينة له بأنه خلقها ويمدها بمقومات الوجود والحياة إن كانت من ذوات الحياة بشقيها الطاقوي والنباتي. نهاية الهامش 23.

وحتى يعطي يوسف لصاحبيه المعنى الدقيق لأسباب الخضوع الاختياري فإنه أردف قائلا:

ذلك الدين القيم.

وحتى نعرف المعنى الدقيق للدين القيم فإننا سنحاول معرفة صفة القيم بداية فنمر على كل الآيات التي ذكر الله تعالى فيها تلك الصفة وهي ثمان آيات مع هذه الآية. هي الأنعام 161 والتوبة 36 والكهف 2 والروم 30، 43 والبينة 3 و5. وسنجد ان ملخص المعنى الذي تدور حوله عبارة "الدين القيم" هو الدين التوحيدي الخالص من الشرك[24].

---

[24] عند تحليل هذه القضية نجد التالي:

آيتا سورة الروم وردتا بعد ذكر دقة الله تعالى في صناعة مخلوقاته فأمر نبيه باعتباره أسوة حسنة لصحابته أن يوجه وجهه طرف نظام الكون الدقيق والخالي من العيوب ساعيا لاستعمال قوة الإرادة عنده في مسايرة كل النظام الشمولي الدقيق فلا يخالف نظام الألوهية وينجو من المساءلة يوم الحساب.

ذلك ليعلمنا بأن الإسلام هو دين الطبيعة المرشد لنا نحو كيفية السير مع بقية الكائنات التي هي خاضعة بطبيعتها لربها لنخضع بإرادتنا للذات القدسية فنكسب رضاه سبحانه. وهما:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37) فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (42) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43).

وقد منعنا الله تعالى في الآيات الوسطى أن نكون من أتباع المذاهب الدينية واعتبر من ابتدعوها مشركين لأنهم فرقوا دين الله تعالى وهو واحد لا يمكن تفريقه لأنه منبثق من الواحد الذي خلق الكون المهيب ليستمر في الحياة والبقاء والعطاء طيلة بلايين السنين دون أن ينهار إلا ضمن شروط نظامه وقوانينه الطبيعية.

وأمره في كلتا الآيتين للنبي باعتباره أقدر من غيره على أن يكون أسوة حسنة لصحابته والآيات الاستدلالية موجهة لجميع الناس. وقد ضرب الله تعالى بالربا مثلا ليذكرنا بأننا لا نملك ما بأيدينا، فعلينا أن نطيع ربنا المالك إن أردنا كسب رضوانه. وإلا فنحن الخاسرون.

وفي كل الآيات يمنع من إشراك أي مخلوق في الخضوع له باعتبار أن الخلق عاجز وجاهل بحقائق الأشياء كائنا من كانوا. فلا يستحق أحد أن يُخضَع له حبا وشكرا وطاعة غير القدوس وحده. وطاعة رسوله عبادة له في الواقع باعتبار أن الرسول ساعي بريد لا يملك شيئا ولا يدعو لنفسه أبدا بل هو قانت لربه. عليه وعلى جميع رسل ربنا الصلاة والسلام.

وعلى أساس ما تقدم فان الله تعالى لا يفوض من صلاحياته شيئا إلى بعض عباده إطلاقا إذ لا ولاية تكوينية لأحد في هذا الكون إلا لله وحده.

وهناك آيتان تتحدثان عن القرآن الكريم وأنه هو أو سوره كتب قيمة. الأولى ما افتتح به سورة الكهف:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا (1) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2).

ف (القيم) هناك وصف للقرآن باعتباره نذيراً ومن شأن النذير أن يكون دقيقا وواضحا حتى يتمكن المنذَرون من اتباعه لينجوا من تبعات الإنذار من ربهم. إذ أن (القيم) في مستهل الآية الثانية يعني المستقيم الخالي من أي اعوجاج. والثانية في سورة البينة هكذا:

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4).

فالبينة في الآيات الأربعة تدل على كتب السماء وتفرق أهل الكتاب ليس نتيجة لنزول البينة ولكن الله تعالى بصدد بيان المسؤولية التي تكون بعد استلام الإنذار، لا سيما الإنذار الكتابي.

وإن تفرقهم بعد نزول الكتب إثم واضح سيُسألون عنه. فالله تعالى يريد أن يبلغنا بأن كتبه واضحة تدعو إلى صراط مستقيم غير ذي عوج لتكون حجة علينا يوم الحساب العظيم أمام وجهه الكريم. والقرآن هو رسالة من الله تعالى.

ثم نفكر في آية سورة التوبة:

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36) .

إنها تعتبر نظام الأشهر الاثني عشر لتكميل السنة أو تقسيمها مسألة طبيعية تتناسب مع خلق السماوات والأرض. إن الله تعالى وضع هذه الحقيقة في برنامج الخلق يوم بدأ التكوين الأساسي لخلق الكرات الغازية المهيمنة والممتدة وخلق الكرات الصلبة المعدة لاستضافة خلقه.

كما أنه اعتبر في نظامه حاجة كل إنسان إلى أربعة أشهر من الراحة عن كل حرب وخصام حتى لا يفقد توازنه بين النفس والجسم. وأوصى الصحابة ألا يبدأوا بقتال المشركين ويميزوا بينهم فيقاتلوا الذين يقاتلونهم دون غيرهم. ذلك طلبا للمزيد من السلام وابتعادا عن الحروب جهد الإمكان.

هكذا يستقيم دينهم ويتخلص من تدخل الأهواء والرغبات الشخصية والانتقامية ليكون كل شيء خالصا لوجه الله تعالى. بقيت آيتان هما آية الأنعام:

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (165)

وهي أول آية في القرآن انطوت على مفهوم الدين القيم مشروحا بكل وضوح، والآية تعقب الأمثال الطيبة لتلك الحقيقة القرآنية. والآية التالية وهي في سورة البينة وهي تمثل آخر آية تتحدث عن الدين القيم:

وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5) .

ونلاحظ أن الحديث تكميل لما سبق ونقلناه وقرأناه معا عن أهل الكتاب فهم أُمروا بالعبادة المخلصة لله تعالى. أمروا بأن يخلصوا دينهم لله وحده ولا يلتفتوا إلى الناس أبدا وهو معنى الحنيف الذي يميل عن الناس. فكل إنسان يجب أن يشق طريقه بنفسه إلى الله تعالى بما يتناسب مع إمكاناته ومعلوماته تاركا أمته وتراثه والخلق أجمعين وراء ظهره.

لقد أرسل الله تعالى كتبا إلى الناس لئلا يكون لهم حجة بعد أن جاءتهم رسلهم بكتبهم من ربهم. وأما إضافة الدين إلى (القيمة) فهي تحتاج فعلا إلى موضوع لتكون وصفا له. فلا يمكن أن تكون (القيمة) وصفا للدين لأن الصفة من التوابع ولم تتكامل شروط التبعية في الجملة. وقد ظن البعض أن الحديث في الآيات عن الأمة الإسلامية فهي المقصودة ويصير المعنى كما قالوا: دين الأمة القيمة.

إذن يمكننا أن نوضح معنى كلام يوسف بأن عدم الشرك بأي شكل هو الدين القيم الموصل إلى الله تعالى والذي ينهج من يسير فيه طريقا مستقيما لا عوج فيه. ولنحلل كلام يوسف على ضوء ما عرفنا من معنى تقريبي للدين القيم. تقول الآية من سورة يوسف:

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (40) .

ولا أدري كيف تكون الأمة قيمة على دينها؟. وفي نظري أن (القيمة) هنا تعود إلى الكتب المذكورة في الآية الثالثة وهي كتب القرآن. فالقرآن يمثل مجموعة من الكتب التي تدل كل منها على الاستقامة وعدم الاعوجاج في كتاب السماء. فهي تعني دين الكتب القيمة. فكل الكتب القديمة والحديثة تأمر الناس بأن يتركوا الشرك ويعودوا إلى ربهم ويخلصوا عملهم له ولا يشركوا بربهم أحدا من خلقه سواء كانوا رسلا وأنبياء أو ملائكة أو غيرهم.

وملة إبراهيم هي الملة التي يعود إليها كل من جاء بعده من الأنبياء والناس لأنه ضرب أعلى مثل للاستعداد للتضحية في سبيل ربه فترك كل شيء لأجل الله تعالى. ولذلك فهو متبوع كل الأنبياء وكلهم بمن فيهم نبينا يفتخرون بأنهم أتباع إبراهيم.

من هذا البحث المختصر يمكننا معرفة الدين القيم بأنه هو عين الصراط المستقيم من حيث المصداق وانهما يختلفان من حيث المفهوم فقط. فالصراط المستقيم التشريعي للخلق يشير إلى السبيل الموصل حقيقة إلى الله تعالى ليقع المؤمن ضمن الحركة العامة الجبرية للممكنات ولكن باختياره ليكسب الجزاء ويستحق الرضوان. ولكن المفهوم مختلف، حيث أن الدين هو القانون الثابت الذي لا يتغير، والطريق أو الصراط هو المنهج وهو ثابت لا تتغير أصوله باعتبار استقامته أيضا. فالمنهج أو الطريق الصحيح يجب أن يكون موصلا للهدف الذي ينشده الدين أو الدستور الأساسي. فدين المؤمنين هو ألا يشركوا في أهدافهم إضافة إلى تطلعاتهم، وطريقُهم هو العبادة المخلصة لربهم وعدم الشرك به في كل أفعالهم وأفكارهم.

إن ملة إبراهيم هو التفسير الفعلي لمنهج العبادة التي توصلنا إلى الرضوان. فالكون يسير ضمن نظام قيم لا خلل فيه ولا عوج والكتب السماوية أنزلها ربها متناسبة ومتناسقة مع كل الكون ليساعدنا على اتباع قوانينه الطبيعية في الطبيعة، والدين القيم هو التشريع الذي يوصل متبعيه حتما إلى مسايرة كل النظام الكوني الذي نسميه نظام الألوهية الشامل حتى لا يخسروا ولا يضيعوا ولا يدخلوا النار. نهاية الهامش 24.

عدم الخضوع لغير الله تعالى هو الدين القيم ولازمه الخضوع لله تعالى. فلا نكتفي بعدم عبادة الغير بل نعبده لأنه سبحانه جدير بأن يُعبد وعبادته دليل على سلامة نفوسنا وبيان لانصياعنا النفسي للحقيقة المطلقة.

فالدين هنا هو الأصل الأساسي الذي يجب أن نراعيه في كل مناهجنا وهو عدم الشرك بالله تعالى والخضوع له. فكل مناهجنا توضع على أساس اتباع قوانين الألوهية التي لا مناص منها حقيقة ومن يخالفها يخسر الدنيا كما يخسر الآخرة.

ولكن أكثر الناس لا يعلمون:

كلمة (الناس) تشمل عامة الناس وخاصتهم. فالناس لا تعني العامة بدون الخاصة ولذلك فكلمة الناس تشمل كل المجموعات البشرية بعلمائها وعمالها وتجارها وكذلك ملوكها ورعاياها أو ناشطيها وكسالاها أو نسائها ورجالها أو كبارها وصغارها[25].

---

[25] بالطبع أن هناك بعض الناس يعلمون ولكن أكثرهم لا يعلمون فكيف نعرف أفراد هذين القسمين من حيث العلم والجهل؟ ولنعلم أن حكاية الآية الكريمة لا تمثل الأصول والكليات العلمية الكبرى التي تحيط بكل الحقائق بل حكايتُها حكاية المفاهيم العامة الأساسية التي يمكن لكل إنسان أن يعلمها ولكنه لا يعلمها.

فلو كان المقصود هو الحقائق العلمية لكان ممكنا أن يقطع أي جدل بأن يقول: ولكن أكثر العلماء لا يعلمون. ذلك لوجود بعض المجموعات البشرية التي لا تخضع لغير الله تعالى وهي تضم العلماء والحكماء والعمال والتجار والمهنيين والعسكر والضعفاء والشباب والشيوخ جميعا وكل أصناف البشر تقريبا كما كان عليه صحابة موسى وعيسى ومحمد. فبين الصحابة أناس عاديون من حيث العلم والشهرة والذكاء ولكنهم لم يكونوا ليعبدوا غير الله تعالى في حضور الرسول إلا أن ينكشف أمرهم.

فالذين يقعون ضمن أكثر الناس وهم الذين لا يعلمون، فإن كل مجموعة منهم تمثل شريحة كاملة من الأمة. هذه الشريحة تمثل العلماء والموجهين والملوك وكبار المدراء والعسكريين وأصحاب المصانع والمتاجر والقوى العاملة وكذلك الرياضيين والحرفيين والمذيعين والطباخين وغيرهم من مكملات الأمة بدون الرسول. نقول ذلك لأن الأمة في القرآن تعني هذه المجموعة المتكاملة مع الرسول وإلا فهي قرن وليست أمة.

وبعد أن أدى يوسف رسالته وأكمل دعوته إلى النجاة من الضلال كأخ لهما عزيز عليه ما يراه فيهما من ضلال واضح وابتعاد عما وراء الطبيعة جل جلاله وجهل بحقيقة الربوبية و الألوهية بدأ بالكشف عما يراه مناسبا من تفسيره الصحيح للمنامين. قال يوسف:

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿41﴾.

قال في بيان تأويله لما رآه الأول منهما بأنه يسقي ربه خمرا. لكنه خاطبهما معا بقوله أما أحدكما ليخفف على الثاني الخبر المفجع عن موته صلبا احتمالا.

إنه أيضا اعتبر المنامين مكملين لبعضهما ولكنه كان أكثر دقة من صاحبيه بالضرورة.

من الواضح أن الأول كان يظن في حلمه تفسيرا أكثر إيرادا له و إذا به سيعود احتمالا إلى نفس عمله الأول. لا يمكن أن يسقي الملك وهو الرجل الأول في أعظم دولة في الارض، الخمرَ إن لم يكن ذو خبرة بالسقاية.

لعله استاء كثيرا حينما خيب السجين الذي يتجلى منه العلم والإيمان ظنه في تفسير حلمه فاضطرب أمله في المستقبل احتمالا. إنه لا يعرف بعد ما سيحل بصديقه صاحب الرؤيا الثانية.

فالتعبير القرآني هذا في مثل هذه الآية لا يمكن أن يُطلق على الجاهلين من مجموعة متكاملة بل على كل المجموعة.

إن الحديث يدور مدار التصرفات العادية كالصلاة والصيام الصحيحة أو غير الصحيحة فلم يقل الله تعالى ولكن أكثر الناس لا يتعلمون ولم يقل لا يفهمون بل قال لا يعلمون. وحديث يوسف مع اثنين من خدم القصور وهم عامة الناس العاديين. فالعلم المناسب لهم هو مجرد فهم ألا يخضع لغير الله تعالى ويعبد الله وحده. هذا علم سهل المنال ولكن الذين نراهم لا يعلمون هذا العلم فهم لا يريدون أن يعلموا بل يريدون أن لا يخرجوا من مستنقع التراث النتن الذي أصبح ماؤه غورا ولم تظهر إلا شوائبه العفنة. نهاية الهامش 25.

وبعد ذلك وضح يوسف رأيه في الرؤيا الثانية مخاطبا إياهما بلفظ الغائب أيضا. قال لهما بأن الآخر دون أن ينظر إليه احتمالا، فيُصلب فتأكل الطير من رأسه.

كان كلا مناميهما لا يحملان نتيجة إيجابية لهما. فالأول يسقي غيره الخمر لا نفسه والثاني لا يقوم بأي عمل بل يرى طيورا تأكل من الخبز الذي يحمله فوق رأسه. فليس هناك في المنام أي إشارة إلى أن أيا منهما يكسب شيئا، والثاني يتناقص ما يحمله على رأسه.

ولا يمكن للطير أن تأكل من رأس الإنسان إلا إذا كان ميتا لأنه يخاف الاقتراب من البشر.

هذان هما المنامان وقد فسرهما يوسف تفسيرا غير الذي ظناه برأيي والعلم عند الله تعالى.

وأما الأمر الذي فيه يستفتيان وهو اتفاق رؤية شخصين لمنامين أحدهما شراب والآخر طعام، فإن يوسف يضمر شيئا آخر لا يريد أن يوضحه لهما وهو توافق دخوله هو السجن معهما ورؤيتهما لمنامين يوحيان إليه بما يخصه هو دونهما.

رأى يوسف بأن الواقعة ليست صدفة بل مقصودة يريد ربه أن يبعث له برسالة مؤداها أن خلاصه من السجن سيكون على يد هذا السجين بعد أن يستعيد شيئا من حريته.

إنهما فتيان وهذا يعني بأنهما عبدان ولكن العبودية ليست سجنا يمنع عنهما التحرك إلا أن منزلهما الجديد مسور بجدران لا يمكنهما اختراقها.

كان هذا المنام كافيا ليشعر يوسف بأنه ليس بتلك العظمة التي يشعر بها. إن حفيد إبراهيم وإسحاق وابن يعقوب أرسله بنو أبيه إلى غيابت الجب واستغلته السيارة بضاعة وباعوه فعلا، ثم أصبح عبدا لدى سيدة قصر العزيز ثم أدخل السجن وهو يشعر الآن بأن نجاته ستكون على يد عبد ضعيف! إن صانع بني إسرائيل يعاني من نقاط ضعف نفسية ولا يمكنه أن يستلم النبوة قبل أن يمر بعلاج قاس ليشفى

من مرض الخيلاء الذي أصيب به. أين ذلك العلم الكبير الذي ينطوي عليه ليمنع عنه الكبرياء ويعيد إليه رشده؟

هذه هي طبيعة بني إسرائيل فهم دائما يسمون أنفسهم بني إسرائيل ولا يقولون بأننا أهل الأوطان التي ينتسب إليها غيرهم من القرون والأمم البشرية. لقد مات إسرائيل قبل أربعة آلاف سنة ولا زالوا يفتخرون بأنهم أبناؤه.

ولو تسأل من تعلّم منهم، عن الإيمان والصدق فسيقول لك بأنهما وحدهما من معايير الفوز أمام الله تعالى ولكنه لا يمكن أن يتصور بأنه هو أيضا مطالب بهما للفوز أمام الله .إنه يتخيل بأنه مميز عن غيره لأنه من بني إسرائيل الذي أصبح في ذمة الله منذ قرون وينسى بأنه عبد لله الحي القيوم وحري به أن يفتخر بربه لا بجده الأعلى الذي لا حراك فيه ولا صوت له.

لننظر إلى يوسف كيف ينطق بما هو صحيح ويمارس ما هو غلط. إنه يعلم بأن الصدفة ليست صدفة إلا من خلال كوننا لا نعرف أسباب توافق الأسباب فنظن بأنها وقعت صدفة. فلو لم يكن يوسف يتذكر منامه ويوفق بينه وبين منامي صاحبيه في السجن لقال في وصف الأمر الذي فيه يستفتيان بأنه من قضاء الله تعالى. وتعني هذه الجملة بأن ما حصل لهما أكثر من القدر.

نحن نسمي تصادم سيارتين صدفة لأنها يمكن أن تكون كذلك باعتبار أن السيارات التي تسير في الشوارع تتجاوز الملايين فيمكن أن تصطدم اثنتان بالصدفة. لكننا لا يمكن أن نتحدث بهذه الطريقة عن الرؤى التي هي قليلة.

في السجن ثلاثة أشخاص وقد رأى اثنان منهما منامين في وقت واحد وهما فعلا يكملان بعضهما البعض فالأمر أكثر من صدفة حتى في المنطق غير العلمي البعيد عن معرفة إدارة الخالق العزيز لكل حركات الكون ومَن فيه.

نحن اليوم بعدهم بآلاف السنيين لا نرى قصة شبيهة برؤيا هذين السجينين فكيف ننسب أمرهما إلى الصدفة.

ولذلك قال يوسف بكل ثقة أن أمرهما تابع لقضاء الله تعالى بمعنى أنه تجاوز التقدير فأصبحت النتيجة التي ينتظرها يوسف من هذا التوافق محتوما وهو نجاته على يد ذلك الفتى السجين.

لكن قول يوسف ذلك لا يعني بأن كلا المنامين سيتحققان. إنه نظر إلى القضية من زاويته هو وليس من زاويتهما حينما قال قضي الأمر فاحتمالات المفسرين ليست في محلها لنقع في مأزق علم يوسف للغيب الذي لا يتفق مع العقل إذ أن الغيب خاص بالله تعالى[26].

---

26 ليس في الآية أية إشارة إلى أن الله تعالى أوحى إلى يوسف وليس مسألة إعدام الشخص الثاني ذي أهمية بالنسبة ليوسف ليؤكد لهما بأنه سيُعدم. الدليل الوحيد لنا بالنسبة لموت الثاني هو قوله تعالى عن السجين الأول بأنه الذي نجا منهما فعلا فهو يعني بأن الثاني لم ينج. وحتى نعرف معنى القضاء وكيفيته لا بد أن نقوم ببحث بسيط فيما يلي:

قضاء الله تعالى:

نستشهد بآيتين من سورة البقرة بداية لفتح باب موضوع القضاء. قال تعالى في سورة البقرة:

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (117).

وقال تعالى في سورة المائدة:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64).

الآية الأولى توضح إرادة رب العالمين القوية القاهرة التي غيرت المسيرة النظامية لخلق الإنسان إلى مسيرة غير عادية لخلق المسيح بإرادة جازمة مقضية سوف تحصل وقد حصلت فعلا وجاء المسيح.

وأما الثانية فهي للرد على ما قاله اليهود بأن الله تعالى يعمل ضمن نظام شمولي لا يمكن إيقافه فكيف يتأتى له سبحانه أن يغير نمطا طبيعيا بمعنى العادة لا بمعنى قوانين الطبيعة.

هناك قوانين إلهية سار عليها اليهود فكسبوا ما كسبوا حتى وقع جل المال اليوم بأيديهم فكيف لله تعالى أن يوقف المسيرة العادية فيمنح أشخاصا آخرين خلافا لإرادة أصحاب المال إن كان حديثهم عن المال؟ فيرد عليهم سبحانه بأن يداه مبسوطتان.

هذا يعني بأن القوانين التي نسير عليها والتي أقرها الله تعالى نفسه لا يمكن أن تحول دون أن يقدر الله تعالى أمرا آخر لتحقيق نتائج معاكسة للعادة التي يسير عليها البشر. وكيف يكون ذلك؟ فنحتاج إلى بحث آخر هو البحث عن القدر لنتعرف على مجالات قضاء الله تعالى. وسوف نسعى لاختصار بحث القدر جهد الإمكان فيما يلي.

القدر:

لننظر إلى تدبيرات الإنسان نفسه وإلى كيفية تعامله مع الإمكانات المتاحة، فسنرى البشر بعكس الحيوانات يسعون لكسب الثروة والغنى ولجمع الأموال وما أمكن من الثمرات وكذلك المواد المختلفة للبناء والصناعة والكساء والخدمات العامة.

وبمجرد ما أن يفتح العاقل الحصيف عينيه على الحياة سيشعر بأنه يحتاج إلى أن يسعى لكسب المزيد من المقومات وإلى تخزينها بصورة صحيحة ليستفيد منها عند الحاجة. ذلك لأنه كبشر مدرك يشعر بأن الحياة لا تسير وفق نمط واحد فهناك الفقر والمرض والمزيد من الأولاد والأعداء والشهوات وبقية الضروريات والمرافق العامة والخاصة، وهذه الامور كلها سوف تضغط عليه بشكل أو بآخر فيجب أن يكون مستعدا للمواجهة بأعلى درجات الاستعداد وبأقل قدر من التعب والخسارة.

من هذا المنطلق أوجد الإنسان لنفسه قوانين علمية انتهت إلى التنبؤ بالحاجات المستقبلية وإلى وضع الأهداف لكل مرفق من مرافق الحياة ووضع المناهج المختلفة للوصول إلى تلك الأهداف بأقل التكاليف والخسائر.

وبما أن الطبيعة وحركاتها ليست بيد الإنسان فإنه من واقع خبراته وخبرات كل الذين مضوا والذين يعيشون في مختلف أماكن الأرض، يتوسع في الاستعداد للمواجهة مع الضغوط الطبيعية التي تفوق قدرته. وقد وضع البشر لتلك المواجهة المزيد من الإعدادات الضرورية أو الاحتمالية ولو كان الاحتمال ضئيلا، ومع ذلك فإنه يسعى لكسب المزيد من الأمان مستفيدا مما أوتي من قوة وإمكانات.

ولننتقل الآن بأفكارنا وعقولنا إلى خالق الكون وإلى قرار رب لعالمين بأن يبدأ بالخلق. يكفينا ما ذكره لنا في القرآن الكريم من تدبيرات مهد لها العزيز الحكيم قبل أن يبدأ بالخلق. أراد سبحانه أن يخلق كائنات مدركة تستفيد من نعمه المادية فيكرمها باستحقاق تمشيا مع قانون العدالة الذي يهتم سبحانه به.

هؤلاء يمكنهم أن يتعرفوا كثيرا على الله تعالى الذي كان موجودا دون أن يكون هناك من يعرفه. والذين فكروا في أنه تعالى لا يمكن أن تصوره بدون تصور الخلق لأن الخالقية من معاني الذات القدسية فيكون الخالق ناقصا بلا خلق، ولذلك فالخلق مساوق للخالق وقديم مثله ولكنه في رتبة تالية باعتبار الإمكان، فهم مخطئون. لعل الفلاسفة المشائين وعلى رأسهم المعلم أرسطو في مقدمة هؤلاء العلماء والمفكرين.

لكنهم أخطأوا لأننا بكل بساطة نرى بأن الله تعالى كان قادرا على أن يوجدنا قبل آلاف السنين ولكنه تأخر في تحقيق فعلية قدرته تلك. ذلك يعني بأنه سبحانه لا يقوم بتفعيل كل قدراته بصورة دائمة ويكتفي بأن يكون خالقا لهذه الجزئيات بالقوة. إنه خلاق بالقوة ولكنه يخلق بالفعل ضمن نظام زمني مبرمج. وقد أقر سبحانه ذلك في سورة الرحمن:

يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29).

فتغيير شأنه سبحانه بأن يُفعّل بعض ما هو قادر عليه متى ما شاء أو أراد. ذلك يعني أن شأن خلقه يتغير في الواقع وليس شأنه سبحانه الذي لا يطرأ عليه أي تغيير. ولكن تغيير شأن الخلق منوط بتغيير إرادة الله تعالى بالنسبة لخلقه وليس ذلك مؤثرا في الذات القدسية إطلاقا.

مدبر عظيم بقدرات تفوق الخيال لا يمكن أن يخلق شيئا دون أن يدبر كل ما يمكن أن يطرأ عليه من تبديلات باعتبار إمكانية كل الخلق طبعا. ولو أراد الجبار العظيم أن يمنح بعض خلقه الإرادة فإنه يفسح لنفسه المجال للمواجهة مع ما يقوم به ذلك المختار غير الحكيم والفقير المحتاج إلى المزيد من المقومات فيما إذا سمحت له نفسه بالظلم الفاحش المؤثر في نظام ربه.

كما أنه سبحانه يقدر له ولغيره كل ما يحتاجون إليه للاستمرار في الحياة والعيش. لنضرب مثلا للأمر الثاني قبل الأول. قال تعالى في سورة المؤمنون:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17) وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18).

أنظر إلى الآية الكريمة التي توضح تدبير ربك قبل أن يخلقك. لقد وضع مجموعة كبيرة من طرق التفاعلات الكونية لخلق السماوات والأرض ليتيح لربها اختيار ما يريده لتفعيل كل نوع من أنواع خلقه.

ثم إنه سبحانه لم يكن غافلا عن البشر الضعيف والحيوانات التي سيحتاج الإنسان إليها وكذلك النباتات وبقية حوائج هذا الخلق المستهدف فقدر لها مقدارا معقولا من المياه لتتحرك مع الغازات التي انفصلت عن الشمس حين خلق الأرض. فصنع الله تعالى الأرض من الغازات المختلفة مع المياه المقدرة لحياة الخلق النباتي ثم الحيواني.

لم يكن المدبر العظيم غافلا عن الخلق من قبل خلق الأرض. بالطبع أن هناك تدبيرات سابقة حين خلق الشمس لا نحتاج لذكرها هنا ولكنها مذكورة في الكتاب السماوي العظيم.

والآن لنمعن أكثر في تدبير الحي القيوم المذكور أعلاه. لقد ترك سبحانه المجال مفتوحا لنفسه لمنع الماء عن خلقه إن شاء. فقال عز من قائل في نهاية الآية:

وإنا على ذهاب به لقادرون.

إنه لتدبير مهيب وفي منتهى الدقة جل جلاله.

لنفكر كيف يواجه رب العالمين عبيده الذين ينشطون بفعالية ضد نظامه والذين يمكن أن يؤثروا في برنامجه لمستقبل الإنسان. لنعد إلى الوراء، إلى ما قبل أربعة آلاف سنة.

هناك توسعت الملاحة البحرية فتعرفت طبقة من كبار تجار البحار –ولعلهم الفينيقيون– على طريقة خطيرة من التمتع الجنسي الذي يقطع السبيل على تكاثر البشر. ذلك هو إتيان المثيل، وقبل أن يتمكن البشر من السيطرة على كل مشاكله.

كان يجب فعل شيء من قبل القدوس ويقطع دابر هذه الفئة الخطيرة التي يتنقل أفرادها عن طريق البحر إلى كل مكان فينتشر هذا الانحراف النفسي في كل المعمورة.

لننظر إلى النظام الألوهي كيف يتعامل مع كل القضايا وكيف يُعدُّ الكثير من الإمكانات للمواجهة مع مختلف الاحتمالات منذ خلق الأرض.

يريد الله تعالى أن يقضي على هذه الفئة الخطيرة التي أسرفت في اتباع الشياطين حتى تركت الارتباط مع الجنس الآخر بالكامل.

لقد تعرفت أيضا نساؤهم على نسائهم فأصبح الرجال في واد والنساء في واد آخر. أرسل إليهم لوط ليتزوج من بينهم فيصير عضوا في ذلك المجتمع الفاسد. بدأ لوط مباشرة بعد استلام النبوة بمزاولة مهام الرسالة. لعلنا نفكر في أنه استلم الرسالة مباشرة بعد التعرف على العلم النبوي للضرورة الوقتية. بقي سنوات بل عقود ينصحهم حتى كبرت بناته ووصلن سن الزواج.

لا نريد أن نتوسع في قصة لوط وقومه ولا نريد أن نتعدى المزيد. وصلت النصائح أو موعد الوعظ إلى نهايته وبدأ موعد العقاب بالاقتراب. العقاب يجب أن يكون شاملا بحيث يقضي على كل الفئة الخطيرة ليُزالوا عن بكرة أبيهم فلا تنتشر عاداتهم بين الباقين ويصيروا عبرة لغيرهم.

جاءت الملائكة بهيئات بشرية تتراءى لقوم لوط بصورة شبان. هرع أقارب زوجة لوط احتمالا إلى منزل لوط طلبا للشبان القادمين وهم لا يعلمون ما ينتظرهم. أخذتهم الملائكة بالجرم المشهود وأخبروا لوط وأولاده برسالة ربهم وأمروهم بالخروج في منتصف الليل دون أن يهتموا بغيرهم فهم المؤمنون وحدهم في ذلك البلد.

فالذي قاله يوسف تعبير لما عرفه بعلمه وليس إخبارا بالغيب. ونفسر كلامه عليه السلام كالتالي.

قلنا في بداية محاورة يوسف مع صاحبيه في السجن أنهما لم يسألاه عن تأويل المنامين بل سألاه عن مسألة أو أمر الارتباط بينهما في ليلة واحدة وفي مكان واحد.

كانت الأعاصير الشديدة بانتظارهم في السماء. لقد قدر الله تعالى أن تكون العواصف مصحوبة بالصيحات الشديدة وحملت العواصف بحجارة صغيرة حادة مقدرة من الله تعالى في مكان ما من الأرض. هذا ما تنبؤنا به الآيات التالية: قال تعالى في سورة الذاريات:

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34).

وقال سبحانه في سورة هود:

فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (82) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83).

المسومة يعني المعدة سابقا والمُعْلَمة لغرض خاص. لننظر إلى ما حصل.

لقد كان هناك بالقرب من قرية قوم لوط حجارة مناسبة لتدميرهم معروفة لدى رب العالمين. إنه سبحانه حين خلق الأرض دبر في كل مكان منها إمكانات لكل ما يريده في المستقبل سواء للمكافأة أو للعقاب. لقد قدر منذ البداية الكثير من هذه الإمكانات في الكرة الأرضية بحيث يستفيد مما يريد متى ما يريد.

لكنه سبحانه قضى على قوم لوط بتلك الحجارة المقدرة سابقا لمثل هذه الامور. لقد قدر سبحانه أماكن كثيرة داخل المحيطات للتسونامي ولكننا كبشر انتبهنا بعد فوات الأوان بأن البشرية نسيت أن تركب أجهزة إنذار مبكر في المحيط الهندي.

وليس بالإمكان فعلا أن نوقف كل ما يضرنا فالكرة مليئة بما لا نعرفه مما هي مسومة عند ربنا للمسرفين. كل هذه الاستعدادات مقدرة ولا يحتاج الله تعالى أن يقدر كل حركات الناس منذ بداية الخلق كما يتراءى للبعض.

إنه سبحانه يريد أن يمنح الاختيار الحقيقي لكل البشر فلا يمكن أن يقدر كل حركاتنا منذ بداية الخلق ولا منذ بداية خلقنا. لو فعل سبحانه ذلك ارتبك أو بطل الاختيار وتعذر اختبارنا وهو تعالى لا يريد ذلك. نهاية الهامش 26.

ثم إن يوسف كان أكثر منهم علما لأنه بنفسه كان يُضمر رؤياه قبل أن يغدر به إخوته كما يضمر تفسير أبيه يعقوب النبي له بأنه سوف يتشرف بالنبوة. قال له يعقوب بأنه سيصنع بني إسرائيل حينما قال:

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6) .

كان يعقوب وابنه يوسف بانتظار اليوم الذي يتوفق فيه يوسف لصناعة أمة إسرائيل الكبرى. تلك الأمة التي سوف تربي كليم الله تعالى وتؤهله لأن يستلم أول كتاب سماوي لكل أهل الأرض جنّا وإنسا .

ولذلك قال يوسف شيئا وأضمر أشياء أخرى وكلها من تأويل الأحاديث الذي تعلمه في قصر العزيز على يد العزيز وامرأته.

قال لهم بأن الأمر الذي سألتما عنه ليس صدفة ولكن الله تعالى قد قضى بأن تريا المنامين اللذان لم يتفقا لأمر يخصكما بل لأمر يخص شخصا ثالثا .

سمع صاحباه تفسير يوسف لمناميهما وعرفا بأن ما فكرا فيه من سرّ وراء الارتباط بين مناميهما صحيح ولعلّ يوسف يعرف هذا الارتباط ولكنه لا يريد الإفصاح عنه.

انتهت الجلسة وذهب كل فرد ليفكر في مستقبله. وبعد ذلك استعجل يوسف في أمر كان عليه أن يصبر فيه ويترك كل شيء لإرادة ربه الذي أدار قضيته بكل حسن وإبداع حتى ذلك اليوم.

غفل يوسف بأنه خسر كونه مخلَصا بعد ما تحدث بكل خيلاء مع صاحبيه في السجن. لم ينتبه إلى أنه هو وكل إنسان يبقى في غرفة الامتحان مادام يملك الإرادة وحينما ينتهي اختباره فسوف يفقد إرادته.

نسي يوسف حينما كان عليه ألا ينسى. فيوسف الذي تفوق على شهواته الجنسية، وقع فريسة لمكيدة من نوع آخر كادها له الشيطان ليحرك في أعماقه شهوة التفوق الأسري على بقية خلق الله تعالى.

نسي يوسف بأن التقديرات العائلية لا تعطي أي شرف عند الله تعالى الذي لا يمكن أن يُكرم أحدا أكثر من تقواه. قال تعالى في سورة الحجرات:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13).

نسي يوسف الكثير فتمكن منه الشيطان وخسر بصورة مؤقتة حالة كونه عبداً مخلَصا. فكر بنفسه أن يتحدث مع الذي ظن أنه ناج منهما. تقدم إليه يوسف في غياب الذي ظن فيه عدم النجاة احتمالا وبالتأكيد أنه تحدث إليه بعد جلسة بيان الرؤيا التي كانت مصحوبة بالمسائل العلمية الكبيرة:

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿42﴾.

بداية الآية الكريمة تؤكد أن الذي قاله يوسف لصاحبيه في السجن كان مجرد ظن منه باعتبار علمه ولم يكن وحيا ربوبيا واضحا أوحي إليه[27].

---

[27] وواقع الأمر أن الوحي الذي يتسلمه الأنبياء يقوي ظنونهم وليس هناك وحي جازم بمثل هذه المسائل.

إن رسولنا عليه السلام كان يستلم القرآن وكان يشك في أنه من الله حتى أثبت له الله تعالى عدة مرات بأنه كلام ربه. قال تعالى في سورة يونس مخاطبا نبينا:

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94).

بالطبع أن الله تعالى أزال شكوك نبينا بعد أن أراه نوره مرة ثم مرة أخرى كما فعل بموسى الذي كلمه سبحانه مرتين أيضا. والظن هو رجحان أحد طرفي الشك فيكون الطرف الثاني للظن وهْماً في الواقع. ولذلك فإن الظن هو أخ اليقين ولكنه ليس يقينا دون شك. إن اليقين يعني إزالة الطرف الآخر من الشك تماما فهو يفوق الظن درجة. نهاية الهامش 27.

وحتى نعرف القصة نحتاج إلى أن نعمل مقارنة بسيطة بين الجلسة السابقة مع صاحبيه في السجن وهذه الجلسة مع أحدهما على أغلب الظن.

وقبل عمل المقارنة نحتاج إلى بحث أحواله السابقة لنرى كيف أنه كان يومها من المُخلَصين ما يعني بأن الشيطان لم يكن موسوسا إليه بقوة لأن الله تعالى كان في عونه كما رأيناه مع امرأة العزيز ثم بعد حضور العزيز ثم يوم الجلسة الودية مع نساء الوزراء والنبلاء في مجلس امرأة العزيز. ونعرف من هذه الآية الكريمة أن سجنه كان مقدرا أن يكون قصيرا لولا خطأُه الشخصي.

ومن الواضح بأن الشيطان استولى عليه بقوة بعد الجلسة السابقة ولكن الشيطان اللعين لم يكن قادرا على المزيد من التشكيك والوسوسة أثناء تلك الجلسة.

ثم إن السر الحقيقي في تمكّن الشيطان منه بدرجة أعلى، هو أنه كان من المخلَصين فخسر الحالة وإلا كان الله تعالى في عونه كما عوده عليه منذ أن خرج من بيت أبيه في نزهة لم يعد بعدها إلى منزله.

الذي حصل في هذه الجلسة برأيي، هو أنه عليه السلام بعد أن خسر قسما من عناية الله تعالى بسبب مشاعره الإسرائيلية المتكبرة، هو أنه لم يذكر الله تعالى كما كان يفعل من قبل فاستحق أن يبقى في السجن لفترة طويلة.

ومما لا شك فيه أن الله تعالى يحب كل عبيده فيحب الذي يريده سبحانه أن يحمل راية رسالة عظيمة لأكبر حضارة عمرانية في الأرض كمقدمة لصناعة أمة إسرائيل. فكل ما حصل ليوسف من ضغوط كان ضروريا لتهذيب نفسه وتأهيله لحمل الراية الكبرى.

فالذي حصل بعد وسوسة الشيطان هو أن يوسف نسي أن يذكر الله تعالى حينما تكلم مع صاحبه في السجن ليقنعه بقوة منطقه أن يتذكره عند الملك[28].

كان عليه أن يقول لصاحبه – لو أراد أن يقول شيئًا آخر –: لعل ربي يوفقك لتكون سببا في تعرف السلطة على ما أعانيه في السجن فيكون خلاصي بإذن الله تعالى على يديك. أو ما شابه ذلك ولا يقول له: اذكرني عند ربك دون أن يتذكر اسم ربه الذي أكرمه حتى ذلك اليوم.

أظن بأن الشيطان أغواه ليستعجل في التحدث إلى صاحبه قبل أن يخرج من السجن لأنه ناج وسيكون في حضرة الملك قريبا. لقد أنساه الشيطان بأن الذي قدر كل ذلك هو الله تعالى فلا يحتاج أن يضيف إلى تدبير ربه شيئًا من عنده.

---

28 وسنعرف ذلك من المقارنة، فقد ذكر لصاحبيه أنه قادر على فهم أغوار وحي المنامات لأن ربه علمه، وقال بأنه وآباؤه يعزون كل ما بيدهم من نعمة إلى الله تعالى فلا يشركون بالله شيئًا.

حتى افتخاره بآبائه كان عملا غير مناسب ولكنه عزا كل ما بيده إلى فضل الله تعالى لأن الشيطان لم يكن قادرا أن يدبر ضده الوساوس. علينا أن نعرف بأن الشيطان يدبر الأمور ويعين الخطوات لأهدافه فلا يمكنه أن يقوم بالتدبير بسرعة بل يحتاج إلى وقت ليقوم بإعداد مكره.

ثم إنه دعا صاحبيه لترك الشرك بالله تعالى وحصر العبادة في الواحد القهار عز اسمه. ثم فند كل مزاعمهم بوجود قدرات وبركات و توفيقات لدى غير الله تعالى واعتبر ما يقولونه ادعاءات ما أنزل الله تعالى بها من سلطان.

وحينما ذكر لهما رأيه في مناميهما فإنه لم ينس الله تعالى بل عزا ما حصل من توفيق إلى قضاء الله تعالى. ولو نعود بالقصة كما في السورة إلى ما قبل ذلك لرأينا يوسف في شبابه وصغره ينسب كل حركة إلى الله تعالى ويسعى لجلب رضوان ربه. إنه رضي بأن يركب الأهوال ليكسب رسالة السماء فهو عبد صالح مخلص لله تعالى.

لكن الله سبحانه لا يتقبل أن يكون أنبياؤه مهتمين بعوائلهم وأسرهم ولا يتقبل أن ينسب أحد منهم أمرا إلى غير الله تعالى. نهاية الهامش 28.

وحينما يحب الله تعالى عبدا من عبيده فإن رحمته تقتضي أن يصحح أخطاء ذلك العبد الطيب ولا يترك معاصيه للعقاب الأخروي الشديد[29].

لبث يوسف في السجن بضع سنين قبل أن يقضي الله تعالى بأن يرى الملك رؤيا ينجو من ورائها يوسف الصديق. لعل هذه الرؤيا كانت مقدرة أن تظهر لنفس الملك قبل سنوات ولو بشكل آخر تبعا لطبيعة الحال.

فمن الصعب أن نظن بأن تقدير الجفاف الطويل لأمة قد تأثر تقديماً أو تأخيراً لمساعدة شخص مهما كان ذا أهمية في منطق الرحمن عز اسمه كما أظن.

بالطبع أن هناك مسألة كبيرة وراء يوسف وهو استضافة بني إسرائيل ليتم تربيتهم في أعظم حضارة في الأرض تمهيدا لحمل التوراة الكبرى.

المهم أن بقاء يوسف في السجن كان ضروريا ليعرف كيف يتعامل مع الناس ليكسب ودهم وليكون منصفا معهم و لئلا يجلب غضب ربه.

ولو نقرأ القصة بإمعان بعد ذلك السجن سنراه وقد امتنع عن الحديث عن بني إسرائيل تماما . إنه نسي بأنه حفيد إبراهيم وأصبح يتذكر دوما بأنه عبد الله تعالى. يوسف القديم بقي فترة طويلة في قصر

---

[29] أتمنى أن يقتنع القارئ الكريم بأن نظاما يعاقب أنبياءه المخلصين له بهذا الشكل فيتركهم في السجن بضع سنين ليتأدبوا فإن هذا النظام سوف يعامل الذين نسوا الله تعالى بقسوة شديدة يوم القيامة.

على المرء أن يجعل الله تعالى على رأس أولوياته ولا يرجح اهتماماته الدنيوية الزائلة على علاقاته مع الله تعالى. فعلى كل عاقل أن يزداد سعيا لتقوية أسس العبودية للذات القدسية جل جلاله فيتمسك به وحده وباللقاء معه سبحانه ولا يتبع خطوات الشيطان الذي يسعى لتضعيف مفهوم الألوهية في أذهان البشر. نهاية الهامش 29.

العزيز حتى زجّ به في السجن ولكن يوسف الجديد خرج من السجن إلى قصر الملك ومنه مباشرة إلى وزارة فرعون مصر.

إنه تعلم الحديث مع الناس بمن فيهم ملوكهم وتعلم كيف يتحدث ويبلغ رسالته للمخاطب محتفظا بعبوديته لربه وغير متكبر على أحد أبدا.

لقد دعاه الملك ليبين له تفسير حلمه ولكن هذا العبد المتعجل الصالح الذي لم يتمكن من أن يصبر قليلا فلا يبدي مشكلته لعبد من عبيد الله في السجن قد تغير كثيرا. إنه الآن أبى أن يخرج من السجن وطالب بالكشف عن سرّ سجنه وحافظ على حبه للعزيز فلم يشتك عليه عند الملك.

هكذا يؤهل الله تعالى أنبياءه لحمل رسالته. كل الأنبياء مروا بمراحل اختبارية كبيرة لتتزكى نفوسهم وتتطهر قلوبهم ويتعلموا كيف يكلِّموا العالمين. ليس في منطق الرحمن من يُولد عالما ويُعين نبيا أو أفضل من الأنبياء بزعم البعض بدون أن يتعلم في مدرسة الرحمن.

حتى يحيى الذي آتاه الله الحكم صبيا فالحكم لا يعني النبوة وليس هناك حديث عن رسالة يحيى في القرآن.

كانت مهمته الكبرى أن يصدق برسالة المسيح ويقيني أنه قد فعل. لكن الحكم مرحلة عملية لتنشيط القوة المدركة وهي تسبق النبوة وليست خاصة بالأنبياء بل هناك الكثير من الناس يميزون بين الصحيح والسقيم في صباهم.

فكل الأنبياء يمرون بمرحلة القدرة على الفصل بين المسائل حتى يتمكنوا من استلام الوحي وإلا فكيف يميزوا بين وحي الرحمن ووحي الشيطان؟ حتى العبقري الكبير عيسى بن مريم فإنه مر بمراحل اختبارية حتى قام ربه بتفعيل النبوة في وجوده. وقد أبلي عليه السلام بلاء حسنا.

انتهى اختبار يوسف في السجن وأتم دراسته المتميزة بنجاح فجاءه الفرج من الله تعالى. لقد كانت فراسته صحيحة وكان الشاب السجين هو الذي سيقوم بالوساطة ولكن ليس بما تراءى له بل بشكل آخر كما سنرى بعد قليل.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿43﴾.

بدأت المرحلة الجديدة من صناعة بني إسرائيل. لقد رأى الملك المصري رؤيا غريبة لا يمكنه أن ينسبها إلى الخيال والوهم. يبدو أن منامه كان طويلا غير مقرون بالأوهام، فشعر بأهميته وصحته[30].

---

[30] التمييز بين الصادق والكاذب من المنامات:

لعلّنا جميعا رأينا منامات. ولعلّ بعضنا فكر وسعى لمعرفة جذورها. بالطبع أن الغالبية احتمالا يكتفون بعرض مناماتهم على الغير طالبين التأويل ولكن هناك الكثيرون – عدديا لا نسبيا – يسعون لمعرفة حقيقة الظواهر التي يمرون عليها.

ولعلّ الكثيرين منا رأوا رؤى وشعروا بأنها من نسج الخيال وبأنهم يرون الصور المحفوظة في أذهانهم مع حركات بسيطة في جسم الصورة.

ومع تطور علم التصوير وقدرة الآلة على اللعب في الصورة فإن مسألة الحركات المختلفة للصور المحفوظة في أذهاننا باتت محلولة.

إن الدماغ أقوى بكثير من الآلات الحاسوبية التي نستعملها لتحريك الصور ولصناعة الرسوم المتحركة مثلا. لكن بعض الرؤى أكبر من أن يكون مجرد تحريك خيالي للصور المحفوظة في الذهن. و بما أني لست خبيرا وليس لدي الوقت الكافي لوضع جدول يوضح أنواع الرؤى كاملة غير منقوصة، فإني أكتفي بذكر بعض الأنواع مما يمر بذهني القاصر لعلها تساعدنا على التمييز بين الرؤى المختلفة.

وليكن معلوما بأنني أؤمن بصحة القرآن الكريم وبأنه كتاب الرحمن وبأنه الصحيفة الوحيدة المحفوظة بكل جملها بقوة العزيز الحكيم عز اسمه. ولذلك فإني أهتم كثيرا بمقولات القرآن أكثر من الدراسات التي تمت خارج نطاق الكتاب الكريم. فلنذكر بعض أنواعها لتتفتح أذهاننا فقط.

ولا بد من معرفة أننا نرى المنامات بغير عيوننا التي تكون مغمضة حين الرؤيا. هذا دليل باهر على أن الإنسان أكثر من هذا البدن الفيزيائي الذي نلمسه ونشعر به. كل إنسان يشعر بأنه هو الذي يرى في المنام فهو يرى الشيء بنفسه التي تمثله بالكامل.

ومن الطبيعي أن نعرف بأن الرؤية النفسية ليست شبيهة بالرؤية العينية فلا يمكن أن يتصور أحد بأن للنفس عيونا ترى ولكنها رؤية طاقوية شبيهة بحساسية الإلكترونات التي ترى الأشياء بطريقتها الخاصة.

والنفس لابد أن تكون كائنا طاقويا كالجن أو الملائكة، فهي تتحسس الأشياء باعتبار تماس إشعاعاتها معها، ولكني أحتمل بأن الذي يفسر لنا ما نراه في المنام هو الدماغ.

فالنفس التي هي الإنسان بحقيقته تنقل حينما تعود إلى البدن بعد اليقظة الصور والمشاهدات إلى المخ الذي يستقبلها ويخزنها في خلاياه، النفس تقوم بذلك بهدف إبقاء حالة الاتحاد مع البدن.

ولذلك فلا يمكن أن نتصور بأن ما ننقله للغير وما نشعر به بعد اليقظة هو عين الذي رأيناه في النوم. لعل المخ يفسر الصورة النفسية لنا أو أن النفس تفسرها للمخ الإنساني. ولذلك فإن الارتباك في النقل متوقع بشدة.

فحينما نرى مناما دقيقا ينطوي على أرقام تتمكن من عدّها بالكامل فإننا سنشعر بأن هذه الرؤى ليست من نسج الخيال. دعنا نستعرض أنواعا من الرؤى والمنامات التي يمكن للبشر أن يروها وكما يلي:

1. أحلام نرى فيها الميتين من أفراد عوائلنا وأصدقائنا وبعضهم يحملنا رسائل لقومه وأهله وقرابته. هذه الأحلام مرفوضة قرآنيا ولا يمكن أن ننسبها إلا إلى الخيال المحض. إنها تمثل حركات وهمية للصور الذهنية فحسب. ذلك لأن الله تعالى لا يمكن أن يفتح باب ارتباط بيننا وبين الموتى. قال تعالى في سورة المؤمنون:

حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100).

والبرزخ هو الحدود الفاصلة التي تقطع سبل الارتباط. قال تعالى في سورة الرحمن:

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (20).

والبحران الكبيران هما ما نسميهما اليوم بالمحيطين الأطلسي والهادي والقارة الأمريكية التي بينهما تمثل البرزخ.

وقال سبحانه أيضا في سورة النمل:

إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80).

والآية بصدد الحديث عن عدم قدرة الرسول على منح الهدى لمن شاء ولكنها تستشهد بحقيقة علمية وهي أنه عليه السلام لا يمكنه أن يُسمع الموتى.

ولازم ذلك أن ينقطع الارتباط بيننا وبينهم. فتلك الرؤى مجرد خيال ولا حجة فيما يذكرونه من وصايا واعترافات للموتى بعد موتهم. كل ذلك من وحي الشيطان ليلعب في أذهان الأحياء ولا قيمة لمثل هذه الأحلام.

2. رؤى نشعر بها أن الله تعالى يأمرنا فيها بالسلبيات. فهي مما لا يعتد به لأن الله تعالى لا يمكن أن يأمر بالسلبيات. مثال ذلك المنام الذي رآه أبونا إبراهيم عليه السلام فظنّ بأن الله تعالى يأمره بذبح ابنه.

بالطبع أنه كان يعيش قبل التطور الفكري وقد أثبت بجدارة أنه يحب الله تعالى أكثر من أبنائه وحتى نفسه وقد جزاه الله تعالى خير جزاء لثبوت إيمانه العميق بربه. يجب أن نعلم بأن الذي يأمر بالسلب هو الشيطان ومن يسير على دربه ولكن الله تعالى وملائكته لا يمكن أن يوحوا بالسلبيات. إنه سبحانه إيجابي محض وملائكته لا تطيع غير الله تعالى فلا يمكن أن ننسب مثل هذه الأحلام إلى الله تعالى.

3. رؤى نرى فيها الحقائق العلمية بدقة فهي أحلام صادقة لا يمكن أن يوحي بها الشياطين. إنها من وحي الرحمن أو ملائكته وهي مفيدة ولطالما انتظر العلماء والمفكرون حصولها لهم ليحلوا مشاكلهم العلمية.

إن الإنسان ينطوي على مكنونات ذهنية ورثها من الغير أو اكتشفها بنفسه؛ وحينما يواجه مشكلة جديدة بكل معنى الكلمة فلا يجد في محفوظاته الذهنية حلا لها فإنه لا محالة يسعى للارتباط بالغيب لكسب المعرفة والوصول إلى الجواب الصحيح. والله تعالى هو الذي يتولى إلقاء المعلومات الجديدة التي يحتاج إليها عبيده ليخدموا البشرية.

4. رؤى نرى فيها أخبارا مستقبلية قريبة الوقوع مثل موت شخص أو شفائه أو حصول حريق أو سرقة أو اغتصاب أو احتلال أو تحرير أو زواج أو كسب مال أو ثروة قريبة. أظن بأن هذه الأحلام لا يعتد بها بادئ ذي بدء لأن الله تعالى لا يُخبر الناس بما سيفعله غدا ولكنه يخبر الأخبار المستقبلية البعيدة أحيانا ليتهيأ الناس أو المسؤولون لها.

فإذا أراد الله تعالى لشخص أن يموت بعد أيام باعتبار أنه مبتلى بالسرطان في كبده مثلا ولا يمكن علاجه ولا يريد سبحانه أن يمن عليه بعلاج خاص أو عكس ذلك فإنه سوف يموت بعد ساعات أو يشفى بعد ساعات أو أيام قليلة؛ فإنه لا يبلغه لعدم الضرورة. لكن الذي يقوم بإبلاغ مثل هذه الأخبار هو الشيطان احتمالا لأنه يريد أن يستفيد منها لصالح أهدافه الشريرة فيبلغ أحد أتباعه عن طريق الأحلام. وهي ليست صادقة دائما لأن اللعين ليس على علم دقيق بما سيحصل ولو رأى بعض آثار المستقبل لكنه لا يخسر شيئا بل الذي يخسر هو البشر الذي ينقل رؤياه للغير.

والشيطان يعرف ذلك أحيانا لأنه يرى الملائكة فيعلم من تصرفاتهم بعض الأخبار المستقبلية القريبة. إن الملائكة الموكلين بنا لا يعلمون شيئا عن المستقبل البعيد. الذين يعلمون أكثر من هؤلاء لا يعيشون بالقرب منا بل هم بعيدون جدا والشياطين ممنوعون من الاقتراب منهم. حينما كانوا يخبرون أولياءهم ببعض الأخبار الغيبية فإن الأنبياء كانوا موجودين لإحباط مقولاتهم ولكن بعد ظهور خاتم النبيين منعوا من الارتباط بالعوالم البعيدة للملائكة تثبيتا لعدالة السماء في غياب الأنبياء.

5. رؤى يراها القليل النادر من الناس حيث يشاهدون في منامهم قضايا حصلت في نفس اللحظات التي كانوا نائمين ولكن في مناطق نائية وبعيدة. ثم تتجلى لهم بأنها كانت حقيقية.

هذه الأحلام صادقة تؤكد لنا بأن النفس مختلفة عن البدن وبأنها تترك البدن حين النوم أو تشعر بعدم الالتزام بالبقاء في البدن. والله تعالى يؤكد لنا في القرآن بأنه سبحانه يتوفانا حين النوم ومعناه بأنه سبحانه يعيدنا إلى فقدان الاختيار تماما مثل الملائكة الذين يعبر عنهم بالذين عند ربهم كما سنكون عليه بعد الموت وفي الحياة الأبدية.

ذلك لأننا صُنعنا بطاقة رب العالمين ثم يرسلنا مرة أخرى إلى الدنيا بعد اليقظة لنكمل مسيرتنا الإختبارية. قال تعالى في سورة الزمر:

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا؛ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا؛ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42) .

ولا ضير أن نعرف بأن النفس موجود طاقوي يسير بسرعة كبيرة لا تقلّ عن سرعة الضوء . إن أغلب الاحتمال عندي بأنها أسرع من الضوء والسبب في هذا الاحتمال هو أنني لاحظت بأن النفس تعود فورا إلى البدن بمجرد سعي الغير لإيقاظ النائم.

أما الرؤى التي تكون من وحي الشياطين وهي كثيرة، أو التي تكون من وحي الخيال البشري نفسه فهي مبثوثة إلى النفس حال عودتها إلى البدن احتمالا . ونعرف بأن للنوم مراحل متعددة ومن الصعب معرفة طول كل مرحلة. وأكثر العلماء الجدد يظنون بأن الرؤى تحصل في المرحلة الأخيرة من النوم بحيث يكون المرء قريبا من اليقظة. والشيطان يبعث بوحيه على شكل وحدة متكاملة ليضمن وصولها إلى النفس بالسرعة الممكنة. ولذلك فإن وحي الشياطين إما أن يكون قصيرا أو أننا نراه متقطعا . ولو نلاحظ فان منام إبراهيم كان قصيرا جدا فقد خُيل له بأنه يقتل ابنه دون أرقام ودون تفصيلات.

6. رؤى ترد على بعض أصحاب الشأن وتريهم بعض المسائل الكبرى التي ستحصل في المستقبل ليستعدوا لها . هذه الأحلام تمثل وحي الرحمن لمساعدة البشر وهي صادقة. وعلامتها أنها مركزة وتنطوي على أعداد دقيقة. مثال ذلك المنامين المذكورين في سورة يوسف ليوسف والملك. كلاهما ينطويان على أرقام مما يدل على أن الذي رآهما تمكن من عد الأفراد الذين ظهروا له في المنام. فيوسف رأى إخوانه وعدهم ولمسهم بالعدد الكامل دون زيادة أو نقصان. وأما الملك فإنه رأى الأعداد أربع مرات في منام واحد . إنه رأى سبع بقرات سمان ثم سبع بقرات عجاف ثم سبع سنبلات خضر ثم سبع سنبلات يابسات. لقد تكرر العدد أربع مرات وتمكن الملك من أن يعدها في كل مرة فهو منام صحيح يجب الاعتداد به عقليا .

وأما الرؤى التي رآها رسولنا محمد (ص) فلا نعلم عن تفصيلاتها شيئًا . لقد أشار الله تعالى إليها دون تفصيل. فلا بد أن تنطوي على مسائل دقيقة تنبئ عن صحتها ولعلها أرقام أو أشياء أخرى. ولعل السبب في أن الله تعالى أشار إليها في القرآن ليقول بأن الرسول لا يستلم كلمات قرآنية غير القرآن نفسه. ولعله لا يستلم وحيا غير القرآن ولذلك كان يستلم الوحي المنامي لمسائله الكبرى دون الوحي القرآني الذي هو أكثر وضوحا بالضرورة. إنه موحى للناس جميعا عن طريق الرسول الأمين. نهاية الهامش 30.

فالمنام الذي رآه الملك كان مناما صادقا ولذلك اعتنى به لشعوره بأن هناك مسألة خطيرة وراء تلك الرؤيا . ثم إنه دليل واضح على أن الملك كان يؤمن بالله وبأنه تعالى يدير الكائنات ويدبر أمورها من الغيب.

ليس هناك ملحد يؤمن بالأحلام الصادقة. إنه رأى شيئًا غريبا يخالف الصور الذهنية تماما . ليس البقر من آكلات اللحوم حتى تأكل البقر. لقد حاولت أن أتصور كيفية أكل البقر للبقر فما اهتديت. لنتصور أن نرى أسدا في المنام فسوف نخاف ولو رأيناه يفتك بفريسته فسنزداد خوفا ولو رأينا قطة آكلة للحوم تأكل أسدا فسنزداد رعبا ولو نرى ما رآه الملك فسوف نفزع.

فليس أكل البقر من شأن البقر ولا يقوى النحيف على أكل السمين. ثم إنه رأى السنبلات و عدَّها وهو شيء غريب أيضا . فلا أحد معتاد على عد سيقان الزرع لكنه عد السنابل بنوعيها وانتبه للناتج وتمكن من وصف ما رآه في النوم بكل دقة. هذه رؤيا يندر أن يُرى مثلها .

كان الملك خائفا جدا مما رآه في منامه ويلتمس رأيا من المحيطين به ليساعده على تخمين المستقبل. إن الملوك يعيشون على التدبير للمستقبل ليضمنوا ملكهم، فهم يشعرون بالخطر الكبير المستمر على ما بيدهم من قدرات لعلمهم بوجود أطماع كبيرة ضدهم. فهم يهتمون بإدارات التجسس ليستعدوا لما يمكن أن يواجهوه؟

كان ملك مصر على رأس أكبر دولة في الأرض في زمانه، وقد رأى في منامه الشخصي ما أفزعه.

ولذلك لم يطلب شخصا خاصا بل تكلم مع كل الحاشية حتى أن الخدم والسقاة سمعوه وشعروا بما يحيط بالملك من ذعر. ويُطلَق الملأ لغويا على كبار الحاشية الذين يملؤون العيون ولكنه هنا تحدث مع كل من رآه كما يبدو وسمح لأي منهم أن يشير عليه.

لعل الملك من فزعه خاطبهم جميعا بالملأ ليهتموا كلهم بالمسألة أو أن كل واحد منهم ملأ عيني الملك أملا بأن يأتي له بنتيجة وكانت فراسة الملك في محلها . فلولا ذلك لم يكن ممكنا أن يصل الدور إلى ساقي الخمر لديه.

إن الموقف شبيه بحالة الملوك حينما يسمعون عن استعدادات حربية لغزو بلادهم ويرون أنفسهم على وشك مواجهة قد تفضي بهم الى الزوال. هناك فإن كل المستفيدين من الملك يهتمون لأن العدو أجنبي ودخوله بلادهم يعني فناءهم جميعا .

إنهم لا يعلمون شيئا عما سيحل بهم لأن الخبر أتاهم عن طريق الرؤى التي تحتاج إلى تفسير دقيق. الكل يخشى من أن يتفوه بكلمة فقد تكون خاطئة ولا يمكن تحمل عواقبها .

وقول الملك لهم: أفتوني في رؤياي، ينطوي على استعطاف وطلب خاضع للمساعدة من كل من يقوى على ذلك. فالاستفتاء يعني جهل المستفتي وبأنه ينظر إلى من يخاطبه نظرة استرحام لإخراجه من ظلمات الجهل إلى نور العلم في الجزئية التي يطلب فهمها . واشتراطه: إن كنتم للرؤيا تعبرون، يشتمل على شرط حازم بأن لا يتفوهوا بلا علم.

بالطبع أنه يعرفهم جميعا ولولا ذلك لما اختارهم حاشية له، و يعرف بأنهم ليسوا من أهل تعبير الرؤيا ولكنه يريد منهم أن يستعينوا بمن يعرف الرؤيا ولا يستعجلوا ولا يذكروا رؤيا الملك لمن لا يعرف تعبير الرؤيا . أظن بأنه كان يبحث عن نافذة أمل تُفتَح أمام عينيه ليرى من خلالها بصيصا من الأمل، ولذلك أشعر بأن جواب الملأ كان مخيبا لآماله. إنهم جميعا اعترفوا بانعدام حيلتهم في هذه المسألة، حيث:

قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ ﴿44﴾.

والضغث كما قال صاحب الصحاح: قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس. ولذلك قال اللغويون العرب بأن أضغاث الأحلام، تعني الأحلام المختلطة التي لا يمكن تفسيرها .

فكأنهم قصدوا أن يُبعدوا شبح الخوف عن ملكهم المذعور بأن ينسى منامه وأن لا يعتد به. لكن الملك الذي رأى المنام وشعر بأهميته نتيجة أنه اشتغل في المنام بِعَدِّ ما رآه عدًّا دقيقا ورأى بأن هناك تطابقا في الأعداد لكل ما رآه.

ثم إنه شعر بأن الرؤيا كلها كانت دقيقة متناسبة لم يتخللها أي خلط أو عدم وضوح فلا يمكنه قبول ما سعى إليه أفراد حاشيته.

من هنا نعرف بأن يوسف قد أخطأ خطأ كبيرا بأن ظن أن عليه أن يسعى لتكميل المسيرة التي بدأها ربه وأحسن ترتيبها . أخطأ حينما لم يتعمق في توكله على الله تعالى فانطلق بعجلة واضحة يطرح تصوره عن تغيير مصيره عبر إطلاق العنان للتعبير عن حاجاته لسجين لا يعرفه.

وحينما نقارن بين المسائل العلمية التي ذكرها لصاحبيه ومقولته غير المدروسة لأحدهما في غياب الآخر نشعر بالهوة السحيقة بين الذي قاله بالأمس والذي قاله فيما بعد .

فهو بكل قوة أثبت علمه وتفوقه في التقوى وبأنه موهوب وبأن الله تعالى علمه ما لم يعلمهما . ثم فسر لهما مناميهما بدقة وذكر لهما السر في أمر التوفيق بينهما بكل وضوح وتميّز. لكنه تسرع وتخلى عن كبرياءه أمام سجين ينظر إليه بإعجاب، ليستميله و يستعطفه.

وكان سببُ نسيان الساقي طلبَ يوسف هو ما أوحاه يوسف إليه من شخصية محطمة لا يعرف كيف يتخلص من السجن فيتشبث بكل شيء .

لم يذكر الله تعالى بأن الشيطان أنساه التحدث عن يوسف ولو أن للشيطان دورا بلا شك. فيا ليتنا نحن المسلمون اليوم نعرف بأننا لو نوكل الله تعالى ليتولى أمورنا ونكتفي بأن نتعرف عليه من خلال قرآنه العظيم فنسعى لإرضاء ربنا لكان خيرا لنا . إن الكثير من أساليب المقاومة لدينا خاطئة وغير صحيحة،

كما أن الكثير من ادعاءاتنا الإعلامية وهمية. هناك خلط كبير بين تعريفاتنا لمسائلنا المصيرية اليوم وبين معارف القرآن الكريم ويجب تصحيحها جميعا. يجب الدقة حينما نتحدث عما وراء الطبيعة وحينما ننسب شيئا إلى الغيب وإلى تقديرات رب العالمين وإلى الثواب والعقاب، حتى لا نقع في حبائل الشياطين فنخسر رحمة الله تعالى.

فلننظر كيف دبر الله تعالى نجاة يوسف على يد نفس الشخص الذي طلب منه يوسف بجهل وتسرع أن يساعده. لنرى كيف حقق الله تعالى القوة والسلطان ليوسف السجين في أجمل تقدير. لنتصور اليأس الذي طرأ على الملك المذعور، فرعون مصر العظيم بعد أن سمع جواب الجهل من وزرائه و من أقرب حاشيته وفيهم العزيز صاحب يوسف بالطبع. هذه ساعة تذكر الساقي الذي ليس من كبار المسئولين ليفتح باب النجاة لفرعون مصر. هكذا يدبر الله تعالى الأمر:

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿45﴾.

نفهم من الآية الكريمة هذه بأن تفسير يوسف لمنامي صاحبيه في السجن وظنه بمآل أمرهما كان صحيحا وقد تحقق فعلا.

فالآية توضح بأن أحدهما نجا، وتشير إليه بـ "الذي" وهو يعني فعلا بأن الله سبحانه يشير إلى ما ذكره من قبل وهو تفسير يوسف للمنامين ليحل محل تفسيرهما بنفسهما لحلميهما. فالذي نجا في مقابل الذي هلك. ثم تذكر الآية الكريمة مسألة تدبيرية أخرى وهي أن الله تعالى قدر للذي نجا منهما ألا يتذكر يوسف قبل الوقت المحدد.

إن عنصر المفاجأة في الوقت المناسب هو الذي سيحفز الملك أن يعين سجينا لا يعرف عنه سوى أنه عبد مملوك لأحد وزرائه، أن يعينه وزيرا بصلاحيات كبيرة.

وليس غريبا إن قلنا بأن الساقي الخاص للملك رأى القصر في حيص بيص من رؤيا الملك. عاشوا الرعب لما لمسوه من رعب وحذر في ملكهم. هنا أراد أن يقوم بخدمة لأسياده ففكر كما فكر غيره فتذكر قصته وصاحبه مع يوسف. وكأن الله تعالى أراد له ألا يتذكر قصته مع يوسف قبل ذلك اليوم، فأنساه الشيطان ما قاله له يوسف عمليا. ومعنى "ادكر بعد أمة" هو تذكر بعد فترة مقصودة من الزمان.

ولنحلل ما قاله صاحب السجن بعد أن ندرك مفهوم الأمة[31].

---

[31] أظن بأن معنى "الأم والأمة" يعود الى مفهوم "القصد" وكل المعاني مشتقة من المعنى الأساسي. فالأمة تعني: المجموعة المقصودة من الزمان ومن الناس. وأما الأم فهي تعني الهدف المنشود والمقصود.

هذا ما أفهمه من استعمالات الكلمة في كتاب الله تعالى وكما يلي:

1. الأم في مقابل الأب: وقد وردت كثيراً في آيات الكتاب باعتبار أن الله تعالى خلق الناس من ذكر وأنثى ليجعل من جنس الإنسان من يقوى على القيام بأعباء التكاثر، فهي مقصودة لهذا الغرض ولو أنها مليئة بالمحاسن الأخرى التي تجذب بني جنسها من الرجال العاجزين عن صناعة الإنسان إلا في حدود المشاركة معها. ولقد أثبت الله تعالى قدرة المرأة أن تكون أما بدون أب، من خلال حمل مريم بعيسى دون زواج.
2. الإمام: وهو الذي يسبق من دونه في القيام بعمل عبادي كالصلاة والحج بقصد تعليم الناس أو توحيد صفوفهم.
3. الأمة: وهي المجموعة المختارة من القرن لتستضيف نبيا يبعثه الله تعالى من بينهم رسولا له سبحانه. وذلك بقصد اتخاذ الشهود والنماذج منهم لمقايسة الآخرين عليهم يوم القيامة. والقرن تعني المجموعة البشرية المتكاملة القادرة على الحياة الطيبة المواكبة للعصر دون الحاجة لأن تُدار من قبل الغير. وتتشكل القرون عادة مقرونة بنوع من الحضارات البشرية كالفراعنة وقومي عاد وثمود المعروفين بالحضارة العمرانية والبابليين المعروفين بالحضارة الزراعية وأهل مدين المعروفين بالتجارة والفينيقيين المعروفين بالملاحة والتجارة عبر البحار. قال تعالى في سورة النساء:

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا (41).

فلكل أمة شهيد والرسول شهيد على صحابته الذين أشار إليهم القرآن الكريم بـ "هؤلاء". وهي تعني بأن شهداء الأمم هم رسل أيضا. وبما أننا لا نرى في كل زمان ومكان رسولا فإن الأمة مصطلح قرآني يدل على الذين اصطفاهم الله تعالى

لإنزال الدين السماوي عليهم ليكونوا نماذج لغيرهم. وعلى هذا الأساس لم يبعث الله تعالى رسولا لكل قرية والعلم عند الله تعالى.

4. السياحة المقصودة الهادفة: سمى الله تعالى مكة أم القرى. والقرية تعني المكان الذي يُستضاف فيه الناس باعتبار أن كلمة قرى تعني ضَيّف. فالقرية لو تطلق على المكان فهي باعتبار من يسكنها. قال تعالى في سورة الطلاق:

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (8).

وكانت مكة مكانا لخلق آدم وحواء والأنعام الثلاثة الصغيرة التي خلقت مع الإنسان مكانيا وقبله زمانيا ليتخذ منها طعامه. فأول بيت وضع للبشر هي مكة فهي بطبيعتها أمٌ لجميع الأماكن التي تستضيف البشر في الأرض. ولكن ميزة مكة أن الله تعالى أراد أن يجعلها مدينة سياحية لكل الناس باعتبار أنها ورشة عمل رب العالمين ولذلك سماها بيته ولم يسم أي مكان آخر بمثل هذه التسمية. فمكة قرية أنشأها الله تعالى بقصد أن تكون في النهاية قرية سياحية وأمر عبديه إبراهيم وإسماعيل ليبنياها فيتمكن إبراهيم من أن يدعو الناس جميعا لزيارتها بغض النظر عن أديانهم وأفكارهم، فهي الأم الحقيقية لقرى الأرض جميعا بهذا الاعتبار لا باعتبار ما ظنه البعض بأنها مركز الدحو، فهو ادعاء باطل لا أصل له ولا ينطبق مع الحقيقة. ولا يوجد في القرآن أية دعوة للمسلمين لزيارة مكة بل الدعوات للحج موجهة برمتها إلى الناس جميعا.

5. النهاية المعلومة التي يسير باتجاهها الشخص: فحينما يموت المرء الذي خسر آخرته وبعد بداية الدمار الكوني فإنه يشعر بالنهاية الأبدية المزعجة. قال تعالى في سورة القارعة:

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11).

فالهاوية هي التي تنتظر الذي أراه الله تعالى خفة موازينه ليعلم بأن الهاوية هي مآله. فالهاوية أمه باعتبار أنها مقصودة.

6. الكتاب الأصلي الذي يربط العاملين بقانون الطبيعة: قال تعالى في الآية 7 من سورة آل عمران:

هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ. . .الآية

فمحكمات القرآن تمثل التشريعات الطبيعية التي تناسب سير البشر ضمن النظام العام للكون. إنها هي المقصد الأصلي للكتاب وأما المتشابهات فهي تمثل علوم القرآن والحقائق الكبرى للكائنات و هي ليست هدفا للكتاب ولكنها لمساعدة البشر لعرض تحقيقاتهم العلمية عليها والاطمئنان لصحة نظرياتهم.

7. الزمن المقصود لتحقيق شأن إلهي: وقد وردت الكلمة بهذا المعنى مرتين في القرآن. إحداها في سورة هود بقوله تعالى:

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (8).

وهذه المدة المعدودة مقصودة ليتم منحهم الفرصة الكافية للعودة إلى الله تعالى وترك وساوس الشياطين والتغلب على أهواء نفوسهم. والثانية هي ما في سورة يوسف وتعني زمنا معلوما حتى لا يضيع عنصر المفاجأة في قصة صاحبي السجن، والعلم عند العزيز العليم.

وأما الإشكالات التي يمكن أن ترد على التحليل أعلاه فيُخرج الأمة من معناها الاحتمالي الذي وصلنا إليه بعد ملاحظة مناسبة ورودها في الكتاب العزيز فهي كالتالي:

1. قوله تعالى في سورة البقرة:

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (213).

فالآية تتناول حكاية الناس قبل أن يُبعث الرسل وتعتبرهم أمة واحدة. والواقع أن الآية الكريمة بصدد بيان السبب الداعي لبعث الأنبياء وآثار إرسال الرسل. ولعل السبب الداعي لذلك هو التنويه بعدم جدوى إرسال الرسل في كل زمان ومكان ولكل المجموعات البشرية في الأرض. إن المقصود من إرسال الرسل حسب الظاهر هو هداية الناس للتمييز الدقيق بين الطاغي والمعترف بالحق أو الشقي والسعيد، بغية إرسال أكبر عدد ممكن من المخلوقين للجنة. فهناك تمهيد لذلك وهو أن يكونوا مستعدين لاستقبال الرسل بأن يؤمنوا بالله بداية فيصيروا مستعدين للاستماع إلى من يدعي الرسالة من السماء. فالناس مخلوقون بالقوة لاستقبال الرسل ولكنهم غير مستعدين بالفعل، إلا بعد فترة وهو السبب لتأخير البعث الموضح بحرف الفاء في كلمة (فبعث). ثم إن أول مجموعة استلمت الرسالة الكاملة وهم بنو إسرائيل فإنهم لم يكملوا الانصياع للحق إلا قليلا منهم. بالطبع كان ذلك بعد إنزال الأنبياء بلا كتب لمن قبلهم دون جدوىً. فالمقصود من الأمة فعلا هو القوة وليس الفعل ولا يضر بتفسيرنا للأمة.

2. ورد في آل عمران كلمة الأمة بنفس الطريقة المذكورة أعلاه هكذا:

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110).

ويتضح من الآية التي سبقت بيان الموضوع قبل عدة آيات بأن المقصود فعلا أنهم كانوا قادرين على استقبال الرسالة السماوية فبعث الله تعالى بينهم خاتم النبيين فاكتمل اتصافهم بالأمة ولذلك قال لهم الله تعالى بأن يسعوا لأن يكونوا أمة متطورة تتطلع إلى التقدم الحضاري الذي يقدره الله تعالى سواء مع النبي أو بعده ليكونوا قدوة لغيرهم. هذا ما نفهمه من الآية التالية من قبلها:

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) .

فالفلاح ليس بمصاحبة النبي فحسب بل بأن يهتموا بالعرف العام وهو المسيرة النهضوية التي يرعاها الله تعالى بموجب قوانين الألوهية. وقد أمر الله تعالى نبيه بأن يتبعها ويأمر بها . تلك هي أمارة التقدم وامتطاء صهوة الحضارة المتطورة جيلا بعد جيل. قال تعالى في الأعراف:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) .

ولقد ظن البعض بأن الأحكام الشرعية هي المعروف وقد رأينا القرآن يضيف الصلاة والزكاة إلى المعروف. قال تعالى في سورة التوبة:

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) .

فالمعروف يمثل أصلا معنى الولاية والمحبة بين الناس وتتلوه بقية المسائل الشرعية الواجبة مثل إقامة الصلاة و . . . . فهي ليست أجزاء المعروف بل معطوفات عليه.

3. قوله تعالى في سورة الأنعام:

وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (37) وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (39) .

فالأمم هنا تشمل الجن والإنس الذين لم يروا عهود الرسالات السماوية. والله تعالى بصدد بيان سياسته في إرسال الرسل ليرد على إشكال المكذبين برسالة حبيبنا محمد خاتم النبيين. ولذلك ذكر الإنس بصفة الدواب والجن بصفة الوجودات الطاقوية التي تنجز مهماتها بطاقتين سلبية وإيجابية. ذكرهم بأنهم جميعا أمم بمعنى أن كل مجموعة منهم قادرة على استضافة رسول من الله تعالى ولكن الله تعالى لا يريد بسط الهداية خارج نظام المشيئة إلا في حدود اتخاذ النماذج ولذلك أرسل عددا قليلا من الأنبياء . فالأمة هنا أمة بالقوة لا بالفعل. ولا ننس بأن سورة الأنعام تشابه أختها الرحمن في بيان مشتركات الجن مع الإنس وقد سمى الله تعالى كلا الجنسين في السورتين بالمعشر.

4. وأما المجموعة من الآيات التي تضم الآيتين 34 و38 من سورة الأعراف فهي تتحدث عن الارتباط بين الأمم الفعلية التي احتضنت الرسالات والأمم بالقوة التي لم تر الرسل من الجن والإنس. ومن الضروري التنويه بأن الرسل الذين أرسلوا إلى الجن من الجن أنفسهم لم يكونوا حاملي كتب سماوية ولذلك فإن مؤمني الجن كانوا يؤمنون بالتوراة ومن بعدها آمنوا بالقرآن. ولا بأس بأن يعرف القارئ الكريم بأن الأمم الفعلية التي استلمت الرسالات لم تعش مع الرسل أكثر من الزمان اللازم والضروري

لمن كان يمكن أن يؤمن ليؤمن دون زيادة أو نقصان حتى تتحقق العدالة بين حاضري الرسالات وغائبيها والعلم عند الله تعالى.

5. ولا بد لنا أن نعرف بأن الأنبياء هم أنفسهم أعضاء في أقوامهم. فالنبي الذي يرسله الله تعالى إلى قوم وهو منهم بالطبع هو نبي ورسول إلى نفسه أيضا . ومعنى ذلك أنه يجب أن يكون أول المسلمين برسالة السماء ليكون نموذجا عمليا صادقا لقومه. وحينما أراد الله تعالى أن يوضح لنبينا أهمية إبراهيم كمسلم فإنه خاطبه هكذا في سورة النحل:

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) .

أراد الله تعالى أن يعطي نبينا أكبر مثال للتسليم لله تعالى في هذا الكوكب فتمثل بإبراهيم باعتباره ليس فقط رسولا إلى قومه بل نموذجا صادقا بكل معنى الكلمة للتسليم والخضوع لربه. فكان إبراهيم أمة قانتا لله وحده وتاركا قومه مائلا عنهم وعن معبوداتهم إلى العلي العظيم جل جلاله بكل خضوع وبكل صدق. فهو نموذج للأنبياء من بعده ليكون كل منهم أمة طيبة لقومه صادقا في تمثيل رسالة السماء وفي تنفيذ تشريعات ربه سبحانه.

6. ثم نأت إلى الآية التالية من سورة القصص:

وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) .

فالأمة هنا برأيي باعتبار وجود موسى بينهم في تلك اللحظات. ولعل الذي خفي على البعض أن موسى حينما كان في مدين كان يدعو إلى الله تعالى قبل أن يصير نبيا . وقولهم بأن الفتاتين كانتا بنتي شعيب ليس صحيحا برأيي. وقد ختم الله تعالى قصة موسى في سورة القصص بذكر دعوته لقوم مدين هكذا:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) .

وعلى كل حال فتسمية الله تعالى أهل مدين بأمة من الناس لا يخالف تفسيرنا لكلمة "أمة" .

7. ونرى القرآن يسمي زمر الانس وربما الجن أيضا والموقوفين أمام ربهم يوم القيامة بالأمم. قال العزيز في سورة الجاثية:

وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (29) .

دخل الساقي السجن بأمر الملك فخاطب صاحبه القديم الذي بقي دونهما في السجن المشترك بينهم:

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿46﴾.

بعد أن تذكر صاحب السجن قصته مع يوسف قال للجمع المحيط بالملك ولعل ذلك كان في حضور الملك نفسه: أنا أكشف لكم تأويل المنام فأرسلوني إلى يوسف في السجن لأعرض الرؤيا عليه.

ولا ريب أنه فتح على الملك وحاشيته باب أمل لحل اللغز الغريب وإخراج أسرة الحكم من دوامة الخوف والحيرة.

جاء اسم يوسف مرة أخرى في الوسط الحاكم بقوة أكثر من ذي قبل بحيث لم يتمكن العزيز من أن ينبس ببنت شفه. ولا أظن أنه كان يمانع لأنه كان يحب يوسف دون شك ويحترمه ويُكرمه ولكنه بالطبع رأى أن عودة يوسف سوف تُحيي قصة زوجته من جديد في سهرات القصور الملكية. لكن رؤيا الملك كان أمرا بالغ الخطورة فيستعد كل مهتم بشؤون الملك أن يضحي من أجلها، ولذلك لا نرى من القصر الملكي برمته إلا الموافقة على دق باب يوسف وإعادته إلى مسرح الأحداث مع المزيد من السيطرة والسلطان ومن نوع السيطرة والسلطان لا من نوع احترام علمه وذكائه كما كان متحليا به قبل أن يُسجن.

وصل الخبر دون ريب إلى زوجة العزيز فاستعدت بجدة ذكائها للمواجهة ولكنها الآن لا يمكن لها أن تمكر مكرا فعليها أن تتهيأ للبوح بالحقيقة أمام الملك.

ذلك بأن الله تعالى لا يمكن أن يُحاسب الناس قبل أن يرسل لهم الرسل. ولكنه لم يبعث في كل قرية رسولا بل يتخذ من بعض القرون البشرية أمما ليرسل إليهم الرسل ثم يعتبرهم نماذج يقيس عليهم غيرهم من البشر. ذلك هو مظهر من مظاهر الرحمة منه سبحانه. فكل زمرة من الناس يُحشرون مع نموذج مماثل لهم من أصحاب الأنبياء ولذلك يسميهم أمما، والعلم عنده سبحانه وتعالى. فالأمة إذن تتفرع من أمّ يؤمّ بمعنى قصد يقصد وليس بمعنى آخر. نهاية الهامش 31.

كانت تعرف عناد يوسف في استجلاء الحقيقة التي قد أشعرته بالكثير من الضجر أن يُسجن بتهمة لا تليق بساحته أبدا. تعرف المرأة أكثر من أي شخص آخر مدى نظافة يوسف وإبائه وإخلاصه في نفس الوقت لأسرة العزيز الذين نجّوه من أن يُباع عبدا لدى أسرة لا تعرف قدره ولا تهتم بإخلاصه وعلمه.

دخل الساقي السجن مرة أخرى ولكن رسولا من الملك وليس سجينا. من الصعب أن نصف ما جال بخاطره وهو يعود إلى محبسه الذي سمع فيه بأنه سوف ينجو من السجن ويعود إلى عمله بقوة أكبر.

دخل الساقي على يوسف وهو يفكر احتمالا في أن يوسف سيخرج من السجن اليوم أكثر عزة منه وأكثر احتراما لدى الملك. ولعلّ الساقي كان مغرما بيوسف بحيث لم تأخذه الغيرة والحسد من يوسف.

ولعلّه قال في نفسه بأن هذا الرجل العظيم يستحق كل احترام وحظوة أمام فرعون مصر. ولعله شعر بالخزي مع نفسه بأنه نسي طلب يوسف منه طيلة الأعوام التي تردد في أيامها على ربه مغتبطا بالسقاية وناسيا صاحبه السجين المؤمن والخبير والعالم.

ولعله فكر وهو منتصر يشق طريقه إلى سجنه القديم في الكلمة التي يرحب فيها بالعودة إلى صاحبه في السجن فرأى بأن أجمل كلمة هي ما تدل على أن تأويل يوسف للمنامين وللارتباط بينهما كان صادقا وبأن يوسف كان صادقا أيضا في تفسير الرؤيا لهما بكل إخلاص ودون أن يُخفي عنهما شيئا.

أراد أن يبدي ليوسف مشاعره وهو يأتي إليه بما يُخرجه من سجنه بقوة لا بضعف.

الساقي لا يدري بأن يوسف يحمل نمطا فكريا مغايرا له. إنه لا يريد أن يخرج من السجن قبل أن تتجلى كل الحقيقة في أنه ظُلم ولم يكن مستحقا للسجن. ساقٍ أخطأ فسُجن فخرج من السجن بعد بشارة يوسف له بالعودة إلى بيت الملك ساقيا شخصيا له، يلتقي بسجين لم يرتكب خطأ ما وانما لأنّه كان نظيفا تقيا صالحا متغلبا على طغيان الشهوة ومفضلا السجن على معصية الله تعالى.

ولننظر إلى ما حصل أمام يوسف فقد نطق الساقي المرسل من قبل فرعون مصر إلى صاحبه في السجن بالكلمة التي اختارها وصفا ليوسف:

يوسف، أيها الصديق.

قرأ يوسف كل الحكاية من لقائه الثاني مع صاحبه حُرًّا رسولا من الملك وهو سجين قابع في السجن عدة سنوات.

عرف يوسف بأن الله تعالى قد أكمل تأديبه وأعده لأن يمارس مهمته من جديد وهو في طريقه إلى أن يجلب الكرامة والعزة لبني يعقوب.

شعر يوسف بأن الله تعالى لم ينسه وبأن صاحبه في السجن قد نسيه فكان عليه أن يعرف كيف يشكر ربه وكان عليه ألا يفتخر بأسرته وآبائه بل يفتخر بأنه عبد مخلص لله تعالى.

فكر يوسف، كما أحتمل، كثيرا في ما حصل لصاحبيه القديمين في السجن وفي أن ما حصل للناجي ليس نسيانا حقيقيا وليس صاحبه مقصرا ولكن المقصر هو يوسف الذي لم ينتظر أن يُكمل له ربه مكرمته فيعود إلى أسرته إسرائيل وبني إسرائيل من جديد وقد اجتباه الله تعالى عليهم جميعا .

قال له أبوه بأن ربه سوف يجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث وقد علمه ربه ذلك قبل أن يدخل السجن.

عرف يوسف بأن السجن كان ضمن الطريق ولكنه لم يكن لفترة طويلة ولم تنو أسرة العزيز أن يسجنوه لهذه المدة الطويلة ولكنه هو الذي أخطأ .

لننظر إلى ما حصل بين شخصين يحملان فكرين متغايرين تمام التغاير ولكن يوسف مسيطر على فكر الساقي ويقرأ ما يجول في نفسه بعكس الساقي الذي كان غافلا تماما عما يجول في خاطر صاحبه في سجنه القديم.

عرض الساقي رؤيا ربه على يوسف طالبا منه رأيه في تأويل ذلك المنام الخطير. لم يقل الساقي بأن الذي رأى المنام هو الملك ولكن يوسف عرف بأن الملك هو الذي رأى المنام.

إن نظرة الساقي في ما يراه أمام عينيه ولكن نظرة يوسف في من يحيط بكل شيء و يهيأُ الأسباب لتنفيذ سياسته في عبيده سبحانه وتعالى. إن دائرة النظرتين مختلفتان ودائرة يوسف أوسع جدا تصل حد إرضاء الله تعالى.

هذا هو الفرق بين الذي يهديه الله تعالى والذي يسير خلف مصالحه الآنية. إن هداية الله تعالى تشمل كل شيء في الدنيا بما فيها حقوق الغير وسنرى حينما يفسر المنام كيف أضاف إلى الرؤيا مفاهيمه العلمية ومعرفته بمالك الملك جل جلاله.

سمع يوسف جزئيات المنام من الساقي. رأى عظيم من عظماء مصر سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات. لقد تكرر العدد ثلاث مرات على الأقل ولعله عد الرابع أيضا ولكنه لم يخطئ في أن يعد ثلاث مرات فهو منام حقيقي ينبئ عن أمر يهم مملكته.

مصر بلد زراعي يعتمد على النيل العظيم في زراعته ويعتمد على الأبقار مصدرا أساسيا للألبان واللحم والمصنوعات الجلدية وكذلك في حراثة الارض. أنا أحتمل بان الأحداث المشار إليها كلها وقعت في مصر المعروفة بيننا اليوم وليس في مكان آخر كما احتمله البعض[32].

البقرة السمينة لأهل مصر تعني الخير والرخاء الذي يتعدى الناس فتسمن أبقارهم أيضا. هذا الخير هو الخير الزراعي الذي يساعد البقرة على السمنة. فالذي قدر المنام سبحانه أراد أن يبلغ النائم الذي يرى نفسه مسئولا عن طعام الشعب الذي يعيش في أرض مصر، بأن هناك جدبا زراعيا بانتظار البلاد. فالبقرة حيوان معتمد على العشب، وسمنتها تعني وفرة النبات والزرع. وأما السنبلات الخضر فهي تشير الى الثروة النباتية، لتشمل أكل البشر بجوار طعام البقر. فسوف تكثر الغلات واللحوم لأهل مصر في أعوام الخير.

ثم يأتي بعد ذلك دور البقرات العجاف. والعجاف كما يقول أرباب اللغة جمع للأعجف والعجفاء وهما ذكر وأنثى الحيوان الذي ذهبت سمنته.

وقد صرح القرآن الكريم بأن الملك رأى سبع بقرات سمان ولم يصرح بأنه رأى في المقابل سبع بقرات عجاف. فلو كانت العجفاء تعني التي زالت سمنتها، فكيف عرف الملك ذلك في المنام؟ ثم إن المنظر مخيف فعلا أن ترى آكلة عشب تأكل مثلها قبل أن تنتبه إلى أن الآكل نحيف والمأكول سمين! ثم لا ندري

---

[32] إن البقرة من معالم مصر وليست من معالم اليمن كما ظنّ البعض ولا من معالم عسير كما ظن البعض الآخر. والملك هو أحد فراعنة مصر ولكن الله تعالى سماه الملك تمييزا بينه وبين فرعون المتجبر الذي عاصر موسى. ففرعون يوسف رجل مسالم نسبيا وكان يؤمن بالله تعالى وهو وحده العليم بحق. قالوا بأن مصر تعتمد على النيل وليس على الأمطار ولكنهم نسوا بأن مصر تعتمد على فيضان النيل والفيضان يعتمد على الأمطار. كان المصريون يحتفلون بالفيضان لأنهم بدونه يواجهون الجدب. لنتصور غياب الأمطار عدة سنوات فسوف يجف النيل قطعا. وسنعرف المزيد بعد بيان التأويل. ثم إن الله تعالى لم يصف ملوك الأرض بالرب عدا فرعون موسى وملك يوسف. ولذلك فهو فرعون مصري كما أظن. والعلم عند الله تعالى. نهاية الهامش 32

كيف رآهن حتى تمكن من عدهن بكل دقة؟ لعله رآهن في صف واحد وخلف كل واحدة بقرة ضعيفة تأكل أختها السمينة.

ومما لا شك فيه أن الآكلات أبقار ولو أن الله تعالى لم يكرر ذكرها مكتفيا بالذكر الأول على أن الموضوع مكرر مرتين في السورة لأهميته على ما يبدو. ولعل السبب هو أن يوضح لنا سبحانه تعجب الساقي حينما قام بذكر المنام، ولعله سعى إلى عدم تغيير اللفظ الذي سمعه من الملك حتى لا يُربك المفسر.

فلو أنها كانت مصفوفة وخلف كل واحدة آكلتها فهي تعني عام خصب وعام جدب فكيف فسرها يوسف بسبع سنوات خصبة تتلوها سبع سنوات جدباء؟ ولو أراد الله تعالى أن يري الملك بأنها سبع متتالية عن طريق الأبقار السمان ثم العجاف فكيف يمكن ذلك؟!

إن السنبلات ترد على هذا الإبهام. إنه رأى بجوارها سبع سنبلات خضر فعرف يوسف بأن الحديث عن الأرض وبأن السنوات متتالية لأنه رأى سبع سنبلات خضر بشكل الأبقار من حيث الصف.

فرأى الأبقار مصفوفة ورأى بجوارها سنبلات مصفوفة أيضا. ثم إنه عليه السلام تعلَّم من المنام بأن السنبلة لو تركتها لتيبس مع حباتها فإنها تحافظ على الحب حتى لا تتعرض للمؤثرات الخارجية. ولذلك فكر في أن الحل هو أن يحافظ على السنبلات في مكان بارد لتقوم السنبلات بصيانة الحبوب.

كما أنه عرف بأن السنبلة حين الفصل عن الحب تكون مناسبة للمواشي والحبوب للبشر فهكذا يحتفظ بغذاء الحيوانات حتى لا تخلو الأرض من اللحوم كما يحتفظ بالحبوب لتزويد الشعب بالغلات الضرورية للحياة.

وقبل أن نكمل تفسير المنام الذي قدمه يوسف لصاحبه، دعنا نتحدث عن المقطع الأخير من الآية حيث أضاف الساقي المرسل من طرف الملك:

لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون.

يظهر لنا من تعبير الساقي وتمنيه المكرر مرتين لعلي ولعلهم، بأنه كان حريصا على إخراج صاحبه من السجن لأنه الذي بشره بالسقاية وبالخلاص من السجن ولأنه خجلٌ من أنه نسي قصة صاحبه طيلة السنوات الماضية.

أراد الساقي بأن يوحي إلى يوسف بأن نسيانه كان مفيدا فهكذا وبعد أن يفسر يوسف هذا المنام الغريب سوف تكون معرفتهم بأهمية يوسف كبيرة أكبر بكثير مما لو قال لهم بأن يوسف فسر منام الساقي والآخر فنجى الساقي فعلا وصُلب الآخر فعلا.

أين منام الساقي وصاحبه من منام ملك البلاد، وأين أهمية هذا المنام وغرابته من غرابة حلمه؟ فكأنه طلب من يوسف أن يهتم بتفسير هذا المنام ولا يلومه على النسيان فما حصل كان خيرا له.

ومما لا ريب فيه أن يوسف بكياسته قرأ ما يُخفيه الساقي في قلبه فلم يعبأ أيضا. وسنعرف ذلك بعد قليل.

أوحى يوسف إلى الساقي بأنه يتقن كل عمل يعمله دون الاهتمام بعوائده لشخصه. إنه صاحب رسالة لا يمكن أن يستهين بما يقوله أو يفرط في ما يتحدث به مع الناس. إنه معلم مخلص بغض النظر عن حاجاته ومصالحه الشخصية. قال يوسف رادا على صاحبه القديم في السجن كما وصف الله تعالى الموقف:

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿47﴾

ظن المفسرون الكرام بأن دأبا هنا تدل على أنهم سيزرعون سبع سنين متواليات باعتبار معنى كلمة دأب. و أن الفعل أمر بصورة الخبر باعتبار "فذروه في سنبله". فقد قال الزمخشري في الكشاف:

تَزرَعُونَ: خبر في معنى الأمر كقوله: تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون. الصف: 11 . وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه. والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: فَذَرُوه فِي سُنبُلِهِ. دأباً: بسكون الهمزة وتحريكها وهما مصدرا: دأب في العمل وهو حال من المأمورين أي دائبين: إما على تدأبون دأباً وإما على إيقاع المصدر حالاً بمعنى: ذوي دأب. انتهى.

أنا اختلف مع الزمخشري . فلو كان المقصود الاستمرار أو الجد في العمل لقال سبحانه: تزرعون سبع سنين دائبة أو دائبين. بالطبع أن قول الزمخشري: دأبا حال من المأمورين، لا يخالف قوانين الحال برأيي ولكن وضع المصدر مكان الحال لغير ضرورة ودون قصد خاص غير مقبول. حاشا كتاب الله تعالى من هذه التأليفات الغريبة.

وليس في مفكرتي معنى للدأب ولكنني مضطر بأن أقول بأن الدأب معنى من معاني الحبوب أو القمح بالذات أو نوع من البر ولعل الكلمة قبطية معربة. أو لعل المصريين القدماء كانوا يستعملون تعبيرا خاصا للحبوب التي يعيشون عليها كتعبيرنا نحن لها بالعيش.

فنرى الشعوب التي تعيش على القمح تسميه عيشا والشعوب التي تعيش على الرز تسمي الرز عيشا . فلعلهم يسمون الحب الذي يعيشون عليه دأبا . ولعلهم كانوا يستعملون كلمة تدل على العادة اليومية في الأكل ففسرها الله تعالى بالدأب بمعنى العادة. لكن الكلمة على أي حال لا يمكن أن تدل على غير الحبوب الزراعية ولا يمكن أن تكون صفة بالطبع كما لا يمكن أن تكون حالا كما قاله الزمخشري.

وقال الطباطبائي في الميزان: فالمعنى تزرعون سبع سنين زراعة متوالية مستمرة، و قيل: هو من دأب بمعنى التعب أي تزرعون بجد و اجتهاد، و يمكن أن يكون حالا أي تزرعون دائبين مستمرين أو مجدين مجتهدين فيه. انتهى.

وهو تفسير غير دقيق برأيي. لا أدري كيف توصل الطباطبائي إلى معنى: تزرعون سبع سنين متوالية؟ وما الفائدة من إضافة متوالية؟ لنفترض أن يوسف قال: تزرعون سبع سنين، ولم يضف دأبا، فهل تعني تزرعون سبع سنين غير متوالية؟ بالطبع لا، فما الحاجة إلى إضافة كلمة متوالية؟ كل الناس يعرفون بأن زراعة حبوب العيش سنوية بالنسبة لكل الحبوب بلا استثناء فلا حاجة لإضافة كلمة: متوالية أو ما في معناها.

إذن قال يوسف لرسول الملك: هناك سبع سنوات خير وزرع بانتظار المصريين. فلا تغتروا بها وحاولوا أن تحصنوا من حصادكم ما زاد عن مأكلكم. ولو تتركوا الحبوب في سنابلها قبل تحصينها حتى لا تفسد وتبقى محفوظة في السنابل لاستقبال سني الجدب.

كما أن يوسف أوصاهم بأن لا يسرفوا في الحبوب فيكتفوا بالأكل منها حتى لا يجوعوا في سني الجدب المقبلة لا محالة. هذه مسائل علمية دقيقة تفوه بها يوسف من منطلق علمه وعقله قبل أكثر من أربعين قرنا.

والواقع أن الأنبياء كانوا علماء ومهندسين وأطباء أكثر من كونهم أصحاب معاجز ومخبرين بالغيب كما يتصورهم الكثيرون. وقد لاحظت بأن أكثر آثار الأنبياء التي نعرفها من القرآن تنبئ عن علم وإدراك لحقائق الطبيعة ومساعدة للناس في الحياة الأفضل وفي العيش بسلام وأمان.

يوسف استعمل فهمه للأعراف المصرية وكيفية تأويلهم للأحاديث ليتعرف على تفسير رؤيا الملك.

فالله تعالى يخاطب الناس بالطرق التي يفهمونها . هذا الملك يدير مجتمعا متقدما في الزراعة قبل أن يكون متقدما في العمران. والواقع أنهم كانوا يعيشون على الزراعة ولكن العمران وما تبعه هي من آثار تفننهم في الحياة واستفادتهم من فائض دخلهم لبناء الأهرام والاشكال الهندسية الرائعة على قبورهم إرضاء لملوكهم حتى يطمئنوا بأنهم سيحيون ملوكا في الحياة الآخرة.

والله تعالى يريد أن يخبره بأن مملكته تواجه خطر الجدب ويريد أن يعلمه كيف يستعد لها ويدفع عن شعبه المجاعة حد الإمكان.

بالطبع أن الله تعالى يقوم بتحقيق مجموعة من الأهداف حينما يقوم بعمل فلا ننس أهداف صناعة بني إسرائيل أيضا ضمن قصة المنام مثلا[33].

---

[33] البعض من الإخوة الباحثين يظنون بأن قصة يوسف وكذلك موسى قد حدثتا في منطقة أخرى غير مصر المعروفة. ويقول بعضهم أنهما حصلتا في منطقة عسير في الجزيرة العربية. بالطبع أنني لست بصدد الرد عليهم بقدر ما أنا بصدد الرد على إشكالاتهم الأساسية في وقوع الحوادث بمصر الفعلية.

1. يقولون بأن مصر لم تكن معروفة بهذا الإسم قديما . فمصر إذا يمكن أن يكون بمعنى البلد . إن الله تعالى يذكر اسم مصر في قصتي يوسف وموسى باسم العَلَم فهو علم لمصر الفعلية وليست علما لمكان آخر في عسير برأيي.
2. يقولون بأنهم لم يجدوا آثاراً ليوسف أو موسى أو سليمان في فلسطين ومصر الفعليتين. والواقع أن الرجال الثلاثة بالإضافة إلى داوود كانوا من المؤمنين الطيبين الذين لا يبنون القصور ولا يقتنون أساسيات الحياة الثمينة جدا حتى تبقى إلى اليوم. ثم إن عدم عثورهم على الآثار لا يدل على عدم وجود الآثار. أغلب الظن أن الإسرائيليين يبحثون عن الآثار من واقع الخرائط التي رسموها على أساس التاريخ اليهودي. وأنا شخصيا أشك كثيرا في صحة ذلك التاريخ. مثله مثل سائر السير التاريخية التي أنفق عليها الملوك أصحاب المصالح ففندوا الحوادث لتنطبق مع مصالحهم في الملك والسيطرة على الرقاب. إنني قارنت قصص التاريخ التي كتبها المسلمون مع النزر اليسير من القضايا التاريخية التي نفهمها من القرآن فلم أجد قصة واحدة تنطبق مع آي الذكر الحكيم مع الأسف. ولذلك فأجد من المعقول أن نعتبر التاريخ الإسلامي والتاريخ اليهودي من قبل، يعبران عن مجموعة من القصص والأساطير المفبركة وليس عن الحوادث كما حصلت. ولم نر بعد آثارا مماثلة في عسير.

بعد أن أوضحنا السبع الخضر دعنا نوضح السبع الشداد. لقد اختصر الله تعالى بقية شرح يوسف تعبيرا لمنام ملك مصر كما يلي:

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿48﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿49﴾.

رأينا بأن يوسف وضح بكل إخلاص معنى منام الملك وبين لصاحبه الحلول التي يراها مناسبة لمواجهة المشكلة وكأنه يقول له: يهمني أن لا تجوع الأمة ولا يهمني أن أنجو من السجن أو أجد الحظوة عند الملك.

ولا ندري هل سنكتشف شيئا لو سمحت الحكومة السعودية بمثل هذه التنقيبات أو لا؟ وأغلب الظن أننا سوف لن نكتشف شيئا هناك.

3. يقول المسلمون منهم بأن هناك في عسير أسماء قريبة من الأسماء الموجودة في فلسطين ومصر. وأقول لهم بأن هناك في كندا وأمريكا أسماء قريبة أو مشابهة تماما لأسماء المدن البريطانية والبرتغالية والأسبانية. ذلك لأن الذين هاجروا من هذه البلدان إلى القارة الجديدة وضعوا أسماء مدنهم أو بإضافة وصف الجديد على المدن الجديدة. مثل نيو يورك مقابل يورك ونوفا سكوجيا بمعنى سكوتلندا الجديدة. وهكذا أسس اليهود المهاجرون إلى عسير فيما بعد مدنا ووضعوا عليها أسماء مدنهم الأصلية احتمالا.

4. وأقول لغير المسلمين ولغير المؤمنين بالله تعالى، بأن إنكار أصل موسى وسليمان مثل إنكار العصر الجاهلي والعصر الأموي والعباسي. وإن كلما ما نراه من آثار أموية مثل المسجد الأموي ومسجد القبة مثلا لو صحت بأنها من مباني بني أمية فهي تدل على الإسلام أكثر من دلالتها على بني أمية. فكما لا يمكننا إنكار محمد بن عبد الله فكذلك لا يمكننا إنكار موسى وهارون وحتى يوسف ويعقوب. إن هناك أمة كبيرة منتشرة في الأرض تُدعى بني يعقوب أو بني إسرائيل كما أن هناك اليهود والنصارى الذين يملئون الأرض فكيف يمكن إنكار أنبيائهم؟ يمكن إنكار الحوادث التاريخية باعتبار أن المؤرخين عادة ما يكذبون إرضاء لمن يدفع لهم من أجر يعيشون عليه ولكن لا يمكن إنكار أصل وجود إبراهيم وموسى وعيسى ويعقوب وسليمان ومحمد.

5. يقولون بأن أهل مصر يعيشون على النيل ولا يعتمدون في زراعتهم على مياه الأمطار. لقد نسي الإخوة بأن النيل يعيش على الأمطار. نهاية الهامش 33.

ثم أردف يشرح لساقي الملك بقية المنام مبينا سني الجدب. وصف يوسف تلك السنين الجُدب بالشداد.

والشد يعني تقوية عقد الوثاق فيعطي معنى القوة للفاعل ومعنى الضعف وغاية الانفعال بالنسبة للمفعول. فالسبع الشداد يعني بأن الله تعالى شد رباطها بقوة كبيرة وهي انفعلت خاضعة أمام تلك القوة الرهيبة التي سيطرت عليها بالكامل.

وهكذا السني الشداد تعني بأن الله تعالى الفاعل قد شد الوثاق على أرزاق الناس فتحطمت إرادتهم أمام تلك القوة الرهيبة وباتوا ضعفاء لا يجدون حيلة تنجيهم من تبعاتها إلا قليلا مما يحصنون من الحبوب.

وقد وضح له معنى الشدة بأن الجفاف سوف يأكل الحبوب بدل أن ينميها. ذلك لأنها لا يمكن أن تنمو بلا ماء بالطبع. والمزارع ينشر البذور في الأرض بانتظار الري فإن لم يصل الماء إليها فإن ديدان الأرض وهوامها تأكلها وتقضي عليها.

استدل يوسف بهذا الاحتمال الخطير على وجوب التحصن لمواجهة المجاعة الكبرى. ولو ننظر إلى القارة الأفريقية برمتها فإنها تتعرض للمجاعة حتى في عصر التطور الفعلي. مما يعني بأن مياه الأمطار بالنسبة لهذه القارة غير مضمونة وغير مستمرة.

لا أظن بان هذا الكتاب هو الموضع المناسب لمناقشة الآراء التي ترى أماكن وبلدان أخرى مسرحا لقصة يوسف ولكني أعتقد بأن ما ذكرناه أعلاه ودراسة عامة عن ظروف المناطق الأخرى الجغرافية وعدم

وجود إشارات إلى جفاف توالي سبع سنين في تلك المناطق يمكن ان يكون دليلا يعضد ربط القصة بأسرها بمصر[34].

ولا يمكن للبشر أن يتعلم إلا إذا واجه مشكلة. ألا نرى بأن غالبية الناس هم أبناء يومهم وهم لا يستعدون للغد إلا قليلا منهم. هذه عادة غير مقبولة عند الذي يدير هذا الكون المهيب ويدير هذه الأرض الغريبة في أطوارها سبحانه وتعالى.

ومن كرمه تعالى أنه يسعى لتعليم عبيده ويعتبر البلاء بالمرض والقحط من ضرورات الاختبار في الدنيا . وهو واقع ضمن منظومة الهدى العام الذي يكرم الله تعالى به الإنسان. فهناك طريقان للخلاص من البلاء، إما أن يتعلم الناس ويتحقق الهدف الغائي منه أو تنتهي مدة البلاء . وكان يوسف على علم بأن البلاء لا يمكن أن يبقى إلى الأبد . إن ذلك يتناقض مع سماحة رب العالمين واتصافه بالرحمة بحق، سبحانه وتعالى. وعلى هذا الأساس أعطاهم البشرى بعام الغيث والعصر . والعلم عند الله تعالى.

---

[34] كلمة سبعة في القرآن وفي الكتابات القديمة كلها لا تعني فعلية العدد بل تدل على كمال العدد . فالسنوات كانت سبعة على الأقل وليست على الكمال والتمام. وأنا شخصيا لا أظن بأنها كانت أكثر من سبعة فعلية لأنها ستكون مميتة حينئذ وبعيدة عن كرم الله تعالى.

وأما احتمال أن أيا من نوعي سني الرخاء والشدة كانت أقل من سبعة فعلية فهو غير بعيد أيضا برأيي. ذلك لأننا نرى الله تعالى يستعمل هذا العدد للسماوات مثلا. فهي أكثر من أن تعد وتحصى ولا يمكن وضع عدد يقل عن البلايين لها .

فالسبعة بالنسبة للسماوات تعني البلايين وبالنسبة لسني الخير والقحط قد تعني أقل من العدد الفعلي أيضا . إنها تمثل كمال الخير وكمال الجدب والعدد الحقيقي عند الله تعالى.

وأنا أظن بأن الله تعالى أراد للناس أن يتعلموا التحصن والادخار للمستقبل ويتجنبوا الإسراف حتى عند كثرة الحبوب، بغض النظر عن فعلية السنوات السبعة. نهاية الهامش 34.

أمعن يوسف كثيرا ببيان سني الجدب والشدة. وكان دقيقا جدا في بيان ذلك، فلم يقل بأن على الدولة أن تمنع الناس من الزراعة وانتظار المطر في سني الجدب السبعة.

إن ذلك يخالف نظام السماء. على الإنسان أن يكون دائما في حال الترقب لرحمة ربه ولكن عليه أيضا أن يكون مستعداً لكل بلاء بموجب نظام الخوف من شدة تعامل الله تعالى المؤقت مع عبيده.

إنه من رحمته يبلي الأمة بالقحط والزلازل والحواصب وبقية الظواهر الطبيعية الكبرى. إنه سبحانه وضع في أراضي الدنيا قوانين تسبب الشدة والبلاء لتكون هذه الأسباب متواجدة حينما يريد الله تعالى أن يذكر الناس بأنه موجود وبأنهم لم يشكروا خالقهم وبأنهم أشركوا به ما لم ينزل به سلطانا.

ذلك هو برنامج الحياة الدنيا حتى يتعلم الناس بأنهم مضطرون للتفكير في الحق لإثبات سلامة عقولهم وتشغيل هذه العقول ولتقديم الشكر له لإثبات سلامة نفوسهم. ولولا ذلك تعذر التمييز بين الخبيث والطيب وهو سر هذه النشأة.

لم يمنع يوسف الشعب المصري من أن يقدموا قسما من طعامهم الذي يعيشون عليه للأرض حتى يبقوا دائما في حال الأمل لرحمة ربهم. إنه يعرف بأن الله تعالى يمحو ما يشاء ويثبت وليس عند أحد أي علم بحقيقة التقدير غير الله تعالى نفسه فهو عنده أم الكتاب.

كما أنه لم يأت بأي خبر غيبي حينما بشرهم بعام الخير التالي لأعوام الشدة. ولقد وضح لصاحبيه في السجن بأن الله تعالى علمه حقائق الألوهية كعلم لا كإخبار بما سيحدث.

وقد علمه ذلك لأنه توقى بكل عناية الشرك وابتعد عن كل معالم الشرك المشين اتباعا لسنة إبراهيم شيخ الأنبياء والمرسلين. فكما أمر الله تعالى نبينا وهو خاتم النبيين ، في القرآن أن يقتدي بإبراهيم فإنه قد أمر دون شك من سبقه من الأنبياء أن يقتدوا بإبراهيم[35].

كان يوسف على علم بحقيقة قرآنية نعرفها نحن اليوم بفضل القرآن وعرفها أبناء يوسف فيما بعد بفضل التوراة ولكنه هو بنفسه عرفها بفضل إيمانه الخالص بالله تعالى.

فالله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور سواء أكرمهم بالكتب السماوية أم لم يكرمهم بها . قال تعالى في سورة الشرح:

---

[35] لقد ذكر يوسف المزيد بالنسبة له في هذا الشأن بأن اتباعه لإبراهيم كان امتدادا لعبادة سلسلة طيبة من أبنائه وهم إسحاق ويعقوب وكذلك إسماعيل عم يعقوب.

لقد اعترف ضمنيا بأن محاربة الشرك لم تكن محصورة في بني إسرائيل بل كان إسماعيل محاربا قويا ضد الشرك. من هنا نعرف بأن الأنبياء جميعا أُمروا باتباع إبراهيم.

كان إبراهيم عنوانا لامعا للتسليم لله تعالى. فكان مفخرة للذين أسلموا لله العظيم. قال سبحانه في سورة آل عمران مشيرا إلى نبينا:

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68) .

علينا نحن المسلمون ألا نغتر بالتسميات الدينية. فالمسلم بمعنى الذي يسلم أمره إلى الله تعالى مختلف عن الذي يسمى مسلما .

فلم يكن محمد بن عبد الله تعالى مسلما بالمعنى الثاني بل كان مسلما بالمعنى الأول. ولذلك كان أولى الناس بإبراهيم في زمانه. وكل المؤمنين الصادقين من اليهود والنصارى لم يكونوا يهودا ونصارى بالاسم بل كانوا أنصارا للمسيح إلى الله تعالى وكانوا هادين تائبين إلى الله تعالى.

ونحن أيضا لو لم نتعلم القرآن ونفهمه ونعشه حتى نتعلم كيف نسلم وجوهنا إلى الله تعالى ثم نعمل بعلمنا فعلا فنحن مسلمون بالاسم كما هو عليه اليهود والنصارى اليوم. نهاية الهامش 35.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8) .

إن الله تعالى يوقف استمرار البلاء بصورة طبيعية ليدعو عبيده إلى العودة إليه. إنه هو يوقف استمرار الأوزار لأنه يريد أن يعلم عبيده ولا يريد أن يعذبهم في الدنيا . إن لازمة الكرم والرحمة والعطاء أن يتوقف البلاء حتى لو لم يعد الناس إلى ربهم.

ولذلك لم يقل يوسف بأن البلاء سوف يستمر حتى يعود الناس إلى ربهم. وقد استعمل يوسف كلمة فسرها الله تعالى بالعام مرادفا للحول ومرادفا للسنة. ذلك لأن الحول يجمع العام والسنة باعتبار تكرار السنوات سنة بعد سنة[36].

---

[36] السنة باعتبار انتهائها في آخر الأشهر الإثني عشر. سواء كانت سنتنا طبيعية شمسية أو توافقية قمرية. فإذا قلنا سنة أو استعملنا فعلها وهو (سَنَهَ)، فإننا نقصد بأنها انتهت في نهاية الشهر الثاني عشر. قال تعالى في سورة البقرة 259:

. . فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ. . .

بمعنى أن طعامه وشرابه لم يبق سنة واحدة. ذلك لأن السنة تنتهي بعد انتهائه وتبدأ سنة جديدة.

أظن بأن عامة المفسرين لم يصيبوا في تفسير المقطع أعلاه من سورة البقرة كما لم يصب الكثير من أرباب اللغة العربية في توضيح معنى السنة. حتى الراغب لم يكن صائبا كثيرا حينما قال بأن السنة تُطلق على سني الجدب أكثر. إنه أوهم الكثيرين بأن الفرق بين العام والسنة مرتبط بالتفريق بين الحول الحسن و الحول الشديد . وأما العام فهو باعتبار تكرار الحول. والحول طبعا يدل على المعنيين. فقولنا عام الخير لا يدل على أن الخير محصور في 12 شهرا .

ولو كان ذلك مقصود يوسف فإن الخير سيبقى لسنتين على الأقل. ذلك لأن الغيث لو يبدأ من أي وقت ويستمر 12 شهرا فإن الزرع في السنة الأولى يستغيث في بدايته مثلا وفي السنة الثانية في نهايته. ثم إن النيل سوف يمتلئ ويبقى فائضا فترة أطول من فترة الأمطار. فزمان التروي للزرع يزيد على أربعة أشهر، يكفي الزرع أن يرتوى شهرا واحدا منها . نهاية الهامش 36.

وأما قوله الكريم على لسان يوسف: وفيه يعصرون، فإن المقصود هو أنهم يعصرون الخمر ولا شيء غيره. إن يوسف استعمل نفس الكلمة لبيان عصر الخمر ولا داعي لأن نغير المعنى ونتكلف التأويلات بدون أي دليل[37].

المهم بأن يوسف لم ينس أن يقدم النصح لصاحبه ما لم يتعارض مع نبوته.

لقد أخبره ضمنيا بأن لا خمر بعد فترة من بداية سني الجدب. إن مسؤولية يوسف أن يبحث عن أكل للناس وليس البحث عن الخمور من مهام الأنبياء. سوف يبدأ عام الخير بعد انتهاء أعوام الشدة دون شك وعلى الناس ألا يجلبوا لأنفسهم غضب ربهم فيستمر عليهم عام الخير سنة بعد سنة.

عاد الساقي بقوة وبوجه باسم يبشر الملك الفرعوني بأنه يحمل حل اللغز المحير لكل رجالات الدولة العظمى.

---

[37] وليس خطأ لو قلنا بأن يوسف أراد تنبيه صاحبه بأن عمله في حال تأرجح في سني الجدب. سوف تتوقف صناعة الخمر لفقدان العنب. فعليه هو أن يستعد لذلك أيضا. عليه بأن يتعلم تعتيق الخمر مثلا لسني الجدب أو يبحث عن عمل آخر لنفسه في القصر الملكي الذي لا يحب أن يتركه.

لا يمكن ولا يجوز ليوسف أن يعلم الناس كيفية تعتيق الخمر. لم نسمع بأن الأنبياء كانوا يشربون الخمر قبل نزول القرآن إلا من الإنجيل المحرف مثلا، ولا عبرة بالكتب المحرفة إنجيلا أو توراة.

كان الأنبياء جميعا مسلمين ومن لوازم الإسلام أن لا يحتسوا الخمرة ليجتنبوا ما يُذهب بالعقل. إنه يؤدي الى فقدان الرشد والصواب فيفقد المرء عزيمته، والعزيمة شرط أساسي للنبوة. ولذلك نقول بأن آدم لم يكن ليتشرف بالنبوة لأن الله تعالى شهد عليه بأنه لم يجد له عزما. نهاية الهامش 37.

ليس هينا أن نحلل نفسية الساقي وسرعة خطواته نحو سيده الذي ينتظره بفارغ الصبر. إن كل الأبواب مفتوحة له والملك لا ينتظر ولا يستقبل أحداً غيره لعله يضع عنه دهشته وحيرته من المنام المرعب والمخيف الذي لا يفارقه لحظة واحدة.

كان التفسير بسيطا وسهلا وقابلا للقبول بكل رحابة وكانت الحكاية مرضية لقلب الملك الذي شعر بأنه الآن يتنفس براحة وكأن غليله قد ارتوى وخوفه قد انقشع. والحيرة تسبب كل وسوسة للمرء وخاصة لو كان يتحمل مسؤولية ضخمة مثل مسؤولية ملك أعظم دولة على وجه الأرض.

كان الملك يشعر بأن جهله وحاشيته بتفسير هذه الرؤيا الدقيقة التي تنبئ بكل صراحة عن حدث كبير ينتظر مصر، قد يحطم كبرياء الملك وقد يفقد الشعب العظيم ثقته بملكه.

واضح من سرعة تجاوب الملك مع القصة ودعوته الفوري للإتيان بيوسف بأن كل الحاشية اقتنعوا بالتفسير الصحيح ولم يشعر أحد منهم بأي نقص في فهم الرؤيا .

ولعلهم تعجبوا من البشارة الأخيرة التي يحتاجون للكشف عنها إلى نفس هذا العالِم ليوضح لهم. إن دعوة الملك لإحضار يوسف إليه شخصيا فور استماعه للتفسير الجدير بالثقة تنبئ عن تعطش كل المسؤولين لتقصي المخبر عنه لا الخبر.

لقد غابت صدمة تأويل المنام بسرعة، إثر انتباههم لإبقاء إنسان مثل هذا مسجونا منذ سنوات في سجونهم.

ولا يسعني أن أقرأ ما حصل للعزيز من شعور بالخذلان.

إنه يحب يوسف كثيرا ولا يدري لماذا نسي يوسف؟ كما لا يسعني أن أخمن ما دار في خلد امرأته التي تحب يوسف أكثر من حب العزيز ولا تدري هي أيضا كيف نسيته؟ فالنسيان لم يكن خاصا بالساقي بل نسي العزيز وزوجته بأنهما ومن معهما قصدوا إبعاده عنهم أياما لا سنوات.

علم العزيز وزوجته بأن يوسف قد خرج من قصرهم وسيدخل قصر سيدهم ولا يعرفان موقعه الجديد بعد؟ حتى الملك الذي أحب يوسف لا يعرف أين موقع يوسف في منظومة المُلك؟ إنهم لا يعرفون بأن الذي أنسى الساقي والعزيز وزوجة العزيز والباقين بأن يوسف الطيب العالم سجين في مصر هو الذي سوف يعين موقع يوسف بعد ساعات.

إنهم جميعا يجهلون يوسف ولا يعرفونه ويحتاجون إلى المزيد.

وحتى نكون مؤدبين مع كتابنا العزيز فلنرجع إليه لنراه كيف يختصر لنا الموقف بل المواقف في آية قصيرة نحتاج إلى زمان غير قصير من التفكير العميق لندرك معناها.

سنعلم بعد إعمال الجهد الفكري بأن هذه الآيات ليست أناشيد نستمتع بالتغني بها ولا يكفينا أن نتلوها أو أن نستمع إلى نصوصها. إن جمالها مخزون في أعماقها ولن نصل إليها إلا بالتدبر بكل عمق.

لسنا نحن الوحيدين في الغفلة فلننتبه إلى بدايات السورة بأنها آيات الكتاب الحكيم الذي كان شيخ المسلمين غافلا عنها أيضا.

عزيز مصر

إن مقدمة الخالق للقصة العجيبة تنطوي على أمر واضح بأن يترك المسلمون كلما سمعوه من أهل الكتاب في زمانهم من تفسيرات مريبة وبيانات محبطة لقصة صانع مجدهم وباني كيانهم. لنقرأ الآية معا:

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿50﴾.

استمع الملك للساقي الذي أكمل شوط العودة إلى سيده، فأمر بإحضار يوسف إليه بعد ان ترك الأمر أثره عليه.

عاد الساقي إلى يوسف في الشوط الثالث، فرفض يوسف الخروج من السجن قبل تحقق شرطه في الشوط الرابع، فعاد الرسول في الشوط الخامس ليراه سيده وحيدا بدون يوسف، ولينقل لسيده شرط يوسف في الشوط السادس وأكد للملك بأنه هو الذي يجهل وهو رب الساقي ورب من في القصر ولكنه ليس رب يوسف الذي يعلم كل ما في قلوب النسوة في الشوط السابع.

هناك سبعة مواقف ومجموعة تحركات وسرد واضح لعدة قضايا وأشخاص متعددون مذكورون في مختلف مواقف الآية هم الملك والساقي الرسول وزوجات الوزراء، كلها مختزلة في آية تقل عن سطرين.

هذا هو القرآن فعلينا ان لا نكتفي إخواني وأخواتي بموسيقى الكلمات رغم أن فيها رنات موسيقية تتجاوز الخيال ولكن ربنا أنزلها علينا قرآنا لا أناشيد ويريد منا أن نتدبر آياته.

اكتفى الله تعالى بذكر واو الابتداء في غرة الآية ليشير بها إلى طبيعة عودة الساقي من حضرة النبي الأمين إلى حضرة الملك الفقير لعلم رسول الله وبيانه لكل ما دار بينه وبين يوسف ولكل ما يمكن للخيال أن يقرأه مما جال في خلد الملك وحاشيته الذين كانوا جميعا حاضرين عند ربهم منتظرين للنبأ العظيم.

قلنا في بداية السورة بأن القارئ يحتاج إلى الخيال والفكر العميق ليدخل في كل المواقف التي مضت عليها آلاف السنين ليعرف معاني آيات السورة العظيمة.

ولنجدد عهدنا مرة أخرى لنرى بأننا حتى الآن مررنا بخيالنا في بيت النبوة ورأينا وريث إسحاق المحاط بأولاد يهابونه ولكنهم يتآمرون ضده بكل وقاحة، ودخلنا معا الجبّ الذي أُلقي فيه يوسف بعد أن حضرنا جلستي المؤامرة المشينة لإخوان يوسف من بني إسرائيل في محاولتهم التخلص من الذي سيأتي لهم بالسيادة والعزة كما فهمه أبوهم ولكنه أخفاه عنهم خوفا من حسدهم. هو حسد بني إسرائيل الذي لا يفارقهم وعلينا أن ننتبه له حينما نعامل بني عمومتنا من أولاد إسحاق.

ثم خرجنا معه من الجب وسافرنا مع التجار الذين أسروا هذا العظيم الذي ينتظره أعظم رأس في عالم زمانه بفارغ الصبر ولا زال في انتظار أن يستجيب ذلك الإمام العظيم لدعوته بالخروج من السجن باختياره فقد فتحت أبواب السجن له وهو الذي أبى أن يخرج! !

لنتذكر بأننا دخلنا قصر العزيز وعشنا مع يوسف لحظات الغرام الأحادي ثم الغرام الجمعي ورأينا يوسف صامدا لا ينجذب لأي منهن.

ثم عشنا معه حينما أدخلوه السجن ظلما، ظانين أنهم يتحكمون بالأمر وهم لا يدرون بأن يوسف استقبل السجن برحابة صدر فرحا جذلان بأن ربه استجاب دعاءه.

ظنوا بأنه مرعوب وتعجبوا من كبريائه التي حالت دون أن تظهر على وجهه آثار الخوف الذي كانوا واثقين من تعرض يوسف له.

رأينا كيف أنهم أخطأوا ولم يعرفوا بأنهم المغلوبون وبأن يوسف هو الغالب. عشنا مع يوسف كثيرا من لحظات التوبة والتماس العفو من الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فعلينا أن نستعد الآن لنصاحب مؤسس الاسرة العبرية الكبير في دولته وحكمه وسيطرته على قلب فرعون مصر.

بدأنا نشعر بأن شخصا غريبا يدخل قصر الحكم الفرعوني المهيب بكل قوة ليقول لهم بأنه لا يحتاج إلى أن يقوم باغتيال الملك ولا أن يحرك الشعب المصري للثورة ضده ما دام يحمل العلم الغزير ويتمتع بالتقوى والخوف من سيد الكائنات جل جلاله.

سيأتي يوسف بعد قليل ليحكم مصر بأمر ملك مصر وبرضا منه ودون أن يؤذي أحدا أو ينتقم من أحد.

وأهم ما ينبغي أن يعلمه الجميع هو أن قائمة الرسل طيلة القرون الماضية لا تنطوي على إنسان لا يحب الناس ولا تنطوي على كراهية من أي منهم ضد أي شخص حتى الذين ظلموهم.

ليعلموا جميعا بأن صاحب القلب الكبير لا يضمر إلا الخير لإخوانه وللعزيز ولزوجته ولملك مصر ولكل الشعب المصري ولكل الناس دون أن يطمع في شيء مما يملكونه.

إنه مستمتع بذكر ربه ولن يتخلى عنه أبدا. إنه يعرف بأن ربه يدعوه دائما وأبدا كما يدعو غيره للعودة إليه ليغفر لهم ويمن عليهم بواسع رحمته.

لحن حديث الملك يدل على أنه فقد اتزانه حينما استمع إلى الساقي. ليس من دأب الملوك أن يأخذوا قرارا في مثل هذه القضية لصالح شخص سجنه نخبة وزرائهم قبل أن يستشيروهم وقبل أن يستشيروا الحاشية المقربة.

يبدو بأن الملك نسي كل تشريفاته التي وضعها بنفسه أو ورثها من سلفه للدخول عليه. لنتصور ملكا يريد أن يطلب سجينا لأي سبب. عليه أولا أن يأمر بإطلاق سراحه ثم إعداده للحضور في البلاط. يتطلب ذلك الكثير من التشريفات لإزالة آثار السجن أولا ثم إعداد الملابس الخاصة له، ثم تعليمه بروتوكول اللقاء مع الملك والمرور بالحرس وببقية المسئولين الإداريين.

هناك موظفون في القصور مهمتهم أن يتعرفوا على الضيف ويعملوا معه صداقة لجلب انتباهه حتى يستيقنوا من خلو الضيف مما يخل بآداب الملك. فالملوك مهما كانوا فإنهم يعيشون على هذه التشريفات المعقدة التي تصنع من شخصياتهم العادية أناسا فوق بقية الناس.

نسي فرعون كل البروتوكولات المعهودة في مثل هذه المناسبات وأمر بإحضار يوسف فورا إليه، وهذا معنى قوله: ائتوني به.

والصحيح أن يقول: حسنا، ادعوه للمثول أمامنا. فلم يستعمل الدعوة ونسي بأنه لا يتحدث عن نفسه بالمفرد بل يستعمل كلمة الجمع. ثم إن الملوك يحيطون دعواتهم بنوع من الكلمات التي تدل على أنهم في غنى عن رؤية الناس ولكنهم يمنون عليهم بالإذن لهم.

فمثلا كان عليه أن يبتسم ويقول: لا بأس بأن ندعوه إلى حضرتنا؛ كما يفعله كل كبار زعماء الأرض، وهو أكبر ملك في ذلك اليوم.

لو نقرأ قصة دعوة كبار الملوك للملوك الصغار فإنهم يمنون عليهم بأن يدعوهم. وعادة ما لا يفعلون ذلك بل يأمرون حاشيتهم بأن يتحدثوا إليهم ليطلبوا المقابلة مع الملك.

لكن ملك مصر ترك كل الرسميات وأمر بأن يأتونه به. ويعني بأن يحضروه إليه بكل احترام وإلا قال أحضروه عندي. إيتوني به يعني بأنني متشوق لرؤيته فبلغوه دعوتي إياه لمقابلته.

أصبح الساقي بأمر الملك رسولا من الملك وليس ساقيا يقدم كؤوس الخمر للملك ولضيوفه.

وحينما نمعن في البيان القرآني نرى بأن الله تعالى في هذه الآية يخفي لنا مقارنة بين نفسية فرعون مصر الذي يفوق الفراعنة علما وأدبا كما سنعرف، وبين نفسية عبد له أخلصه لنفسه سبحانه وتعالى.

فالآية تشير إلى أن عظيم الأرض انهار أمام علم يوسف وهو دليل على أنه كان يحب العلم والمعرفة ويحب أن يستزيد منه وسنعرف بعد قليل بأن الملك كان بوده أن يعين العلماء وزراء له.

هذا الفرعون العليم لم يتمكن من إخفاء تأثره بعلم يوسف وهو على عرش مصر ولكن السجين يوسف أبدى عدم تأثره بدعوة عظيم مصر له بل وقف صامدا ليملي طلباته عليه.

أرسل يوسف أعظم رسالة شهدها الملك في حياته حتى ذلك اليوم على الأقل، لأن تفاعله دليل واضح على أنه يواجه أول تجربة من نوعها في حياته الملكية.

لم يكن الملك ولا أيا من حاشيته ينتظرون من سجين أكرموه بأكثر من أن يهرع للقاء سيد الأراضي المصرية بكل خضوع.

ولعل اختيار الساقي الذي سبق له أن عاش أياما مع يوسف في السجن هو خير اختيار لا يمكن أن نراه بعيدا عن التقدير السامي لذي الجلال والإكرام.

لولا صحبة الساقي مع يوسف لما تمكن من أن يعود إلى سيد مصر بدون يوسف. وفي المقابل يحمل اعتراضا على تصرفات وزرائه تجاهه.

ولأول مرة يواجه أكبر رأس في الأرض رفضا لدعوته من سجين في محابسه. وسنرى بعد لحظات كيف يفقد الملك اتزانه للمرة الثانية.

لنقرأ تعبير يوسف ردا على دعوة الملك: **ارجع إلى ربك**. مرة أخرى يرفض يوسف بأن الملك يمن عليه بل يؤكد بأنه رب الساقي وليس ربه، ويقول للساقي ارجع بمعنى أنك لم تأت بما يرضيني فعد إلى من أرسلك وأبلغه شروطي.

يا لله؛ سجين لا يفكر في خلاصه من السجن بل يفكر في أن يكون حضوره لأكبر قصر في الأرض حضورا فخما يفوق خيال الملك نفسه.

والآن قارنوا بأنفسكم بين النفسيتين. قارنوا بين نفسية الملك على العرش ويوسف في السجن ثم قارنوا بين نفسية يوسف الأمس الذي اختلى بالساقي ليطلب منه أن يذكره عند ربه ونفسية يوسف الجديد الذي يرفض دعوة الملك نفسه للحضور أمامه! هكذا يؤدب الله تعالى أنبياءه ليجعلهم أقوياء لا يهتمون إلا به وحده سبحانه فسيكفيهم ربهم القوي العزيز جل جلاله وذل أمامه الكائنات برمتها.

لقد تغير يوسف وأصبح اليوم قادرا على أن يحمل رسالة الشرف العظيم من رب السماوات والأرض إلى عبيده في أرض مصر ليعودوا إليه وليحتضنوا بني إسرائيل.

تلك مقدمة لنزول التوراة العظيم بعد عدة قرون. وذلك إعداد للمصريين لاستقبال التوراة وإن أخفقوا فسوف يختار الله تعالى من بينهم من يستقبل أول تشريع سماوي لكل أهل الأرض.

هكذا أدخل الله تعالى أمة كبيرة وهي في طور ميلادها ضمن أمة كبيرة موجودة فعلا ومتمثلة بأعلى حضارات الأرض وسيرى الناس بأن الراحة والثروة والترف لا تزيد الناس علما كما يفعله العيش الوسطي والحالة العادية التي يصفها الله تعالى بالحياة الطيبة.

وما هي رسالة السجين يوسف إلى مليك مصر؟

تابع كلامه مع صاحبه القديم بعد أن أمره بالعودة إلى ربه ليملي عليه رسالة (رسول الله) في السجن:

فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

لم يقل له يوسف: فاطلب منه أن يستفسر عن السبب في، أو فقل له بأنني أفضل أن أحضر عند الملك بعد أن تتبلور له نظافة نفسي من التهمة المنسوبة إلي مثلا.

كلا بل قال له بلفظ الآمر: **فاسأله**، ويعني بأن رسالتك لم تنته بعد فعليك بأن تسأل الملك عن السبب في اتهامي من قبل نساء من حاشيته.

ولنستعرض الآن لحن يوسف في الاستفسار ثم نستعرض بعد ذلك كيف فهم الملك رسالة يوسف وكيف تفاعل معها.

وقبل ذلك دعنا نشير باختصار إلى عودة يوسف مرة أخرى إلى التأكيد على أن الجهل مسيطر على سيد ذلك الرسول ولكن سيد رسول الله يعلم كل شيء وبكل دقة. تابع رسالته قائلا:

إن ربي بكيدهن عليم.

هذا النوع من الخطاب الجريء ليس في مقدور الناس العاديين إطلاقا إلا إن كانوا متهورين. ولا ننس بأن الملك يتودد إليه ويسعى للقاء به وكأنه هو الذي يطلب اللقاء مع يوسف. إن يوسف لا يُفوّت فرصة ليذكرهم بربه وبأنه حكيم عليم وبأنه هو الذي يدير الأمور فعلا.

إن أكبر مسألة لدى الحاكمين هي مسألة الأخبار الصحيحة وما وراء الأخبار. فيوسف الآن في مقام الاعتراض على الملك بأن حاشيته تخطئ وتتهم الأبرياء وهو غافل عنهم.

ثم يتحول إلى مقام التحدي ليقول للملك بأنك ضعيف فأنا أتبع السيد العظيم الذي يعلم كل الخفايا. وهو في نفس الوقت يوحي إلى الملك بأنه ليس في متناول يد الملوك لأنه لا يؤمن بالربوبية لغير الذات القدسية جل جلاله.

هذا الكلام صعب القبول لدى فراعنة مصر الذين انفردوا في اكتساب لقب الربوبية قرآنيا . وأنا لا أدري هل هم الوحيدون في الأرض الذين ادعوا الربوبية أم أن الله تعالى مهتم بهم دون غيرهم.

بالطبع، ليس من حق أحد أن يدعي الألوهية ولكن الربوبية أمر مسموح في بعض الشؤون. فنحن نقول رب العلم ورب الأسرة ورب الأمة ورب الدولة ولا إشكال في ذلك.

لكن الرسل لا يسعهم إلا أن يؤكدوا بأنهم يرفضون أية ربوبية لأي مخلوق كائنا من كان. والحق أن الله تعالى يرعى رسله برعاية خاصة يصعب أن نراها بشأن غير الرسل. إنهم صفوة مميزة لا يمكن لنا أن نشرك بهم غيرهم في إخلاصهم إطلاقا .

وحتى لا يشك أحد في أن يوسف رسول من الله تعالى إذ أن رسالته غير مذكورة في السورة التي باسمه فإني أتمثل بآية أخرى في القرآن الكريم خارج السورة الخاصة وهي الآية الوحيدة التي تذكر بطلنا وتذكره بالرسالة.

قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون وهو يخاطب فرعون موسى وحاشيته في سورة غافر:

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) .

فهو رسول دون شك وليس نبيا فقط وكان أبوه صادقا حينما قال له بأن الله تعالى سوف يتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق. تلك نعمة النبوة وتكميلها بالرسالة وهو الذي أكمل شرف الوحي لآل يعقوب.

ولنعد للرسالة اليوسفية. ما بال النسوة، تعني في الواقع ما هي حكاية النسوة أو ما هو خَطبهن. ولكن البال في لغتنا تعني الحال والنفس ولا تعني الخطب[38].

وحينما ننظر إلى تجاوب الملك مع هذا الطلب فإنه جمع النساء وقال لهن:

ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه.

ونرى بأن يوسف استعمل نفس الجملة التي استعملها القرآن حينما مر بقصته مع نسوة المدينة حيث قال تعالى:

وقطعن أيديهن.

فجملة قطعن أيديهن أتت في ذهن الملك بمعنى راودن يوسف عن نفسه. لكن يوسف فسر الحالة التي حصلت لتلك النسوة بانهيار القدرة على إخفاء الحب والإعجاب الشديد بيوسف، والملك فسر الحالة

---

[38] والقرآن الكريم لم يذكر البال بمعنى الخطب إلا حين التخاطب مع فراعنة مصر. فهناك أربع موارد يذكر الله تعالى فيها كلمة البال. اثنان منها بمعنى الحالة النفسية وهما في سورة محمد. وواحدة ثالثة في سورة طه وهي هذه:

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51).

والذي قاله هو فرعون موسى بعد أن قال له موسى بأن ربه هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. فأراد فرعون أن يرد على موسى ردا علميا قويا ولذلك قال له: إذن فما هو شأن القرون الأولى التي أتت دون أن يكون هناك أنبياء يهدونهم؟ فلم يستعمل فرعون كلمة البال بمعنى الحال والنفس.

والرابعة في هذه السورة وهي رسالة يوسف لفرعون يوسف. وأنا أظن بأن الأقباط كانوا يستعملون كلمة تعني البال في العربية ويقصدون بها الخطب والشأن.

هناك في هذه السورة عدة تعابير غير عربية ولو أنها جاءت بكلمات عربية. إنها تعابير قبطية واستعمال يوسف لهذه التعابير دليل على أنه كان فعلا قد تعلم مصطلحات الأقباط وهو ما عبر عنه الله تعالى بتأويل الأحاديث. نهاية الهامش 38.

بأنهن راودن يوسف على الرغم من تماسك يوسف وعدم إظهار أية علامة من علامات الاهتمام بالانتقال إلى الحالات العاطفية المعروفة معهن.

فإما أن جملة قطعن أيديهن تعني راودن يوسف عن نفسه وإما أن الملك كان يعرف القصة باعتبار أن يوسف من سكان قصور وزرائه وكان معروفا لدى الملك حيث أنه لم يتكلف استبيان يوسف بل اكتفى بالسؤال عن خطبهن واستعمل اسم يوسف بدون وصف باعتبار أنه وإياهن يعرفون يوسف.

وإني أظن والعلم عند الله تعالى بأن المعنى الثاني هو الصحيح. فسؤال يوسف ينطوي على استحياء من أمر خاف على الساقي على أقل تقدير. ولم يقل للساقي بأن القصة حصلت معه ولكن الساقي عرف بأن هناك حكاية معروفة في القسم الداخلي من قصر الملك وبأن يوسف يشير إلى تلك القصة المعروفة بينهم ويريد من الملك أن يفتح ملفها ليستوضح بنفسه القصة ولا يكتفي بما قيل له من طرف النساء أنفسهن.

ومما لا شك فيه بأن الساقي عرف بأن هذه الحكاية مرتبطة بأسباب إدخال يوسف للسجن.

ونلاحظ بأن يوسف يكره أن يكشف القصة للساقي لأنه يعرف بأن الساقي سيبقى في عمله ولكنه هو الذي سوف يتبوء العلياء وعليه بأن يحافظ على أسرار بيوت النبلاء فلعله هو يصير عضوا في تلك الجماعة التي تحكم مصر وتدير شؤون الدولة فيه.

واضح بأن يوسف كان على علم بأن الملك يعرف القصة ويكفيه الإشارة إلى أنه مهتم بكشف تلك القضية. وكما قلت سابقا بأن الملوك لا يهتمون بمثل هذه القضايا فهم لا يُقيّمون وزراءهم بهذه الاعتبارات.

بالطبع أنهم لا يريدون أن يمس مثل هذا الدنس بيوتهم شخصيا وليكن الوزراء ما يكونوا. وكذلك يستر الملوك على مثل هذه القضايا التي تصدر من وزرائهم. لكن يوسف يحمل نفسية كبيرة ومهتمة بالشرف وبالطهارة.

الملوك يحبون أن يعرفوا بعض القضايا التي تدل على ضعف نفوس وزرائهم أمام الجنس أو المال ليستعملوها ضدهم متى ما لزم الأمر ولكن يوسف لا يريد أن يدخل المنظومة الملكية إلا طاهر المئزر.

جاء الساقي وأبلغ الملك رسالة السجين يوسف. شعر الساقي بأن هناك معرفة مسبقة بيوسف وبأن الملك وحاشيته يعرفون يوسف. ولولا ذلك لكان صعبا عليه نقل مثل هذه الرسالة إلى سيد مصر العظيم.

لاحظ الساقي بأن الملك لم يغضب بل استلم الخطاب منه بصورة عادية. ولا أظن بأن للساقي أي دور في جلسة الملك مع النساء. اللهم إلا ليسقي لهم مثلا.

حرص الملك بكل إخلاص أن يلبي طلب يوسف الذي فضل أن يبقى في السجن ويؤجل اللقاء مع كبير مصر حتى تتبلور قصة سجنه ويعرف الملك والعزيز بأن يوسف كان نقي الإزار وأنه لا يمكن أن يخون عزيز مصر بعد أن أكرمه العزيز وجعله مرافقا لزوجته.

وأما زوجة العزيز فهي تفكر فيما تبوح به أمام الملك الذي دعاها مع كل النسوة اللائي حضرن جلسة المكيدة القديمة في بيت زوجة العزيز. تلك الجلسة التي اعترفت فيها سيدة قصر العزيز بعد أن ورطت النساء جميعا في حب يوسف. فمما لا شك فيه أن قصة هذه الجلسة غابت عن الملك وعن العزيز.

وأظن بأن السر في أن زوجة العزيز رضيت بإرسال محبوبها يوسف إلى السجن هو خوفها من أن يبوح يوسف بما دار في تلك الجلسة لزوجها فينكشف أمرها وأمر النساء جميعا لرجال البلاط الملكي.

استجابت النسوة جميعا لأمر عظيم مصر وحضرن أمامه في جلسة خاصة خلت بالطبع من كل حرسه ورسمييه.

نعرف ذلك في لحن الملك معهن وذكره ليوسف بالاسم وكأنه عضو في الأسر المحيطة بالملك. عرف الملك بأن يوسف يريد أن يقول له بأن هناك جلسة حضرت فيها نساء الوزراء قبل أن يدخلوه السجن وفيها صارحته النساء جميعا بما يخفينه من حب له.

ولعل الملك لا يدري عن الجلسة ولكن كشفها ومعرفة الحاضرات كان هينا عليه. إنه كان يعرف بأن امرأة العزيز هي التي أدخلت يوسف السجن في الحقيقة فكان يكفيه أن يبعث وراء تلك المرأة ويأمرها بأن تأتي مع كل النسوة اللاتي حضرن جلسة كان فيها يوسف.

لم تعرف امرأة العزيز مقدار علم الملك بقصتها ولكنها لا تريد أن تخسر مكانتها في الثلة الحاكمة. عرفت بأن الذي ينجيها هو الصدق فدعت كل النسوة وأعدت نفسها للمصارحة مع الملك أمام النسوة جميعا. اتخذت قرارا في غاية الصعوبة لأن انجذاب النسوة ليوسف كان بتحريض منها وكان انجذابا آنيا وليس لهن أي يد على يوسف سوى الدعوة العاطفية.

ولكن امرأة العزيز هي سيدة يوسف ولها يد عليه وقد أفضت مكنونات قلبها أمام تلك النسوة. لقد اعترفت بكل صراحة بأنها تحب يوسف وستعاقب يوسف إذا ما استمر في عناده معها وواصل رفضه لنداء قلب السيدة.

سوف تتجلى بطولة يوسف مرة أخرى أمام الملك. عرفت امرأة العزيز بأنها خسرت يوسف إلى الأبد وبأن هذا العبد الغريب سوف يدخل التاريخ المصري بكل قوة. إنها لا تعرف بأن هذا العبد سيقود أمة إلى مصر ويُدخلهم في مصر بدفع صارم عن طريق البلاط الملكي.

إنه سوف يقيم الخيمة الإسرائيلية في مصر فيأتي من بعده بنو إسرائيل بقيادة موسى وهم يعرفون أسرار البلاط لأنهم سيكونون أعضاء مؤثرين في الأسرة الحاكمة[39].

---

[39] إنه هو الذي خرق النسيج الأسري وأشرك بني إسرائيل بقوة العلم في حكم مصر. نرى ذلك واضحا تمام الوضوح حينما استفز موسى فرعون زمانه فاضطر فرعون لمحاربة موسى ولكنه هو الذي غرق وموسى الذي فر من مصر مع نخبة من بني إسرائيل وبقي قسم من بني إسرائيل في البلاط الفرعوني. ولذلك قال تعالى في سورة الشعراء:

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (60).

فهناك بنو إسرائيل الذين حاربهم فرعون وهم الذين عبروا البحر إلى سيناء وهناك بنو إسرائيل الذين ورثوا قصور فرعون. هم الذين كانوا ضمن الأسرة الفرعونية الحاكمة. ولذلك يأمر الله تعالى موسى أن يسري بعباده ليلا ليفصل بين المجموعتين من بني إسرائيل.

إن يوسف هو الذي أسس أساس بني إسرائيل وهو الذي أدخلهم بلاط الحكم فصاروا جزءا من منظومة الحكم في مصر. هم ليسوا جميعا مؤمنين ولكنهم بنو إسرائيل.

كما أننا نلاحظ أن يعقوب وزوجته ويوسف وأخاه من أمه كانوا مؤمنين ولكن إخوة يوسف لم يكونوا صادقين في إيمانهم بدليل أنهم سعوا لقتل أخيهم. والقتل هو أكبر معصية تُخرج الإنسان من طاعة الرحمن، وهو شرك عظيم بالله تعالى الذي يملك وحده الحق في إنزال الموت على من شاء من البشر.

فنحن الآن أمام حكاية صناعة هذه الأسرة التي ستندمج مستقبلا مع أهل مصر وتشاركهم في حكم مصر شاءوا أم أبوا على الرغم من بقاء القسم الأكبر منهم خارج نطاق الحكم وهم الذين ظلمهم فرعون موسى فيما بعد واستحيا نساءهم وقتل أولادهم بالعمل الجاد و المضني

حضرت النسوة بمن فيهن امرأة العزيز في جلسة قبطية نسائية مع عظيم القبط. صارحهن الملك بكل وضوح ولم يخف عليهن علمه بأنهن كن قد راودن يوسف عن نفسه. هذه المصارحة التي مهد لها يوسف من داخل السجن سوف تُدخل الرعب في قلوب النسوة اللائي أخفين حقيقة الجلسة عن الملك وعن أزواجهن من رجال البلاط القبطي. قال الملك:

ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟

ومن جواب النساء نعرف بأن الخطب هنا لا يعني المصيبة ولا يعني الأمر والشأن الكبير بل يعني ويشير إلى تهمة موجهة إلى يوسف. يوسف الذي أثارهن جميعا ليطلبن الخيانة الزوجية بالتودد العاطفي إليه.

إذا قصد الملك بالخطب الأمر الكبير في اللغة، عنى ما فعله يوسف بهن من إظهار وإبراز لقدراته بحيث انجذبن إليه وسعين للتودد بعرض أجسادهن عليه.

فالسؤال عما فعله يوسف بهن. لم تفكر المرأة ولا النسوة بالطريقة التي سوف يسأل الملك إياهن.

فالملك اتهمهن في هذا السؤال بأنهن اللائي عرضن على يوسف الفاحشة ولكن يوسف هو الذي امتنع. كما أنه اتهم يوسف بأنه أظهر لهن ما أنساهن الشرف العائلي ورضين بأن يخضعن ليوسف على الرغم من ترفعه عليهن.

لا أدري فيما اذا تمكنتُ من إيصال الرسالة إلى القارئ مع قلة بلاغتي؟ أتمنى ذلك.

للملأ من حاشية فرعون. وسنعرف بعد قليل بأن الإسرائيليين اليوم يخطئون في مسألة مهمة تخالف قوانين الأسرة وينسبون لا شعوريا هذا الخطأ إلى باني مجدهم يوسف بن إسرائيل. نهاية الهامش 39.

السؤال ذكي جدا ويعترف بما أبدينه أمام يوسف بكل وضوح وكأن الملك كان حاضرا بينهن. ولكنه في نفس الوقت يريد أن يعرف ما فعله يوسف بهن حتى انجذبن تجاهه.

هل أن يوسف هو الذي غرر بهن وإلا فكيف تبدي مجموعة من النسوة الرغبة في الخلوة الفردية مع يوسف.

شعرت النسوة بألا مجال للإنكار أولا وشعرن بأن توجيه أية تهمة ليوسف قد تنكشف بسرعة وتنطوي على ظلم واضح ضد إنسان بريء.

يكفي في مثل هذه الحالات أن تتبرى امرأة واحدة لتدافع عن شرف الذي يسألون عنه فتتبعها الباقيات جميعا. فما الذي حصل فعلا؟. لنعد إلى القرآن فنقرأ الآية قبل أن نستمع إلى جواب النسوة.

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿51﴾.

يتراءى بداية للقارئ بأن الملك يسألهن: ما هي مصيبتكن أو ما الذي بدا لكن إذ قمتن بالسعي للتغرير بيوسف الذي لم يبد لكم أي نوع من الدعوة إلى التبادل العاطفي؟

وأما القول بأن الملك قصد أن يسأل عن الحال أو الشأن وكأنه يريد أن يضع اللوم عليهن فقط، فهو مردود بسبب المقطع الثاني من الآية الكريمة. فحينما قلن: **حاش لله ما علمنا عليه من سوء**، يعني بأنهن سمعن ما ينبئ عن توجيه الملك تهمة إلى يوسف أو يريد الملك الكشف عن أي احتمال لقيام يوسف بالتغرير بهن. ولذلك برأن ساحة يوسف في الجواب.

وأما جواب النسوة على استفسار الملك:

حاش لله ما علمنا عليه من سوء؛

فلقد وضحت معنى حاش لله في الآية 31 وتعني باختصار: سبحان الله. وأما قولهن:

ما علمنا عليه من سوء،

فهي الشهادة التي سدت الباب بالكامل على وجه زميلتهن امرأة العزيز أن تخفي سرا من أسرار تلك الجلسة.

دعنا نحلل كلامهن. بالطبع أن السؤال أوسع بكثير من هذا الجواب المختصر وكذلك قول امرأة العزيز قبل اعترافها بالذنب بأن الحق قد ظهر ساعته يدلان على أن النسوة قصصن القصة باختصار على الملك إما بعد الذي اختاره الله تعالى من بين أقوالهن كجواب أو قبل ذلك.

وأغلب الظن أنهن بدأن بـ (**حاش لله**). ذلك لأن صيغة الجواب تدل على الجواب المفاجئ لمن يشعر بقلق وجداني إن لم يكشف الحقيقة بالكامل.

فالجملة مقدمة لبيان الحكاية برأيي والعلم عند الله تعالى.

فالملك حينما قال ما خطبكن فهو فعلا يريد أن يتعرف على الحكاية بالكامل[40].

---

[40] لو نراجع موارد ذكر مثل هذا السؤال وندقق في الجواب المذكور في القرآن نرى بأن الأجوبة مفصلة وليست مختزلة. فمثلا سؤال إبراهيم للملائكة كما في سورة الذاريات ثم جواب الملائكة:

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34).

ويكمل نفس السؤال في نفس القضية ما في سورة الحجر:

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (58) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (60).

فجواب النسوة لم يكن مقتصرا على تطهير مشاركة يوسف الشاب الوحيد في الجلسة النسائية المخصصة للترويح.

إلا أن الله تعالى يكتفي بذكر ما يفيد تبرئة يوسف من التهمة وليس أكثر من ذلك.

ويمكننا معرفة أن الحكاية كلها قد قُصت في حضرة الملك بحيث لم تجد امرأة العزيز محيصا غير تكرار اعترافها أمام الملك فتسقط الورقة التي أقنعت بها زوجها طيلة السنوات الماضية بأنها كانت نقية الإزار كما كانت نقية المقصد ولم تفكر أبدا بالنزوة مع يوسف.

وأما عبارة :

(ما علمنا عليه من سوء)،

فتدل على أنهن اعترفن بأنهن اللائي طمعن في المزيد من الالتصاق بيوسف وليس يوسف الذي غرر بهن.

أو قوله تعالى في سورة القصص بيانا لحكاية وصول موسى إلى ماء مدين:

وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23).

فالجواب يمثل حكاية كاملة لبيان السبب في وقوفهما هناك مجتنبتين مزاحمة الأمة التي تسقي. أو استفسار موسى عن السامري كما في سورة طه:

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96).

نرى بأن السامري قص قصته بالكامل وذكرها الله تعالى باختصار طبعا كالعادة. نهاية الهامش 40.

إن شهادة الذي يشهد الحادث بأنه "ما علم" تعني بأنه لم يشهد شيئا يمكن أن يستفاد منه غير ما يظهره المشهود عليه. ولولا ذلك لقلن: ما رأينا عليه من سوء.

فمن الواضح بأن الملك مقتنع بأن يوسف لم يطلب المتعة والحب ولكنه يريد أن يطمئن هل أن بقية حركات يوسف كانت تضمر مرضا في نفسه أم أنه كان في غاية النظافة؟.

إن مجرد العمل الذي قام به يوسف جوابا على دعوة الملك يدل دلالة واضحة على أن يوسف بريء ولكن الملك يريد المزيد من أمارات البراءة ليتعرف على أعماق يوسف.

إن الملك – وهو ذو خبرة واسعة وعلم كبير – كان بصدد التحري الكامل عن مرشح للوزارة ليزداد معرفة به في هذه الفرصة التي قد لا يتكرر سنوحها.

فتى في ريعان الشباب متهم بالسعي للتغرير بسيدته وكان متوسطا مجموعة من سيدات المجتمع المصري آنذاك وفي جلسة لا تخلو من غرام ثم يكون بريئا من كل تهمة!.

هنا تتبلور حقيقة يوسف بكل دقة، فلماذا لا يطلب الملك المزيد من أخبار يوسف. هذا الاعتراف من مجموعة من النسوة المثقفات والمتحضرات لصالح يوسف أدخل الطمأنينة في قلب الملك ورأت امرأة العزيز أن الاعتراف بالخطأ هو المخرج الوحيد لها لتتجنب غضب الملك عليها.

و(السوء) يعني كل ما يمكن أن يسيء للسامع أو الناظر أو الذي يفكر في شيء. فخلاصة الجواب هو أنهن لم يلمسن أي شيء يسيء إلى أي منهن أو إلى أزواجهن من يوسف.

يعني أن يوسف لم يتحرش ولم يكن في وارد العلاقات الغرامية أبدا ولكنهن هن اللائي وقعن في حبه وهو بريء كامل البراءة. ولنعد إلى امرأة العزيز التي قالت:

(الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه).

اعترفت امرأة العزيز بأن الحق كان مطمورا مغمورا ومطموسا ولكنه خرج من تحت الرماد شيئًا فشيئًا حتى تجلى.

وحصحص من مادة حصص بمعنى الحصة والقطعة من الشيء بعد تقسيمه وإيصاله إلى أهله. فحصحص يعني أخذ الحق مكانه المناسب وهو التجلي والظهور شيئًا فشيئًا حتى تم ظهوره. ولذلك بدأتها بكلمة "الآن". بمعنى أنه كان مطمورا فظهر الآن.

ووجه المقاطع هو أن الحق أخرج نفسه من الغمرات قليلا بعد أن فرض نفسه على المدعوات في الجلسة النسائية، وبعد أن ظهر علم يوسف وإباؤه وإصراره على الكشف عن مظلوميته وحقه أمام الملك. فلا يمكن تصور سجين بقي سنوات في السجن ثم يرد عرض الملك بالخروج إن لم يكن له الحق. فالحق حص ثم حص ثم حص.

والحص الأخير هو اعتراف امرأة العزيز بعد أن سُدت أمامها كل أبواب التخفّي وارتفعت عن خبائها كل الأستار التي أسدلتها بيديها.

تحقق ما يصبو إليه يوسف. وعرف الملك بأن النسوة كلهن قد شاركن زوجة العزيز لإخفاء براءته لأنهن فقدن القدرة على صيانة العفة الطبيعية المتوقعة منهن.

عرف الملك أن يوسف سعى للابتعاد عن المغريات بعد أن كاد أن يصبو إليهن وأن الإغراء والدعوة للمصادقة قدمت من جهة واحدة وبقوة باعتبار سيل الدعوات المقدمة ليوسف.

لم يقم يوسف بأي عمل يثير النسوة ولكن امرأة العزيز هي التي أرادت إظهار علم وكفاءة يوسف لتثبت لهن بأنها محقة في تفضيله على زوجها.

واعترفت أيضا بأن يوسف بالتأكيد من الصادقين. ظهر الحق والآن يريد الملك أن يعرف من يوسف ذاته لماذا أصر على كشف الحقيقة.

ولذلك أرسل إليه رسولا يبلغه بأنه قد سألهن وانكشف له بأن الحق مع يوسف وليس مع النسوة بمن فيهن امرأة العزيز.

شعر يوسف احتمالا بأن الملك قد يريد معرفة السبب في إصراره على كشف الموضوع ولذلك قال للرسول:

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿52﴾ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿53﴾.

أبلغ يوسف الملك بأنه لم يقصد أحدا إلا العزيز نفسه الذي أدخلت امرأته الشك في قلبه حول سلامة يوسف بعد أن رأى كل أمارات السلامة فيه وبعد أن لمس بنفسه الحقيقة. يريد أن يعلم العزيز بأنه لم يخنه في غيابه حتى بأي ميل قلبي.

إن يوسف يؤمن بالله تعالى ويخاف من علام الغيوب. فلم يخف في قلبه أي غرام بزوجة العزيز. ولو كان فعل ذلك لما هداه الله تعالى إلى هذا السيل من المعرفة التي ترونها وهي فوق قدراتكم العلمية المتعارفة.

أنى للخائن أن ينال نصيبا علميا من ربه. إن الذي وضح الحقيقة هو الله تعالى لأن يوسف لم يكن خائنا له بالغيب. وبما أن يوسف يكن احتراما كبيرا للعزيز وامرأته فإنه لم يتحدث شيئا ضد المرأة وتحدث بلسان الحب والود:

ليعلم أني لم أخنه بالغيب.

يعني يوسف بأنه مهتم بالعزيز كما اهتم العزيز به، وتواق لأن يرى العزيز صديقا يرى من صديقه الوفاء ولا يضمر أي منهما أي شعور سلبي ضد الآخر.

غسل يوسف كل ما في قلب العزيز من شك ضده بإصراره على كشف الملابسات التي أخفت الحقيقة عدة سنوات. ولم ينس أن يذكر لهم بأن الذي هداه وساعده هو الله تعالى ضمن نظام الألوهية الذي يدافع الله به عن الذين آمنوا به وحده وتوكلوا عليه وحده[41].

إن النفس مصرة على البحث عمّا يشبع شهواتها وتقوم بالسعي لتحقيق الرغبات، إلا ما رحم الله تعالى. ولعل يوسف أراد أن يبشر امرأة العزيز وزوجها بأن باب التوبة إلى الله مفتوح وبأن الذي يغفر هو الله تعالى نفسه وليس هو يوسف ولا الملك.

أعطاهم يوسف مثالا من نفسه فقد توجه وتوسل بربوبية الله تعالى فساعده ربه، وعليهما أن يفعلا ذلك مع ربهما ولا حاجة لأن يهتما بيوسف وغيره[42].

---

41 قبل إكمال تفسير الآية الثانية أحب أن أوضح مسألتين: أولاهما أن يوسف ما كان بالقوة التي ظهر بها يوم الخلاص من السجن حينما دخل السجن بل كان ضروريا له أن يبقى سجينا لفترة للتنظيف والتزكية. حتى سنه وعمره كان صغيرا جدا قبل السجن حيث كان في عمر المراهقين مما لا يناسب وزارة مصر العظيمة.

والمسألة الثانية هو احتمالي بأن يوسف كان مخلصا جدا لمعلمته امرأة العزيز حيث أشرك معها نسوة الجلسة المذكورة ليسهل عليها الاعتراف بطهارة يوسف. وهذا دليل واضح على أن يوسف لم يرض أن يلحق أي أذى بامرأة العزيز وبأنه عليه السلام كان يريد لها المغفرة احتمالا ولكنه مضطر أن يبرئ ساحة نفسه لأنه نبي مرسل إليهم أو يكاد.

على يوسف الآن باعتباره رسولا مثاليا لأهل مصر أن يوضح لهم حقيقة النفس الإنسانية بأنها عاجزة عن محاربة الشهوات وعليه أن يتوجه إلى الله تعالى ليعينه على ترك السوء. نهاية الهامش 41.

42 قبل أن ننتقل إلى تكملة جوانب الموضوع، أرى من الضروري أن أوضح موضوعا هاما يخص إرسال الله تعالى للرسل. إذ أننا سوف نستقبل بعد قليل رسول الله ونحن جالسون في قصر فرعون مصر. بالطبع أن رسل الله تعالى ليسوا سفراء مرسلين من بلد إلى بلد صديق بل

هم مبعوثون من نفس الأمم ليحملوا أوامر السماء لقومهم. ولكن هناك بعض وجوه الشبه بين سفراء الدول ورسل الرحمان. كما أن هناك وجوه اختلاف، نحصرها باختصار هنا:

1. السفراء يعرفون كل شيء ممكن لهم عن البلدان التي يتوجهون إليها بل يجب أن يتقبلهم رؤساء تلك الدول ويجب أن يعرفوا لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم إن أمكن. والرسل لا يمثلون أوطانا ورؤساء دول غريبة بل هم أهل نفس الأمة ولا يمثلون الله تعالى بل يحملون رسالته إلى قومهم. إنهم يعرفون لغة القوم أو أن الله تعالى يرسلهم فترة طويلة ليعيشوا في تلك الأمة ويتعلموا أحاديثهم ويتعرفوا على تقاليدهم وأعرافهم.

2. تسعى الدول أن ترسل سفراء من نفس دين الدولة التي تستقبلهم إن أمكن وإلا فيكونون مسالمين متقبلين دين الدولة المضيّفة وغير معروفين بالعداء لأهل ذلك الدين. والله تعالى يبعث الرسل من بين الذين يؤمنون بالله ليحملهم رسالته إلى الذين يؤمنون بالله أيضا. فلا يمكن إرسال رسول إلى قوم لا يؤمنون بالله لأنهم يفقدون أوليات الارتباط مع الله تعالى.

3. مهمة السفراء هي تصحيح لغة التفاهم بين البلدين والسعي لتقريب أفكار الدولتين والشعبين. وأما مهمة رسل الله تعالى هي إقناع قومهم بأنهم عبيد حقيقيون لله الذي يؤمنون به وبأن الله تعالى قادر على التواصل معهم ولا يحتاجون إلى واسطة بينهم وبين ربهم. ولولا ذلك لاحتاج كل أهل القرى وكل أهل المدن في كل الأزمان إلى رسل من الله تعالى. بالطبع أن هناك مهمة أخرى هي تقديم النماذج، ولا نحتاج أن نوضحها هنا باعتبار عدم ارتباط ذلك بالحياة الدنيا ولكنه من ضرورات يوم الحساب.

4. توجه الدول سفراءها إلى الحكومات ويكون ارتباطهم بالشعوب ضمنيا. والله تعالى يرسل الرسل إلى الملوك والزعماء ويكون ارتباطهم بعامة الناس ارتباطا ضمنيا أيضا. لكنهم سرعان ما يتركون المتكبرين ويبقون مع المؤمنين سواء كانوا من الأغنياء أو من الفقراء. ويمكن فهم ذلك لأن الله تعالى يرسل الرسل إلى القرى. والقرية في القرآن تعني المكان بمن يسكنونه وبقدرتهم على استضافة غيرهم واستعدادهم لذلك.

5. يهتم الحكام بأن يرسلوا رسلا وطنيين يحبون أوطانهم ولكن الله تعالى يهتم بالتقوى والعلم فقط ولا يهتم بالأوطان ولا بالعوائل ولا بالمحسوبيات الأخرى. فيكون إرسالهم إلى أهل القرى باعتبار أنهم قدوة لغيرهم لا غير.

كل تلك الصفات توفرت في يوسف وأصبح قادرا على حمل رسالة السماء، وسيأتي بعد قليل ليقف أمام سيد مصر رسولا من ربه لوضع اللبنات الأولى لصنع بني إسرائيل. نهاية الهامش 42.

الملك يظن بأنه سوف يستعمل يوسف لنفسه. لا يختلف حال هذا الفرعون عن فرعون موسى كثيرا إلا أن هذا مؤمن بالله وإنسان طيب السريرة كما يبدو.

أحس الملك بأن كل المقومات التي يريد لها أن تكون مجتمعة في يوسف قد توافرت بالفعل في ذهنه فعليه أن يراه ويتحدث إليه ليعينه في المنصب المناسب له. إنه عالم أمين طاهر اليد والثوب.

هذه صفات قل من يبحث عنها من بين الحكام والملوك ولذلك قلت بأنه ملك طيب السريرة. نفد صبره:

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴿54﴾.

شعر الملك الطيب بأنه في أشد الحاجة إلى هذا الإنسان العالم الذي يخاف الله تعالى، ليمنحه الصلاحيات الكبيرة ويضع فيه كل ثقته دون خوف.

أحس الملك بأن يوسف مختلف عن وزرائه الحاليين فهو يعطي الكثير ولا يطمع في أن يأخذ الكثير. شعر بذلك لأنه كان يعرف يوسف ويعرف قصته مع زوجة وزيره ولكنه اليوم عرف بالمزيد من العلم وبالمزيد من التقوى والإباء.

إن يوسف مهتم بنظافة اليد وبنظافة السمعة أكثر من اهتمامه بالراحة. إنه يفضل السجن على أن يتورط في الفاحشة.

يعرف الملك بأن جل حاشيته متورطون بالشهوات فهو بحاجة إلى إنسان عليم قادر على السيطرة على نفسه ومتعال على تمني الترف.

رأى الملك كيف يهتم يوسف بالعزيز ويُكرمه ولا يريد المساس بزوجته ودون أن يكون له أي طمع من وراء ذلك. إنه من الصادقين، ولذلك قال قلبه قبل لسانه: إيتوني به مكرما لأستخلصه لنفسي. هذا يعني بأن الملك محتاج إليه فهذا ليس خادما للقصور. إنه رجل دولة وإنه مساعد قوي للملك.

لقد صبر يوسف كثيرا على نزوات سيدة قصر العزيز وتحمّل كل التهم مكتفيا بمجرد الدفاع عن كرامته. لقد سجنته وطردته أسرة العزيز وهو أكرمها ولم يطلب القصاص منها. كل هذه المحاسن كانت مشهودة في تلك الشخصية اللامعة الحاملة لرسالة رب العالمين.

كان قلب الملك مليئا بالحب تجاه يوسف، وقد ازداد يوسف مهابة لدى عظيم مصر حينما جرى الكلام بينهما.

لا ندري ما الذي جرى بينهما، إنما نعرف بأن الحديث لم يكن حول نزاهة يوسف فقد أصبحت ثابتة لدى الملك. لكنه يريد فقط أن يزداد علما بمقدرة يوسف واستعداده لتحمل المسؤولية.

إن أمانة يوسف متجلية ولكن القدرة الإدارية غير واضحة بعد. ولذلك كلمه الملك قبل أن يمنحه ثقته في تفويض بعض الصلاحيات إليه.

وكأنه يقول له: كنت لدي أمينا فأصبحت مكينا أيضا. إن على الملك أن يمنحه الصلاحيات وينتظر منه الأمانة والوفاء بما يتعهد به. ولذلك قدم المكنة بانتظار الأمانة. يقول له باختصار: أثبتَ بأنك أمين على أزواجنا وقوي في علمك وذكائك، ولكننا نريد منك أن تكون أمينا على السلطة والقدرة العليا أيضا.

تقبل يوسف عرض الملك فأراد أن يعرض عليه قدراته التنفيذية. رأى الملك بأن يوسف لم يفسر المنام فقط بل اقترح عليه كيفية المواجهة. وينتظر الملك الآن أن يبدي يوسف استعداده لتنفيذ ما اقترحه بنفسه. وقد قرأ يوسف ما يريده الملك من فحوى المحادثة التي جرت بينهما فـ:

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿55﴾.

حينما تتجلى المحاسن للسلطة الأمينة المخلصة لشعبها وحينما تنقشع كل غمامة عن وجه مَن يريدون منه القيام بالمهمات الصعبة فإن السلطة العليا تعرض المهمة وتمنح الصلاحيات ثم يأتي الوزير ليعرض قدراته.

هذا ما حصل بين يوسف والملك. لكن الموضوع مقلوب في الحالات العادية. نرى بأن أصحاب القدرات العلمية والإدارية يعرضون إمكاناتهم على مالكي القرار لعلهم ينالوا منهم الموافقة وليس العكس. ثم إنهم يطلبون الموافقة للقيام بالمهمة.

لكن يوسف استلم السلطة قبل أن يعرض بل قدم له الملك وعرض عليه الأمانة وبأنه يثق فيه ثم جاء يوسف ليطلب الجانب الذي يفضل أن يبسط فيه جهوده. فيوسف تسلم الحقيبة ثم عين بنفسه المكان المناسب لنفسه.

أعتبر هذا الملك عنوانا للإخلاص لمصر وهو وأمثاله هم الذين بنوا الحضارة المصرية التي ملأت عيون أهل الأرض، لأن الملك اختار هو بنفسه لبعض مراكز القوة في سلطته ولم يقبل عروض الآخرين .

وحتى يشعر كل القراء الأكارم بمغزى ما أقوله ببياني المتواضع، فإني أطلب منهم أن يفكروا في نبي يحمل رسالة السماء وهو يعمل لدى ملك يملك كامل السلطة ولا يشاركه في عقائده إلا الإيمان بالله تعالى.

لقد دخلنا الآن مع أخينا الكبير يوسف النبي في قصر ملك مصر مع ما فيه من ترف وما يتضمنه من زخرف ومن وزراء وكبار موظفين لا يعبئون بالسرقة ومن فتيات تعرضهن مواقعهن إلى التساهل في كثير من الأمور.

يوسف هو المسلم الذي يمكنه أن يعيش مع ملوك الشرك في بيت واحد ويساعدهم لأجل الأمة ويحافظ في نفس الوقت على شرفه و دينه الذي لا يمنعه من أن يعيش مع ملوك الترف واللهو وهو في عزلته الخُلقية عنهم! كل يعمل على شاكلته مجتمعين. قال يوسف للملك جوابا على عرض الملك:

اجعلني على خزائن الأرض، إني حفيظ عليم.

ليس سهلا أن نعرف مغزى قول يوسف الذي يدل على أن الملك كان ينتظر منه ذلك. تصور لو حصلت لك تلك المكرمة، فكيف تجرأ أن تقول له من أول لحظة: اجعلني على أموالك وممتلكاتك؟ أو اجعلني مسيطرا على ممتلكات شعبك؟ أليس ذلك معنى خزائن الأرض؟ وقد حصل ما طلبه يوسف فعلا كما سنعرف من الآية التالية.

هذا يعني بأن الملك الذي اختصر الله تعالى نتيجة محادثاته مع يوسف قد أشار إلى يوسف بأن الملك ينتظر منه استعداده لتسلم أعلى المناصب حسب اختياره.

أشعرَ الملكُ يوسفَ بأنه صادق معه حينما قال له بأنه اليوم لديه مكين أمين. يعني لا تفكر في الثقة فلدي كامل الثقة فيك ولا أحتاج إلى مزيد من الاختبار. لقد فعلتُ كل اختبار ونجحتَ أنت فيه، فقل لي ما هي الوظيفة التي تختارها في مملكتي؟

فكما قلت قبل قليل بأن الملك ترك بروتوكولات الملك و اتخذ لنفسه مسيرا آخر مع يوسف.

ما فعله الملك ينبئُنا بأنه رأى نفسه أمام شخصية عظيمة يكبره عقلا وعلما وبأنه غير مكترث بالمُلك ولكن المَلك يحتاج إليه.

كل ذلك ويوسف محتفظ ومراع لكل الآداب التي تليق بالحضور في القصور والاماكن الملكية من جانبه.

وسوف نرى حينما يقدم أهله للملك بأنه يراعي كل بروتوكولات الفراعنة أيضا . لقد صدق يعقوب حينما تفرس مستقبل ابنه:

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6) .

فقد كان لائقا لهذا المستقبل المتوقع[43].

---

[43] وحتى نعرف كيف يجعل الله تعالى أولياءه مسيطرين على الآخرين فلا بأس أن نقرأ آيتين من مكانين مختلفين من كتاب الله تعالى. ثم يسعى كل منا بنفسه ليوظف الآيتين في بيان حكاية يوسف مع الملك.

قال تعالى في سورة البقرة:

اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) .

وقال سبحانه في سورة النساء:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (64) .

فالرسول هو الذي يمهد السبيل لأن يطاع بما يساعده ربه من علم ومن حجج باهرة يقدمها لكل من يحتج عليه. نهاية الهامش 43.

وضح يوسف للملك بأنه يحافظ على الممتلكات ويعلم كيف يحافظ عليها لأنه يعرف أهمية ذلك لأرض مصر. قال يوسف للملك بلسان الحال أنك يجب أن تبقى قادرا على مد شعبك بما يشبع بطونهم ويسد حاجاتهم حتى عند الملمات والمصائب. ولولا ذلك فإنك ستفقد سلطانك.

وكان الملك يشعر بذلك فسهل عليه قبول عرض يوسف لنوع الخدمة التي تفيد الملك وتهمه أكثر من بقية الخدمات.

الحفيظ يعني شديد الاهتمام بالصيانة ومنع الطامعين والجاهلين من اللعب به.

والعليم يعني بأنه على علم بأهمية تلك الخزائن وبكيفية صيانتها والمحافظة عليها.

علينا أن نمعن النظر قليلا في حياة يوسف التي ذكرها لنا ربنا لنتعرف على أهمية يوسف ونسعى لأن نفهم كيف كسب هذه المعارف.

عاش يوسف طفولته في بيت عادي. كان يملك قميصا واحدا كما يملك أخوه قميصا واحدا احتمالا. ولذلك سهل على أبيه أن يعترض على أولاده بأنهم كذبوا عليه بأن جاؤوا بقميص أخي يوسف بدلا عن قميصه.

ثم خرج من بيته للتنزه وفتح عينيه في قصر العزيز عبدا يخدم امرأة العزيز. هناك تعلم كلما رآه وسمعه من أهل القصر بالطبع. كانت امرأة العزيز معلمته الأولى والأخيرة قبل الحضور عند الملك. ذلك لأنه فارق المرأة ليدخل السجن ومنه إلى حضرة السلطان الأعظم. ولا أظن بأن امرأة العزيز كانت تعرف صيانة خزائن الأرض ولا كيفية تخزين الحبوب ولا المحاسبة ولا أهمية المال.

لكن يوسف كان في قصر يزوره الوزراء: الزراعة والسكن والمالية والطرق والتشريفات والصناعات والتربية والتعليم والإعلام والدراسات العليا أو ما في حكمها . وكان العزيز واحدا من هؤلاء الوزراء . كان يوسف فاتحا عينيه وموجها سمعه لكل ما يسمعه منهم وممن دونهم ليتعلم منهم.

كان يشجع امرأة العزيز أن تعلمه التشريفات واللغة ومنطق القصور بإظهاره الفهم والعلم وقوة المنطق والقدرة الفائقة على الاستيعاب.

وكان الملك يزور وزيره أحيانا ويرى كل التشريفات الملكية ولو في أوقات راحة الملك حيث يزور حاشيته ليتخلى قليلا عن التشريفات المعقدة المملة.

كان الله تعالى يعلمه في تلك الفترة من عمر الصبا ليتفقه في الإدارة والحكم وحفظ الأموال. فأصبح يوسف قادرا على العمل في المملكة وعلى صيانة نفسه وعلى الاحتفاظ بتقواه وخوفه من ربه وعلى التأقلم مع كل الأجواء .

لقد نجح في طفولته فأبدى البراعة في الحديث مع شيخ بني إسرائيل وهو تقريبا أصغر أولاده عدا أخيه من أمه. ثم نجح في حفظ نفسه في الجب وفي قافلة التجار الذين لا يتورعون عن السرقة وفي سوق النخاسة ليبدي قدراته فيجذب العزيز إليه . ثم نجح بكل جدارة في قصر وزير فرعون مصر ورأى الحضارة البشرية المتفوقة دون أن ينبهر بها بل تعلم منها فقط. ونجح أيضا في تحمل السجن وفي أن يكسب قلب ملك الحضارة البشرية بالتفوق العلمي والعملي والعقائدي.

هذا هو يوسف مؤسس بني إسرائيل. ولكنه كان مجهولا للناس حتى لبني إسرائيل أنفسهم[44].

[44] لننظر إلى بني إسرائيل كيف يحطمون يوسف وهم يظنون بأنهم يكبرونه.

1. يقول اليهود بأن يوسف تزوج من امرأة العزيز وبأن الملك طرد العزيز وأحل يوسف محله. يقولون ذلك وهم يؤمنون بأن على بني إسرائيل أن يتزوجوا من أنفسهم ليكون أولادهم إسرائيليين. فكيف تزوج يوسف من الأقباط المشركين إذن؟ يقولون بأن يوسف كان إنسانا عظيما تمكن من أن يسيطر على قلب الملك بعلمه وعمله. فكيف نظر الملك إلى أنه يرضى بأن يطرد الذي آواه وأحسن مثواه عمليا ودافع عنه ضد زوجته؟! ثم كيف نظر هذا الملك الذكي الطيب إلى يوسف الذي يرضى بأن يُطرد العزيز ثم يتزوج بزوجته؟ لو فعل يوسف ذلك لخسر مكانته عند عظيم الأقباط ولأظهر للمصريين بأنه انتهازي وصولي.

2. يقولون بأنه حصل على أولاد من زوجة العزيز. فبنو إسرائيل انحدروا من أمهات قبطيات بعيدات عن الثقافة الإسرائيلية. ولا يقول القرآن الكريم أنه تزوج من امرأة العزيز.

3. يقولون بأن يوسف سكن القصور وأصبح من المترفين. هذا يعني بأنه فقد النبوة وتخلى عن رسالة السماء. فالأنبياء لا يختارون القصور ولكنهم يدخلونها لينصحوا أهلها. وهذا ما يقوله القرآن عن يوسف. كان ذلك الإنسان العظيم لا يُفوت فرصة يمكنه أن يعرِّف ربه للغير ويتحدث عن عظمة الخالق وضعة المخلوق أمام ربه وشدة حاجته إلى سيد الكائنات جل جلاله. فهل من الخير لكم يا بني إسرائيل أن يكون مؤسس كيانكم نبيا من الصالحين أم ملكا من المترفين؟! دخل يوسف قصر العزيز عبدا ودخل موسى قصر فرعون طفلا وكلاهما كانا مجبرين بلا اختيار. لكن موسى عاش بعد القصر راعيا عند أبي زوجته ليتعلم على الصعاب كما عاش يوسف سنوات في السجن بعد خروجه من القصر ليتأدب فلا يتكبر على خلق الله تعالى. إنهما لم يعودا إلى القصور ليسكنا فيها باختيارهما بعد أن طهرهما الله تعالى من منزلقات القصور. لحظة كبرياء ليوسف كلفته سنوات من السجن فكيف يسكن في مساكن الذين ظلموا؟!

4. يقولون بأن يوسف كاد أن ينتقم من إخوانه لولا زوجته القبطية المزعومة التي منعته من ذلك. تلك التي عرضت نفسها عليه ودعته إلى الزنا سابقا. هم يقولون في توراتهم الفعلية في سفر التكوين 38:24 ما نصه: ولما كان نحو ثلاثة أشهر أخبر يهوذا وقيل له: قد زنت ثامار كنتك، وها هي حبلى أيضا من الزنا. فقال يهوذا: أخرجوها فتُحرق. ويقولون في سفر الحكمة 3:16 ما نصه المترجم بالعربية: أما أولاد الزناة فلا يبلغون أشدهم وذرية المضجع الأثيم تنقرض. بالطبع أن التوراة قد نزلت بعد يوسف ولكن يوسف نبي يعلم أصول التشريعات الإلهية ويعمل بها. وما تقوله التوراة أعلاه ليس تشريعا بل توضح حقائق سماوية في الزنا بأن ذرية الزاني تنقرض. هل هكذا تصفون زعيمكم الذي أسس بنيان بني إسرائيل؟ لكن القرآن لا يقول ذلك ولا يقول بأنه عليه السلام تزوج من الأقباط. كيف ترضون بأن امرأة دنت نفسها للزنا مع يوسف نفسه تكون أصدق في المشاعر الإنسانية من رسول الله يوسف؟ وما إلى ذلك من ادعاءات باطلة لا تناسب النبي العظيم الذي مهد لقيام بني إسرائيل بكل قوة.

لقد عرفه أبوه حق المعرفة ثم عرفه العزيز و زوجته ثم عرفه ملك مصر[45].

دخل يوسف القصر الملكي مرة أخرى ولكن ليأخذ القوة من ملك مصر فيعمل مع الفلاحين وعمال مخازن الحبوب وليجلس بنفسه في تلك المخازن فيطمئن بأنها توزع بعدالة على من يحتاج إليها .

لقد فتح المخازن التي بناها بيده وملأها من فائض الزراعات المصرية بعد أن أقنعهم بالامتناع عن الإسراف والاكتفاء بالقليل مما يأكلون، فتحها لكل الجائعين في الأرض لأنهم جميعا عبيد الرحمان ومن حقهم

ودعني أؤكد بأن الكتب التي كتبها البشر أعجز من أن تعرف أعماق القلوب الرسالية الطيبة. فلو نريد أن نتعرف على الرسول الكبير محمد من خلال كتب المسلمين فسنواجه إنسانا أنانيا لا يعبأ بقتل الناس ويهتم بالنساء. لكننا لو نقرأ هذا النبي من بين سطور القرآن فسنرى إنسانا كبيرا ذا خلق عظيم يحب كل الناس بغض النظر عن أديانهم ويكره القتلة والخائنين والذين يهينون الإنسان ولا يعبئون بحياة البشر.

فمحمد في القرآن نموذج للخير والإنسانية ومحمد في كتب الحديث والتراث والتاريخ نموذج للتكبر والخيلاء. إنه في القرآن متواضع وأخ طيب لمن عاش معه وفي تلك الكتب البشرية كسروي يمهد للحكم ويعد قومه بأنهم سيرثون عروش الفرس والروم. إنه في القرآن لا يدخل حربا إلا للدفاع عن أمته ضد الظالمين وينتظر أمر الله تعالى كل مرة. لكنه في كتب التاريخ والسيرة التي كتبها المسلمون ليس إلا غاز يغزو بلاد الناس ليسطو عليهم وينتزع منهم ملكهم ونساءهم باسم الدعوة إلى الله تعالى؛ معاذ الله. نهاية الهامش 44.

[45] ليرجع الناس إلى القرآن وحده ليتعرفوا على أنبياء الله تعالى فهم رسل الله ولا يعرفهم بحق إلا الله تعالى. وليتركوا ما انتشر من نصوص توراتية وانجيلية محرفة وسائر كتب الحديث غير الشريف وكتب التاريخ والسيرة النبوية المزعومة.

إن الملوك الجبابرة كتبوا وأنفقوا على كتابة كتب تمهد لهم لأن يغزوا البلدان الأخرى وشعوبها الآمنة ويستحلوا أموالهم وأعراضهم باسم الدعوة إلى المسيحية أو نشر الإسلام أو الدفاع عن اليهود المظلومين.

هؤلاء ليسوا أنصار الله تعالى ولا من الذين هادوا ولا من الذين آمنوا بمحمد الصادق الأمين الذي يحب الآدميين.

أقول ذلك مع بالغ الأسف لأني واحد من هؤلاء المعروفين بالمؤمنين بالله تعالى. فيا ليتنا ننظر إلى أخطائنا فنصححها قبل أن يأتينا أنباء ما استصغرناه من حقائق الوجود. نهاية الهامش 45.

أن يعيشوا في أرض الله تعالى ويقتاتوا من خير ربهم. آمن يوسف بأن الذي حصل على ما لا يحتاج إليه من خيرات الأرض فهو يتحمل مسؤولية إشباع غيره.

اهتم يوسف بخدمة بطون الناس ليقنعهم بأن الله تعالى حي لا يموت وبأنه هو الذي يقدر النعم لعبيده، فـ

. . . كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور. (سبأ14)

هذا هو يوسف صانع بني إسرائيل. ان كل الأنبياء مثل يوسف لكن المشكلة في الذين يأتون من بعد الأنبياء. قال تعالى في سورة مريم:

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60).

العبرة بالعمل الصالح والتوبة إلى الله تعالى وحده، ثم لا فرق بين بني إبراهيم ولا بني إسرائيل ولا صحابة المسيح ولا أهل بيت محمد أو صحابته أو أي إنسان على وجه الأرض، عند الله تعالى إلا بالتقوى.

وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿56﴾ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿57﴾.

طبقا لما علمنا الله تعالى في كتابه العزيز فإن يوسف لن يدخل الجنة بما مكنه له ربه من أرض مصر ولكنه يدخل الجنة بالتقوى بعد الإيمان بالله تعالى، وهكذا كل الأنبياء وكل الناس.

مكّن الله تعالى يوسف على أرض مصر ووضع الكثير من إمكانات المصريين تحت تصرفه، فماذا فعل يوسف؟ هل بنى لنفسه القصور أم اتخذ من الفاتنات المصريات أخداناً لإشباع شهواته؟ لو كان كذلك لاستمتع في قصر العزيز وقد عُرض عليه ذلك.

أجمل غانيات مصر عرضن عليه الشهوات فلم ينزلق وهو في ريعان الصبا ولا يحمل مسؤولية الأمة على ظهره.

ولو أنه كان كما يتوهم البعض لما تمكن بمفرده أن يدير عجلة الغذاء لأهل مصر والبلدان المجاورة سبع سنوات عجاف.

يوسف متوكل على ربه فالله تعالى وضع كل شيء تحت تصرفه وهو قادر على أن يتبوأ منها حيث يشاء. ولكن يوسف سعى جهد امكانه ان ترتبط مشيئته بما يشاء الله تعالى ربه الذي أكرمه.

إنه يعرف ويدرك بأن الله تعالى هو المالك الحقيقي وهو رب العالمين جميعا، فلو كان ربانيا فعليه أن يهتم بإشباع بطون عبيد الله تعالى ثم يشبع بطنه. وقد فعل يوسف ذلك.

لقد جلس بنفسه يدير توزيع الأرزاق فرأى إخوانه وإلا لو كان جالسا في غرف الوزراء لما رأى إخوانه الجائعين ولما تمكنوا من الدخول عليه. كان باب يوسف مفتوحا ليدخل عليه الفقراء من كل جانب ولذلك التقى بأسرته.

إنه اختيار طيب وفي مكانه، اختيار ربنا الرحيم ليوسف صاحب القلب الكبير والذي يجتهد بما أوتي من قوة وعلم؛ وصدَق يوسف حيث قال للملك: **إني حفيظ عليم**. وصدق الملك حيث قال **إنه مكين أمين**. يعني أمين على السلطة وليس خائنا كأكثر أرباب السلطات[46].

وقد اختصر الله تعالى القول الحق في الآية الثانية بأن **أجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون**.

وتعني الآية بأن العاقل يهتم بالإيمان بالله والخوف منه سواء كان ملكا أو عبدا. فلا فرق عند ربهما، بين يوسف الذي تولى أرزاق مصر برمتها وبين يعقوب أبيه الفقير إلى الله.

لقد رأيناه لا يقل علما وحصافة من ابنه يوسف وهو وأولاده الاثني عشر وزوجته يعيشون في بيت واحد في أحد أرجاء فلسطين ثم جاء إلى مصر ليزور ابنه الذي فتح الله تعالى عليه فينقل كل بني إسرائيل إلى مصر وهم من أفقر الناس.

كادوا يموتون جوعا لولا أن فتح الله تعالى على ابنهم يوسف ليشبع بطون كل الأمة التي تعيش حول مصر بعلمه وذكائه وبتقواه وما وفقه الله تعالى في أن يتبوأ من مصر حيث يشاء.

---

[46] لو ننظر إلى الرحمة التي أصاب الله تعالى بها يوسف. لعل الكثيرين يظنون بأنها المُلك. هي فعلا الملك ولكن المُلك لمن يبتعد عن المُلك، المُلك لمن يستعمل المُلك لخدمة المعوزين. هي رحمة ليمكن يوسف من إشباع نفسه الطيبة في أن مكنه ربه لخدمة البشر.

فهل اليهود الذين ورثوه يحبون البشر أم يحبون أنفسهم؟ ترك يوسف كل أنانية وترك حاجته إلى الراحة في القصور وإلى التمتع بالجنس وهو في شعلة الشهوات، ترك ليرضي ربه وليخدم الناس. فأين بنو إسرائيل اليوم من أبيهم يوسف؟ ما الفائدة أن تكون من سلالة الأنبياء وأنت لا تحذو حذوهم؟

إنه كان محسنا قبل السلطة وقد أدى اختباره بنجاح فوسع الله تعالى عليه السلطة ليرضي نفسا تحب الخير وليس ليرضي نفسا أنانية تحب المتعة. الذي يستحل ويغتصب أراضي الآخرين ليستمتع بها ويأخذ منها أضعاف ما يأخذه أصحابها فخير له أن يقول أنه من أتباع بختنصر (نبوخد نزار) المجرمين القتلة ولا يدعي بأنه من أتباع إسرائيل ويعقوب وإسحاق وإبراهيم الطيبين المؤمنين بربهم. نهاية الهامش 46.

تبوأ من مصر ما يساعد به الغير. فامرأة العزيز لم تهنأ مع يوسف لأنها من بنات القصور ويوسف أُدخل القصور وهو يفضل السجون عليها. هذان شخصان مختلفان كل الاختلاف. هي انسانة أنانية ويوسف تارك لشهوات نفسه وقلبه ويستعيذ بالله من طغيان الشهوة.

قام يوسف بمساعدة الفلاحين وأصحاب الأراضي الزراعية يعلمهم ترك الإسراف، وقام باستعمال الوسائل المتاحة يومها لتعليم الأغنياء أن يكتفوا بإشباع بطونهم من الحبوب ولا يتجاوزوا ذلك مخوفا إياهم بالمجاعة التي تنتظرهم.

عاش معه أهل مصر سبع سنوات خيرة وهم يستمعون إلى عظات وزير من وزراء فرعون نذر نفسه لخدمة الناس. لم يمس يوسف العزيز ولا زوجة العزيز وبقيا في مكانهما. لقد استفادا من يوسف حينما كان خادما لهما واستفادا منه حينما صار وزيرا مثل العزيز وأقوى من العزيز.

يوسف أكرم من أن يرضى بأن يمسه أحد بسوء. إنه لن ينسى للعزيز ما أوصى زوجته به في إكرام مثواه، فلو نسيه اليوم في قوته فهو لئيم وحاشاه من اللؤم.

لكن بعض اليهود وصفوه بما ينطبق مع حبهم للانتقام الذي نراه اليوم لاصقا بهم لا يفارقهم. هؤلاء هم مثل إخوان يوسف الأنانيين وليسوا مثل يوسف ويعقوب الصالحين الطيبين.

عاش الناس بحكمة يوسف يأكلون بقدر الحاجة ويتركون الباقي ليوسف ليحفظه لهم استعدادا لسني الجدب. واصل الناس حياتهم العادية بحكمة يوسف ولكن يوسف لم يكتف بذلك. إنه مسئول التغذية لكل الناس. ولذلك دبر بناء المخازن.

حينما طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، أراد خزائن المال ليبني بها مخازن الحبوب بالدرجة الأولى. يوسف مهندس البناء والناصح الأمين ومعلم التغذية، لا وقت له للترف.

يتمنى المرء أن يكسب حماية فرعون وماله ليستمتع بالكثير ويخدم قليلا. ولكن يوسف طلب ذلك ليخدم الكثير في مقابل القليل.

كان في القصر قبل السجن حينما تعرف عليه الوزير وبعد أن تعرف عليه الملك دخل مخازن الحبوب ليشرف على التوزيع العادل. انتهت سني الخير وبدأ الجفاف ورأى المزارعون صحة قول يوسف كما رأى الملك والوزراء وكبار رجال الدولة بأن يوسف على حق. ارتفع صيت يوسف فعرفه الناس جميعا[47].

[47] هكذا يريد الله تعالى لأنبيائه أن يشتهروا بين السواد. إنهم يبدؤون بالملوك وينتهون بعامة الناس. فقد بدأ إبراهيم بالملك وحاشيته وانتهى بمن في المعابد من عامة الناس حتى طردوه. وبدأ نوح بالأغنياء والمترفين ثم تركوه ، وبقي مع السواد الأعظم. وخرج موسى من قصر فرعون شاباً في غضارة الشباب ليعود إليه داعيا إلى الله لا ساكنا مع فرعون. وانتهى في النهاية مع مجموعة صغيرة من فقراء بني إسرائيل ليعبر بهم البحر إلى حيث التوراة التي كانت بانتظارهم. وجاء المسيح ليبشر بني إسرائيل الأقوياء والعلماء الذين انحدر منهم ثم انتهى به المطاف مع مجموعة صغيرة من الحواريين. وجاء محمد ليدعو زعماء قريش ثم طُرد من مكة إلى حيث المال الأقل مع مجموعة من المؤمنين الذين دفعوا أموالهم لتحرير إخوانهم من ظلم مترفي مكة ثم هاجروا مع رسول الله ونزلوا ضيوفا على المتوسطين من أهالي يثرب. يبدو بأن هذا هو نظام رب العالمين. نهاية الهامش 47.

فعرفهم

فتح يوسف في سني الجدب مكتبه في أحد مخازن الحبوب ليشرف على التوزيع . .

وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿58﴾.

كان يعرف بأن أهله سوف يأتون إليه ولكنه لا يعرف كيف يأتون. إنما كان على علم بأن الله تعالى لا يريد لإخوانه الظالمين إلا أن يهديهم ولا يمكن أن يهديهم دون أن يختبرهم. لا ننس ما أوحاه إليه ربه وهو ينزل إلى الجب بعد أن اتفق إخوته على ذلك. يوسف يذكر ذلك وينتظر تحققه لأنه علم بأنه وحي من الله تعالى.

وصلت المجاعة إلى مدينة يعقوب وسمع الناس هناك بأن مصر تبيع الحبوب بالسعر الحكومي للعوائل. سمعوا بأن كل الناس يجب أن يحضروا بأنفسهم لأن الدولة المصرية لا تبيع إلا بالأسهم. سمعوا بأن كبار السن والنساء مرخصون من الحضور.

يبدو بأن النظام كان يقتضي بأن يسأل البواب أو مباشر التوزيع ولعله يسجل أيضا عدد أفراد العائلة ويطلع على الحاضرين ليطمئن بأن القادرين قد حضروا.

جاء الإخوة مع أهل المدينة طبعا وعرضوا أفراد أسرتهم. كان بينهم شاب لم يحضر ويريدون أن يأخذوا سهمه أيضا. كان سهم الغائب أقل من سهم الحاضر فلكل شخص حمل بعير له وللغائبين. ولكن الشبان يجب أن يحضروا جميعا.

كل المستثنيات تعود إلى يوسف نفسه ليفصل فيها ولذلك دخلوا عليه، هم جاؤوا مع الآخرين ثم دخلوا عليه لأنهم لا يصطحبون أخاهم. وافق الوزير على منحهم حق الشاب الغائب بصورة استثنائية كما يساعد غيرهم بالطبع.

حصل كل ذلك وهم لا يفكرون بأنه يوسف ولكن يوسف عرفهم فور دخولهم عليه. يعرف يوسف بأن ربه لن يرضى أن يعرفهم بنفسه. إنهم الآن في الاختبار وعليه أن يصبر حتى يشعر بحلول وقت التعارف. إنهم كانوا مخطئين عاصين؛ فهو ينتظر أن يصابوا بنوع من الخوف حتى يعودوا إلى ربهم قبل أن يتعرفوا عليه[48].

فكر يوسف بأن يُعيدهم إليه مرة أخرى حتى لا يذهبوا إلى مركز توزيع فرعي آخر. رأى بأن يبلغهم بأن الموافقة الاستثنائية لن تتكرر..

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿59﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴿60﴾.

أكمل الموظفون تجهيزهم وهم ينفذون موافقة الوزير المصري كما كانوا يفعلون مع الجميع. ولما انتهوا من ذلك ذهب إليهم يوسف بنفسه احتمالا ليقول لهم بأن كيل أخيهم لن يتكرر.

كانوا قد ادعوا بأن لهم أخا صغيرا من غير أمهم لم يحضر لصغر سنه ولأنه وحيد أبويه. كانوا كبارا في السن وكان يجب عليهم أن يذكروا سببا لغياب أخيهم.

ربما قال لهم يوسف، إنكم مسامحون في هذه المرة لكن هذه الأعذار غير مقبولة في المرة القادمة، فأْتوني بأخيكم من أبيكم لنعلم صدق دعواكم أولا وحتى لا تطلبوا مني الاستثناء مرة أخرى. لقد رأيتم بأنني أوفي الكيل ولكن عليكم بأن تساعدوني في أن أستمر في ذلك معكم. ولقد لمستم حسن معاملتي لكم. وإن لم تأتوا به مرة أخرى فلا تطلبوا مني كيله في المرة القادمة ولا تطلبوا مقابلتي ومساعدتي.

---

[48] يقول اليهود بأن زوجته المزعومة أقنعت يوسف بأن يدعوهم إلى بيته وأنا لا أحتمل صحة ذلك أبدا. لقد جاؤوا وشدوا رحالهم وذهبوا ولم يبقوا هناك حتى يفكر يوسف في دعوتهم. هذه أيضا من أخطاء إخواننا من بني إسرائيل. نهاية الهامش 48.

شعر الإخوة بأن الوزير المصري قد وافق على مساعدتهم ولكنه لم يكن بكامل الرضا لأن نظامه لا ينطبق مع هذا النوع من التعامل. أحسوا بأنه رجل طيب يحب مساعدة الفقراء ولكن عليهم بأن لا يحرجوه مرة أخرى وبأن يحضروا أخاهم ليطمئن لصدق دعواهم أيضا ولذلك:

قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿61﴾.

أرادوا التأكيد على ادعائهم بأن أباهم متشبث به لصغر سنه فقالوا بأنهم سوف يستعملون منزلتهم عند الأب ليغير رأيه ويرسل معهم أخاهم على الرغم من إصراره على إبقائه عنده. وأكدوا له بأنهم سيفعلون ذلك بكل ثقة.

اطمأن يوسف بأنهم سوف يعودون إليه. ثم فكر بأن يريهم المزيد من طيبه بأن يعيد إليهم الثمن الذي دفعوه ليعلموا بأنه لا يطمع في شيء وأن المال ليس مهما عنده ولكن الحبوب محدودة ويريد الوزير أن يطمئن بأن الأكل يصل إلى المحتاج فعلا. شعر بأنها فكرة جميلة..

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿62﴾.

دعني أخاطب بعض الإخوة الذين يظنون بأن يوسف وبقية الأنبياء يعلمون الغيب أو شيئا من الغيب، فلو كان يعلم الغيب لما قال: لعلهم... لعلهم يرجعون.

إنه فعلا كان يستعمل فكره الثاقب ويأخذ القرارات الدقيقة مستعينا بربه لأن يوفقه في أعماله. وبما أن نواياه كانت طيبة وصادقة ومخلصة لله تعالى وبعيدة عن الشهوات فكان التوفيق نصيبه.

شعر فتيان يوسف دون ريب بأن يوسف مهتم بهؤلاء أكثر من غيرهم دون أن يعرفوا السبب بلا شك أيضا. لكنهم لم يكونوا من العمال العاديين في المخازن، بل كانوا من فتيانه الشخصيين.

وفتى الشخص يُطلق على الذي يلازمه وهو موضع ثقته. فمثلا كان لموسى فتى يلازمه في أخص أسفاره حتى في السفرة التي ذهب فيها بأمر الله تعالى ليتعلم.

فهؤلاء الفتيان هم خواصه الذين يثق بهم ويبوح أمامهم ببعض أسراره حتى يساعدوه في تحقيق أهدافه. كان يريد أن تكون المسألة غير علنية فلا يشعرون بأن الأثمان قد أعيدت إليهم قبل أن يصلوا إلى أهلهم ويفتحوا متاعهم.

إن عنصر المفاجأة هناك قوى طلبهم من أبيهم لإرسال أخيه معهم. وأظن والعلم عند الله تعالى بأنه فكر من ذلك الحين بأن يأخذ منهم أخاه فيضطربوا ويأخذوا نصيبهم من العذاب فلا يكون مسئولا أمام ربه. إنه يعرف بأن من واجبه أن يؤدبهم قبل أن يُعرفهم بنفسه فلا يشعرون بما لا يستحقونه من الاطمئنان.

استجاب فتية يوسف لأمر سيدهم الذي أحبوه كما أحبه اغلب من رآه من قبل من أهل مصر، فجعلوا البضائع التي قدمها إخوة يوسف ثمنا للحبوب الحكومية، في رحالهم تحت الحبوب بحيث لا يرونها قبل أن يفتحوا أوعيتهم في بيتهم.

والرحال جمع رحل بمعنى الشيء الذي يصاحب المرء حين رحيله وسفره. ويُطلق عادة على ما يجعلونه على ظهر الدابة ليجلسوا عليها . ولكن الرحل هنا دون شك هو الذي وضعوه على الدابة لحمل الحبوب.

وأما قوله: **لعلهم يعرفونها**، فهو ليس راجعا إلى معرفة البضاعة. إنهم يعرفون البضاعة التي قدموها ثمنا لمشترياتهم دون شك. فالسر في الرحال بالجمع. وهو أن يوزعوا البضائع على كل الرحال حتى يعرفوا لحظة الوصول بأن البضائع كلها قد ردت إليهم.

فلو وضعوها كلها في رحل واحد فلعلهم يفتحوا ذلك الرحل فيما بعد فلا يستفيد يوسف من عنصر المفاجأة التي تزيد الأسرة عزما على العودة إليه. سيعلمون بأنه حينما قال لهم بأنه خير المنزلين، فقد كان محقا. ليعرفوا بأن العزيز يحب ويحترم الذين يأتون من بعيد ويعاملهم معاملة خاصة فيشجعهم ذلك على التشوق للعودة إليه.

إنهم بالطبع سوف يفتحون أحد الرحال ليرى أهلهم نوع الحبوب وليبدأوا بالاستفادة والطبخ.

فلما رأوا أن الرحل ينطوي على بضاعتهم فسوف يشكون في المسألة. سيظنون بأنه اشتباه. هناك احتمال قوي بأنهم سيفتحون الرحل الثاني فيرون نفس الشيء ثم سوف يفتحون كل الرحال. سوف تندهش الأسرة جميعها ويعرفون بأن إعادة البضاعة مقصودة. سيعلمون بأن العزيز إنسان طيب ولا خوف منه على ولدهم. سوف يثق يعقوب بقولهم وبصدقهم ويرضى بأن يرسل أخاه معهم.

يريد يوسف أن يشدهم إليه فلا يتركوا زيارته. لقد مكر يوسف مكرا عظيما بأن يأتوا مع أخيهم فيمسكه عنده فتضطر الأسرة للعودة مرة ثالثة أيضا وهكذا يتم التواصل غير المنقطع.

ثم إن يوسف كان يعرف فراسة أبيه وبأنه سوف يعرف أو يشك كثيرا بأن الذي رأوه هو يوسف.

يعقوب إنسان عبقري يقرأ الرسالة بمجرد أن يرى الآثار ولا يمكن أن تخطئ فراسته. ليس معقولا في ذهن يعقوب أن يقول لهم شخص بأن عليهم ألا يأتوا عنده مرة أخرى دون أخيهم، ثم يعيد الثمن إليهم ويكرمهم. إنه يعرفهم وليس من يعرفهم غير يوسف.

يعقوب كان يعرف بأن يوسف نبي لا يمكن أن يكون مقتولا. الأنبياء لن يُقتلوا ولا يمكن أن يموتوا قبل أن يكملوا رسالاتهم.

وحينما قال يعقوب لابنه بأن الله تعالى سوف يجتبيه فيكون هو مؤسس الأسرة الإسرائيلية فهو كان مطمئنا بأن الرسالة السماوية موجهة إلى ابنه يوسف، فلن يُقتل يوسف كما أنه لن يموت قبل انتهاء رسالته.

والرسالة منوطة بأن يجتمع مع إخوانه الذين هم آباء بني إسرائيل في مكان واحد. فمقصود يوسف في (لعلهم)، في الواقع هو يعقوب بالأحرى. لكن الفتية علموا بأنه يقصد بأن تتعرف الأسرة على تعمد العزيز بأن يعيد البضاعة إليهم فوزعوا البضائع على الرحال جميعها. والعلم عند الله تعالى.

وأما جملة "**إذا انقلبوا إلى أهلهم**" فهي تعني إذا عادوا إلى أهلهم. بمعنى أن يوسف كان حريصا على أن يهتم الفتية بإخفاء البضاعة حتى لا تنكشف قبل أن يعودوا إلى الأهل. فمعنى الانقلاب في الحقيقة هي العودة كما قال تعالى في سورة الأعراف على لسان السحرة بعد أن آمنوا بموسى:

قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (125).

ولكن الفرق بين العودة والانقلاب هو بأن العودة قد تكون بنفس الطريقة التي تحرك منها الشخص إلى مكان ما. فتكون العودة بسهولة السفر. لكن الانقلاب يعني أن يعود المرء منقلبا على عقبيه وهو مغاير للسفر الأول. فقد يكون صعبا جدا فقط وقد يكون مثمراً كثيرا أيضا.

يعرف يوسف بأن فرحة العودة إلى الأسرة بسلام محمولة بما يشبع بطونهم فترة من الزمان ثم يرون بأنهم لم يخسروا مالا بل عادت إليهم بضاعتهم قد تكون مفاجأة جميلة مفرحة يسهل معها أن يتقبلوا المزيد من التضحية طلبا للمزيد من المنفعة. وعلى هذا الأساس فإن احتمال عودتهم إليه سيكون كبيراً جدا.

كل ذلك إضافة إلى ما يظنه من فراسة أبيه يعقوب الذي سيبدأ شوقه بعودة ابنه يوسف بالتهيج والاشتعال في قلبه. فعل يوسف ما بوسعه وترك الأمر لله تعالى ربه الكريم الرحيم ولننظر ما الذي حصل فعلا:

فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿63﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿64﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿65﴾.

أصغى الإخوة إلى ما سمعوه من يوسف وفكروا في كيفية الطلب من أبيهم ليضمنوا موافقته. كانوا لا يدرون بأن الذي طلب منهم الأمر يعرف الأسرة بكاملها ويعرف كيفية إقناع يعقوب.

كان يوسف قادرا على أن يخمن رد فعل الأب الكبير وقد مهد له دون علمهم. وللمرة الثانية قام يوسف ويعقوب بعمل غاب عن الإخوة تماما وهما يختبران آباء بني إسرائيل اختبارا عسيرا لعلهما ينجحان في إخراجهم من العناد والكبرياء الإسرائيلي إلى الخضوع للرحمن والشعور بأنهم عبيد مثل غيرهم لرب واحد عزيز قهار.

لقد سبق لهم أن طلبوا من أبيهم مرافقة يوسف لهم وقالوا له بأنهم له حافظون. عادوا وكرروا نفس الكلام ليأخذوا معهم أخاه الأصغر، فكيف يوافق يعقوب على طلبهم؟ قالوا له سابقا بأنهم يريدون اصطحاب أخيهم يوسف ليسرح ويمرح معهم، ولكنهم كذبوا وعادوا إلى أبيهم بقميص ملطخ بالدم.

هكذا يتعاملون مع أب فذ يحمل عقلا نفاذا بعد أن ازدادوا خبرة عقدين من الزمان. هؤلاء هم أصول بني إسرائيل. لا يمكن أن نصفهم بالحمق لأنهم يحملون جينات يعقوب وإبراهيم، ولا يمكن أن نظن بأنهم كفار مشركون، فهم أحفاد شيخ الأنبياء وأكبر من أسلم وجهه لله تعالى وقد تربوا في بيت النبوة.

لكن المشكلة الكبرى عند بني إسرائيل هي الشعور بالاستعلاء الأجوف الذي يبعدهم عن الحقيقة ويضيع عليهم فرصة التفكير الدقيق في عواقب الأمور. إنهم عقلاء ومؤمنون بالله ولكنهم متكبرون يظنون بأنهم خير البشر.

وإني أظن بأن كلما يخسره العرب اليوم هو جراء نفس التفكير المتعجرف الذي يحول دون أن يفكر العرب في العواقب، كما يحول دون أن يفكر المؤمنون منهم بيوم الجزاء. بنو إسرائيل والعرب يظنون بأنهم مفلحون يوم القيامة لأنهم أفضل من غيرهم. فأولئك أحفاد يعقوب العظيم وهؤلاء خيار من خيار.

وهكذا نرى الله تعالى لا يمن على أي منهم بالمساعدة ليخرج مما هو فيه من العذاب لأنه سبحانه يكره الكبرياء لمن لا يستحق أن يتكبر. وليس من حق غير الله تعالى أن يتكبر. ولو نفتح عيوننا لنرى بأن ربنا سبحانه قد أبلى المتكبرين العرب والمتكبرين من بني إسرائيل ببعضهم البعض. أليست هي سياسة حكيمة؟

أضاف الإخوة هذه المرة بأنهم سوف يخسرون كيل بعير لو ذهبوا بدون أن يصطحبوا أخاهم.

لقد منَّ عليهم العزيز فوافق على ادعائهم على مسؤوليته ولكنه أبلغهم بأنه يرفض العودة إليه مرة أخرى بدون أخيهم.

ولو نلاحظ الفرق بين التعبيرين الصادرين من يوسف ومن إخوته لنفس الموضوع. قال يوسف لفتيانه بأنه يأمل بأن يعودوا إليه مع أخيهم بعد أن **ينقلبوا إلى أهلهم** ومهد لقبول الأسرة بأن أعاد إليهم بضاعتهم، ولكن الله تعالى قال بأنهم بدأوا بالطلب من والدهم بعد أن **رجعوا إلى أبيهم** مباشرة وبدون مقدمات.

وهناك كما قلنا فرق بين الموقفين. كان عليهم أن يصبروا قليلا حتى يفتحوا متاعهم فترى الأسرة بأعينها النتيجة فيطلبون من والدهم وهم في غمرة الفرحة بأن الأولاد جاؤوا بكسب حقيقي. لكنهم أسرعوا. فما الذي ننتظره من يعقوب إلا أن يرد طلبهم ويذكرهم بأنهم خانوه من قبل؟ علل يعقوب رده عليهم بأن الكيل من الحبوب لا يمكن أن يقنعه ليسلم ابنه الأصغر بيد إخوانه بعد أن خانوه في أخيه الأكبر .

إنه مؤمن يؤمن بأن الرزق من الله تعالى وهو خير حافظا وهو أرحم الراحمين. وبقوله: **فالله خير حافظا**، أبلغهم بأنه يتوكل على الله تعالى ولا يبالي بخسارة حمل بعير. فالفاء على رأس الجملة الكريمة تعني بأنه يستنتج بأن الاتكال على خير الحافظين خير له من الاتكال على الوسائل المادية.

وحينما نحلل موقف يعقوب من أبنائه نشعر بمعنى الاتكال على الله تعالى ونعرف متى يجب علينا أن نترك كل المكاسب المادية وننفرد بالاتكال عليه ولو كانت حساباتنا تدل على غير ذلك.

استنتاج الإخوة كان استنتاجا ماديا دنيويا محضا. لقد ذهبوا بدون الأخ وتمكنوا من العودة مع كيل خاص بأخيهم دون أن يكون معهم. هذا يعني بأن الله تعالى قد أعانهم وأدخل في قلب العزيز المصري الذي لا يعرفونه الرحمة والشفقة عليهم وعلى أبيهم. فما الذي يحول دون أن يفعل الله تعالى ذلك مرة أخرى، بل مرات أخرى؟ لكنهم ماديون يعزون كل النتائج إلى أعمالهم الظاهرية.

من الطبيعي أن نستعين بالوسائل المادية ولكننا يجب ألا ننسى بأن الله تعالى قد يساعدنا بدون ذلك أيضا إذا قست علينا الظروف.

إذن فما الذي حصل بعدئذ ليغير يعقوب رأيه؟ يعقوب ذلك الفذ الثاقب ينتظر شيئا آخر من يوسف ليعرف بأن أبناءه رأوا يوسف لا غيره؛ ولكن يوسف لا يمكنه أن يرسل ما اتفقا عليه الآن.

إلا أن يوسف أرسل رسالة مع إخوانه لأبيه وهو يعرف قوة عقله وحدة ذكائه. لقد ذكر الإخوة قصة عزيز مصر وعرف أبوهم بأنه مسئول كبير في الدولة التي تعاني من الجفاف.

عرف بأن ملك مصر يريد مساعدة القرى المحيطة بمصر ولكن ليس على حساب أموال مصر. إن ما يأخذونه لقاء مبيعاتهم من الحبوب يمثل ما دفعوه للناس لقاء شراء الحبوب منهم. والإخوة لم يُظهروا الفقر المادي بل حملوا معهم قيمة الحبوب. كانت مشكلتهم الحاجة إلى الغذاء وليس إلى المال.

إذن لماذا أعاد المسئول الثمن إليهم؟ إنه سيدفعها من جيبه للدولة بالطبع. وما الداعي أن يخسر مسئول كبير يلقى كل يوم عشرات من أصحاب القضايا المماثلة من حسابه الشخصي؟ فهذا يعرفهم ويعرف الذين يريدون أن يتغذوا من تلك الغلة. ومن يمكن أن يعرفهم في مصر وهم أسرة فقيرة يعيشون في كنعان أو ما يقرب من كنعان؟

عرف يعقوب بأنه يوسف وبأنه يقول لأبيه لا تحزن فاللقاء قريب ولكننا علينا كأنبياء أن نؤدب الذين ظلموا من أهلنا لعلهم يعودوا إلى الله تعالى و يستغفروه بحق.

عظيمٌ يعقوب، وبحق عظيم! فلا يمكن للشخص العادي أن يمسك نفسه دون أن يظهر على وجهه آثار الأمل والشوق ودون أن تنحدر من عينيه دموع الفرح.

هذا هو سر رضوخ يعقوب لطلب أولاده بعد أن فتحوا المتاع وشرعوا بفتح رَحل بعد رحل ليروا بأن البضائع معادة وموزعة في الرحل كله. اطمأن يعقوب بأن يوسف يريد أن يستلم أبوه الرسالة ولو لم يفتح غير حمل بعير واحد. لكن الإخوة وبقية من في البيت لم يعلموا شيئا عن الرسالة البريدية. ومن الواضح أن يعقوب لم يفصح لأحد أبدا حتى أم يوسف. نعرف ذلك حينما قضت إيحاءات الشوق على كيانه النفسي فظهر بعض الآثار على أعماله التي سعى فورا لإخفائها. سنعرف ذلك بعد قليل. لنقرأ الآيات مرة أخرى:

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿63﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿64﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿65﴾.

ولنشرح الآيات باختصار حتى تنقشع كل التساؤلات بإذن العزيز العليم.

مُنع منا الكيل: يعني بأن الكيل الذي ترونه أمامكم باسم أخينا قد مُنع بعد هذه المرة. ذلك لأن العزيز قال لهم بأن عليهم أن يُحضروا أخاهم وإلا فليس لهم أن يدخلوا عليه مرة أخرى طالبين مساعدته. سيكتفون بالكيل العام الذي يحصله من وصل إلى مسئولي التوزيع من الموظفين المناط بهم التوزيع والبيع.

فأرسل معنا أخانا نكتل: تعني بأن كيل أخينا الصغير مرهون بموافقتك على إرساله معنا فلا تمانع ونحن نتعهد بحفظه.

قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل؟ سألهم سؤالا يعرفون جوابه. لقد اعتمدت عليكم من قبل بإرسال أخيه معكم فتقاعستم في حمايته، وتعرفون ما فعلتم به. مغزى استفسار يعقوب: ألا تخجلون بأن تطلبوا مني مرة أخرى أن أئتمنكم على أولادي الصغار الذين يحتاجون إلى عنايتي وقد خنتم الأمانة من قبل؟ لا تنتظروا مني أن أعتمد عليكم فأنتم تنكثون العهد وتنقضون المواثيق. هذه شهادة إسرائيل على أكبر عدد من أولاده.

فليعلم الإسرائيليون مدى تقبل الآخرين إياهم. والواقع أن غالبية الناس لا يأتمنون عامة اليهود من بني إسرائيل ولا يثقون في وعودهم. إن نكث العهد عادة لا تفارق الكثيرين منهم مع الأسف. اقرأ مسألة عدم ثقة يعقوب بأولاده العشرة في التوراة الفعلية: سفر التكوين: الإصحاح 42 من 36 – 38.

فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين: يريد يعقوب أن يؤكد لأولاده بأنه يعلم حاجتهم إلى المزيد من الحبوب ويقبل بأن ذهاب أخيهم معهم يساعدهم على بلوغ الهدف ولكن المخاطرة معهم بعد أن نكثوا عهدهم من قبل قد تدل على أنه لن يتورع عن بلاء أصابه من قبل ليتوقى التكرار.

وحينما يشعر المرء بخطر الموت فعليه أن يترك خطر المجاعة لربه. إنه سبحانه أرحم الراحمين ولا مبرر للتوسل بالوسائل العادية التي ثبت اقترانها بخطر فادح. دع الذي يحفظهم من كل سوء ليحفظهم من المجاعة أيضا.

قال لهم بكل ثقة بأن الله أرحم إليه وإليهم من أنفسهم ولا يجوز له المخاطرة مع تجربته السابقة معهم. هذا هو مورد صحيح للتوكل على الله تعالى وترك كل الوسائل الأخرى بانتظار رحمة أرحم الراحمين.

هذا درس نبوي في حدود ما يجوز فيه المخاطرة بأن لا تتكرر نفس المخاطرة لتجنب خطر أقل مما يتوقعه بعد أن تمت تجربة عملية مماثلة مع نفس الأشخاص.

ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم: بقي قرار يعقوب ساريا بعد أن عجز الإخوة عن إقناع أبيهم ويئسوا فعلا مستسلمين لما يقدره لهم ربهم.

لقد وعدوا العزيز وعلموا الآن بأنهم دون مستوى القدرة على إقناع أبيهم. فمما لا ريب فيه أنهم فقدوا اللغة التي يمكنهم بها إرضاء الأب العجوز وعلموا بأن كل تدابيرهم ومساعيهم لتحقيق الهدف قد باءت بالفشل الذريع.

ومع تحقق اليأس من إقناع يعقوب بدأوا بفتح المتاع فوجدوا [49]الرحل الأول يحمل قسما مما قدموه من الثمن للعزيز!.

---

[49] علينا الانتباه بأن الوجدان يختلف عن الرؤية. ألا نرى بأن المرء لا يستعمل كلمة الرؤية حينما يجد ضالته بل يستعمل الوجود عادة؟ إنها أبلغ من الرؤية حينما يتحقق المرء من شيء أكثر من أن يمر أمام عينه أو أن يكون التفكر فيه مؤثرا بحيث يمكن أن يستعمل المرء كلمة الرؤية حتى لو لم ير شيئا بعينه ولكنه لا يمكن أن يستعمل الوجود بغير التحقق الفعلي وبعد الحصول لا قبله.

وحينما يريد المزيد من التأكيد للمستقبل يستعمل كلمة الوجدان أيضا مثل قول إسماعيل لأبيه كما في سورة الصافات:

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102).

أو قول موسى لذلك العبد الصالح كما في سورة الكهف:

فالآية الكريمة من سورة يوسف تشير فعلا إلى تغيير مفاجئ في حالتهم النفسية حينما لمسوا حقا بأنهم لم يخسروا مالا مقابل ما جلبوه لأهليهم من متاع! نحتاج أن نفكر بأننا نلاحظ قصة آباء بني إسرائيل الذين يهتمون بالمال أكثر من أي أمر آخر. أنا لا أتهم يعقوب عليه السلام ولكنني أشعر تماما بأن ،الأبناء العشرة الكبار قد تفتحت أساريرهم حينما وجدوا المال المعاد إليهم وبغض النظر عن مصدر المال واحتمال أي نوع من الحيلة في الأمر فإن قريحتهم تفتحت ليقولوا عند لمس المال المعاد فعلا:

يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي؟ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا؛ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا؛ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ؛ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ.

قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) .

وقوله تعالى حول الفاسقين من أصحاب أنبياء السلف كما في الأعراف:

وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102) .

فهو سبحانه يتحدث بعد أن فعلوا ما فعلوا فعلا ولا يتحدث عن علمه.

ومثلها ما أمر الله تعالى به المسلمين على عهد الرسول أن يبحثوا عن الذين يمارسون الإرهاب من المشركين فإذا وجدوهم بالجرم المشهود قتلوهم حتى لا يكتفوا بالعلم الإجمالي والاحتمال والاعتماد على شهادة الناس. فقال تعالى في سورة التوبة:

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (5) .

ولو أراد سبحانه أن يأمر بقتل المشركين دون الجرم المشهود لما أمر بأن يقعدوا لهم كل مرصد بل اكتفى بحكم القتل واخراج المسلمين لهم من بيوتهم ليقتلوهم. لكنه سبحانه لا يقبل أن يقتلوا أحدا قبل أن يجدوه فعلا متلبسا بالجريمة ويسعى سبحانه جهد الإمكان ليمنع من قتل أحد ولذلك لم يترك الحكم دون أن يفتح لهم مجالا للتوبة حتى في آخر لحظة. وأعقب سبحانه أمرا لرسوله كما يلي:

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ (6) .

وأعقبها سبحانه أيضا بإعذارهم بأنهم قوم لا يعلمون. سبحانه من رحيم لا تتوقف رحمته أبدا. نهاية الهامش 49.

تشير نبراتهم إلى الفرحة الغامرة التي ملأت قلوبهم فزادتهم ثقة ليعيدوا الطلب من أبيهم لأنهم ظنوا بأن الأب لابد وأنه يهتم بالمال كما اهتم به أبناؤه. ولذلك فتحوا خطابهم بعد اليأس إلى أبيهم هكذا:

يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي؟ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا:

والسؤال يعني بأن ليس هناك ابتغاء أفضل وأكثر رجاء مما رأيناه من عودة المال إلينا مصحوبا بالمتاع الذي يسد جوعنا.

لو يسعى القارئ الكريم أن يفكر في حديثهم عن الحبوب التي لولاها لكان الهلاك جوعا بانتظارهم ويقارنَه مع سؤالهم هذا ليستيقن بأن هناك صدمة فرح كبيرة فاجأتهم فملأت قلوبهم قبل عيونهم فعلا.

أنظر إليهم، تحدثوا عن البضاعة قبل القدرة على أن يميروا أهلهم. هذه هي حالة الذين يبالغون في حب المال فتأتي أبدانهم وحياتهم في المرحلة التالية.

هناك بعض الناس ولعل الكثير من اليهود يموتون في سبيل المال ولا يشعرون بالخطأ لأن المال عندهم هو الأصل والهدف وهو الحياة بعينها. وهنا نعرف بأنهم كانوا في ضغط نفسي شديد بأنهم قدموا مالا وبضاعة مقابل حبوب كانوا يجلبونها مجانا من مزارعهم قبل القحط.

لقد اختصر الراغب الإصفهاني معنى البغي بـ "**طلب تجاوز الاقتصاد**" وهو تفسير جميل ومتكافئ للكلمة.

وهم أرادوا أن يقولوا بأن ما وجدوه هو أكثر بكثير مما كان يمكن توقعه من جمال في المفاجئات الممتعة. فعنوا بأنهم هل يمكن أن يطلبوا أو ينتظروا أكثر من ذلك؟.

وكأن الدنيا برمتها أقبلت إليهم حينما شرحوا بكل فرح: **هذه بضاعتنا؛ ردت إلينا**. ثم استرسلوا في بيان المزايا الأخرى لأن يأخذوا معهم أخاهم.

وقبل أن نفحص ما قالوا بعد ذلك دعنا ننتبه بأنهم اتباعا للمنطق اليهودي الذي بنوه لكل أبنائهم استيقنوا بأن مسألة مصاحبة الأخ الصغير لهم قد حُلَّت وليس لإسرائيل عليه السلام إلا أن يبارك لهم ما طلبوه في حين أنهم أرادوا إرضاءه قبل قليل. ولذلك لم يطلبوا الإذن مرة أخرى لأنهم الآن مأذونون وما عليهم إلا أن يتغنوا بما كسبوه من فضل العزيز المصري الذي أعاد إليهم بضاعتهم.

ونمير أهلنا ونحفظ أخانا: يعني نزود أهلنا بالميرة من الطعام وهو الذي يحتاج إليه الناس لإشباع بطونهم؛ وليس الطعام الزائد مثل الحلويات والفواكه ميرة في واقعها.

ولذلك فميرة الأهل هو ما يسد الجوع فقط. وعليه فإن حفظ الإنسان منوط به؛ فأخوهم يحتاج إلى أن يسد جوعه قبل كل شيء ليقي نفسه وقد تحقق ، وسوف يتحقق في المستقبل ولا يحتاج أن يقتات من ميرة بقية الأسرة.

ونلاحظ بأن الأولوية للثمن المستعاد والمكسب التالي هو الميرة والثالث هو حفظ الأخ. ولم يكتفوا بذلك بل أرادوا أن يشرحوا لوالدهم المزيد من مكاسبهم المنتظرة بقولهم التالي:

ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير: لا أدري هل لا زال الخوف من رفض الأب باقياً في قلوبهم أم قالوا تلك الجملة من منطلق آخر. فلو كان الخوف باقيا فهم بتلك الجملة أرادوا أن يقولوا لأبيهم بأن قصتنا مع يوسف تختلف عن قصتنا مع أخيه. لم نجن من يوسف مالا وما كان يوسف منتجا ولكنه تكبر علينا على الرغم من حاجته. لكن هذا الأخ الصغير الآن هو سبب لجلب المال – والعزة عندهم في المال طبعا – فسوف

نحافظ عليه بكل قلوبنا لما فيه من خير لنا وله وللأسرة. ولذلك لا نرى داعيا لخوفك يا أبانا من أن نتآمر عليه[50].

و قول إخوة يوسف: **ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير**. هو دليل واضح على أن الكيل الذي مُنع عنهم هو كيل الأخ الصغير الذي أعطاهم يوسف منحة منه وأبلغهم بأن لا جدوى لمراجعته مرة أخرى. فلو أرادوا كسب ذلك الكيل فعليهم أن يجلبوا معهم أخاهم. إن ذلك الكيل محذوف عنهم لو عادوا بدون أخيهم إلى العزيز. وأما لو عادوا معه فهو كيل مضمون. ولذلك عبروا عنه بالكيل اليسير بمعنى السهل المشروط باصطحابهم لأخيهم.

---

[50] فهل يتآمر بنو إسرائيل على من يسبب لهم المكاسب؟ وواقع الأمر أن أكبر وسيلة لدرء خطر اليهود هو أن تساعدهم على كسب المال كما أن أكبر خطر يهدد الآخرين من اليهود هو أن تقف أمام مكاسبهم المادية. فكأنك تقتلهم آنذاك.

ولا أدري هل فكر العرب بأن مقاطعة إسرائيل لن تجدي نفعا ولن يقلص من خطر اليهود بل يزيدهم حرصا على محاربة العرب والسعي لسحقهم كما فعلوا.

قال تعالى مخاطبا نبينا الأمين في سورة الجمعة التي نزلت لتُعلّم المسلمين ونبيهم كيفية المواجهة الحكيمة مع اليهود:

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11).

فموضوع سورة الجمعة يدور مدار التعامل مع اليهود وقد ختم الله تعالى التعليمات بأن أخبر رسوله الأمين بأنَ ترك الأمور التجارية لليهود الذين يحبونها لأنها تأتي لهم بالمال؛ سيشجعهم على تركك قائما على دعوتك لدين الله تعالى.

واعلم بأن ما عند الله تعالى من خير وحبور بعد الحساب يوم القيامة، خير لك من لهو الدنيا ومن التجارة فيها. ولا تنس بأن الله تعالى هو الذي يرزقك وهو خير الرازقين. إنه يرزقك ما يكفيك ويقدر لك حياة مليئة بالأفراح لمستقرك الأخير فرزقه في الواقع رزق ممتد لا نهائي ولذلك فهو خير الرازقين.

والسورة الكريمة تدعو المسلمين للاهتمام بالجمعة كوسيلة مثلى لتجميعهم حول ذكر الله تعالى وتقوية بنيانهم وعدم الاكتراث كثيرا بالمال وبالتجارة فالله تعالى غير مهتم بالمسائل الدنيوية التي لا تؤثر في مكاسبهم الأخروية. نهاية الهامش 50.

وأما إذا قلنا بأن خوفهم من رفض أبيهم إرسال الأخ الصغير معهم كان زائلا فقد يكون غير صحيح. لو كان كذلك لما احتاجوا مع زوال الخوف إلى القول بأن كيل بعيره سيصبح سهلا مضمون النيل. ولذلك نجزم بأنهم لم يكونوا فعلا واثقين تماما من موافقة أبيهم ولكنهم كانوا يسعون للحديث مع أبيهم وكأنه موافق ولا مجال له للرفض[51].

يعقوب ويوسف لم يكونا ممن يركز على حساباته الخاصة دون وضع اي خط للرجعة عنها. فنرى يعقوب يضرب أحلام اولاده مرة أخرى بقوة ولكنه يوافق على طلبهم لسبب آخر. والقرآن الكريم يصف رد يعقوب عليهم كما يلي:

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿66﴾

يجب أن نقرأ ما في نفس يعقوب حتى نتعرف على الموقف بدقة وفهم. فيعقوب في منتهى الذكاء والعبقرية وهو عالم عظيم لا يمكن أن يترك مسألة تُلقى إليه من الغير دون أن يفكر فيها بنفسه ليعلمها

---

[51] هذه حالة يهودية أخرى وهو أنهم يحسبون حساباتهم ولا يتوقعون أن تكون خاطئة فيكون خطابهم مع الآخرين أكثر جزما وثقتهم بأنفسهم أكثر واقعية. كأنهم ينتظرون من بقية الناس ألا يخالفوهم أبدا ويحزنون كثيرا إذا ما واجهوا منطق الرفض من الغير.

ولنكن واقعيين فإن منطق الثقة بالنفس مفيد جدا ودافع من دوافع التقدم ولكن الحسابات يجب أن تكون متناهية الدقة وأن يصغي المرء معها للآخرين أيضا. ذلك لأن القوة ليست في الأعمال والأسباب وحدها فلدوافع الناس واهتماماتهم أكبر الأثر في تحقق النجاح أو الخسارة الفادحة.

وعلى هذا الأساس فإن خسائر اليهود قليلة ولكنها كبيرة جدا. كما رأينا خسارتهم الكبرى مع النازيين. ورأينا في المقابل نجاحهم الباهر مع بقية دول العالم حينما سعوا لإحياء الدولة العبرية على مقابر جدودهم. هذا منطقهم وهو قوي ولكنهم قلما يسقطون ويكون سقوطهم قويا أيضا. ومن يدري فلعلهم يسقطون مرة أخرى، وسيسقطون مرة أخرى بظن من يعرف شيئا عن كتاب الله تعالى. ولا ضير بأن نعرف أن العرب ليسوا بعيدين من هذا المنطق بل هناك بين العرب من هو متشبث به تماما وهكذا بقية الأمم. ويمكن أن نطلق عليه اسم منطق المغامرات الكبرى. كل إخوان يوسف ما عدا الكبير قد غامروا في إبعاد يوسف وأعلنوا موته على أساس ذلك المنطق الخطير. نهاية الهامش 51.

مستلهما من سيد الكائنات الذي لا يمكن أن يخطئ كما لا يمكن أن ينسى عبيده الذين يطلبون منه وحده النور والعلم، جل جلاله.

يجب أن نعلم بأن العبقري العظيم أبا يوسف وموسى وعيسى وكل أنبياء بني إسرائيل، قد أدرك تماما وبكل دقة تفاصيل أفكار أبنائه الذين سيُخلِّفون أمة بني إسرائيل الموعودة.

علم يعقوب بأن أحاديث الأبناء تتبخر من واقع المادية المحضة وتنجلي عن اهتمام كبير بالمال وتدل على ابتعاد كبير عن واقع الحياة. فهم يبنون كل تدبيراتهم على الظاهر وينسون أصل الكائنات والمصير المحتوم إليه سبحانه وتعالى.

ليس لبنوة الأنبياء ولا لفهم بعض الحقائق السماوية أثر كبير في فهم أعماق الحقائق ما لم يتذكر العاقل ربه دائما وأبدا فيتوكل عليه وحده ويعتبر كل مفاهيم الحياة وكلما يتوصل إليه بفكره نعمة منه سبحانه ويعتبر نفسه مبتلى بالنقص الأبدي والفقر الدائم إلى القدوس العزيز.

قال تعالى في سورة الروم:

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون (10) اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12).

اصطدم أبناؤه الماديون حينما قال لهم بأن إرسال ابنه معهم منوط بأمر آخر غير ما يجول في خواطرهم من أفكار تجارية رخيصة.

بالطبع أنه عليه السلام أربكهم برفض قاطع ثم قبول مشروط بشرط ممكن وبسيط.

لقد ظنوا بأن استعادتهم لبضاعتهم وانتظارهم للمزيد من الخير على يد العزيز كانت كافية لإقناع شيخ بني إسرائيل، فإذا به يرفض ذلك بكل قاطعية رفضا باتا.

"**لن أرسله معكم**" تعني بأنهم مخطئون في فهمهم لما يقصده أبوهم.

ثم اصطدموا أيضا بأنه مع هذا الرفض القاطع يوافق على إرساله بشرط بسيط ويوصيهم توصية غريبة لم يتفطنوا لها من قبل.

وواقع الأمر بأن يوسف أرسل رسالته لأبيه ونجح في إبلاغه إياه ويعقوب وافق على إرسال الولد الصغير بعد أن استيقن بأن العزيز هو يوسف وليس شخصا آخر.

لكن يوسف ويعقوب متفقان بأن المجموعة الضالة من الأسرة قد لا تفيق قبل أن تواجه ضيقا شديدا يعلمهم أصول التفكير ويهديهم سبيل الحق والرشد الذي ينتهي إلى الله تعالى.

بالطبع أن أبناء يعقوب يدركون خطورة الحلف بالله تعالى فسيواجهون عواقب النكث وعدم الاكتراث. إنهم ليسوا كالجاهلين من عامة البشر، ولذلك فإن تبعات القَسَم الكاذب سوف تلحقهم.

ويعرفون بأن يعقوب الأب واضع كل ثقته بربه، ولكن أليس في التوفيقات المادية دليلا على أن الله تعالى يحب الذي قدر له المال؟ هذا هو خطأ غالبية المؤمنين بالله وأنا شخصيا منتبه لهذه المسألة منذ فترة

طويلة وأتوق أن أرى مؤمنا يعرف بأن دور القدرات الظاهرية في الدنيا بسيطة جدا ولكنها مضللة فحسب، لكني قلما أرى من يفكر فيها[52].

وحينما نمعن في ما قاله لهم أبوهم نعلم بأن الأب يقوم بمهمة أخرى مغايرة تماما للمهمة التي يفكر فيها أبناؤه من زوجته الأولى أو زوجته غير أم يوسف.

إنهم منهمكون بجلب الحبوب لمواجهة المجاعة ويعقوب يفكر في صناعة بني إسرائيل. يزداد يعقوب يقينا كل يوم بأن الصناعة ستتم على يد يوسف وبأن أبناءه جميعا هم آباء بني إسرائيل ولكنه يفكر في عاقبة هذه الأمة العظيمة التي تنحدر من مجموعة مادية لا تفكر إلا في المال ولا تهتم إلا بالدنيا.

لو كانوا يفكرون قليلا لعرفوا بأن الذي يكرمهم بإعادة أموالهم إليهم ويعطيهم ما يحتاجون إليه مجانا لهو أكرم منهم فهو أكرم من بني إسرائيل.

إنه أكرمَهم دون أن يمن عليهم بل سعى لإكرامهم بكل احترام فهو نموذج يثبت لهم بأن بنوة إبراهيم ليست كافية لكسب المكرمات والفضائل وعليهم ان يعلموا حينها بأنهم مخطئون.

---

[52] لا يمكن القول بأن الجميع غافلون عن أن الراحة التي يقدرها الله تعالى في الدنيا لا تعني بأن المرتاح مرضي عند رب السماوات. لكننا نرى الكثير من المؤمنين يظنون ذلك أو يصدر منهم ما يدل على إيمانهم بذلك. هذه الظاهرة التي تتكرر كثيرا لدى المتقين تدل على غفلة كبيرة في قلوب الذين يؤمنون بالله تعالى ويُظهرون الثقة به سبحانه.

يراهم الباحث المتتبع بأنهم فعلا يخافون الله تعالى ولكنهم يجهلونه ويجهلون تقديراته الحكيمة جهلا كبيرا. وإني أذكر نفسي وإياهم بهذه الآيات الكريمة من سور فصلت:

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ (51) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (52). نهاية الهامش 52.

وسنرى فيما بعد بأن يعقوب تمكن بعناية ربه من معالجة هذا الداء النفسي الخطير ولكن العلاج اقتصر على أبنائه المباشرين ولم يتعداهم إلى أمة بني إسرائيل الكبرى.

تلك هي الحاجة التي قضاها الله تعالى ليعقوب برأيي كما سنعلم بعد قليل بإذن العزيز سبحانه.

قال النبي الأمين بأنه لا يكترث بما جنوه وبما ينتظرونه من مكاسب مادية ولكنه موافق على إرسال أخيهم معهم شريطة أن يوثقوا معه ميثاقا من الله تعالى بألا يألوا جهدا لإعادته إليه بما أوتوا من قوة.

فحمّلهم مسؤولية حمايته فضلا عن نهيهم بطريقة غير مباشرة عن التفكير في أية مؤامرة ضده.

و شبه الجملة "**لتأتُنّني به**" تنطوي على عدة تأكيدات.

فاللام بمعنى أنهم سوف يجدُّون بكامل وسعهم ليأتوا به باعتبار أن اللام هنا تعني تأكيد المتكلم على ما يقوله واللام هنا مقرون بالقسم بالله تعالى أيضا . ومعروف أن لام التأكيد لا تعمل.

النون المشددة الأولى نون تأكيد ثقيلة فلو كانت خفيفة قال لتأتونّي به. وهذه النون تفيد التأكيد الثاني المضاعف.

واستعمل فعل الإيتاء ليعطي معنى إيصاله إليه وليس إرساله بواسطة أو بنفسه. فهم مرتبطون بحلف من الله تعالى أن يوصلوه إليه إلا أن يُحاط بهم.

والإحاطة بهم تعني فقدانهم كل قوة لحمايته وإرجاعه. بمعنى ظهور قوة قاهرة تحيط بهم من كل جانب فيفقدوا السيطرة بالكامل.

عرف يعقوب شخصَ العزيز وأخذ رسالته وبعث برسالة إليه عن طريق أخيه الذي لا يد له فيما فعله إخوانه ضد أخيه وأخيهم يوسف. كان ذلك بعد أن قبل الإخوة كل شروط الأب العجوز وآتوه الموثق كما يريد. استمر الأب في التوصية بالتالي:

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿67﴾.

قرأت كل التفاسير المنشورة في موقع للتفسير يجمع معظم التفاسير المعروفة فرأيت معظم المفسرين متفقين على أن يعقوب خاف على أولاده من الإصابة بالعين[53].

---

[53] إلا اثنين منهم، هما البقلي المتوفي 404 هجرية، في: عرائس البيان في حقائق القرآن، الذي سجل رأيا مغايرا وهذا نصّ تعبيره: "أشار (يعقوب) الى بنيه اى اذا عزمتم بقلوبكم وارواحكم وعقولكم واسراركم سلوك سبيل الحق لا تدخلوا فيه بسبيل واحد بل ادخلوا عليه بسبيل الصفات لتعرفوا حقائقها وتعرفوا بحقائقها عيان الذات.

ولا أريد مناقشة رأيه لكن يعقوب تحدث إليهم في مقام آخر فكيف جر الحديث إلى أن يفتح عليهم أبواب معرفة الله تعالى؟ إنه احتمال بعيد كل البعد.

وأما الثاني فهو ابن العربي المعروف في تفسيره المسمى: "التفسير". وقد أضاف إلى البقلي احتماله بأن يكون المقصود دعوتهم بألا يسلكوا طريق فضيلة واحدة كالسخاوة مثلا دون غيرها. وهذه الإضافة أقرب إلى الآية من المعنى الأول المشترك بينهما.

ولكني أظن بانها ليست دقيقة في إصابة الحق، ذلك لأن يعقوب كان يتحدث عن حكم واحد يتولاه العليم الحكيم وليس معقولا أن يخالف الله تعالى سلوك طرق الفضائل معا. فهل يمكن أن يقول الله تعالى لهم اسلكوا طريق السخاوة ولا تسلكوا طريق الاقتصاد مثلا؟!.

ولنعد إلى مناقشة القول العام وهو حذر يعقوب من إصابة أولاده بالعين أو بالآثار العملية للحسد. فأما الثاني فهو محتمل الوقوع ولا سبيل لرفضه بصورة عامة، فالحاسد قد يلجأ إلى أعمال فيزيائية لإيقاع الأذى أو الموت على المحسود عليه كما يحصل دائما.

ولكن العجب كل العجب من اعتقاد أكثر أهل الأرض بالإصابة بالعين. والأنكى من ذلك أن المفسرين الكرام رضي الله تعالى عنهم جميعا لم يردوا عليهم ولم يسعوا لتصحيح مسارهم الفكري. لقد أضحت هذه العقيدة الخاطئة مصيبة علمية تناقض مفاهيم السماء. أظن بأن الأوان قد آن أن نحارب الخرافات الأسطورية التي أدخلها الشيطان في قلوب البشر ليثبت لهم وجود قدرات غيبية لغير الله تعالى. سنحاربهم علميا متوكلين على رب القرآن الكريم.

بالطبع فإن القرآن يخلو من أي إثبات لهذه الظاهرة المرضية لدى البشر، وأعتقد أن ما يقوله البعض في تفسير بعض الآيات ناتج عن الجهل بالمعاني لتلك الآيات فحسب. وأما أصحاب الألقاب والملابس المميزة فهم عامة سلفيون لا يعطون الفكر حقه في حياتهم العلمية. هم الذين يظنون أو يرون من صالحهم أن يقلبوا هرم التطور ليقولوا بأن الناس يتراجعون في علمهم وفكرهم كلما تقدموا إلى الأمام وبأن السلف هو أكثر علما من الخلف.

خلو القرآن الكريم من الإصابة بالعين

يخلو الكتاب العزيز من أية إشارة إلى هذه العقيدة السخيفة المنتشرة بين البشر كما نعرف. وكل الآيات التي يتشبث بها المفسرون لتأييد مسألة مؤكدة في كتب الحديث التي خطتها يد البشر هي:

1. آية سورة يوسف المذكورة وقد وضحنا خطأهم في فهمها. وسنوضح هنا أسباب عدم إمكانية تفسير الآية بما قالوا.

ألف: كيف يتأتى لإخوان يوسف أن يدخلوا من أبواب مصر العظيمة المتباعدة عن بعضها البعض؟ إن مصر مهد الحضارات القديمة وكانت الأهرام موجودة فترة قبل يوسف. وهي البلد الكبير الذي كان يغذي كل الأطراف بما يحتاجون إليه من غلات، فكيف يمكن تصور أبواب يمكن الدوران حولها والوصول في أوقات متقاربة إلى مقر يوسف؟ والواقع أن كل باب موجه إلى طريق من الطرق البرية أو البحرية ولا يمكن التفكير في أن تنتقل من الأرض المقدسة وتدور حول مصر لتدخل من أبواب متفرقة وكأنك تدخل قرية صغيرة!

باء: إذا كان يعقوب لا يغني عنهم من الله من شيء فخاف من أي شيء بعد الله تعالى؟ ثم إن كل الذين يؤمنون بهذه الأسطورة الكاذبة، هم يؤمنون أيضا بالرقية. كان يعقوب قادرا على أن يعلمهم رقية يقرؤونها لدفع الإصابة بالعين ويتحاشون الدخول من أبواب مصر المتباعدة عن بعضها البعض والتعرض للضياع. ثم إنهم كانوا يسافرون على إبل لا ينفصلون عنها حتى يعودوا فأنى لهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة؟

جيم: لقد ازداد عددهم واحدا فقط هذه المرة فكيف لم ينصحهم بالابتعاد عن التجمع خوفا من العين في المرة الماضية؟ أليس في ذلك تحريكا لحسدهم ضد أخيهم الأصغر هذه المرة؟ كفى ليعقوب ما فعلوه في يوسف فهل يبتغي المزيد من الكيد ضد ابنه الصغير؟

دال: هل الاهتمام بالإصابة بالعين يؤدي إلى التوكل على الله تعالى أم العكس؟ قد يرد الشخص على من يوصيه بأن يتجنب عيون الناس بأنه متوكل على الله تعالى ولا يبالي بهم ولكن الذي يهتم بعيونهم ويتجنب العيون فهو يتقيهم قبل أن يتقي الله تعالى ولا يحتاج الأمر إلى التوكل على الله تعالى.

2. استشهادهم بالآية التالية من سورة القلم ونذكرها مع تاليتها لشدة ارتباطهما:

وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (52).

وأعتقد بأن "الزلق" من الكلمات القليلة التي لم تُكن واسعة التداول لدى العرب قبل نزول القرآن. ولذلك فسروها بالزلل والزلج المشابهتين لها لفظا . فلماذا لم يستعمل الله عز وجل إحدى الكلمتين المعروفتين دفعا للغموض في كتابه العزيز؟ بالطبع أن هناك معنىً مقصوداً آخر غير ما تخيله المفسرون الكرام. إن الناس يذهبون إلى الله تعالى لينجيهم من خوفهم من الآخرين وينسون بأن عليهم أن يتوجهوا إلى القدوس لينجيهم من عذاب الله تعالى ومن إضلال النظام الألوهي الخطير لهم وليس من عيون البشر الضعفاء .

يقول المفسرون بأن المقصود إبعاد النبي عن مقامه والتأثير في شعبيته أو النظر إليه نظرة حديدية تكاد تقضي عليه! .ولننظر إلى آية ثانية أخرى – إذ لا ثالث لهما في هذا الموضوع– لنستفيد من ذكرهما لفهم معنى الكلمة القرآنية. إنها في سورة الكهف:

فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) .

والحسبان يمثل نوعا من الحشرات الصغيرة جدا وتأتي بالملايين أو البلايين خلال الليل لتقضي على الثمار وتفسدها . إنها تحول ثمار المنطقة المغزوة برمتها في ليلة واحدة إلى مادة لزقة تقريبا وغير مفيدة للبشر. إنها تحيط بتلك الثمار إحاطة كاملة. ولا أظن بأن الزلق تعني اللزق بل تعني الفساد بصورة عامة.

ولننظر إلى حالة المشركين حينما كانوا يمرون برسول الله عليه السلام ليرموه بالجنون. كانوا يشيرون إلى بعضهم البعض بعيونهم إلى الرسول ليقولوا لهم بأن هذا هو المجنون الذي تحدثنا عنه وما تسمعونه هو ذكره.

ليس للذي يستمع إلى آيات بعظمة آيات القرآن التي تفوق كل قدراتهم اللغوية والشعرية والفكرية ويريد أن يرفضها إلا أن يتهم صاحبها بالجنون ليزيل تأثير بيانه القوي الساحر من أذهان السامعين.

إن مقصود المشرك من بث تلك النظرة العينية الشائبة هو إفساد الدعوة على رسول الله تماما كما تفعل الحسبان في ثمار تلك الجنة.

كانوا يريدون أن يحولوا دعوة الحق إلى مقالة مجنون حتى لا يتبعه الناس ولذلك استعمل الله تعالى كلمة "كاد" وتعني اقترب. ذلك بأنهم لم يبلغوا ما أرادوه ولكنهم سعوا فقط. وقد شرح الله تعالى ما ظهر من عملهم على لسانهم بأنهم: يقولون إنه لمجنون.

والجملة لا تعني بأنهم فعلا قالوا بلسانهم بأنه مجنون بل يكفي أن يشيروا إليه بعيونهم ملفتين أنظار وأسماع إخوانهم عن قوة الكلام الصادر فعلا من رسول الله وهو قوة القرآن في الواقع، ليحل محله التفكير بأنه مجنون يتكلم بدون روية. وقد اشتهر بين الناس بأن المجانين يتحدثون أحيانا بكلام يعجز أئمة البيان عن صنعه والإتيان به. ولنستمع إلى هذه القصة الشائعة بين أهل اللغة:

يُقال من قصص الماضين، بأن نحويا لعله عمر بن عيسى سقط عن حماره مغشيا عليه في شوارع بغداد . تجمع عليه الناس ليساعدوه فلما فتح عينيه رآهم مجتمعين حوله فقال: مالكم تكأكأتم علي كتكأكُئكم على ذي جنة . افرنقعوا عني ! .

إنه بيان عربي صحيح وجميل ولكن الذين تجمعوا عليه يجهلون أن معنى كلامه: لماذا اجتمعتم حولي وكأني مصاب بمس الجن، تفرقوا عني .

فما كان من البعض إلا أن قال جوابا للعالم النحوي: دعوه فإن جنيته تتكلم بالهندية .

فأدرك النحوي بأن الناس لم يفقهوا كلامه واعتقدوا بأنه شاعر يستلهم من الجن وجنيته هندية تلهمه كلمات الهنود .

فلو تصورنا نفس الشيء في نبينا الحبيب وهو يقرأ على الناس آيات ثقيلة من الكتاب العزيز . لكان على الناس أن يسألوه عن معاني الآيات، ولكن الذين كفروا وعاندوا – وليس عامة الناس – سعوا لإفساد المفاهيم العظيمة في أذهان السامعين فقالوا بأنه مجنون أو ساحر أو مسه الجن .

والله تعالى يقول في النهاية بأن ما تسمعونه ذكر للعالمين جميعا فيجب أن يكون هكذا منطويا على مفاهيم كبيرة وجمل لا تحتملونها ولكنها من الله تعالى وليس ممن تسمعون منه . إنه يردد ما أوحاه الله تعالى إليه . فأين هذا مما قاله المفسرون بأنه سبحانه يعني الإصابة بالعين؟

استشهاد المفسرين بآيات الحسد في القرآن لإثبات الإصابة بالعين .

ولنقرأ سورة الفلق التي يستشهدون بها كثيرا ويعتبرونها سورة أنزلها الله تعالى ليعوذ النبي بها حفيده الحسن بن علي، كما أن سورة الناس لتعويذ الحسين بن علي . قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5) .

لا يمكن أن يدور حديث السورة حول نسبة الشر إلى الخلق، بمعنى أن يكون الخلق شريرا . ذلك لأن الله تعالى يؤكد بأنه هو الخالق وبأنه خلق كل شيء فأحسن خلقه . فالحديث عن شر يصدر من المخلوق وليس شرا في ذاته وكيانه .

يقول الزمخشري في تفسير الآية ما قبل الأخيرة في الكشاف: النفاثات النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقين والنفث النفخ مع ريق، ولا تأثير لذلك اللهم إلا إذا كان ثَم إطعام شيء ضار أو سقيه أو إشمامه. أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام فينسبه الحشوية والرعاع إليهن وإلى نفثهن، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به. **فالزمخشري يعترف** بأن النفث أو السحر بعينه لا يضر ولكن هناك أعمالا جانبية قد تضر بالناس .

ودعني أقول فما ضير أن نقول بأن الحسد بنفسه لا يمكن أن يضر ولكن الحاسد يستعمل إمكاناته الأخرى ليؤذي المحسود وهو صحيح ولا إشكال فيه. فالحاسد يقتل بالسم مثلا وليس بعينه أو يسعى للإفساد بين الأسر بكلامه وبالكذب ليفرق بين المرء وزوجه وليس بنفس الحسد . فشر الحاسد هو الشر الصادر من أعماله الفيزيائية الأخرى وليس الشر الصادر من عينيه. هذا التفسير لا يناقض قوله سبحانه في سورة السجدة:

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (7) .

فالله تعالى خلق اليورانيوم وأحسن خلقه ليستفيد منه الناس في استخراج الطاقة الكهربائية مثلا أو للمعالجات الطبية المختلفة الأخرى ولكن الناس يسيئون استعماله فيصنعون منه القنابل المدمرة.

الموضوع المهم الآخر هنا هو أن الله تعالى خلق الإنسان ومنحه الخيار ليختار طريقه بنفسه فلزم أن يعطيه الحرية في الحركة في الأرض دون وجل. فلو كان هناك خوف دائم من الجن والشياطين التي لا يراها بعينه وخوف آخر من عيون الناس التي لا يعرف المصاب عنها شيئا ولا يمكنه أن يتقي منها فأين الحرية؟ وهو سبحانه يقول للشيطان بعد أن يسمح له بالوسوسة وجلب الأنصار لنفسه كما في سورة الحجر:

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) .

فلا سلطان للشيطان إلا لمن اتبعه فينحصر سلطانه في أن يأمرهم ويتبعوه باختيارهم لا غير. فالشيطان الذي يخوفنا الله تعالى منه لا يملك أن يقوم بعمل فيزيائي ضدنا فكيف للعين التي لا يخوفنا الله تعالى منها أن تؤذينا ؟ .

إن منطق الهدى يدعو أن يحذرنا الهادي سبحانه من كل خطر يهددنا وأن يشد الحذر من الأخطار التي لا نراها . ولذلك فإنه سبحان يتحدث كثيرا عن الشياطين لأننا لا نراهم وأنهم يروننا من حيث لا نراهم. لكنه لم يتحدث أبدا عن مخاطر العيون لأنها غير صحيحة.

لنتصور وجود عيون يمكن أن تؤذينا إذا اقتربنا منها فعلينا أن نتوقى دخول المساجد والأماكن العامة وألا نُظهر النعمة على وجوهنا . والله تعالى يقول في سورة الأعراف:

يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32) .

كما يقول في سورة الضحى:

والواقع أن النبي الأمين يعقوب أراد علاج مرض الخيلاء النفسي الذي أُصيب به أولاده وهو على أبواب الظهور الكبير لبني إسرائيل على يد النبي المكافح والجريء يوسف.

كانوا يظنون بأنهم دائما على حق لأنهم أبناء إبراهيم فكان الاعتماد الأحمق على كيانهم الأسري يقفل عليهم أبواب الانفتاح الفكري والاجتماعي.

وهكذا ينظرون إلى القضايا من زاوية واحدة لا من جميع الزوايا ويصرون على رأيهم. هذه حالتهم التي أورثوها أبناءَهم حتى اليوم مع الأسف.

فاليهود قليلو التوسع في الفكر والسبب في نجاحهم في بعض المسائل هو أن التاجر لا يفكر إلا في المال والطبيب ينحصر فكره في الطب والمهندس في الكمبيوتر و. . .و. . . .وهكذا.

ولذلك يجتهدون في تلك الجزئية من جوانب الحياة فيتقدمون كثيرا ولكنهم يخفقون في الجوانب الأخرى.

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11).

فعلينا أن نُظهر النعمة ولا نُخفيها لو نؤمن بالقرآن، كما سيكون لزاما علينا أن نُخفي النعمة لو نؤمن بالكتب المضللة التي تخلق لنا آلهة خفية غير الله الواحد القهار جل جلاله.

هذه هي أهم الآيات التي يسعى بعض المفسرين للاستدلال بها لإثبات فرية الإصابة بالعين. بالطبع هناك بعض المرضى الذين يستشهدون بالكثير من الآيات الأخرى وكأن القرآن أتى ليثبت لنا الإصابة بالعين ولكن بلسان خفي. معاذ الله. إنه كتاب واضح مبين يفصل كل شيء ولا يخفي أمرا عن عبيد الله تعالى. إنه كتاب هدى حقيقي صادق يصرخ صرخة الحقيقة ويدعو إلى الواقعيات ويمنع من الأساطير والأوهام. سبحان منزله العظيم جل جلاله. نهاية الهامش 53.

ويندر أن نجد يهوديا يفكر في مجموعة مختلفة من المسائل. فقال لهم يعقوب ناصحا أن لا يدخلوا المسائل في حياتهم من باب واحد بل يتوسعوا في تفكيرهم فينظروا من كل الجوانب. لم يقل لهم يعقوب ليدخل كل منكم من باب بل قال ادخلوا جميعا من أبواب متفرقة. كان يعني بأن ينظروا إلى المسائل من كل الأبواب.

وأما تعقيبه بأنه لا يغني عنهم من الله من شيء فهو ليقول لهم بأن سعي الإنسان لا يُغنيه عن ربه ولكنه سوف يستمتع بالمزيد من المعرفة من ربه لأنه يفتح مختلف أبواب قلبه وفكره للإلهام السماوي.

ولنعلم بأن الله تعالى لا يمكن أن يفرض العلم على أحد إن لم يستعدّ الشخص نفسَه للتعلّم[54].

وأما كلمة (الحكم) فقد وردت في القرآن كثيرا في سبيل بيان الحقائق العلمية.

فالحكم بالأمر يعني الجزم بأن النظرية صحيحة، أو اختيار جواب من بين مجموعة من الأجوبة، والحكم بأنه المقابل السليم لسؤال السائل.

---

[54] حينما ندرس أسلوب نشر العلم الملهم في كتاب الله تعالى نشعر بأن الملائكة الموكلين بذلك يبثونه بصورة إيحائية عامة تُمكّن من يشاء أن يستفيد منه. ولولا ذلك لكان نظام الرحمة ظالما متعسفا؛ حاشا ربنا العادل رب العالمين جميعا.

هناك إلهام ووحي عام لكل الكائنات المدركة لحل مشاكلهم الزمانية والمكانية ولكن الذين يقفلون أبواب عقولهم يخسرون التمتع بذلك؛ ولا يستفيد منه إلا الذين ينتظرون ذلك أو يسعون ليجدوا في فكرهم وعقلهم أو يسمعوا بأذنهم أو يجدوا أمامهم ما يساعدهم على ذلك. يكفي انتظار العلم ولا يحتاج المرء معه إلى عقيدة وإيمان بربه.

إنه سبحانه يمنح الجميع باعتبار أنه خلقهم ووعد بأن يهديهم جميعا. والمعرفة العلمية هي الطريق الصحيحة لصلاح الأعمال ولجلب الرضوان لمن يتوق لرضوان ربه أيضا؛ إذ لا إيمان بلا معرفة وعلم. نهاية الهامش 54.

فتكون رسالة الآية بأنه يعتمد في الجزم بصحة الموضوع على الله تعالى الذي يصح التوكل عليه دون وجل لأنه تعالى لا يخطئ أبدا وهو كفيل بأن يسدد خطى الذين يسيرون على دربه ويتبعون طريقه المستقيم.

بالطبع أن معرفة أن الله تعالى كفيل بمساعدة من يسعى كان واضحا لدى الأنبياء ومن يسير معهم ولم يكن في متناول العامة من الناس كما أظن.

ونصيحة يعقوب بأن يتوكل المتوكلون على الله لا على غيره إشارة واضحة إلى أبنائه الواقفين أمامه والذين توكلوا في قصتهم مع يوسف على قوتهم وعلى مكرهم، لم يهتموا بالله ولا بتعليمات السماء[55].

وقال إبراهيم كما في نفس سورة الشعراء:

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83).

والحكم هنا هي القدرة على الفصل بين الصحيح والسقيم أو الحق والباطل حيث يؤدي فهمه و اتباعه إلى أن يرتقي المرء إلى درجات الصالحين عند الله تعالى.

---

[55] إن حقيقة معنى التوكل على الله تعالى هو أن يتعرف الإنسان على أحكام ربه فيتبعها وهو القوة التي تسنده وتدافع عنه. ألم تر موسى يقول لقومه في أصعب الظروف، كما في سورة الشعراء:

فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (64) وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (67).

فكان موسى يجهل بعض فوائد الطاقة التي يحملها والتي تتحرك باتجاه المكان الذي يضربه موسى بعصاه، لكنه كان متوكلا على الله وقد علمه ربه في اللحظة الحاسمة أن يضرب بعصاه البحر. نهاية الهامش 55.

وما اتباع العقلاء من المؤمنين لخالص التشريعات السماوية إلا اندفاعاً وراء قوانين الطبيعة التي تبوح بها الكتب السماوية لتساعد الناس على التفاعل السليم معها وهي مما لا يمكن تجاهله في واقع الأمر.

فهم يتوكلون على الله تعالى في اتباع قوانين القرآن باعتبار أن البشر لا يمكنه الوصول إلى حقائق الطبيعة بسهولة ولو وصل فإن وصوله ليس وصولا شموليا يمكن الاتكاء عليه بل يحتاج إلى التوكل على العزيز الحكيم عز اسمه.

وأذعن الأبناء لنصيحة شيخهم المُلهَم وتغيرت أفكارهم تماما، كما سأوضح ذلك تباعا حينما نمر على قراراتهم المستقبلية بإذن الله تعالى.

وهكذا نجح يعقوب في تغيير أبنائه المباشرين حيث نصحهم في اللحظة المناسبة والدقيقة فهيأهم للنزوح إلى مهد الحضارة البشرية آنذاك ليبنوا ما قدر الله تعالى لهم.

ولننظر إلى القرآن الكريم كيف يشرح أحوال إخوة يوسف بعد أن أطاعوا أمر أبيهم:

وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿68﴾.

وبنظرة خاطفة نشعر بأن المفسرين الأكارم ابتعدوا كثيرا عن مفهوم النصيحة الإسرائيلية. فهل هناك أحد لم يعرف معنى الإصابة بالعين وهل قال يعقوب مسألة علمية كبيرة حينما أمرهم بأن يتجنبوا عيون الحاسدين كما يصوره المفسرون للكتاب العزيز؟ وهل منعُ أولاد اسرائيل من التعرض لعيون الحاسدين كان سببا لأن يقضي الله تعالى ليعقوب حاجة أخفاها في نفسه؟

بالطبع أنهم قالوا بأنه أراد أن يدخلوا فرادى على يوسف ليتمكن يوسف من الاختلاء بأخيه في غيابهم. هذا كلام ظاهره معقول ولكنه أكثر من بسيط وساذج في عمقه.

هذه مهمة يوسف الذي يملك القوة والموظفين والحرس الذين يُدخلون عليه من يشاء وهو يعرف كيف يتصرف حينما يصلون إلى مكتبه الكبير. ليس يعقوب بتلك السذاجة أن يبرمج لهذه المهمة ولا يحتاج أن يطلب من ربه العظيم هذه الحاجة البسيطة التي يقوى عليها ابنه وسيقوم بها قطعا .

إن إخوان يوسف تغيروا وفكروا في أن يتركوا حالة الجمود الفكري لديهم و بدأوا ينظرون إلى المسائل من كل زواياها فتغيرت رؤاهم تغييرا جوهريا .

هذا التغيير في تصوراتهم لم يؤثر في إيمانهم بأن الله تعال يملك ملكوت كل شيء ولا يمكن الاستغناء عنه أبدا ولكنهم تعرضوا للمزيد من عناية ربهم. هذه درجة معرفية كبيرة تمكن يعقوب من تعليم أولاده لينالوها وليست مهمة عملية فيزيائية يقومون بها .

إنه عليه السلام تعلم بفضل الله تعالى كيف ومتى يعرض الحقائق العلمية على أولاده المتعصبين بعصابة الأسرة ليغير أفكارهم الحمقاء[56].

---

[56] أكثر الناس فعلا يجهلون حقائق العلم والمعرفة ولا يتوفقون للاطلاع على الأسس العلمية الدقيقة للحياة. يجب على المدرك أن يفتح قلبه لله تعالى حتى يصير مجالا لتقبل الحقيقة التي قد تكون مخالفة لما ورثه من آبائه بل مثيرا أحيانا لمن يعيش بينهم من أهله وأسرته وأهل وطنه وما يُعرفون بأهل دينه ومذهبه.

ليست الحقيقة تابعة للناس بل على الناس أن يبحثوا عنها ويتبعوها، والحقيقة في واقعها وإصالتها موجودة عند الواحد القهار وليس عند غيره. أنظر إلى هذه الآية لترى الذي ظننت بأنه يفيدك في العلم وبأن كلامه عين العلم كيف يطلب من ربه أن يزيده علما . قال تعالى في سورة طه:

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) .

فالله تعالى عهد إلى آدم لكن التباطؤ كان من آدم الذي خسر الوحي العلمي ولم يفز بالعهد؛ وهو سبحانه أنزل القرآن لجميع الناس لعلهم ينتبهوا إلى الحقائق التي غفلوا عنها، كما أنه يُعلّم النبي ويأمره أن يطلب المزيد من العلم.

فالوحي ينزل بقدر حاجة المجتمعات والأمم في كل زمان ومكان. ولذلك لم يكن ممكنا أن يعلم الله تعالى استخراج النفط للنبي باعتبار الزمان وعدم الاستعداد للتعامل معه ولكنه علَّمَهم ما يحتاجون إليه. إنه سبحانه يعلمنا ما نحتاج إليه شيئًا فشيئًا لو فتحنا قلوبنا لوحيه العام سبحانه. ويمكن للجميع أن يجربوا ذلك في حياتهم والتجربة صعبة على القلوب ولكنها سهلة للذي يبحث عن الحق.

قل في نفسك : دعني أذهب إلى ربي وحده. قل ذلك وفرغ نفسك من كل ما تهتم به من معتقدات، ثم اقرأ أول سورة في القرآن وهي سورة الفاتحة وحاول أن تفهمها بعمق ودقة، وفكر فيها . ستجد نفسك بعد ساعات أحيانا أو بعد أيام قلائل قد تغيرت فعلا وبدأت تفهم من هذه السورة ما لم يخطر ببالك ولم يكتبه الكتاب و فقهاء التفسير الذين ملأوا كتبهم بيانا لهذه الفاتحة. لا تخف بعد ذلك واسع لأن تفهم معنى ألم في بداية البقرة. سوف تفهمها دون شك بإذن الله.

ودعني أزيدك علما بأن كلما كتبه المفسرون في بيان هذه الأحرف لا ينطبق مع مفاهيم السورة. لو فهمت ذلك ستعرف معاني أخرى للبقرة وستشعر بأنها سورة عظيمة، يا لها من مفاهيم كبرى لم يتفطن لها المبدعون.

سعى إخوان يوسف لأن يتركوا تشبثهم الأحمق بالتراث وبأنهم أحفاد إبراهيم وأبناء إسحاق ويعقوب. أخبرهم أبوهم بأن علاقة الفرد مع ربه علاقة فقر فردي قد لا يشاركه فيها أقرب الناس إليه.

فافتحوا قلوبكم لأن تسمعوا كل قول فتتبعون أحسنه. هكذا يمكنكم الارتباط الأقوى مع ربكم ليصحح أفكاركم ويساعدكم على الخروج من الأوهام التي تعيشون فيها . هذه كانت رسالة يعقوب.

وقد عمل أبناؤه بما أمرهم به أبوهم، وشعروا بسرعة بأن آفاقا واسعة فُتحت أمام قلوبهم ونفوسهم فرأوا بأن هناك وراء الغيب أبوابا مغلقة.

عليك أنت ايضا عزيزي القارئ أن تدخلها لترى المزيد من المعرفة بل تلمسها فترتاح في الدنيا وترضي ربك في الآخرة. لكن الطريق طبعا ليست مفروشة بالورود. استعد لتقبل الضغوط في سبيل المعرفة. لقد ترك إخوان يوسف حالة الشعور الأحمق بأنهم خير الناس فاستحقوا المزيد من فضل الله تعالى كما سنرى قريبا .

والله سبحانه يؤكد هذا الموضوع ليقول بأن يعقوب قد تعلم من ربه ما كان يعلمه حتى ما فعله بالنسبة لأولاده ليخرجهم من الجهل والظلمات إلى العلم والنور، كان من فضل ربه وبتعليم منه. ذلك لأن يعقوب شعر بالحاجة إلى ذلك وكان خاضعا يلتمس الخير من ربه وحده فعلمه الله تعالى. وهكذا – إخواني وأخواتي– يعلمنا ربنا فلا تخشوا، واطرقوا هذا الباب الذي فتحه لكم ربكم ليُعلِّمكم كما علم غيركم. لا تكونوا من الغالبية الجاهلة ولا تعتمدوا على أحد ولا تهتموا كثيرا بما ترونه مكتوبا في كتبكم فهناك في الغيب علم حقيقي ينتظركم لو طرقتم أبواب ربكم

حاجة يعقوب هي أن يتعلم أبناؤه حسبما قضى الله تعالى.

استعد الإخوة للقاء العزيز وهم لا يزالون يجهلونه. لم يقل لهم الأب شيئًا عما عرفه من قصة يوسف ولكنه بشر أصبح يعدّ الساعات ليلقى ابنه الذي غاب عنه سنوات بل عقودا طويلة.

أسرع إخوة يوسف للعودة إلى العزيز لأنهم وعدوه أن يحملوا معهم أخاهم الذي ساعدهم العزيز في منحهم سهمه من الغلات دون أن يحضر بشرط أن يأتوا به.

كانوا حريصين أن يواجهوا كرم الوزير المصري الكبير بالحسنى ليعرف الوزير أنهم لم يكونوا مفسدين في الأرض وكانوا صادقين.

ومن الطبيعي أن يتهيأ يوسف ليلقى أخاه لوحده، فالمحتمل أنه أبلغ فتيانه الشخصيين أن ينتبهوا لعودة الإخوة فيسعوا لإرسال أخيهم الصغير لوحده إليه.

هذه المسألة من أسهل الأمور في مثل هذه المؤسسات الحكومية. مجرد أن يقولوا للإخوة بأنه مشغول جدا ولكن من الأفضل أن يرى أخاكم قبل كل شيء ثم ترونه حينما يفرغ مثلا.

المهم أنهم أدخلوا الأخ الصغير لوحده على يوسف بعد أن وصلت العير إلى مصر ودخل إخوة يوسف مخازن الحبوب الرئيسية التي اتخذّ يوسف لنفسه فيها مكتبا كوزير يقوم بمهامه بشكل مباشر.

الكريم الذي خلقكم وتعهد بأن يهديكم لطفا منه وكرما وفضلا. ستعرفونه ولا يمكنني أن أصف ما سترونه لو طرقتم بابه منفردين غير مستعينين بالناس. نهاية الهامش 56.

وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿69﴾.

دخل الأخ الصغير على أخيه الأكبر من أبويه وهو لا يعرفه ولا ينتظر أن يكون يوسف وزيرا في مصر. عرفه يوسف وعرَّفه بنفسه قبل أن يسمح لبقية الإخوة الذين ظلموهما بالدخول عليه.

نعرف من لحن الآية الكريمة بأن يوسف أبلغه بأنه سيبقى عنده في حيلة يحتالها على إخوانه ولعله أبلغه بالحيلة ليعلم كيف يتصرف حتى لا ينتبه أحد منهم. من المفروض أن يبلغه بكل ما نواه لأنه أخبره بأنه أخوه.

ولا أدري لماذا لم يصبر يوسف حتى تثمر حيلته ثم يبلغ أخاه بأنه أخوه. لو كان يريد ذلك لكان من الخير له ألا يطلب من الفتية أن يدخلوا عليه أخاه قبل البقية.

ليس لي إلا أن أقول بأن يوسف الرحيم الودود أشفق على أخيه وكره بأن يمارس المكر الذي مهد له فيضطرب قلب الأخ الصغير لحظات حتى تنتهي المسألة ويختلي به ويقول له كل شيء.

إنه شخص مختلف عن إخوانه ولولا هذا الاختلاف في الخلال والخصال لما منحه الله تعالى النبوة.

إن أول وأهم خُلُق يتخلق به الأنبياء والرسل هو المحبة والشعور بالحب تجاه الغير.

كل الأنبياء يحبون البشر جميعا ولذلك يدعون كل الناس حتى أعداءهم ليؤمنوا برسالتهم فيمنحهم ربهم المغفرة والرضوان ويدخلهم جنات النعيم.

إنهم الصفوة الخيرة الطيبة من أحسن الناس ومن أكرمهم ومن أخلصهم للغير.

لم يصبر يوسف القوي الحكيم أن يرى أخاه الصغير دون أن يُظهر له أعلى أنواع المحبة والحنان، فيصف لنا ربنا الموقف بأنه **آوى إليه أخاه**.

ومعنى ذلك أنه ضم إليه أخاه الذي لا يعرف القصة ولا يعرف ما سبب هذا الحنان من وزير مصري غريب. لكنه قطع عنه المفاجأة ليبلغه بسرعة أنه أخوه يوسف.

إنه موقف عاطفي يصعب بيانه ويصعب علينا أن نتخيله. والوقت الذي سيصرفه ليس كبيرا لأنه بعد لحظات سوف يلقى بقية الإخوة فيريد أن يخبر أخاه بسرعة عما سوف يفعله ليبقيه عنده. ويريد بالطبع أن يطمئنه بأن أباهما يعرف كل شيء وبأنه استلم الرسالة فسمح لهم بأن يجلبوه معهم ليطمئن الأخ الصغير بأن الأب العجوز لن يصيبه الألم من هول الخبر.

بالطبع أن يوسف أخبره بأن من غير المناسب أن يعلم الإخوة بالقصة قبل أن يتم اختبارهم لأنهم يستقبلون أمرا كبيرا هو صناعة بني إسرائيل.

ومما لا ريب فيه أنه ومن تلك الساعة دخل أخو يوسف في صنع الأسرة الكبرى التي سوف تستلم أكبر رسالة سماوية لأهل الأرض من رب الإنس والجن عز اسمه.

وأما قوله لأخيه: **فلا تبتئس بما كانوا يفعلون**، فهو أراد إدخال المزيد من الطمأنينة في قلب أخيه الصغير بأن الله تعالى قدر له هذا العذاب لتراه اليوم على رأس الاقتصاد الزراعي في مصر العظيمة.

فلا تهتم بما فعلوه ضدهما لأنهم الذين خسروا ولم يكسبوا.

(ولا تبتئس) تعني لا تتألم ولا تستشعر الالم والحزن. لقد أرى يوسف أخاه وبكل احترام بأن الذين ظلموهما اليوم محتاجون له فالله تعالى أكرمه أكثر بكثير مما فعل إخوانه معه.

ونعرف من جملة يوسف هذه بأنه عليه السلام لا ينوي أي شر ضد إخوانه وبأن قلبه النبوي مليء بالحب وفارغ عن أي عداء حتى بالنسبة للذين أنزلوا عليه أشد العذاب وكادوا يقتلونه.

فهو لم يظلم زوجة العزيز واكتفى بأن يتعرف الملك وحاشيته على براءته مما نُسب إليه.

مثل هذا القلب الطيب يمكنه أن يصنع أمة عظيمة مثل بني إسرائيل.

إنه ميراث إبراهيم الطيب الذي دعا لذريته كثيرا قبل أن يراهم ويستمتع بهم. مثل هؤلاء قلائل في التاريخ البشري.

وأما ما يقوله عامة المفسرين نقلا عن اليهود وبعض قصاصيهم الأسطوريين من أن يوسف دعاهم إلى بيته ثم أدخلهم غرف النوم اثنين اثنين واحتفظ بأخيه باعتباره فردا. ثم بكى وقال له بأنه أخوه ومنهم من يبالغ في بيان ذلك البكاء المزعوم، فإنها أقاويل لا تستند الى دليل مبرم كالقرآن مثلا.

إنهم يظنون بأن العظماء يستنجدون بالبكاء كما نفعل نحن من عامة الناس. والقرآن الكريم لم يذكر البكاء للأنبياء إلا خوفا من الله تعالى وتحت تأثير المعرفة الشديدة بإحاطة رب العالمين ونفوذه في كل صغيرة وكبيرة جل جلاله.

لقد أنزلوا يعقوب من درجة الطموح في صناعة أمة حينما قالوا بأنه بكى حتى ابيضت عيناه.

والله تعالى قال بأن عينيه ابيضتا من شدة حزنه وصبره لا من شدة بكائه.

تم التعارف بين الأخوين واحتفظ الأخوان الصغيران في العمر والكبيران في العقل والمطامح الكبيرة بما اتفقا عليه وجاء بقية الإخوة للسلام على الوزير المصري الذي أكرمهم من قبل وليبدوا له وفاءهم بوعدهم وبأنهم صادقون وأمناء، ومن الطبيعي أن يبدي لهم الوزير ارتياحه وبأنه لم يخطئ حينما وثق بهم وبوعدهم.

بقي يوسف وزيرا غريبا في عيون الإخوة إلا الأخ الصغير الذي أبدى ذلك مخفيا ما يعرفه من حقيقة الوزير.

وحينما نفكر في شخصية الأخ فإنه كان فعلا قويا قادرا على الاحتفاظ بسر عظيم ليس في وسع الإنسان العادي أن يكتمه دون أن يبدو أي تغيير على وجهه.

ولا ننس بأنهم جميعا أحفاد إسحاق وإبراهيم وهم جميعا آباء بني إسرائيل الذين لا زالوا إلى اليوم يتوارثون العلم ويتفوقون على غيرهم في تحقيقاتهم العلمية الكبيرة في أرجاء المعمورة.

إنهم بجوار مشاكلهم النفسية الكبيرة فهم جميعا في غاية الذكاء، ولذلك كانت مهمة الأخ الصغير كبيرة جدا ولكنه نجح دون ريب في الكتمان المطلوب منه.

والأمر يهدينا إلى فراسة يوسف أيضا. إنهم فعلا أناس مميزون عن بقية البشر الذين عاشوا بينهم والذين أتوا من بعدهم. ولا ننس أيضا بأنهم وبعد قبولهم دعوة أبيهم للنظر في المسائل من عدة زوايا قد أصبحوا أعمق إدراكا للمحيط وصار خداعهم وتضليلهم أكثر صعوبة.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿70﴾

استمر يوسف ومعه أخوه في إكمال المسيرة لتصحيح توجهات الإخوة الذين يكبرونهما عمرا. قام فتية يوسف بمهمة جديدة هي وضع السقاية في رحل الأخ الصغير حينما يقوم العمال بتجهيز العير.

يبدو بأن الدولة كانت تمنع عامة الناس من الدخول في مكان التخزين ويقوم الموظفون بكامل التجهيز ثم يأتون بالحيوان المحمل إلى صاحبه ليأخذه محمولا.

ولولا ذلك لما تمكنوا من إعادة الأثمان إلى رحالهم في المرة الأولى دون أن يروا ذلك.

ويبدو أيضا أن مكتب يوسف كان على امتداد مكان التجمع الذي يتجمع فيه أصحاب العير مع عيرهم فكان الموظف يأخذ الحيوان من صاحبه ويسير به نحو المستودعات مارا بذلك الممر المؤدي بامتداده إلى مكتب يوسف. أحتمل ذلك إذ لا مجال لاتهام أخي يوسف بدونه كما سنعرف.

فسوف يكون المستودع طرف هذا الممر حتى لا يراه الزبائن القادمون للشراء. فمثلا يأخذون مجموعة من الجمال يحملونها واحدا تلو الآخر ثم يجمعونهم في هذا الممر المتوسط بين مكان التجمع ومكتب يوسف.

وعلينا أن نتصور بأن زيارة إخوان يوسف ليوسف تمت بعد زيارة الأخ له ودون وجوده. فهم قد ذهبوا احتمالا دفعة واحدة حينما خرج الأخ الصغير من المكتب مارا بالمكان الذي يجمع فيه الموظفون الحيوانات للتحميل.

وحينما أدخلوهم أشاروا إلى الأخ الصغير بأن موعده قد انتهى وعليه أن يخرج. خرج الأخ الصغير ويجب أن تكون التهمة بأنه حمل معه دون علم يوسف متاعا من غرفة يوسف وأخفاه تحت أذيال ملابسه حيث لم يكن لديهم جيوب مثلنا. وأقصد بالجيوب أماكن التخزين في الملابس وليس فتحات القمصان لإمرار الرأس منه.

ولا نعرف بالضبط ما هو معنى السقاية، كما نجهل معنى الصواع لكننا سنسعى للكشف عنهما بإذن الله تعالى.

وقد التمست ملاذا يعينني في قواميسنا اللغوية القديمة فلم أرتو منها وقفلت عطشانا كما كنت. سامح الله تعالى اللغويين جميعا، فقد كنا نتوقع منهم أن يكونوا لغويين بحق وليسوا أتباعا للمفسرين والمحدثين.

وليس المفسرون والمحدثون – كما يبدو – أحرارا في نقلهم فهم يعملون لمن ينفق عليهم أو يقلد الخلف منهم السلف دون أن يتحمل عناء التفكير الحر. ولذلك فإني أستأذن من أرباب الصناعة أن أفسرهما بما أفهمه من رسالة السورة الكريمة.

بالطبع أن كلمة صواع لم ترد في غير الآية المذكورة في القرآن ولكن السقاية وردت كثيراً كجذر ومرة أخرى فقط بنفس الصيغة. هي في التوبة:

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19) .

فلنفهم قليلا عن آية التوبة. علينا أن نقدر كلمة قبل السقاية وهي مصدر لنتعرف بدقة على المقصود؛ فلنقدر الشرف. فيكون المعنى أجعلتم شرف سقاية الحاج كشرف من آمن بالله؟ فالسقاية هنا عمل مهني أو شرفي يقوم به إنسان. وقد يرمزون إليه بحامي الحرم مثلا. فحماية الحرم تعني سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام.

فالسقاية يمكن أن تكون مصدرا تعني مهنة أو مهمة ولكن يصعب أن نتصور السقاية بمعنى الإبريق أو الكوز أو الكوب الناقل لمياه الشرب.

وأما الصواع فهو أيضا مصدر صاع يصوع، صوعا وصواعا و. . ولو اعتبرنا السقاية شرفا مهنيا فقد يكون الصواع شرفا مهنيا بتعيين من الملك.

ثم ننظر إلى استعمال عمال يوسف للكلمتين اللتين تشيران إلى شيء فيزيائي واحد كما يبدو. فقد استعمل القرآن عمل يوسف مع ذلك الشيء سواء بجعله في رحل أخيه أو استخراجه منه مقرونا بكلمة السقاية.

لكنه استعمل خطاب عمال يوسف ثم تعهد يوسف للإخوة الغرباء غير المصريين مقرونا بكلمة الصواع ومنسوبا إلى الملك.

ثم إن القرآن استعمل كلمة السقاية مع الألف واللام وكأنها معروفة بين الذين ارتبطوا بالكلمة وهم يوسف وفتيانه حيث أن السورة لم تشر إليها من قبل لتكون الكلمة مُعرَّفةً بما في السورة.

نعرف من ذلك أن كل الحاضرين بمن فيهم إخوان يوسف يلمسون معنى ذهنيا لكلمة صواع لو أضيفت إلى الملك فسيهتمون بها لكن إخوان يوسف لا يسمون المفقود سقاية بل هو معروف بين أهل مصر أو يوسف وحاشيته فقط.

وبغض النظر عن كون السرقة مفبركة من قبل يوسف فإن المبررات يجب أن تكون صحيحة حتى لا تنجلي حقيقة المسألة لأحد غير يوسف و أخيه.

فالصواع الذي جعلوه داخل رحل الأخ الصغير والمسمى عند بعضهم بالسقاية وعند عامة الناس بصواع الملك يجب أن يكون على درجة كبيرة من الأهمية بحيث يسمح ليوسف أن يترك مكتبه مهرولا وراء المشتبه بهم ويسعى بكل جهده ولو بأن يعطي هدية لمن يُعطي اية معلومات تساعد في استرجاعه.

إنه فعلا منسوب إلى الملك ومسؤول خزائن الأرض المصرية[57].

---

[57] حينما ننظر إلى آثار القدماء نجد بأنهم كانوا مختلفين عنا بعض الشيء من حيث أننا نرمز بصور على الورق وهم يرمزون بصور وتماثيل فعلية ملموسة لعدم انتشار الطباعة والورق وما شابهها عندهم.

حتى اليوم نرى بأن المجتمعات الأمية تسعى للإعلان عن مرشحي الانتخابات البرلمانية بالصور. نرى مثلا مرشحي باكستان يرمزون لأنفسهم بالسيف والشراع والسيارة والحنطة حتى أنهم يضعون نفس الصور الرمزية بجوار أسماء المرشحين في ورقة الانتخاب النهائية فيضع الأمي علامة الموافقة بجوار الصورة التي ترمز إلى اسم من يريد أن يصوت له.

فقبل 4000 سنة كان الملوك يرمزون إلى قوتهم بما يتناسب مع شؤون بلادهم ثم يصنعون منها تماثيل أو قطعا تُقدم كأمر بيد أصحاب الشأن.

هذا الشيء يسمى أمر الملك أو صواع الملك.

على هذا الأساس أبدى يوسف اهتمامه الشخصي بهذا الرمز الهام بعد أن ادعى فقدانه من مكتبه بنفس الساعة التي استقبل فيها إخوانه الذين يعرفهم وينكرونه. ولنعد إلى الآية الكريمة. قال سبحانه مشيرا إلى القصة باختصار: **فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70)**.

والصواع احتمالا يدل على حالة الطاعة والانقياد المساوق للانصياع في اللغة. والانصياع في قواميسنا اللغوية يدل على تفرق المتحركات مثل الحيوان أو البشر استجابة لأمر أو دعوة من هو أقوى منهم.

مثال ذلك استجابة المعزى لأمر الراعي الشاوي. والتفرق لا يعني الانتشار دائما بل يعني امتثال الأمر بترك الحالة التي هي فيها، فلو كانت مجتمعة حول مأكل مثلا ثم أمرها الراعي بترك الأكل ابتعدن عن المرعى انصياعا لدعوته، وأما لو كانت منتشرة ودعاها إلى التجمع للعودة تحركن باتجاهه للتجمع.

فصواع الملك علامة عامة تدل على أمر إلزامي أصدره الملك وأعطى المأمور علامة يستدل بها على أنه يحمل أمر الرئيس الأعلى للدولة. لكن السقاية خاصة بأهل مصر.

مثاله ما نراه من رموز وعلامات لكل دولة بمقتضى اهتماماتها فهناك من يرمز للدولة بالسفينة باعتبار أغلب السكان من صانعي السفن، إن كانوا أصحاب هذه الصناعة، وهناك دلة القهوة والأسد المجنح والإنسان ذو الأيادي الستة والأسدان الماسكان بالعلم وما شابه ذلك من علامات للدول والحضارات والتجمعات الكبرى في الأرض.

فرمز الدولة المصرية هي السقاية باعتبار النيل العظيم وسيطرة مصر على القسم الأساسي من مصباته في مصر والسودان. ولا ضير بأن يكون الرمز طاسا أو كوبا مزركشا أو مذهبا أو مرصعا. لكنه خاص بالبلاط والملك يعطي أمثاله لوزرائه ولحاملي أوامره الكبرى مثل قواد الجيش والشرطة. فكل أصوعة ملك مصر تظهر على السقايات باعتبار مصر.

ملوكنا وزعماؤنا الحاضرون يكتفون بكتابة الأمر على ورقة طُبع عليها رمز الدولة أو شعارها فيحتفظ بها الوزير على طاولة عمله أو يعلقها على جدار مكتبه أو يضعها في برواز يُثبتها على إحدى رفوف مكتبته أو نوافذ غرفة عمله.

هي شيء رمزي ثمنها في أنها تصدر عن السنام الأعلى وسوف يسبب ضياعها فشلاً ذريعا وخجلا كبيرا أمام الرأس الأكبر. نهاية الهامش 57.

تمت العملية بعد أو حين تجهيزهم بجهازهم. بمعنى وقت إعداد الأمتعة ووضعها على رواحل العير إيذانا بإعادتها إلى أصحابها مجهزة كاملة.

والرحل هو ما يوضع على ظهر الجمل ليضم المتاع أو الميرة وبجانبها احتمالا الجيب الخاص بالمسافر من رحله الذي يضع فيه حاجاته الشخصية ككوز الماء والهميان وأي شيء شخصي آخر.

فلو كان الصواع داخل المتاع أو كيس الحبوب لرد الإخوة ادعاء المؤذن بأن عمال يوسف هم الذين جهزوا المتاع وليس لهم يد فيها. ولكنها كانت في الجعبة أو الوعاء الشخصي الخاص بأخي يوسف من رحله.

ولذلك ما تمكن الإخوة من أن يدفعوا التهمة عن أخيهم الصغير. والذي زاد الطين بلة بأن الأخ الصغير لم يسع للدفاع عن نفسه؛ فكأنه تقبل التهمة واستسلم لها.

وبعد أن بدأوا بالرحيل الفعلي وساروا في درب العودة إلى وطنهم نادى منادِ الحكومة من ورائهم بأنهم سارقون.

بالطبع أن هذا النداء لا يعني توجيه تهمة السرقة إليهم جميعا بل يعني بأن هناك شيء مفقود يريدون الكشف عنه. فالنداء لمجرد لفت انتباههم ليقفوا أو يعودوا راجعين إلى المستودعات المركزية.

ولذلك فلم يبد الإخوة أي استياء في المرحلة الأولى بعد استماعهم للنداء المنطوي على تهمة السرقة.

ولعلنا نعرف بأن السرقة في القرآن لا تعني اللصوصية بل تعني السرقة الصغيرة وتُطلق على لصوص المنازل وما في حكمها برأيي. ولذلك:

قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿71﴾.

فغيروا وجهتهم من إدبار إلى إقبال بكل ثقة لأنهم يعلمون براءتهم جميعا من السرقة. وأما السر في السؤال عمّاذا يفقدون فهو لأنهم يسعون لإثبات أنهم لا يحملون شيئًا من ممتلكات المخازن المركزية[58].

قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴿72﴾.

وواضح من جواب المجموعة اليوسفية بأن هناك أمرا مزعجا حصل لهم وهم مستعدون لمنح جائزة لمن يساعدهم على إزالة ذلك الانزعاج. فخاطبوا الغرباء القادمين من خارج مصر بأنهم يفقدون قطعة ملكية موجودة بيدهم. تلك هي رمز الطاعة والانصياع لديهم. ولذلك أردف القائل بأن هناك جائزة لمن جاء به وهو حمل بعير من الحبوب.

وجاء به بمعنى أنه ساعدهم على الكشف عنه إذ لا يتوقعون من السارق أن يعيد سرقته بهذه السهولة. ولا ضير بأن نعرف بأنهم لو أرادوا إعادته فعلا لقالوا: أتى به. الإتيان هو الإيصال إلى الهدف وليس المجيئ به.

وهنا وصل يوسف الذي يبدو بأنه هرول من مكتبه ليصل إليهم فيشارك عماله في الكشف عن المسروق. أضاف يوسف على قول موظف المستودعات:

---

58 هذا هو معنى السرقة فعلا في منطقهم. هو بأن يفقد أحد شيئًا فيظن بأنه مع الذي كان متواجدا عنده. هي فعلا ليست اللصوصية ولا السرقة المبرمجة المعروفة حتى آية السارق والسارقة تخص السرقات البسيطة المنزلية ولا تعني السرقات الكبرى والعلم عند الله تعالى. هناك مسألة يجب الانتباه إليها وهو أن السرقة عند أصحاب الشأن عيب كبير باعتبار دلالتها على الضعف والسعي للعمل في الخفاء. لكن أصحاب النفوذ وأبناء الأسر الكبيرة فإنهم يغتصبون دون خوف أو وجل ولا يقومون بالسرقة التي تعني جلب شيء في الخفاء. فمثلا زعماء دولة العصابات الصهيونية والعنصرية الفعلية في إسرائيل يغتصبون مدنا وقرى للغير بالقوة ويعلنون عنها ولا يعتبرونها عيبا، لكنك لو تتهم أيا منهم بأنه سرق حذاءك مثلا فسوف يقيم الدنيا ويقعدها عليك لأنك اتهمته بالسرقة المعيبة. نهاية الهامش 58.

وأنا به زعيم. والزعم من الزعامة وليس من الزعم بمعنى القول الأقرب إلى الكذب. والزعامة تعني الكفالة أو الرئاسة.

أدخل يوسف نفسه في القضية ليطمئن الإخوة (الغرباء) بأن ليس هناك أية محاولة لإيذائهم ولكنهم فعلا في حالة غير صحية لأنهم يفقدون حكما مهما يؤثر في شرف العمل لديهم. فقال لهم بعد أن أعلن المسؤول الحكومي التابع له جائزة العثور على الضيعة، بأنه يضمن الجائزة من طرفه ليطمئنهم بصحة ادعاء عماله.

والمسروق كما يبدو ليس شيئًا مفيدا للعمال الذين قد لا يدخلون غرفة العزيز. وهناك احتمال الفضول لدى بعض الغرباء أن يأخذ كل شيء غريب لديه دون أن يعرف قيمته وتبعاته. فتوجيه التهمة لمثلهم ليس شاذا ولا مهينا لو كانوا فعلا فاقدين لصواع الملك.

يشعر المحقق بأن يوسف وعماله أبدوا حسن النية وبأنهم لا يرغبون في شيء أكثر من استعادة المفقود. بمعنى أنهم طلبوا من المتهمين مساعدتهم ولو مقابل المال.

بالطبع فإن يوسف يعرف بأن إخوانه غير مستعدين لتقبل تهمة السرقة باعتبار أنها تجرح كرامتهم ولذلك فهو بصدد إكمال مؤامرته ومكره من دون معرفة عماله. إنه كما سنعرف يقصد تأديب إخوانه لعله يؤهلهم لحمل الرسالة.

شعر الإخوة بالكثير من الضغط النفسي وبأن العزيز قد أذلهم وسلبهم عزهم حينما اتهمهم بالسرقة ولو بطريقة هادئة.

ومن الواضح أن تعليمات يعقوب قد آتت أكلها فلم يصروا على أنهم غير سارقين بل سعوا لإثبات أنهم لا يمكن أن يكونوا سارقين لما رأى يوسف وأعوانهم منهم من حسن النية والوفاء بالوعد.

رأوا بأن من الخير لهم بأن يدعموا ادعاءهم بالحلف بالله تعالى. كل ذلك إلى جانب اعتقادهم بأن المفقود ليس في أيديهم.

ولولا التغيير الذي أوجده يعقوب بتوفيق من ربه في ضمائرهم لألحوا بأنهم ليسوا سارقين ولم يحلفوا ولم يسعوا لإثبات حسن النية.

إنهم يعرفون بأنهم قد يتعرضون للتفتيش ولكنهم يريدون أن يبقوا طيبين مسالمين في عيون العزيز وأعوانه ولا يريدون استفزازهم ضد أنفسهم. وواضح بأنهم سوف يستسلمون للتفتيش بدون مقاومة مع أنه مهين لهم. ف

قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿73﴾

التاء حرف قسم متضمن لمعنى التعجب كما يقول الزمخشري. وقد ذكره ابن هشام دون أن يرد عليه فابن هشام يؤيده أيضا. وأظن بأنهما مصيبان كما أن العديد من أصحاب الصناعة في النحو واللغة يسندونهما. و إضافة معنى التعجب إلى القسم سواء بلغة معلومة بينهم أو بإضافة حركة بدنية تدل على التعجب؛ فأحتمل بأن الله تعالى قد جمع تلك الحالة مع القول اللساني بذكر (تالله) بدلا عن صيغ القسم الأخرى.

مقولة الإخوة تمثل نوعاً من التعامل السلمي الذي يخالف دأب بني إسرائيل.

ولعل من الخطأ أن نظن بأن بني إسرائيل كانوا في تلك الحالة يواجهون قوة قاهرة لا يمكن لهم مقاومتها والتصدي لها وليس لهم إلا ذلك النوع من التجاوب مع التهمة الموجهة إليهم.

كان أسلوب تعامل العزيز الودي معهم حتى تلك اللحظة مثيراً للظن بأن ليس هناك استعمال شديد للقوة. والحقيقة أنهم قد تغيروا كثيرا وأصبحوا يدركون بأن القوة والكرامة ليستا في العائلة بل هما مكتسبتان. بالطبع أن آثار الكرامة العائلية لا زالت شديدة عندهم كما سنعلم بعد قليل.

فيكون مغزى رد الإخوة هو: نحن نستغرب والله بأنكم توجهون الاتهام إلينا بعد أن أدركتم بأننا أثبتنا صدقنا معكم وأدركتم بأننا أتينا نمير أهلنا مثل بقية الناس وبأننا لا نبغي أي فساد في الأرض.

إن الذي يريد الفساد لا يمكن أن يظهر أمام المسؤولين ويُعرّف نفسه لهم ويأتي إليهم بكل إخوانه. ادعينا بأن لنا أخاً صغيرا فأكرمتمونا بسهمه وطلبتم منا إحضاره ووعدناكم به وأوفينا بوعدنا مع صعوبة إقناع أبينا العجوز. فأين نحن من هذه التهمة الغريبة التي لا تناسب شأننا ؟

لكن يوسف يعرف كل شيء وينوي أن ينفذ مهمته الكبرى في تأسيس أسرة قوية هي أسرة بني إسرائيل الموعودة بحمل التوراة العظيم. إنه يدرك مسؤوليته في إصلاح إخوانه قبل كل شيء وقبل أن يرى إخوانه الخير والمال والكرامة في مصر.

لقد مر هو بنفس الحالة حينما تحدث إلى صاحبيه في السجن وها هم إخوانه يُظهرون نفس الكرامة العائلية ناسين بأن الفضل كله لله تعالى وليس للأسر.

وسنرى قريبا بأن يوسف كان محقا في كيده. يريد يوسف أن يحطّ من غرور إخوانه واحداً واحداً لعلهم يهتدون.

هو الآن في مفترق خطير قد يؤدي إلى عدم نجاح مكره حتى النهاية. إنه يحتاج فعلا إلى هداية ربه ليعلمه ماذا يقول فيأخذ أخاه أخذاً موجعاً لقلوبهم فتنكسر شوكتهم أمام أبيهم فيشعرون بالضعف الحقيقي لديهم لعلهم يدركون بأن القوة لله جميعا .

علمه ربه بأن يقول الجملة التالية فليس لهم آنذاك إلا الجواب الذي سمعه منهم. لقد حبذ يوسف ألا يقول بنفسه الجملة التالية بل أشار إلى فتيانه احتمالا فامتثلوا لأمره، و . .

قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿74﴾ قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿75﴾

قلنا بأن تهمة السرقة مشينة للذين يهتمون بعوائلهم بعكس تهمة الغصب والظلم العلني. لقد تألم آباء بني إسرائيل كثيرا حينما احتمل الوزير المصري السرقة فيهم وكانوا على ثقة بأنهم لم ولن يقوموا بمثل هذا العمل المعيب. ولذلك فإنهم وبكل قوة عينوا أكبر وأعتى جزاء ضد السارق كما يريده يوسف.

لم نسمع أبدا بأن يستعبد أحد السارق جزاء على سرقة بسيطة يأتي بها أول مرة، لكنهم أرادوا إثبات براءتهم بكل قوة واطمئنان.

وأظن بأن مفعول الظلم المحتمل لديهم هو أسرتهم النقية وليس الذين سُرق منهم.

لقد تقبلوا أولا بأن وجود المسروق في رحل الشخص دليل على حصول السرقة كما عينوا الجزاء الأكبر له وهو المطلوب لدى يوسف ثانيا. ثم إنهم لا شعوريا تقبلوا التفتيش إذ لا يمكن التيقّن بعدم وجود المسروق في الرحل دونه. أما يوسف فهو لا يريد كشف السرقة ولكنه يريد تأديبهم وكسر كبريائهم الاجوف كما قلت.

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿76﴾

أبى يوسف أن يقوم عماله وفتيانه بتفتيش إخوانه كما يبدو فقام بنفسه بالعمل. بالطبع أن ذلك يعطيهم نوعا من السلوان بأن الوزير قام بالتطلع إلى جيوب الرحال.

والوعاء برأيي هو جيب مضاف إلى الرحل ليضع المسافر فيه أمتعته الشخصية التي يحتاجها في السفر.

لم ينج أحد منهم من التفتيش فتعرضوا جميعا للإذلال.

لم ينبس الأخ الاصغر بكلمة دفاع واحدة ما أثار كوامنهم كثيرا وأصبحوا لا يطيقونه ويتوقعون أمرا يريحهم من طيلة بال الأخ الذي تقبل التهمة بكل سهولة.

ولعلهم ظنوا بأنه قد سرق فعلا ولكنهم انزعجوا منه كثيرا لأنه سبب الخذلان لأسرة يعقوب.

كان الكيد فعلا قويا ولم يكن ببال يوسف لولا مشيئة الله تعالى. وأظن بأن الله تعالى نسب الكيد إلى مشيئته باعتبار أنه سبحانه لم يخالف قوانين الدولة التي لا تسمح أبدا بأن يأخذوا أحدا مقابل سرقة بسيطة ولكن الإخوة قد حكموا عليه وتقبل هو الحكم دون جدال.

فالقضية سارت ضمن النظام العام باعتبار أن يوسف عاملهم بما كتبوه على أنفسهم وليس باعتبار القوانين الحكومية في مثل هذه القضايا[59].

لقد قرر إخوته العقاب الأليم لأخيهم الذي ثبتت عليه التهمة ولم يدافع عن نفسه، فأضحى من حق يوسف أن يحتفظ به عنده.

وأما المقطع الأخير من الآية فأظن بأن العليم المذكور بصيغة النكرة (فوق كل ذي علم عليم) هو الله تعالى باعتبار أنه سبحانه يمكنه التجاوب مع كل عبيده بالقدر الذي ينطوون عليه من علم ومعرفة وذكاء.

---

[59] وأما ما نقرأه في آخر الآية من أنه سبحانه يرفع درجات من يشاء، فهو باعتبار أن يوسف استعمل ذكاءه و عبقريته ولم يستلم وحيا ولكنه استحق العناية فعلمه ربه. قال تعالى في سورة البقرة:

اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257).

إنه عز اسمه يساعد المؤمنين المخلصين جميعا ويعينهم على نيل أهدافهم الإيجابية النبيلة. فلقد تعلم يوسف شيئا جديدا وهو أن لا يتشبث دائما بالقوانين بل يسعى لأن يؤاخذ الناس بما تعهدوا به فهو أكثر قبولا لديهم وأقل ثقلا على قلوبهم، على ما أظن. نهاية الهامش 59.

فهو ليس كعلماء البشر الذين تنحصر قدراتهم التعليمية بل العلمية في مستويات محدودة فنرى أستاذ الجامعة عاجزا عن تدريس أطفال الحضانة لوجود الفاصل الكبير بين أسلوبي التفكير لدى الطفل و لدى المتعلم الذي يحظى بقدر كبير من المعرفة.

لكن الله تعالى يساعد كل ذي شأن بقدر شأنه فهو لا يهتم بعلمه هو سبحانه و لكنه ينزل إلى درجة المتعلم ليعطيه الحكمة بما ينسجم معه تماما . فهو عليم بكل حال وبكل شأن (جل جلاله) .

والذين ظنوا بأن المقصود هم العلماء غير الله تعالى فأظن بأنهم لم يصيبوا . ذلك لأن الله تعالى هو ذو علم وليس فوقه عليم[60] .

[60] لعل القارئ الكريم يتساءل لماذا تغيرت الإشارة إلى الله تعالى عدة مرات في جملة واحدة.

مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ.

فالمشيئة الأولى منسوبة إلى الله تعالى باعتبار أن تعليم العلم يدخل ضمن نظام المشيئة وهي تمثل أهم قانون يحكم كل الكائنات الممكنة في الكون ولا يمكن تحاشيه أبدا باعتبار تأثيره في كل شيء .

ذلك لأن العلم يمثل انطباع الكلي في الذهن بحيث تتقبله النفس وتعتبره حقيقة توصلت إليها بعد جهد وإلا لا يمكن تصور القبول لدى النفس العاقلة. ولن يتأتى ذلك بالإرادة، فلا يمكن أن نتصور بأن الله تعالى وبلمحة عين علَّم يوسف علما جديدا . وليس ذلك لضعف في القدوس عز اسمه ولكن الضعف فينا نحن البشر الذين نعيش مع الضعف دائما وأبدا حتى في جنات النعيم؛ رزقنا الله تعالى دخولها .

ولذلك فإنه سبحانه وضح لنا بأن المفهوم العلمي ليس من نوع العلم الابتكاري ولكنه تطوير للعلم الموجود لدى يوسف، فقال عز سمه: نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء .

وأما المشيئة الثانية فهي لأن رفع الدرجات لا يتم إلا بوجود استعداد كامل للمنعَم عليه ليتقبل ويتطبع بها وإلا لم تتم العملية لعدم تكامل العلة المفعولية.

لنعد إلى إخوان يوسف لنقرأ ما كان يدور في خَلَدهم في تلك اللحظات الحرجة.

أرجو من القارئ الفاضل حينما يقرأ هذه السورة المجيدة أن لا ينسى الحقيقة الأسرية لبني إسرائيل. إنهم يسعون لتقوية الأسرة وإظهارها فوق بقية الأسر ليستظلوا بها وينعموا بالانتساب إليها عالمين بأن ليس لأحد غيرهم أن يدخل في هذا الحصن المتين والمحصور فيهم. فالدفاع عن الأسرة لديهم هو أولى الأولويات.

هؤلاء هم آباء بني إسرائيل الذين رأوا بأن كرامة إسرائيل قد خُدشت وعليهم الدفاع عنها قبل أي شيء آخر. بنو إسرائيل يسرقون! هذا شيء لا يُطاق.

لو قيل بأنهم قتلوا لما تأثروا كثيرا فهم المتهمون بقتل أخيهم في قرارة نفوس الأسرة الكريمة دون يعقوب ويوسف الذين يعرفان القصة بل يصنعانها.

وأما الانتقال من ضمير الغائب الذي يُشار به عادة إلى نظام الألوهية إلى ضمير المتكلم مع الغير في الجملة المذكورة فهو لأن الله تعالى وحينما يريد إحداث أمر قبل أوانه لضرورة فإنه يستعمل هذا الضمير لإثبات أن أسباب النعمة كانت متوفرة ولكنها لم تتكامل فمنَّ الله تعالى على المنعم عليه لسبب من الأسباب بإحداث التغيير وعدم الانتظار لحين تكامل حيثيات المشيئة أو الإرادة.

ولو ننظر إلى بداية سورة الفتح مثلا سنجد نفس التعليل باعتبار أن حيثيات الفتح لم تتكامل ولكن هناك ضرورة أخرى ولعلها قرب وفاة الرسول باعتبارات أخرى لا يمكن تأجيلها، هذه الحيثيات أكملها الله تعالى بلطف خاص منه فسوف يقوم نظام الألوهية بالمغفرة الضرورية للرسول وإكمال أسباب الفتح ودوافعه.

وأما العليم الذي يتضمن ضمير الغائب الذي يُستعمل عادة لبيان النظام الألوهي فهو باعتبار أن الشأن شأن ألوهي لتبقى الكائنات كلها خاضعة خضوعا حقيقيا لله تعالى. وهو ليس شأنا ربوبيا باعتبار أن التحديث ليس للتعليم والتطوير فحسب ولكنه لقبول الألوهية أو الخضوع المتكافئ مع النظام وليس الخضوع القسري كما نراه في الترتيبات الدنيوية، والعلم عند الله تعالى. نهاية الهامش 60.

وقد اتهمهم يعقوب نفسه بفعل أمر مُعيب، أثار الشعور بأنهم قتلوه لدى بقية أفراد الأسرة، ولم يتمكنوا من رده ردا قويا مقنعا، ولكن تهمة القتل دون تهمة السرقة لديهم. على أن قيام مجموعة كبيرة بقتل أخ صغير لديهم مشين فعلا.

أسرع الإخوة في إثبات طهارة إسرائيل من أن ينجب أولادا سارقين ليسوا في مستوى الأسرة الرفيعة الكريمة ونسبوا الضعف المزري إلى زوجة أبيهم التي تشاركه في إنجاب يوسف وأخيه. ولإثبات هذا الحكم الأحمق...

قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿77﴾.

قلنا في بدايات السورة في وصف عودة الإخوة من الصيد إلى أبيهم بدم كذب على قميص يوسف بأن القميص كان لأخيه.

كان يوسف وباتفاق مع أبيه قد احتفظ بقميصه في هميانه للمستقبل ولبس قميص أخيه من أمه حينما خرج مع إخوانه. وكان الإخوة مهتمين بمؤامرتهم فلم ينتبهوا إلى أن أخاهم كان يرتدي قميص أخيه وهو ما أشار يعقوب إليه وعلى اساسه اتهمهم بالكذب في حكاية الذئب وأن أنفسهم سولت لهم أمرا.

هناك انقلب السحر عليهم فبدلا من أن يخلو لهم وجه أبيهم فإنه ازداد اهتماما بأبنائه من غير أم الإخوة المتآمرين. فقصة سرقة يوسف لقميص أخيه كانت تمثل جرحا كبيرا في قلوبهم وكانت لا تفارقهم أبدا. فهي إلى جانب فضيحتهم أمام إسرائيل كانت تمثل سرقة معيبة حصلت في بيتهم ولم يتمكنوا من الإصرار عليها لإقناع الأب بأنهم أفضل ممن أنجبته زوجة أبيهم.

ويبدو بأنهم كانوا يتداولون قصة السرقة هذه فيما بينهم دون بقية الأسرة وكانوا يتألمون منها.

من ناحية أخرى فإنهم أبدوا اهتماما بسمعة أسرتهم وكرامتها أمام المصريين وأمام العزيز بالذات. فكان توجيه التهمة إليهم بسرقة شيء من غرفة من ساعدهم أمرا قاسيا جدا على قلوبهم ولا يعرفون كيف يواجهونه خاصة بعد ثبوت السرقة وسكوت أخيهم المتهم. فكانت أول مسألة هو أن يبرئوا ساحتهم من التهمة المشينة ولذلك نسبوا أسباب السرقة إلى الأم حماية لكرامة الأب العظيم إسرائيل الذي يمثل كل الكرامة والشرف لهم ولكل بني إسرائيل[61].

[61] إذا أردنا أن نتعرف على بني إسرائيل بدقة فعلينا الانتباه إلى أنهم في حين اهتمامهم الكبير بالمال والثروة، فإنهم كانوا أكثر تمسكا باسم إسرائيل. والقرآن الكريم يهدينا إلى هذه الحقيقة في عدة موارد منها:

1. أن الذي أسس كيانهم هو يوسف ولكنهم لا يهتمون كثيرا به بل يتشرفون بالانتساب إلى يعقوب. ونجد اهتمامهم بداود وسليمان أكثر من يوسف. ولعلهما لم ينحدرا من يوسف بل من الإخوة العصبة.
2. تركوا لحم الجمل وحرموه على أنفسهم لأن يعقوب كان يكره الجمل. قال تعالى في سورة آل عمران:

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (93) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94).

فالجمل لم يكن محرما في التوراة الأصلية التي أنزلت فيما بعد وبقيت بين أيديهم آلاف السنين حتى ضاعت فعلا اليوم. لكنهم إكراما لأبيهم إسرائيل غيروا تشريعهم وكذبوا على الله تعالى.

3. كان يعقوب خائفا عليهم من أن يتركوا عبادة الله تعالى ويعبدوه كما هو عليه كل الأمم التي عاشت بصحبة الرسل الكرام تقريبا. قال تعالى في سورة البقرة:

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133).

ولو نقرأ الآيات التي تلتها فسنعرف بأن الله تعالى ورسله المكرمون يدعوننا للاهتمام بما أنزل على الرسل وليس بالرسل.

4. قال سبحانه في سورة الإسراء:

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3). فتشبثهم بالسامية مردود عند الله تعالى باعتبار أن نوحا بنفسه كان عبدا لله شاكرا له وحده فكيف

يشكرون العبد ويتركون الرب؟ وقد نبههم ربهم ألا يتخذوا غير الله تعالى وكيلا ويتركوا التمسك بالأسرة والعائلة إلا في حدود المتعارف المسموح.

5. قال تعالى في سورة طه:

قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) .

ومنها نعرف بأن هارون وهو عمود من أعمدة بني إسرائيل وعلى الرغم من نبوته فقد كان مهتما بتماسك الأسرة الإسرائيلية، هي مع الأسف عادة إسرائيلية تحولت إلى ما يشبه الطبع الذي لا يفارقهم حتى بعد استلام الوحي. سلام الله على هارون فليس لي إلا أن أذكره بالخير ولكنه كان يُظهر حقائق قومه وليس حقيقة نفسه الطيبة التي أخلصها الله تعالى لينقل رسالته دون أدنى ريب. فالتفريق بين بني إسرائيل يمثل كارثة للقوم وليس لأنبيائهم الكرام.

6. وقال موسى لفرعون بعد أن ذكر له نعمته عليه في تربيته وليدا كما نجد الحكاية في سورة الشعراء:

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) .

فكان النبي الإسرائيلي العظيم موسى عليه السلام متألما من إذلال فرعون لبني إسرائيل. وأرجو الانتباه بأنه عليه السلام لم يقل قومي وأهلي بل قال بني إسرائيل. وهذا يدل على ما لإسرائيل من احترام كبير لدى سلالته حتى المرسلين منهم. بالطبع أن اهتمام الرسول الأمين موسى عليه السلام لم يتجاوز حدود التعارف ولكنه احترام قلبي متأصل في كل بني إسرائيل لما ليعقوب من احترام لدى الذرية بكاملها.

ولذلك فإني أقدم نصحي الخالص للذين يتعاملون مع الإسرائيليين أن يتركوا الحديث عن بني إسرائيل وظلم بني إسرائيل وهو ليس صحيحا في الواقع. إن الذي يظلم الفلسطينيين كعرب هم أفراد وجماعات من بني إسرائيل وليست الأسرة الكبيرة بكاملها. دعنا نضع اللوم على أفرادهم وليس على إسرائيل. نحن نجهل مع الأسف سبل المواجهة وقد استفز العرب كل يهود الأرض ضدهم وهو لصالح إسرائيل وليس لصالحهم. لقد خسروا كثيرا وظُلموا كثيرا والألم يعتصر قلب كل عربي وكل مسلم وكل إنسان أن يرى أطفالا ونساءا ورجالا يُداسون تحت أقدام شرذمة طاغية من اليهود. أنا كبشر وكمسلم وكعربي لا أحتمل أن أسمع صراخ أطفال فلسطين وهم مظلومون لأننا لا نعرف كيف نحميهم وندافع عنهم. فافتحوا عيونكم إخواني واقرأوا كتاب الله تعالى ولا تتجاوزوا حدودكم ليرحمكم ويرحمنا ربنا الغفور ذو الرحمة.

ولا ننس العودة إلى حكاية يوسف وموقفه مع إخوانه في تلك اللحظة القاسية عليهم جميعا. يوسف يعرف إخوانه تماما وقد مر هو بنفس المسار النفسي. إنه هو أيضا مهتم بأبيه يعقوب ولكنه رسول علمه الله تعالى أن ينظر إلى أبيه كأب لا أكثر ويُعيد الفضل والمجد والشرف كله إلى الله تعالى.

تألم يوسف كثيرا من جهل إخوانه الذين يظنون بأن ليعقوب سرا في شرف الأسرة أكثر من تألمه في نيل الإخوة الجاهلين والناكرين طبعا لوالدته الفاضلة.

ومما لا شك فيه أن أخاه الصغير كان يشاركه في الألم ولكنه ساكت -كما وعد أخاه- وناظر إلى الأمور فقط. ليس ليوسف أي بد إلا أن يستمر في الحفاظ على السر كاملا في قلبه الشريف الذي ضاق عليه كثيرا من مقولة إخوانه. وقوله في آخر الآية لا يمثل كلاما مسموعا صدر منه بل كان محصورا في همساته القلبية برأيي[62].

وسنرى يوسف في حقيقته الطيبة الشريفة والنظيفة حينما نسعى لوصف حالته مع ربه بعد أن جمع سبحانه بينه وبين أهله جميعا في مصر وبعد أن أكمل يوسف رسالته الكبرى في تأسيس بني إسرائيل. نهاية الهامش 61.

[62] أود أن أحلل مغزى كلام يوسف داخل نفسه: أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون.

كان يوسف على علم بأن سرقته لقميص أخيه لا يمثل جريمة بل هو سعي لإكمال الرسالة على أحسن وجه ولإخبار الأب بسلامته وانتصاره حينما يقدر الله تعالى ذلك. فهي سرقة لكنها ليست سرقة محرمة. ولعل الأب هو المالك الحقيقي للقميص وقد سمح ليوسف بذلك. ثم إن حصول مثل هذه القضايا في البيوت ليس عيبا ولا يعتبر سرقة بل هو لصالح الأسرة أحيانا كما في تلك القصة.

لكنه يريد أن يَصُفَّ مع إخوانه فيقول دعنا نفترض بأنني سرقت قميص أخي ولكني سرقته لأنقي شركم أنتم الذين أردتم قتلي و إبعادي عن منزلي وأهلي ووطني. فأنا سرقت قميص أخي مضطرا وأنتم تآمرتم علي لمجرد الكبرياء والأنفة ودون أن يحق لكم ذلك. ما ذنبي أنا الطفل الصغير لو أحبني أبي؟ حتى مع وصفكم فأنتم شر مكانا والله يعلم بأنكم تعلمون سلامة أخيكم يوسف ولكنكم تسرون ضده العداء لخبث باطنكم وليس لحق لكم أو قصور مني. فالمكان هنا يعني الظرف الموصوف كائنا ما كان ولا يعني المنزلة والمقام. والله العالم.

ثم إن يوسف بعبقريته قرأ ما حصل بعده من مقولة إخوانه. عرف بأنهم فعلا لطخوا قميصه بدم كذب ثم ذهبوا إلى أبيهم به متذرعين بمقتله بأنياب الذئب، كما احتمله أبوهم حينما قال لهم: إني أخاف أن يأكله الذئب. وعرف بأن تغيير القميص كان مفيدا وبأنهم لم ينتبهوا وها هو يقرأ ما في ضمائرهم من كلامهم.

ونعرف من هذا بأن الأسرة أخفت القصة عن الأخ الصغير رأفة به، وإلا لكان هو القائل ليوسف حينما اختلى به في مكتبه. يوسف الآن يلعب دور المعلم الكبير فهو يخفي كل شيء عنهم كما يُخفيه عن أخيه احتمالاً.

شعروا بأنه ممتعض من مقولتهم ولعلهم ظنوا بأنه يُكذِّبهم ويرى بأن الإخوة يسعون لدرء شبهة السرقة عن المجموعة باختلاق قضايا قديمة وبأن ينسبوا أسباب السرقة إلى كون أخيهم من أم أخرى.

وبما أنهم قد تغيروا فعلا وصاروا يطرقون أبوابا متعددة فإنهم غيروا مسار الدفاع وتوجهوا إلى يوسف و. .

قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿78﴾

يمكننا بكل سهولة ملاحظة الاسترحام الشديد في لحن قولهم. فقد خاطبوه باللقب السامي وهو العزيز. وواضح بأن العزيز هو لقب وزاري لأصحاب الرفعة في مصر الفراعنة وكان زوج معلمته التي راودته عن نفسه يحمل نفس اللقب.

ونادوه بـ"يا أيها" وهي نوع نداء استعمل فيه الهاء بعد الوصلة "أي" للتنبيه على أنه هو المقصود. مثل هذا النداء يُطلق للتحذير مثل تحذيرات الله تعالى في القرآن للناس وللأفراد أو للاستغاثة بأن المنادى هو القادر على أن يساعد.

فصيغة ندائهم تدل على أنهم طلبوا منه طلبا بكل خضوع واحترام وبأنهم يأملون منه الاستجابة. ولذلك ذكروا له السبب العاطفي في استغاثتهم وهو كبر سن أبيه. ثم رأوا بأن الجود بالنفس في مثل هذا المورد دليل واضح على صدقهم وصلاحهم.

هذه قدرة غريبة أن يكشف أخ بعد عقود سرا قديما لدى إخوانه بصورة مفاجئة ويتمكن من الاحتفاظ به في قلبه. فلأهمية القصة التي تؤكد على لياقة يوسف للمهمة الكبرى ذكرها الله تعالى لنا بأن يوسف كان قويا بحيث يتمكن من السيطرة على نفسه في أحرج المناسبات. فالعظماء يختارهم الله تعالى للمسائل الكبرى.

بالتأكيد أن نظرة يوسف إلى إخوانه قد أوحت إليهم بعض الشيء عن استيائه مما بدا منهم ولكنهم لم يتمكنوا أبدا من قراءة خَلَد أخيهم الذي لم يتعرفوا عليه بعد. نهاية الهامش 62.

ولم يكتفوا بذلك بل أعقبوه بإضافة صفة الإحسان إليه. كأنهم يقولون له بأنك لو تأخذ أحدنا مكانه وتستفيد من إمكاناته وقدراته فأنت المحسن ولسنا نحن، بل نحن الذين مسنا إحسانك.

و قد ذكروا إحسانه بلفظ الحال ليقولوا له بأن هذا الإحسان أكبر بكثير في عيونهم مما أكرمهم به من قبل. كان يمكن أن يقولوا له بأنهم رأوه محسنا فطمعوا فيه ولكنهم لم يفعلوا لبيان أهمية هذا العمل.

بالطبع أنهم كانوا منتبهين بأن أيا منهم لا يمكن أن يحل محل المتهم لأنه أصغر منهم بكثير والمطلوب في الفتيان الصغر وليس الكبر. إن عمر العمل لدى الأحداث أكبر وإنهم أكثر قدرة على التغير ليتناسبوا مع شؤون الأسياد ويتعلموا خلالهم وآدابهم.

وهذا هو الذي يوجه توصيف المعاوضة بالإحسان وبأنه إحسان لكل الإخوة بمن فيهم الذي سيحل محله في خدمة العزيز. هذا التغيير هو مما جَدَّ في أخلاقهم بعد نصائح يعقوب.

ولعل يوسف قد انتبه إلى أن شيخ بني إسرائيل قد فعل فعلة في إخوانه لأنه رأى بأن التغيير الخُلقي أكثر بكثير من ضغوط الزمان ومن قرعة الفقر والحاجة التي ألمت بهم.

انتبه يوسف بأنهم الآن يعرفون من أين تُؤكل الكتف فيفكرون ويتعقلون ثم يتكلمون ويُخاطبون. هذا يعني بأنهم شعروا بأن ليس كل ما يتحدثون به صحيحا وليس كل الموارد متشابهة ولا يكفي الاعتزاز بالعائلة والأسرة والكرامة وما شابه ذلك من ترهات متفشية في أذهان الجاهلين الذين يمثلون أكثر أهل الأرض.

انتبه يوسف بأن إخوانه بدأوا يشعرون بأن الناس يقيّمون كل فرد بقدر أهليته وعلمه وأدبه وليس بادعاءاته وتخيلاته. ولذلك يسعون الآن لتقييم حدود كل فرد في القضية فيعطوا القوي حقه من النعوت ليستدروا رحمته وإلا فسوف لن يبلغوا الهدف[63].

لم يفكر الإخوة في إيجاد مخرج إلهي لطلبهم ليقفلوا كل الأبواب على يوسف. لكن يوسف الذي يتحلى بذكاء وقاد عرف كيف يُسكت أمة تؤمن بالله تعالى بأن يتخلى عن الظلم ويعتبر أخذ أحدهم ظلما . ولذلك ألقمهم **حجرا** وأراهم بشاعة خطإهم في جوابه القوي لهم.

قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿79﴾

بالطبع أن الله تعالى يختصر الكلام باعتبار القرآن وأهميته ليحافظ سبحانه على إعجاز كلامه العظيم.

لكن يوسف قد قال لهم جملة أطول بكثير مما نقرأه في القرآن كما أحتمل.

إن السر في الظلم المذكور في الآية هو الظلم على الذين هم وراء كل فرد منهم. إنهم كبار ومتزوجون وقد ذكروا و سجلوا قوائم بأفراد أسرهم، فأخذُهم يمثل ظلماً على أزواجهم وأولادهم الذين سيُحرمون منهم.

هناك احتمال كبير بأن الأخ الاصغر لم يكن متزوجا أو كان له عيال أقل من بقية إخوانه وهو الذي ظلمهم حسب الظاهر بالإقدام على السرقة فما ذنب أهل أخيه الذي سيحل محله؟

---

[63] هذا الذي يفقده الإسرائيليون اليوم مع الأسف كما يفقده العرب أيضا ولذلك فكل منهم يغني على ليلاه التي ماتت وأصبحت نسيجا خياليا لا أكثر. مع احترامي للذين ننتمي إليهم جميعا ولكنهم ميتون لا حراك فيهم ولا قوة والقوة كلها لله تعالى الذي يملكنا جميعا ويديرنا جميعا ونحتاج إليه وحده. نهاية الهامش 63.

هذا الذي يستعيذ منه يوسف إلى الله تعالى وليس مجرد أخذ شخص رضي بأن يتبرع ليحل محل شخص آخر ويقدم له ما بوسعه من خدمة كعبد لديه.

لم يُشر يوسف في جوابه إلى إثم أخيه فإثمه لا يستدعي أن يُؤخذ عبدا ولكنه أشار إلى أن من حقه أن يأخذ من وجد متاعه عنده.

ثم إنه تحدث بصيغة المتكلم مع الغير فقال نأخذ ولم يقل آخذ ليقول لهم بأن العقد الذي أبرمتموه قبل قليل معنا هو عقد مع مؤسسة وليس مع فرد حتى يُمكنه التبرع بالتنازل عن حقه.

والواقع أنهم أبرموا العقد عمليا مع الموظف ولكن يوسف وصل في النهاية ليضمن لهم الجائزة لو أنهم أعادوا المفقود من تلقاء أنفسهم.

ليس ليوسف موقف قانوني أو شرعي قوي سوى ما اتفقوا عليه ويريد أن يبرئ ذمته دون أن يفقد صفة الإحسان الذي تمثل به في قلوب إخوانه الذين لا زالوا في غفلة عنه.

وبعد أن فتح آباء بني إسرائيل قلوبهم للغير وأصغوا إلى الباقين ولم يكتفوا بما لديهم وتخلصوا من بعض عقدهم بدأوا يشعرون بأن الحياة معقدة وليست بالبساطة التي عاشوا عليها يوم جهلهم.

فحينما فتحوا قلوبهم شعروا فعلا بأن جهلهم أكثر من علمهم كما شعروا بأن الإيمان بالحقيقة ليس حكرا عليهم. هذا هو عزيز مصر يؤمن بالله العظيم ويستعيذ منه ويسعى لأن يكون عادلا محقا غير ظالم لأحد . ثم إنه يحب الإحسان ولكن ليس على حساب مبادئه.

ظن الإخوة قبل قليل بأن الوزير المصري مهتم بنفسه وفخور بطيبه وإذا بهم يرونه أكثر اهتماما بالنظام وبحقوق الآخرين وأكثر التزاما بحقوق المؤسسة التي يعمل فيها .

شعر الإخوة فعلا بأن المحاولات غير مجدية وبأنهم أمام مسؤول يحب النظام ويضع إرضاء ربه نصب عينيه ولا يهتم بنفسه ولا يصغى للمديح.

أحسوا فعلا بأن العزيز إنسان غريب يساعد الناس طلبا لمرضاة الله تعالى وليس لإرضاء مشاعره وأحاسيسه لمساعدة مَن دونه. إنه إنسان طيب وقد توافقت مباديه التي يؤمن بها مع النظام العام ومع تعليمات السماء.

لقد أخطأوا من البداية فعليهم أن يقبلوا بما حكموه على أنفسهم. كان عليهم أن يحتملوا سرقة أحدهم فلا يتبرعوا بأنفسهم مقابل سرقة بسيطة.

كان يمكنهم أن يقولوا لو كنا سارقين فإننا نقبل حكم القضاء المصري فكان أرحم عليهم مما جنوه على أنفسهم بأيديهم.

وأحتمل أن الله تعالى يصف هذه الحقائق التي توصل إليها الإخوة ببيانه الكريم:

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿80﴾

كانت نتيجة المناقشة بينهم وبين العزيز أن استيأسوا من عودة أخيهم معهم. وحتى نتعرف على الموقف بالضبط فلنحقق في معاني الكلمات الثلاثة الأولى وهي يأس وخلص ونجي.

اليأس كما قال الراغب تعني انتفاء الطمع. ولعل انتهاء الطمع أكثر انطباقا مع الاستيئاس لا مع اليأس المجرد. هذه الصيغة لم ترد في غير سورة يوسف من القرآن. تلك السورة التي ضمت 4 تكرارات لمادة اليأس من أصل 13 مرة مكررة في كل القرآن.

واليأس في أصله يعني الاقتناع بعدم جدوى المحاولات، وهو قريب من القنوط الذي يعني انقطاع الأمل كلية.

فلعل الفرق بين اليأس و الاستيئاس هو أن اليأس يمثل حالة نفسية محضة تحصل للإنسان سواء سعى أو لم يسع ولا يلزم أن يكون اليائس فعلا طامعا في الميؤوس منه مثل يأس الكفار من الآخرة. ومثله يأس إخوان يوسف من أن يروا يوسف في مصر بعد أن أمرهم أبوهم بأن يبحثوا عنه وعن أخيه في تلك الديار.

لكنك إذا سعيت ثم قطعت الأمل فكأنك كنت تسعى لبلوغ هدف ولم يكن سعيك في المسار الصحيح فأخذت النتيجة العكسية. وقد وردت صيغة الاستفعال هذه فقط في سورة يوسف ولمرتين لا غير. والثانية في آخر السورة حول استيآس الرسل بعد بذل الجهد . وأما قول بعض المفسرين وبالتبع بعض علماء اللغة بأن اليأس في الآية 31 من سورة الرعد يعني العلم فهو غير صحيح برأيي. بل المقصود أن يقطع المؤمنون الأمل في أن يهدي الله تعالى من لا يستحق. ذلك لأنه يناقض نظام المشيئة الصارم والعلم عند الله تعالى.

والكلمة الثانية خلص تعني صفى الشوائب. قال الراغب:

الخالص كالصافي إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، والصافي قد يقال لما لا شوب فيه، ويقال: خلصته فخلص، ولذلك قال الشاعر:

وضاقت خطة فخلصت منها خلاص الخمر من نسج الفِدام

أظن بأن الراغب أصاب في فهم المعنى الدقيق للكلمة وأتى بشعر المتنبي كشاهد على تحقيقه في الكلمة العربية. يهمني معرفة أن العرب شاع عندهم استعمال كلمة خلص للإنسان بمعنى السعي في تصفية قلب أو بدن والتوصل إلى أمر قد يُزيل منه أو منهم ما لم يرغبوا فيه. فلو قصد المتنبي أنه سعى للإصلاح بين

خصمين مثلاً ثم انتهى إلى أمر جاز له أن يقول: خلصت من خطتي. ولو أراد التخلص من مرض فسعى وسأل الأطباء ثم انتهى إلى علاج جاز له أن يستعمل نفس الكلمة ليوضح لنا نتيجة فحوصاته بعد التخلص من الزوائد غير المطلوبة. والفدام جمع الفدم بمعنى الدم.

وأما الكلمة الأخيرة نجى فيقول الراغب ايضا:

أصل النجاء: الانفصال من الشيء، ومنه: نجا فلان من فلان وأنجيته ونجيته.

إلى أن يقول:

والنجوة والنجاة: المكان المرتفع المنفصل بارتفا عه عـ ما حو له، وقـ يل: سمي لكو نه ناجـ يا من الـ سيل، ونجيته: تركته بنجوة، وعلى هذا: فاليوم ننجيك ببدنك [يونس/92] ونجوت قشر الشجرة، وجلد الشاة، ولاشتراكهما في ذلك قال الشاعر:

فقلت انجوا عنها نجا الجلد إنه سيرضيكما منها سنام وغاربه

انتهى كلام الراغب.

فإذا فهمنا معاني الكلمات المستعملة في القرآن لبيان الحالة التي وقع فيها الإخوة سنفهم قبولهم بالأمر الواقع وتركهم أخاهم عبداً يخدم العزيز وعودتهم إلى أبيهم خائبين. فهم لما اقتنعوا بعدم جدوى المناقشة مع العزيز استنتجوا ضرورة الانفصال عن أخيهم.

خلصوا يعني توصلوا إلى نتيجة بعد نفاد المحاولات.

فالمحاولات تمثل السعي لإزالة الشوائب والشوائب هي التي تحول دون العودة إلى ما كانوا عليه قبل قليل محتضنين لأخيهم. والنجاة تعني الانفصال عن الأخ الذي استيأسوا من إمكانية مساعدته وتخليصه من الورطة التي وقع فيها.

نسي الإخوة القحط والجوع والفقر وعادوا إلى أنفسهم بأنهم ظلموا أباهم من قبل ولم يقبل الأب ادعاءهم حينما كانوا مذنبين.

ثم هم الآن أمام مصيبة أخرى خارجة عن إرادتهم بل سعوا بكل ما أوتوا من عزيمة وذكاء ليكونوا صادقين ولكنهم لم يفلحوا والنتيجة بالنسبة للأب العجوز واحدة. إنه سيفقد ابنا آخر.

فكر الإخوة بأن الأب لم يصدقهم آنذاك إنه سوف يكذبهم اليوم أيضا. وإذا نقلوا القصة بالكامل فسوف يقول لهم الأب: ألم أقل لكم لا تدخلوا من باب واحد، فلماذا لم تفكروا في إمكانية حصول هذا الأمر من بينكم وتتقبلوا التهمة بصورة عامة وتفتشوا رحالكم وتعيدوا الصواع لأصحابه بدلا من الاستهتار والترفع والاستنكار وأنتم لا تعلمون شيئا عما يفعله كل فرد منكم. إنهم طالبوكم بإعادة متاعهم مقابل هدية لكم فلماذا التعنت؟

كان الإخوة متأثرين جدا بالحالة الجديدة التي سعى إليها يعقوب ولذلك لم يفكروا بالانتصار لأخيهم وأبيهم والتشبث بما يقوم به الحمقى من المكر والخداع.

على المرء أن يقبل الواقع فهو أسهل عليه وأشفق من السعي في هدف لا يملك مقوماته مثل الذين يقومون بأبشع الوسائل التي يرفضها الوجدان وترفضها الأديان السماوية.

موقف يفر المرء فيه من أخيه. جاء الآن دور الأخ الأكبر الذي منعهم من قتل يوسف ولكنه قبِل بأن يضعوه تحت تصرف العابرين ليأخذوه معهم بضاعة يستفيدون منه. إنه لم يأثم في يوسف ولكنه أثم في أبيه. نجى يوسف بسعيه حسب الظاهر ولكنه لم يفكر في الأب العجوز الذي يحملون إليه خبر مقتل ابنه كذباً. كان شريكا لإخوانه ولكن ليس شريكا بالكامل.

هذا الأخ الآن في موقف مشابه لمواقف يوم القيامة يريد أن يستفيد من أية قشة طالبا تطهير نفسه من بعض الإثم.

إنه قادر الآن على عدم مواجهة والده والاستماع إليه وهو يرفض قولهم ويقول:

بل سولت لكم أنفسكم أمرا. إنهم جميعا استيأسوا من إمكانية تقديم أي مساعدة لأخيهم الصغير ولكنه يفكر في نفسه لينجو من عتاب الأب القاسي.

وحتى نتصور الموقف جيدا دعنا نضيف إلى ذلك بأنه أب وله زوجة وأولاد وهم متلهفون لرؤيته بينهم وخاصة حينما يرون بقية إخوانه عائدين إلى بيوتهم. لقد نسي الأخ كل شيء إلا نفسَه. قال لإخوانه بأن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله تعالى كما أخذ علي موثقا أيضا. ولكني لم أشارككم في الظلم على يوسف وأنتم الذين تآمرتم ضده من قبل.

فأنا مختلف عنكم ومن حقي أن أبتعد عن وجه أبي لحظة عرض الحادث المؤلم عليه.

فتأكيده بأن إسرائيل أبوهم دون مشاركته معهم هو إسرائيل في حال الغضب وليس إسرائيل الطبيعي العادي الذي هو أبوهم وأبوه.

يذكرهم أخوهم بأن أبانا لم يأخذ منا موثقا من الله تعالى حينما أرسل يوسف معنا ولكنه فعل ذلك حينما أخذنا أخا يوسف الأصغر لأنكم فرطتم في يوسف وأنا لم أكن شريكا معكم فلماذا أرى الموقف المؤلم معكم؟ اذهبوا لوحدكم وواجهوا مصيركم دوني.

سوف يرى الأب بأننا لا نحترم حتى مواثيقنا مع ربنا فأبعدوني عن هذه التهمة.

إنني أحترم المواثيق ولا أحب الظلم ولم أفكر يوما في التخلص من يوسف كما فعلتم. إنكم صادقون في أخي يوسف من أمه ولكنكم بدوني أثمتم في يوسف فمن حقي وحدي أن أبقى بعيدا عن المواجهة مع الأب.

ولو أنني أخطأت اليوم كما أخطأتم ولكن المصيبة هي مصيبة يوسف التي سوف تتجدد عند أبينا.

لقد أخطأت آنذاك أنني أخفيت عن أبي حقيقة الأمر لأجلكم وسوف تنكشف الكثير من المسائل لأبينا بل علينا أن نكشف له المسائل حتى لا نزداد إثما.

إنكم لا ترضون بذلك فاذهبوا لوحدكم وأنا أنتظر إذن أبي. إنني أحتاج إلى إذنه ليعلم بأنني لم أكن مذنبا معكم.

نحن أخطأنا بأننا أعطيناه المواثيق ألا نترك أخانا إلا إذا أحيط بنا، وقد تركناه دون أن يُحاط بنا. كنا قادرين على أن ننجو من تهمة السرقة ولكن أبت نفوسنا المتكبرة ذلك.

فأنا لن أترك هذه الأرض التي بها أخي حتى يأذن لي أبي لأنني مخطئ. ثم إننا جميعا أخطأنا حينما قلنا للعزيز بأن له أخا سرق من قبل وهذا يعني بأنه ليس أجنبيا عن السرقة ولعل هذا الذي منع أخانا عن أن يدافع عن نفسه. فنحن لم ندافع عنه كما وعدنا أبانا بل دافعنا عن كرامتنا دونه.

ولو أن أبي لم ير لي حقا فلم يعف عن حقه في ذمتي ولم يأذن لي فسأنتظر حكم الله تعالى الذي لا يمكن أن يترك أمرا دون أن يحكم فيه وهو خير لي من كل حاكم. إنه أرحم الراحمين وخير الحاكمين فآمل من ربي أن يجد لي حلا لأتمكن من العودة إلى أهلي عندكم وبجواركم.

ودعاؤه هو أن يحكم الله تعالى لصالحه وليس ضده بما يُرضي الأب الذي أخذ عليه المواثيق. ولذلك قال متمنيا ربه: أن يحكم الله لي.

يبدو لي بأن الإخوة العشرة جميعا لم ينتبهوا إلى أن غياب أكبرهم غير مبرر. لم ينتبهوا إلى أنهم لا شعوريا سوف يعطون أباهم مادة أخرى ليشك فيهم ويتهمهم بالمكر.

وما نقرؤه في الآيتين التاليتين يدل على أن الأكبر أراد أن يساعد إخوانه ويعلمهم الخطاب المناسب لأبيهم لكنه نسي فعلا بأن غيابه من بينهم ملفت للانتباه.

لقد تعلموا الكثير ولكنهم لا زالوا يجهلون حصافة أبيهم وقدرته العقلية الكبيرة.

إن الأخ الصغير وإخوانه يسعون كثيرا لاتباع وعظ الأب العتيد ولكن الجهل متفش فيهم.

كان لجوء الأخ الأكبر إلى الله تعالى جميلا جدا ودليلا على رشده لاعتقاده بأن الذي يفيده بقوة هو الله تعالى وليس هو أبوهم يعقوب.

هذا دليل آخر على أنه في صدد البحث عن مخارج متفرقة لقضيته وبأنه غير مصر على المستمسكات القَبَلية الغبية.

قال لإخوانه وهو يعلمهم:

ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿81﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿82﴾

ارجعوا إلى أبيكم يعني لا تحكموا بشيء وعودوا إلى أبيكم بكل صدق واعرضوا عليه المسألة هكذا. وبقوله (أبيكم) أخرج نفسه من المأزق وأكد بأنه غير مذنب.

وبما أن الأمر بالرجوع لا يعني العودة بأبدانهم بل كما قلت بنفوسهم إليه ليساعدهم دون أن يحكموا بشيء ولذلك استعمل الفاء بقوله: فقولوا. ولم يقل: وقولوا.

هذا أيضا دليل آخر على أنهم يلجون أبوابا متعددة لحل مشكلتهم ولا يكتفون بفهمهم الشخصي مما يهدينا إلى أنهم فعلا قد تغيروا وأصبحوا يسعون للمزيد من العلم وأصبحوا يتقبلون غيرهم وأصبحوا يثقون بأن كل إنسان يحمل علما وعقلية يمكن أن يفيد بهما غيره.

فكيفية الرجوع إلى الأب هو أن يخاطبوه أولا بأنه أبوهم ليتم الاستمالة الفكرية واستعداد المتعلم ليسمع من المعلم.

ثم إنه أدرك بأن إعادة المسألة إلى الأم هو اتهام غير صحيح للأم أولا وقد أضرهم دون أن ينفعهم ثانيا . عليهم الإذعان بأن ابن يعقوب يمكن أن يسرق أيضا فيشملهم جميعا .

لقد أصبحوا أكثر واقعية فهم الآن يتأثرون بالمحيط ويتعلمون من أخطائهم ويسعون لعدم تكرار الخطأ .

ولو كانوا كما كانوا من قبل لقالوا: إن ابن فلانة (أم يوسف) سرق. ونحن لم نره يسرق حتى نمنعه ولكن الوزير أثبت لنا بأنه سرق حينما أخرج السقاية من رحله الشخصي ولم يستنكر أخونا ولم يسع للدفاع عن نفسه فعلمنا بأنه سرق وشهدنا عليه لأننا ما دافعنا عن عمله إذ لا مجال لذلك.

ثم إننا وعدنا بأن نحافظ عليه ولكننا كيف نحفظه في الغيب. إنه دخل على يوسف قبلنا وخرج منه ولم نكن معه لنحفظه ونمنعه من مد اليد للتحف الموجودة في غرفة العزيز.

و قال المرحوم الزمخشري بأنهم قالوا (ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق) وهو كلام جميل. وقد ظن الكثيرون بأن الحفظ للغيب يعني العلم بالغيب، سامحهم الله تعالى و إياي.

ثم أمرهم أخوهم الكبير بأن يقترحوا على أبيهم أن يسأل التجار الذين كانوا في صدر القافلة التي التحقوا بها كما يسأل مالكي السيارات الناقلة[64]. إنهم رأوا كل الحادث ويمكنهم أن يمنحوا يعقوب مزيدا من الاطمئنان بأن أولاده غير مقصرين في هذه القصة بالذات.

عاد إخوان يوسف إلى أبيهم خائبين وقد فقدوا أخاهم الصغير ولم يصاحبهم أخوهم الكبير. يبدو بأنهم نفذوا تعليمات الأخ الكبير كما هي ولكنهم جميعا نسوا بأنهم أمام عبقريين فذين هما أبوهم إسرائيل وأخوهم يوسف.

كانوا يجهلون بأنهم بريد ينقل الرسائل بين الأب والابن وأن يعقوب سوف يكشف شيئا آخر حينما يخاطبونه حسبما نصحهم كبيرهم.

---

[64] القرية في العربية تعني المكان الذي يحييه أصحاب الثروات باعتبار قدرتهم على التجمع والاستضافة. ولذلك تُطلق كثيراً على أصحاب القرية وعيونها.

وفي القرآن نرى كثيرا من هذا النوع من الاستعمال وهذا ما نفسر به تعذيب القرية أو إيمان القرية وما شابههما.

ونحن لا ندري أين كان يسكن يعقوب وأولاده ولكننا نعلم بأن القرية تعني كبار أهل القرية الذين يتمكنون من تحريك القوافل التجارية ويستعدون لحمايتها من اللصوص والطامعين.

وأما القول بأنهم قالوا له اسأل أهل مصر فهو تعليق بما يشبه المحال. كيف يتمكن يعقوب ماليا من إرسال شخص يتحقق من الموضوع، ومن يرسل غير أولاده؟

والواقع برأيي أنهم طلبوا من أبيهم أن يسأل أهل القرية التي حركت القافلة من بلدهم وليس أهل القرية المصرية. ولذلك فضلوه على العير لأن يعقوب يعرفهم ويعيش بينهم أو بجوارهم. ثم إنهم أضافوا العير وهم الذين يسيرون الجمال حتى لا يظن يعقوب بأن هناك مجاملة ما بين أولاده وبين تجار قريتهم.

خدم العير عادة ما يكونون دون مستوى المسافرين أو هكذا يتصرفون فلا يمكن تصور مجاملة بينهم وبين أبناء يعقوب. والعلم عند الله تعالى. نهاية الهامش 64.

استمع يعقوب إلى أولاده وقال احتمالا: لو كانت القضية كما قلتم فلماذا بقي أخوكم الكبير؟.

أنتم لم تذنبوا وقد أحيط بكم فعلا فلم تنقضوا ميثاقكم ولم تكن بأيديكم حيلة. كان على أخيكم الكبير أن يصاحبكم في رحلة العودة فما الذي حدا به أن يبقى بعيدا عنا في مصر؟ إذن هناك أمر آخر تخفونه عني ولا تريدون الإفصاح به.

ثم كرر يعقوب نفس الجملة التي قالها لهم حينما أتوه بدم كذب لإثبات زعمهم بمقتل يوسف بأنياب الذئب:

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿83﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿84﴾.

استلم إسرائيل رسالة يوسف من إخوانه الذين لا يعلمون ما يفعلون.

يوسف يقول لأبيه: لا زال إخواني متمسكين بالكذب ولا زالوا يخفون قصتهم معي. هؤلاء ليسوا أهلا لأن يكونوا آباء بني إسرائيل قبل أن يكتمل إصلاحهم. عليك بأن تمارس عليهم المزيد من الضغط لعلهم يهتدوا ويعودوا عن غيّهم.

احتفظت بأخي الصغير عندي لتعلم بأنني ابنك يوسف وبأنني مكرم في مصر. أتمنى أن يكون في عودتهم خائبين بدون أخيهم هذه المرة، دافعا لهم للعودة إلى الله تعالى والتمسك بالصدق معك ليغفر لهم ربهم وليساعدهم على مهمتهم الكبرى في تربية آباء بني إسرائيل الموعودين باستلام الوحي.

عرف يعقوب بأنهم تحدثوا عن أمر مريب مما حفز يوسف ليبقى في تنكره معهم لعلهم يهتدون.

شعر يعقوب بأنهم قد تغيروا قليلا ولذلك بقي أخوهم ولم يحضر خجلا. وعرف أيضا بأن الأخ الأكبر لم يشاركهم في المؤامرة الكبرى ضد أخيهم يوسف ولذلك بعثهم وحدهم ليواجهوا مصيرهم معه.

ولذلك كرر قولته لهم هذه المرة بدون أخيهم الكبير ليعلمهم بأنه يعرف بأنهم كانوا في مؤامرة ضد يوسف وبأن الذين سولت لهم أنفسهم هم هؤلاء بدون أخيهم الكبير.

قال لهم بأنكم متآمرون منذ قضية يوسف ولا زلتم. وليس لي إلا الصبر الجميل. والصبر الجميل هنا هو الصبر المصاحب للرجاء من الله تعالى أن يعيد له أبناءه الثلاثة. لقد تقبل يعقوب الآن بأن الأخ الأكبر أقل ذنبا من بقية الإخوة وبأن الله تعالى يريد بعلمه أن يهدي أبناءه فيصيبهم بالبلاء وتمنى من ربه أن يعالج مرض أبنائه بحكمته فأبوهم أعجز من أن يقدم لهم علاجا حقيقيا .

لقد أبلغ أولاده بأنه يعتقد بأن يوسف في مصر وهو حي، أبلغهم وهم يسعون لإثبات أن يوسف ميت وليس حيا .

ضاقت الدنيا عليهم مرة أخرى ولم يعرفوا كيف يقنعوا أباهم بأن يوسف ميت حتى لا يتهمهم بالتآمر أولا وحتى يبلغوا هدفهم الأساسي القديم في أن يخلو لهم وجه أبيهم ثانيا .

ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت لأنه الآن يتهمهم بأنهم لا زالوا متآمرين ويعزو غياب أخويهم الآخرين إلى تمسكهم بأسلوبهم القديم في الكذب.

هذه صفة موجودة لدى بعض الناس ومنهم الكثير من اليهود أنهم يبنون قصورا من الأكاذيب ويسعون لتثبيتها بكل إمكاناتهم وذكائهم ولا يمكن مواجهتهم إلا بالكشف عن المؤامرة و إفضاحهم.

إنه أمر صعب ولكن لا يمكن أن تواجه بني إسرائيل بدون أن تستعمل عقلك ودهاءك إلى أبعد الحدود .

ولنكمل المسيرة لنرى كيف توفق يوسف لكسر غرور إخوانه بالكامل. كل ذلك بالتعاون مع أبيهم إسرائيل وبتوفيق وتأييد من الجبار العظيم جل جلاله.

أعرض عنهم أبوهم يعقوب ليقول لهم بأنه غير مقتنع وغير مرتاح لما يقولون. أعرض عنهم ليقول لهم: إنكم تخفون عني أمرا ولا يمكن أن أقبل بأقل من أن تفصحوا عن الحقيقة بالكامل قبل فوات الأوان وقبل أن يفضحكم الله تعالى.

ولذلك قال وهو يعرض عنهم بوجهه: **يا أسفى على يوسف**. ويعني بقوله أن تخاذلهم في الاعتراف بالحقيقة سوف يزيد من آلام يوسف وشقائه في معالجة إخوانه كما يزيد من آلامه هو في فراق يوسف.

ولا سيما وهو يعلم الآن مكان يوسف ويعلم بأن اللقاء به منوط بانتهاء اختبار أولاده الذين جنوا على أهلهم. ولا أستبعد بأنه عليه السلام أراد بذكر كلمة يوسف أن يؤكد لهم علمه بكذبهم لعله يساعدهم على العودة إلى أنفسهم وترك الكذب والمراوغة استدرارا لرحمة الله تعالى على كل الأسرة العظيمة شأنا.

وما أن تذكر يوسف مرة أخرى حتى اسودت الدنيا في وجهه فهو يرى يوسف بعقله ولا يبصره بعينه والسبب هم أولاده وليس الغرباء أو الأعداء.

توالت الأحزان على يعقوب الذي يصبر على ظلم أولاده لأولاده ولا يرى مخرجا لهذه المصيبة إلا بأن يعودوا إلى رشدهم قبل أن تظهر الحقائق أمامهم ويروا زيف الكذبة الكبرى التي حاكوها وما زالوا يصرون عليها.

ولولا صبره وصبر يوسف حتى يحكم الله تعالى لخسرت الأسرة الكريمة وعد ربها بأنهم لم يستوفوا شروط الاصطفاء[65].

---

[65] ولنعرف بأن كل اصطفاءات الله تعالى في الدنيا مرهونة باستيفاء الشروط. ألا ترون بأنه سبحانه اصطفى موسى ليكون نبيا فهل صار نبيا قبل أن يؤدي اختباراته وينجح فيها ولولاها لم تتم له النبوة قطعا؟. ومثله عيسى.

ألم نقرأ عن آدم بأن الله تعالى اصطفاه وعهد إليه ولكنه نسي فلم يجد الله له عزما ولم يفز بالنبوة؟.

استمر يعقوب في الصبر والكظم فابيضت عيناه من الحزن.

إنه لا يبكي ولا يذرف الدموع ولكن قلبه الشريف يقطر دما بدل الدموع فتتأثر جوارحه الأخرى بسبب شدة صبره على الأذى.

وابيضاض العينين هنا ليس ابيضاضا فيزيائيا كما تراءى لكل من قرأت عنه من مشاهير التفسير[66].

الله تعالى يصطفي المدركين على أساس القوة التي لديهم ولكن تكميل النعمة منوط بتجاوبهم الصحيح مع دعوة ربهم وتسليمهم الكامل لأوامره ومواعظه الكريمة. إن الله تعالى عادل لا يظلم أحدا فلا يُعطي من لا يستحق أيضا حتى لا يكون ظالما لغيره. نهاية الهامش 65.

[66] إن الضغط العصبي على العين الناتج من تأثر النفس بالأحزان لا يمكن أن يحول لون العينين إلى الأبيض كما هو معلوم لمتخصصي العيون. وأما الماء الأبيض (Cataract) فإنه يؤدي إلى العمى الفعلي، و واضح أن يعقوب لم يفقد بصره. وأما ظن البعض بأن إرسال يوسف قميصه أعاد إليه بصره فهو خاطئ برأيي. سأشرح الموضوع في مكانه بإذن الله تعالى. إذن فما هو معنى ابيضت عيناه؟

دعنا نتعرف على معنى الأبيض في اللغة العربية بداية. الأبيض هو السمح في الواقع كما يقول أبو طالب في وصف ابن أخيه رسول الله عليه السلام:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وحينما يستعملون الكلمة في مقابل الأسود فقد تعني الأبيض كما تستعمل اليوم وقد تعني وهو الغالب، ما يقابل الداكن.

وقوله تعالى في موسى النبي أن يخرج يده من جيبه فتنقلب بيضاء فهو لا يعني البياض المعروف بيننا اليوم قطعا. أراد موسى بذلك ان يُري فرعون بأن ما يراه من حركة غريبة في العصا فهي من موسى وليس من العصا.

فرأى فرعون يد موسى مشعة. ذلك لأن موسى حمل الطاقة الإلهية في طور سيناء ليتمكن من القيام بالمعجزات التي ظهرت منه عليه السلام. ولم يقم بذلك العمل يوم المباراة. ذلك لأن الثعبان قام بالتهام كل ما جاء بها السحرة فلم يحتج لإثبات الوجود النوري أو الطاقوي في كيانه الشخصي، والعلم عند الله تعالى.

والخيط الأبيض إشارة إلى الفتحة في عرض الأفق المتأثرة قبل بقية الأفق بانعكاس نور الشمس الآتي من طبقة الأوزون، فهو ليس بالبياض المعروف بيننا بل هو بياض الضوء القليل. وقد قالوا للشمس بيضاء باعتبار إشعاعاتها . والليالي الثلاث المقمرة في منتصف الشهر تسمى بالليالي البيض باعتبار الظهور الجلي لنور القمر وليس باعتبار اللون المعروف بيننا .

ومن الصعب أن نجد في القرآن الكريم كلمة الأبيض بمعنى الأبيض المعروف بيننا . حتى آية سورة فاطر التي تتحدث عن ألوان الجبال فهي لا تقصد اللون الأبيض كما أظن.

الموضوع الأساسي في تلك الآية والتي بعدها، هي بيان أهمية الألوان في الطبيعة ومعانيها . هناك يعبر الله تعالى عن علماء الألوان بالعلماء وهم الفيزيائيون بظني وليس الذين عرّفوا أنفسهم برجال الدين أو بالعلماء . فهم دون شك أقل علما من الفيزيائيين. والذي عرف أهمية الألوان فقد عرف جانبا من قِدَم الله تعالى وليس الذين يكررون لنا كلمات السلف الذين هم أقل منا علما .

فالأبيض هناك في مقابل الأحمر وهما معا في مقابل الأسود . حتى الأسود هناك ورد تفسيراً للغربيب وليس الأسود المعروف بيننا إن دققنا في الموضوع؛ والعلم عند الجبار جل جلاله.

ونرى بأن قدماء العرب كانوا يتحاشون تسمية الوجوه البيضاء للجواري فعلا بالبيضاء ويعوضون عنها بالحمراء . لقد ظن الكثيرون بأن الأحمر يعني الأبيض، ولعله غير صحيح فأحتمل أنهم قصدوا نفي السماحة عن تلك الوجوه فاستعملوا لونا يحبذونه لبيان بياض تلك الوجوه والعلم ليس عندي لأنني لست ضليعا باللغة ولكنني أسعى.

واستعملوا الأبيض للحنطة وهي ليست بيضاء بتعبيرنا الحديث وكذلك قالوا البيضاء للبرص. يروي رواة الاحاديث أن قال علي بن أبي طالب لأنس بن مالك: **إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَضَرَبَكَ اللَّهُ بِهَا بَيْضَاءَ لَامِعَةً لَا تُوَارِيهَا الْعِمَامَةُ** . فدعا على رسوله إلى طلحة والزبير بالبرص إن كان كاذبا .

بالطبع أنني شخصيا أرفض تلك القصة المشار إليها في نهج البلاغة لأنها تنطوي على الإخبار بالغيب ولكن العرب كانوا يستعملون الأبيض بمعنى الأبرص بدليل أن الشريف الرضي لم يرفضه لهذا السبب في نهج البلاغة وهو عالم من أساطين الأدب العربي دون شك.

وقد يكون السبب في هذا الاستعمال هو أن البرص يُبقي أثرا أحمرا على الجلد . هذا يعني بأن استعمال الأحمر بمعنى ما نعنيه اليوم بالأبيض وكذلك العكس كان شائعا بين سلفنا .

فلو أن المفسرين الكرام فسروا الآية الكريمة بأن بياض لون العين تحول إلى احمرار لكان أصح. وأنا أظن بأن المعنى أبعد من هذا أيضا .

فابيضت عيناه تعني بأن عينيه قد لا تريان ما هو مرغوب لدى يعقوب صاحب تلكما العينين. اسودت الدنيا في عينيه فابيضت عيناه عن الدنيا . إنه يريد أن يرى يوسف لا غير. إن رؤيته لابنه تخلصه من الشرود الذهني الذي ابتلي به إثر الانتظار الطويل والحزن الشديد .

وكلما نقل له أبناؤه أخبار يوسف ازداد شوقا إليه. إنه عليه السلام عرف دون شك بعد أول زيارة لأبنائه العشرة له بأن الذي رأوه هو يوسف وليس غيره.

وهو بعبقريته كان يقرأ علم يوسف وما انطوى عليه من دراية كبيرة في سني الفراق.

لقد تعب يوسف في تربية نفسه ليتعلم تأويل الأحاديث لدى المصريين فيتمكن من إبلاغ رسالة السماء إليهم بلغتهم وكأنه واحد منهم حسب سنة الله تعالى في إرسال الرسل.

كل ذلك يزيد من شوق الأب العجوز الذي هو بنفسه نبي عظيم ليرى هذا الابن العليم. والذي يزيد عناءه أن أبناءه الآخرين بعيدون جدا ولا زالوا يبتعدون عن يوسف في ذكائه وعلمه وأدبه وإيمانه الخالص برب العالمين جل جلاله.

إن حقيقة معنى الأبيض لدى العربي فيما مضى كانت الخلو من الشوائب والألوان وقد استعملوها في مقابل الأسود باعتبار أن الأسود تعني الإضافة غير المرغوبة ولو نسبيا .

فالوجه الأسود يعني الوجه الذي سوده صاحبه بما هو غير مرغوب فيه لدى غيره أو لدى العامة أو لدى الله تعالى. وبيَّضه يعني أزال عنه تلك الإضافة غير المطلوبة. وليس المقصود من الأسود اللون الأسود كما عليه الأبيض أيضا . وقد استعملوهما في الألوان بالطبع باعتبار خلو اللغة من كلمة أخرى.

ولا ننس بأن اللون أو الصبغ الأبيض جديد وليس قديما فأنا أحتمل أن الأصل ليس للألوان. وقد تكون الإضافة مرغوبة مثل الأرض المزروعة التي تسود حين الزراعة، فإذا أزيل أو ذبل الزرع قيل بأنها ابيضت. باعتبار أنها قد خسرت إضافة مرغوبة لغيرها . إنها كأرض قد تخلصت ولكن ذلك غير مطلوب لنا نحن البشر وللحيوانات التي تستفيد من النبات. نهاية الهامش 66 .

إنه مثل العطشان الولهان الذي يبحث عن الماء فيقدم له أهله الخل الأبيض جرعة تلو جرعة ولا يمدونه بقليل من الماء المعين. فابيضت لا تعني الابيضاض الفيزيائي بل تعني خلو العين مما يحلو لها من مرئيات.

ولا بأس بأن يعرف القارئ الكريم بأن الإنسان يستمتع بالنظر بالعينين باعتبار أن الله تعالى حددهما لنرى الجوانب المضيئة في المرئيات. لكننا لو ننظر إلى الكائنات بالعين النفسية فسوف نراها بحقيقتها دون البصر بالعينين.

ألا ترون بأن الله تعالى يحشر بعض الكافرين عميانا يوم القيامة بمعنى فاقدي البصر ثم يُحضرهم مع غيرهم في المحكمة الكبرى للمحاكمة الأخيرة أمام الديان العظيم جل جلاله؟.

أليس هذا ظلما بأن يحشر بعض المتهمين عميانا وبعضهم مبصرين؟ والواقع أنه سبحانه يوقف هناك كل الأعضاء الفيزيائية ويتم التعامل معهم عن طريق النفوس التي لا تُطلق أصواتا بل تهمس فقط.

هناك سوف يرى الجميع كل شيء رؤية نفسية حقيقية. فالكافرون حرموا من التمتع بالعين ولم يُحرموا من الرؤية في الحقيقة. والعلم عند الله تعالى.

وقبل أن ننتقل إلى المقطع الآخر من هذا الموقف لا يفوتنا أن نعرف السبب في توسل يعقوب بعلم الله تعالى وحكمته في دعائه وتمنيه لعودة أبنائه الثلاثة.

انتبه يعقوب بأن الله تعالى يريد أن يميز بين الآثمين الحقيقيين الذين يملكون قلوبا مريضة من أبنائه وبين الذين يحملون قلوبا طيبة منهم ففعل ما فعل بعلمه وحكمته وفصلهم في حكاية عودة الإخوة بدون إخوانهم الثلاثة.

إنه سبحانه يريد أن يصب يعقوب جام غضبه على الذين أجرموا فعلا وينجي الذين لم يدنسوا أنفسهم بمعصية الله تعالى.

أراد يعقوب أن يدعو ربه ليعيد أبناءه إليه ولكن بعد تطهير الباقين فلم يتوسل برحمة الله تعالى التي تمس كل الكائنات بل توسل بعلمه وحكمته ليطلب من ربه معالجة القضية فيعيد إليه الغائبين بعد أن يقلع الخبث من قلوب الآثمين.

إنه يعلم بأنه يجهل الطريقة الصحيحة، ويعلم بأن الله تعالى كامل العلم بكل شيء فهو يبث شكواه إلى ربه ولا يريد منه سبحانه أن يبادل عواطفه تجاه أولاده بالرحمة بل يبادلها بالعلم والحكمة، لئلا تخسر الأسرة الكريمة ما وعدها ربها، والعلم عند خالقنا العزيز.

بقي التسعة الآثمون مصرين على كذبتهم الكبرى و . .

قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿85﴾

قالوا ذلك لأبيهم النبي يعقوب وجها لوجه. وهم يعلمون بأنه يعلم من الله ما لا يعلمون لأنه يستقبل الوحي السماوي.

قالوا ذلك وهم أهل بيت شيخ الأنبياء إبراهيم حسب التعبير الشائع بيننا نحن المسلمين. حيث أنهم ينفصلون عن إبراهيم بأبوين فقط وكلاهما نبيان.

قالوه متعجبين باعتبار أنهم حلفوا بالله تعالى مستعملين التاء التي تدل على التعجب بظني.

وقد سعى المفسرون أن يعرفوا السبب في قولهم تفتأ بدون علامة النفي فلم يهتدوا كما يبدو.

ولذلك قالوا وقال معهم أئمة النحو بأن تفتأ تعني لا تفتأ، فلماذا لم يذكر الله تعالى "ما" كما هو شائع وهو يريد لكتابه أن يكون واضحا مبينا ؟ هناك دون شك فرق بينهما وهناك معنى قصده العليم الحكيم حينما فسر لنا مقولة الإخوة الإسرائيليين.

وقد أجمع المفسرون وكذلك علماء اللغة والنحو تقريبا بأن تفتأ هنا تعني لا تفتأ وبأن علامة النفي منوية مع الفعل[67].

---

[67] إن جمال القرآن العظيم يكمن في سيطرة المنزل العظيم على كل استعمالات الكلمات العربية وانتخابه الكلمات والتصريفات المناسبة لإعطاء المعنى الذي يريده بالكامل وبدقة متناهية، فلا داعي له أن يحذف علامة النفي في هذه الآية الكريمة. والغريب أن دليل كل الذين قرأت لهم من النحاة في احتمال نية النفي هو هذه الآية ويأتي بعضهم بشعر عربي آخر باعتبار تفسير مشهور للشعر وكانوا في غنى عن ذلك التفسير.

فتبقى حجتهم هذه الآية، فكأنهم وضعوا قاعدة نحوية لهذه الآية أو لقصور فهمهم في إدراك المقصود مع احترامي وإكرامي لهم جميعا، رضي الله عنهم وعنا وغفر لهم ولنا.

ولنستمع إلى ابن عقيل الذي يمثل الواقع النحوي في عصره ليفسر لنا معنى ما فتئ وهي من أخوات زال حيث يقول في شرحه على ألفية ابن مالك هكذا: **ومعنى زال وأخواتها ملازمة الخبر المخبر عنه على حسب ما يقتضيه الحال نحو ما زال زيد ضاحكا وما زال عمرو أزرق العينين ومعنى دام بقي واستمر.**

فإخوان يوسف لا يريدون القول بأن أباهم مستمر في ذكر يوسف وكأنه ربه ولكنهم يريدون القول بأن أباهم سوف يصير عرضة للتحريض القاصر أو للهلاك كلما ذكر يوسف.

وعلينا أن نتصور الحال بكل عناية لنعرف المقصود من استعمالهم لكلمة فسرها الحكيم العليم بـ "تفتأ" موجبة لا منفية.

نعرف من لحن السورة الكريمة وكذلك من آخر مواجهة ليعقوب من قبل غير الذكور من أهل بيته احتمالا بأن يعقوب كان يذكر يوسف أحيانا ليقول لهم بأنه لا زال جازما بأن يوسف حي وسيعود إليهم وليذكر أولاده بأنه لازال مؤمنا بأنهم كذبوا عليه مختلقين قصة الذئب البريء من افتراس أخيهم الصغير. هذا ما نقرأه في الآيتين التاليتين من نفس السورة:

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95).

والحرض: يعني بأنه يصير أذنا لكل من يُلقي إليه كلاما غير دقيق فيفقد مصداقيته بين الناس باعتبار أنه يستمع ويقبل كل ما قيل له دون تفكير.

وعلى ذلك فإننا نستعمل كلمة التحريض المشتقة منها لبيان معنى التشجيع ومنح القوة المعنوية.

هذه هي رسالة الأنبياء أن يسعوا لإصلاح أهليهم ومن حولهم دون أن يكرروا الألفاظ التي تزعجهم. فيعقوب قال لهم مرة بأنهم كذبوا عليه بل سولت لهم أنفسهم أمرا، ولكنه يكرر نفس الموضوع ببيان رأيه بأن يوسف لا زال حيا لعلهم يتورعوا.

واهتمام القرآن بهذا الموقف الذي خصص له عدة آيات من هذه القصة الطويلة التي اختصر الكثير من مواقفها هو لأنها آخر محاولة من إسرائيل لتصحيح مسار بني إسرائيل قبل أن ينكشف الأمر ويظهر للجميع كذب أولاده.

هذه آخر فرصة ليتورعوا ويثبتوا لأسرتهم بأنهم عازمون على ترك الكذب ولكنهم لم يتورعوا بالطبع. فالكذب يمثل الوسيلة المهمة لبني إسرائيل الذين يكذبون بكل عناية ثم يصرون عليه حتى تنكشف أمورهم أو تبقى الفرية المختَلَقة سيدة الموقف.

والذي حصل في ذلك اليوم بأن يعقوب تأسف فعلا على يوسف الذي احتمل الويلات حتى وصل إلى ما وصل إليه ثم هو لا زال يحتمل الغصص ليهدي إخوانه الذين ظلموه وأبويه، لعلهم يعودوا إلى الله تعالى ويتركوا الإثم والعدوان والكذب.

لم يذكر يعقوب اسم يوسف لأولاده بقصد تكرار تكذيبه إياهم كما يبدو ولكن الأولاد ظنوا بأن أباهم يفعل ذلك ليقول لهم مرة أخرى بأنهم كذابون باعتبار حكايتهم مع يوسف.

إنهم كانوا صادقين في قصة أخيهم الصغير ولو أنهم أخطأوا في تصرفاتهم حتى استبقاه العزيز مستندا إلى قرارهم هم وليس إلى نظام فرعون.

إذن يريد الإخوة أن يقولوا لأبيهم بأنه خاطئ في تكرار اسم شخص مات فعلا وهم قد رأوه مفترسا وعادوا بقميصه ملطخا بدمه.

لا يريدون أن يحلفوا على قضية حصلت حتى يستعملوا كلمة لا تفتأ بل يريدون بيان حقيقة أن تذكير أبيهم إياهم بتفنيده لادعائهم يضر بالأب نفسه وبسمعته في الأسرة والمجتمع. نهاية الهامش 67.

ففعل تفتأ ليس فعلا ناقصا بل قصدوا معناه الكامل فهو لا يحتاج إلى خبر كما في الأفعال الناقصة. ونحن نستعمل الأفعال الناقصة عادة لبيان الخبر ولا نستعملها لبيان الحقائق التي سوف تحصل وخاصة في أفعال ما زال وأخواتها .

وقد قالوا بعدها: حتى تكون ولم يقولوا: فأنت، أو حتى لم يقولوا: فتكون. فمعنى قولهم: تتعجب والله من أنك تصر على ذكر يوسف لتطفئ غضبك فسيتعاطاك الجاهلون بالتحليلات الخاطئة فتقبل منهم أو تهلك في ضلالك.

و مقصدهم أن يقولوا له: أترك ذكر يوسف وأرح نفسك من التفكير فيه فهو ميت وعليك أن تتقبل الحقيقة وتنساه تماما .

نحن أبناؤك ونحن نحبك ونساعدك والأسرة كلها في خدمتك فحافظ على رصانتك ورباطة جأشك ولا تفرط في ريادتك لأسرة عريقة ومهمة ورثتها ولا زلت تسودها . وبتعبير أكثر دقة: لا تصيرن عرضة لكلام الناس الذين يقولون ما يشاؤون بلا علم ولا دليل حتى لا يستهين بك الجاهلون.

لكن وسيلتهم لنقل رسالتهم إلى أبيهم هو أن يعاتبوه بأنه لا زال يذكرهم برأيه واتهامه إياهم في فعل لم يفعلوه بقولهم: إنك تطفئ غضبك من غياب ابنك بأن تنهرنا وتزجرنا .

ثم أرادوا بأن ينصحوا أباهم ليترك زجرهم بأن وصفوا عمله بأنه ضلال يفسح المجال للجاهلين أن يستغلوا ضعفه فيسطروا له الأساطير وبأنه يهلك نفسه في خضم هذه التصورات والأحلام الخاطئة.

فيكون معنى الآية بدقة بعد إعادة ما اختصره ربنا إلى متنها هكذا: قسما بالله، تتعجب من أنك تطفئ غليل غضبك فينا بما تقوله.

إن تذكيرك لنا بقصة يوسف التي اندرست وتقبلت الأسرة والناس بأنه مقتول تجعلك عرضة لاستماع أحاديث المتحدثين عن غير علم أو تهلك نفسك بتذكيرنا بشيء ليس لنا ولا لك يد فيه ولسنا قادرين على إعادة يوسف المقتول إليك. يمكنك أن تقرأ الآية هكذا بغرض فهم القصة: "قالوا تالله تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين، و تالله تفتأ ضدنا لتطفئ نار وجدك ليوسف". بناء على هذا الفهم للآية، قال لهم يعقوب بأنهم مخطئون في حكمهم عليه وبأنه لا يريد تذكيرهم بقصة يوسف بل يطلب أمرا من ربه لأنه يعلم ما لا يعلمون. فالتفت اليهم و..

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿86﴾

البث في أصل معناه يعني التفريق والنشر. وإني أظن بأن البث هنا والذي أجمع المفسرون على أنه يعني الحزن والغم، أظن بأن المعنى الدقيق هو أن يتفرق المرء في فكره وخياله فيصاب بما نعبر عنه اليوم بالشرود الذهني أو ما يمكن أن نسميه الذُهان ولا أقصد به المرض النفسي المعروف وإنما حالة الشرود والشعور بالإحباط والحزن.

فكان يعقوب يفكر في يوسف، أين هو من مصر إن كان تفرسه صحيحا، وفي أي حال هو وكيف وصل إلى هناك؟ متى تنتهي المأساة مع أولاده الذين يصرون على ضلالهم ولا يتركون غيهم وتآمرهم عليه وعلى يوسف؟

هذا التشتت الفكري يُعبَّر عنه بالبث والعلم عند الله تعالى.

وأما الحزن فهو واضح للجميع بأنه حزين على فراق يوسف لأنه كان يعتقد بأنه حي يُرزق.

وأما قوله لهم بأنه يعلم من الله ما لا يعلمون فهو لا زال غير واضح المقصود لمن كان يسمع منه تلك الجملة.

إنه لا يسمح لنفسه أن يفصح عما يعرفه عن رسالة يوسف التي استيقن بها حينما ذكر يوسف قصة المنام له. ومن الطبيعي أن يشعر أولاده هذه المرة بأن الأب ليس فقط مصرا على أن يوسف حي بل يصر على أن يوسف وأخوه موجودان في مصر[68].

لقد فجر يعقوب موضوعا خطيرا وجديدا أمام أبنائه هذه المرة فلم يكتف بالقول أنه يعلم من الله ما لا يعلمون دون الإفصاح الكامل بل أضاف إليه هذه المرة ما يلي:

---

[68] هناك إشكال علمي على يعقوب بأنه لو كان صادقا في قوله بأنه يشكو بثه وحزنه إلى الله لا إلى غيره فلماذا يتفوه به أمام أولاده؟

إنه نبي يعلم بأن الله تعالى يسمع أصوات القلوب وليس من الأدب أن يتجاهر بالشكوى أمامه بل كمال الأدب أن يسر مع ربه في قلبه دون الجهر من القول.

والواقع أنه يقوم بعملين منويين في آن واحد. إنه يريد أن يهدي أبناءه ليقولوا له الحقيقة فيرتاحوا غدا من مساءلة رب العالمين أمام المحكمة الكبرى كما أنه يريد أن يشكو بثه وحزنه إلى ربه.

فلحن قوله يدل على أنه يقصد أمرا مرتبطا بالأولاد في تجاهره بقوله يا أسفى على يوسف. لكن هذا القصد خيرٌ بنية نشر الهدى بين الأولاد وليس بنية التشفي كما تراءى للأبناء أنفسهم.

فهو حينما قال إنما أشكو، أراد أن يحصر المشتكى إليه في الله تعالى ولم يرد أن يحصر قوله في بيان الشكوى. إنه تفوه بكلام يدعو به أبناءه للانتهاء من كتمان الحقيقة وإغلاق باب الكذب الذي طال أمده.

فالشكوى إلى الله تعالى فعلا ولكن الجهر بها بغرض الدعوة إلى الهدى. مثاله مثال المرأة التي ذهبت إلى رسول الله تشكو زوجها إلى الله تعالى بقلبها ولكنها تجادل رسول الله في نفس القصة.

لعلها كانت تجادل الرسول باعتبار أن زوجها واحد من صحابته وقد ظلمها.

ويعقوب يشكو إلى ربه لينجيه من عذابه ولكنه بنفس الكلام يسعى لأن يهدي أبناءه الذين سببوا له كل هذا البلاء. نهاية الهامش 68.

يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿87﴾

ازدادت حيرة الإخوة حينما طلب منهم أبوهم أن يعودوا إلى مصر هذه المرة ولكن ليس بقصد جلب المتاع والطعام بل بقصد البحث عن يوسف وأخيه. وتعبيره: تحسسوا، يعني أن يستفيدوا من حواسهم للبحث عن يوسف.

وكلمة التحسس في عمق معناها تختلف عن التجسس المرادفة لها نسبيا لأن التجسس قد يكون لغرض كشف آراء الناس وأفكارهم وهو محرم شرعا بصورة عامة في القرآن الكريم وهو كتاب التسليم إلى الله تعالى والتسليم هو دين من سبق من الأنبياء وليس خاصا بالمسلمين.

لكن التحسس مقصود للبحث عن مفقود فهو ممدوح. والعرب يستعملون مثلا تعبير جس النبض للكشف عما في الخواطر ولا يقولون حس النبض كما أنهم لا يستعملون جذر التجسس إن كان المقصود هو العثور على مفقود دون السعي للكشف عن الملابسات والأسباب.

هذا النوع من القول زرع الثقة في قلوب الإخوان بأن الأب يريد ابنيه فقط ولا يرغب باكتشاف الأسباب حتى تنجلي مؤامرتهم التي سعوا ولا زالوا يجدون في إخفائها .

لكنهم غير آمنين من يوسف نفسه الذي سوف يكشف كل شيء لأبويه. بالطبع أنهم لم يشعروا أبدا بأن يوسف في مصر ولم يفكروا إطلاقا في أن الذي أخذ أخاهم منهم هو يوسف.

لم يكتف الأب بأن يأمرهم بالعودة لغرض البحث عن الأخوين ولكنه أضاف حقيقة في نظام الألوهية ألا ييأس المرء من روح الله تعالى[69].

[69] قال العلامة الطباطبائي في الميزان: الرَّوح بالفتح فالسكون النفس أو النفس الطيب و يكنى به عن الحالة التي هي ضد التعب و هي الراحة و ذلك أن الشدة التي فيها انقطاع الأسباب و انسداد طرق النجاة تتصور اختناقا و كظما للإنسان و بالمقابلة الخروج إلى

فسحة الفرج و الظفر بالعافية تنفسا و روحا لقولهم يفرج الهم و ينفس الكرب فالروح المنسوب إليه تعالى هو الفرج بعد الشدة بإذن الله و مشيته، و على من يؤمن بالله أن يعتقد أن الله يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد لا قاهر لمشيته و لا معقب لحكمه، و ليس له أن ييأس من روح الله و يقنط من رحمته فإنه تحديد لقدرته و في معنى الكفر بإحاطته و سعة رحمته كما قال تعالى حاكيا عن لسان يعقوب (عليه السلام): "أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون" و قال حاكيا عن لسان إبراهيم (عليه السلام): "و من يقنط من رحمة ربه إلا الضالون": الحجر: 56، و قد عد اليأس من روح الله في الأخبار المأثورة من الكبائر الموبقة. انتهى.

تحليل العلامة في غاية الجمال ولذلك أبيت إلا أن أنقله بالكامل. ولكن تفسيري للواقع الذي عاشه الإخوة مع أبيهم في تلك اللحظات هو هكذا:

لم يعتن الأب أبدا بإصرار أولاده على موت يوسف وبأنهم لا يرون أي معنى للبحث عن شخص رأوه ميتا. أراد أن يقول لهم بكل جزم كذبتم ولا تسعوا لإخفاء كذبكم. لقد ضيعتم أخويكم لأنكم بعيدون عن رحمة الله تعالى. ألا ترون أنكم اليوم مفتقرون إلى حنطة مصر وقد فقدتم خيرات السماء؟ وأنا أقول لكم عن علم بأن يوسف وأخاه كلاهما في مصر فاذهبوا للتحسس عن أخويكم المفقودين ولا تقصدوا غير الله تعالى ليساعدكم.

إنه عليه السلام منعهم من اليأس من رحمة الله تعالى في الواقع ولكنه بدل مفهوم الرحمة بالرَّوح ليعطيهم معنى أوسع مما في أذهانهم لعلهم ينتبهوا إلى أن ربهم محيط بكل شيء وبأنه تعالى لا يمكن أن يمنحهم الراحة قبل أن يعودوا إليه مذعنين.

كان إخوان يوسف يفكرون في كل شيء إلا الله تعالى فيحيكون المؤامرات وهم يظنون بأن ما يرونه بأعينهم هو النتيجة المرجوة من سعيهم. هذه حقيقة يهودية مؤسفة بأنهم يؤمنون بالله تعالى كثيرا ويتفاخرون على الأمم بأنهم شعب الله المختار ولكنهم لا يثقون بالله العظيم. إنهم يثقون بأموالهم وأولادهم وقدراتهم والأرض التي تؤمن حياتهم أكثر من ثقتهم بالذي بيده ملكوت كل شيء.

أراد يعقوب ويوسف معاً أن يعينوا آباء بني إسرائيل على تجاوز هذه الرذيلة الموبقة ولكنهما كما سنرى قريبا لم يفلحا وبقي بنو إسرائيل على ماديتهم وثقتهم الضعيفة بالله تعالى.

فهو عليه السلام أراد إفهام أولاده بأن الاطمئنان النفسي الذي يبحثون عنه ويبحث عنه كل إنسان لن يتأتى دون عناية السماء. فعلى العاقل المؤمن أن يشعر دائما بأن الله تعالى محيط به وبأنه مالك ومدير لكل الحركات وبأن النتائج والمتغيرات كلها بيده سبحانه دون أن يشك في شيء منها وإلا فهو كافر ببعض ما هو من خصائص الألوهية قبل الربوبية.

وأعني بذلك أن الله تعالى لو لم يكن كذلك فكيف أخضع الكائنات لنفسه جل جلاله قبل أن يربيها ويساعدها للتعايش أو التواجد السلمي مع بعضها البعض؟

ومعنى الرَّوح بالفتح هو الراحة كما قاله أرباب اللغة فعلا والمقصود من الرحمة أيضا هو تحصيل الراحة النفسية لمن يلتمس رحمة الله تعالى من ذوي الإدراك.

لقد انتهت فرصة أبناء يعقوب وستتم الفضيحة قريبا.

شد الإخوة الآبقون رحالهم باتجاه مصر ليس للبحث عن أخويهم بل لجلب الحبوب وإن شئنا قلنا لجلب العار والفضيحة. وقبل أن نسافر معهم إلى مهجر بني إسرائيل علينا الانتباه إلى الحقيقة التالية:

من الطبيعي أن نفكر بأن يوسف قد أخبر الملك بأنه في صدد نقل أسرته إلى مصر وأخذ منه الموافقة على ذلك. إنه مقدم على دعوة أسرة فقيرة معدومة لا تملك الأكل إلى بلد غني يمد المنطقة بحاجاتها حتى المأكل.

من أين يأتي بالمال ليُسكنهم أرض الخيرات المصرية؟

ومن الطبيعي أن نفكر بأن يوسف قد حضي بثقة الملك وحاشيته حينما رأوا وشاهدوا قدرته على المواجهة العاقلة مع المجاعة التي كانت بانتظارهم. رأوه كيف غطى المنطقة كلها بالطعام حينما شحت السماء عليهم من فوقهم وجف النيل من تحتهم.

أراد يعقوب من أولاده ألا يسافروا إلى مصر هذه المرة بغية جلب الحبوب بل يقصدوا استدرار رحمة ربهم للعثور على أخويهم متنازلين عن كذبتهم التي بنوا عليها كيانهم البائد. عليهم أن يستغفروا ربهم ويعلموا بأنهم لم يتمكنوا من إقناع نبي من أنبياء الله تعالى بقبول الباطل.

لكنهم لم يتورعوا ولم يطيعوا رسول الله تعالى وجمعوا بضاعة ليذهبوا إلى مصر لجلب المزيد من الحبوب.

وحينما نلاحظ الكذابين فنرى بأن الله تعالى يعطيهم فرصة كبيرة لعلهم يعودوا ويعترفوا أمام من كذبوا عليهم حتى يمن عليهم ربهم برحمته ولكنهم قلما يعودوا. هناك يفضحهم الله تعالى ويري الناس حقيقتهم كما نراه ونسمعه من أخبار الملوك وأصحاب المتاجر والكثير من الناس الذين يعيشون على الكذب. نهاية الهامش 69.

ورأينا بأن مصر تتمتع بنظام صارم لا يسمح حتى للوزراء أن يتجاوزوا قوانين الدولة ولذلك لم يتمكن يوسف من أخذ أخيه بدون المكر الذي علمه الله تعالى.

فمما لا شك فيه بأن الملك كان على علم بالقصة يوم عاد الإخوة إليه للمرة الثالثة.

أما بعد هذا لنعد إلى بني إسرائيل المصرّين على الكذب والمؤامرة وهم يعودون إلى مصر ويأخذون أخاهم الأكبر معهم مرة أخرى للاسترحام من العزيز.

إنهم كانوا أكثر اختيالا حينما دخلوا للمرة الأولى على العزيز و طالبوه بمنحهم سهم الأخ الذي لم يحضر معهم. وكانوا أكثر اختيالا أيضا حينما قالوا بأنهم ليسوا سارقين ولكن الذي سرق هو بسبب ما ورثه من أمه بدليل أن أخاه قد سرق أيضا .

هذه الأسرة المختالة التي لم تسمع نصيحة الذي يفتخرون بانتسابهم له وهو إسرائيل عليه السلام، دخلت على العزيز متلبسة جلباب الخنوع والذل إلى آخر الحدود .

فعلوا كل ذلك لأجل المال ولم يعلموا ما ينتظرهم من انكشاف أمرهم وما سيفرض عليهم لأن يعودوا إلى أبيهم وأسرتهم ويعترفوا بكل ذل بأنهم كانوا كذابين متآمرين طيلة العقود التي مضت.

جزا الله تعالى يوسف خيرا ان مرّغ أنوفهم بالتراب قبل فترة لعلهم يتورعون، وجزاه خيرا حينما فرض عليهم أن يعودوا بأنفسهم إلى أبيهم ويعترفوا بالفضيحة أمام أمه وأبيه وبقية أفراد الأسرة المثالية الكريمة. ولنقرأ قصة الفضيحة التي اختصرها الله تعالى في عدة آيات من الكتاب الكريم.

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿88﴾

يعرف يوسف أباه يعقوب ويعلم بأنه لا يمكن أن يرسلهم هذه المرة لجلب الحبوب. يعرف يوسف بأن أباه شريك معه في الرسالة وبأن عليهما أن يصلحا أصول هذه الأمة العظيمة التي ستنمو في أعظم بلد في الأرض ليتمكنوا من حمل أول كتاب سماوي للإنس والجن.

لم يقم إخوة يوسف بتحسس يوسف وأخيه بل ذهبوا رأسا إلى يوسف لشراء الحبوب بما لديهم من بضاعة.

ومن الواضح أنهم غير قادرين على البحث عنهما بعد أن يحملوا الحبوب معهم على رحالهم. ولا أدري ما هي الفرية التي فكروا فيها ليواجهوا بها أباهم الذي ينتظر منهم العودة بأخبار أخويهم؟ لعلهم فكروا بأن يعقوب سوف يسكت عنهم حينما يراهم محملين بما يشبع بطونهم!

إنهم ماديون لا يهتمون بغير المال مع الأسف ويظنون بأن الادخار والجمع هو أصل الحياة. دخلوا على يوسف ويوسف ينتظر منهم رسالة من أبيه أو سؤالا عن مكان يوسف و أخيه. لكنهم واجهوه بكل ذل طالبين منه أن يقبل بضاعتهم غير المتكافئة التي أتوا بها ثمناً لما ينتظرونه من كيل كامل للمونة.

لم يقل لهم أبوهم بأن يذكروا فقرهم المدقع للعزيز ولكنهم قالوا ذلك وهم لا يعلمون أن أخاهم الأبي الشهم واقف أمامهم وسوف يزعجه كثيرا أن يراهم في تلك الحالة البائسة. إنهم طلبوا مقابلة العزيز ليسترحموه.

مسنا الضر: تعني بأن الفقر داهمنا فأزال منا كل نعمة. فالمس تعني وصول الضر إلى أبدانهم بحيث يشعرونه تماما.

والضر تعني كلما يضر المرء والمقصود هنا هو الفقر.

وأما **البضاعة المزجاة**: فتعني القليلة التي لا تناسب ثمن ما ينتظرونه من متاع ليحاربوا به الجوع.

فالمزجاة من زجا يزجو أي ساق الشيء بسهولة لقلة وزنه أو رخص ثمنه.

وأوف لنا الكيل: تعني أعطنا كيل بعير كامل لكل فرد منا لمسيس حاجتنا. وطلبوا الصدقة باعتبار أن العزيز منحهم مكاييل كاملة في المرة الأولى معيدا إليهم الثمن الذي قدموه مقابل المتاع فعرفوه إنسانا كثير الإحسان.

وقد عرف العزيز نفسه عليهم بأنه من المحسنين. ثم إنهم أحسوا بأن العزيز يؤمن ويثق بالله تعالى فجاءوه من حيث يحب. لقد تعلموا أسلوب التعامل مع الأفراد بعد أن قال لهم أبوهم لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة.

إنهم في مسيرهم يوازون مسيرة يوسف وأبيهم ولا يلتقون أبدا. فهما يريدان إصلاحهم وهم يريدون جمع المال. انهما يعتمدان على الله تعالى ويتحليان بالصدق ، وهم يعتمدون على المال و يتشبثون بالكذب.

أظن بأن يوسف صدم حينما رآهم يطلبون المتاع بكل خنوع ولا ينفذون أمر أبيهم. إنه يعرف بأن مأموريتهم هي البحث عنه وعن أخيه وليس طلب الطعام. فأبدى عدم الاهتمام الكامل بطلبهم و..

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿89﴾

نزل ردّ يوسف عليهم نزول الصخرة المتحدرة من شاهق. انتهى موعد المؤامرة وبدأت ساعة الاعتراف.

هذا يوسف في زي وزارة فرعون مصر العظيم. إنه فعلا يوسف الذي يستجوبنا بهذا اللحن القاسي ونحن إخوانه الذين نكبره سنا ! لقد صغرنا في عينيه وتضاءلت قيمتنا الإنسانية والعائلية.

لم يكن ليخطر ببالهم أن يعرِّف يوسف نفسه لهم وهم يشحذون منه الصدقة. لقد تحقق ليوسف وحي ربه حينما أدخلوه الجب:

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (15).

هذه نتيجة صدق الصادقين وتلك عاقبة الكذابين المفترين. يا للعار ولكن ليس لديهم حيلة أو مكر الآن. القوة السياسية والإدارية والمال والملك كلها بيد يوسف اليوم. أرادوا أن يخل لهم وجه أبيهم بطرد يوسف، وها هم وأبوهم وكل الأسرة يحتاجون إلى يوسف.

لقد فعلوا ما فعلوا بحق يوسف وأخطأوا ما أخطأوا بحق أخيه ثم إنهم كذبوا على أبيهم وأصروا وأسروا عقودا دون أن يتقبل الأب ادعاءهم.

وآخر الأنباء أنهم خرجوا من عند أبيهم للتحسس عن يوسف وأخيه ولكنهم جاؤوا يتشحذون.

مصير أسود حالك ولكنهم في النهاية بنو إسرائيل.

إن الذين يستمرون في الكذب والمراوغة فإنهم ينتظرون مثل هذه الساعة العصيبة. ها هي الحقيقة فرضت نفسها عليهم فسقطت عنهم كل الأغطية. جمعوا كل شجاعتهم وواجهوا مصيرهم متقبلين كل العواقب. ردوا على أخيهم مستفسرين عنه و..

قَالُواْ أَ إِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿90﴾

لا زال يوسف متهكما. يريد وبكل خلوص أن يصنع بني إسرائيل صناعة حسنة قوية ولكن بني إسرائيل قد لا يبلغون طموحه.

سؤالهم "أ إنك" لا يعني الجهل بل يدل على المفاجأة غير المنتظرة. لم يتوقعوا أن يكون أباهم مصيبا في أن يوسف حي في مصر ولم يخطر ببالهم أن يبلغ يوسف وزارة أعظم إمبراطورية في الكرة الأرضية آنذاك. إسرائيلي فقير يتبوأ من مصر حيث يشاء ويصدر الأوامر لمختلف الأطياف الوظيفية في مستقر الأهرام العظيمة.

فالتأكيد في المقطع الأول بإنك لبيان الهول الواقع عليهم ثم أبدوا بعض الارتياح بإكمال السؤال ولكن بلغة التأكيد مرة أخرى "لأنت يوسف".

يعنون: قبلنا بكل ذهول أنك حقا يوسف. لكن يوسف متهكم ومتألم منهم ومن سخافة عقولهم وسوء تدبيرهم وهم إخوانه الذين يفترض أنهم يرثون من صفات إبراهيم وإسحاق ليبنوا أكبر أسرة محافظة بين الشعوب المؤمنة بالله تعالى.

هي اختبار سماوي مواز لاختبار أولاد إسماعيل ومن تبعهم من العرب بدون النظر إلى تماسكهم الأسري.

سوف تتبارى الأسرتان معا مستقبلا ليرى الله تعالى ويرينا الفرق بين الاهتمام بالأسرة والاهتمام بالقانون إلى يوم القيامة، والعلم عند الله تعالى.

أجابهم أخوهم: **أنا يوسف** وأضاف: **و هذا أخي**. أراد أن يكسر خياشيمهم مرة أخرى بعد أن وصفوهما بالسرقة لينفوا عن أنفسهم انتسابهما الكامل إليهم لأنهم أكبر من أن يسرقوا! أراد أن يقول لهم: نحن لم نسرق حقاً، ولكنكم أنتم أبديتم الذل والصغار أمام مسؤول مصري ووصمتم جبين إسرائيل بالعار.

لم يكتف بذلك بل أضاف بعد قوله: **هذا أخي؛ قد من الله علينا**. أراد أن يقول لهم بأنهما موضع ثقة الله تعالى ورحمته والله يعز عباده المخلصين ويرفع شأنهم ويذل المسيئين ويحطم كيانهم.

كلهم أولاد النبيين و يعرفون بأن منن الله تعالى على الإنسان تدل على غاية الشرف والعز وتنبئ عن اهتمام الجبار العظيم بعبده المخلص له وحده.

وأردف يوسف مبينا حقيقة علمية: **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**. قال لهم ذلك ليخبرهم بأن العزة كلها عند الله تعالى الذي لا ينظر إلى شرف العائلة ولا يهتم بكرامة الأسرة ولا مجدَ عنده لغير التقوى والصبر.

التقوى من الذي يستحق أن يُتقى والصبر على كل مصيبة في سبيل إرضاء السيد المتعال. الإنسان الذي يترفع عن الرضوخ للمصيبة ولا يبدي الاهتمام الكبير بالملمات لهو المحسن الذي يتقبله الله تعالى.

ذلك حق فسيد الكائنات يختار من بين عبيده من لا ينسى بأنه عبد للجبار العظيم فتهون عليه كل صعوبة لأنه في النهاية محسوب على العلي العظيم جل جلاله وليس من فئة الأذلاء الذين يضطربون عند كل مصيبةٍ يختبرهم بها ربهم.

إنه محسن في فعاله وعبد خاضع لرب واحد أحد قوي لا يمكن أن ينسى الذين لا يلوذون بغيره ولا يدينون إلا له سبحانه وتعالى.

انهار إخوة يوسف أمام المنطق القوي وشعروا بالصَّغار بعد أن أراهم أخوهم بأن ربه أحسن إليه ومنحه القوة السياسية والعزة والعلم والإرادة القوية.

أقفلت أمامهم كل أبواب المكر والفرار فأجمعوا كل قواهم وعزموا على الاعتراف بالحقيقة مهما كانت صعبة ومرة.

ها هو يوسف يفوقهم فعلا وهو لم يكسب ما كسب عن طريق المكر والظلم بل لجأ إلى ربه في كل مواقفه فكسب الخير من سيد الكائنات جل جلاله ولذلك وبدون أي تكتم أو تحايل وبدون أي اعتزاز بأمهم أو بأبيهم:

قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿91﴾

لقد صدقه إخوانه وليس لهم يد عليه ولا بد لهم إلا أن يصدقوه. منطقٌ قوي ومتمسَّك قهار ومُلك ظاهري دنيوي بارز! لم تفارقهم الحيرة ولم يتركهم الهلع فأقسموا متعجبين بتاء القسم بالله العظيم.

أرادوا الاعتراف بالخطأ إذ لا مجال للمراوغة ولكنهم فضلوا أن يعترفوا بعدالة السماء قبل الاعتراف بالذنب، فقالو: لقد آثرك الله علينا .

يعنون بجملتهم أنك فعلا تستحق أن تسمو علينا فآثرك الله تعالى الذي لا يفعل إلا الصحيح ولا يريد إلا العدل والحق. أتوا باسم الله تعالى إلها ولم يأتوا باسمه ربا ليعترفوا له بأنه يستحق باعتبار أن نظام الألوهية يهتم بالقانون العام الذي يساير العدالة المطلقة والذي به يدير الله تعالى مختلف الكائنات ويخضعها جميعا لإرادته الجازمة القوية التي تأخذ طريق التنفيذ في كل جوانب الكون بسهولة ويسر.

لكن منطلق الربوبية يختلف فهو ينظر إلى حاجة الموجود أكثر من اهتمامه بالنظام العام المسيطر على كل الكائنات، والعلم عند العليم الحكيم.

والأثر برأيي بناء على ما فهمتُه من أرباب اللغة العربية، هو لاحقٌ يُرى يدل على سابقٍ كان، أو فَعَلَ أمرا في ظرف.

وآثر من الإيثار وهو إفعال أصله الإئثار وقد بدلوا الهمزة الثانية ياءا للتسهيل. و يحتاج في تحققه إلى فاعل ومفعول هو صاحب الأثرة ومفعول ثان هو الذي وقع فيه أو عليه الأثر.

فتارة يقوم الشخص بتفضيل شخص آخر على نفسه فهو يؤثره على نفسه ليفضله أو يقوم شخص ثالث بذلك التفضيل.

ونسبة التفضيل إلى الله تعالى في هذه الآية لبيان عجز المفضَّل بنفسه عن التأثير بدون إرادة القهار عز اسمه. أرادوا إثبات أهمية المراحل التي تم بها ذلك الظهور المتجلي ليوسف وهو فعلا خارج عن قدرة البشر كما عرفنا وكما بينه لنا الفرقان العظيم في مختلف مراحل التحولات المقصودة بتيسير منه تعالى وحده.

كلام إخوة يوسف في غاية الدقة والإمعان ولا غرو فهم أبناء إسرائيل العبقري الكبير.

وأما قولهم: **وإن كنا لخاطئين**، فهو كلام بليغ ومتين أيضا.

أرادوا أن يقولوا ليوسف بأنهم معترفون بالذنب ولذلك أضافوا لام التأكيد على توصيفهم أنفسهم بالخاطئين ولكنهم أرادوا أن يجزموا له بأن السبب في تفضيل السماء إياه عليهم ليس هو بسبب خطئهم بل يوسف يستحق ما حباه الله تعالى به بنفسه.

ولذلك أضافوا **إن كنا**، على اعترافهم بالخطأ. فمعنى الآية والعلم عند ربنا: نؤكد اعترافنا بخطئنا ولعل لخطإِنا سبب فرعي لتفضيلك، ولكنك أنت بما رأيناه منك أكثر منا علما وفضلا وإيمانا، فتستحق هذا التفضيل بغض النظر عن تعرضك لظلمنا وما أخطأناه في حقك.

و نقرأ في أغوار اعترافهم بأنهم يقرون ليوسف استحقاقه لما وصل إليه من مظاهر النعمة الإلهية حتى لو لم يكن متعرضا لما أصابه من قسوةٍ من أقرب الناس إليه أو من غيرهم. ولولا هذا القصد لاكتفوا بقول: ونحن خاطئون.

أدرك يوسف عمق الندم الذي تمثل به إخوانه فتغيرت لهجته وعاملهم معاملة الأخ لأخيه تاركا كل ما أصابه وأخاه من ظلمهم وراء ظهره مكتفيا بما أولاه الله تعالى ربه من فضل واضح عليهم جميعا . ولعل الذي تفوه بتلك الجمل البليغة نيابة عنهم جميعا هو أخوهم الأكبر.

ثم إن يوسف شعر بأن الظلم الذي أصاب أخاه الأصغر كان أقل منه بكثير فسمح لنفسه أن يغفر لهم ما قسوا به على أخيه الصغير أيضا ولذلك،

قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿92﴾

أغلب الظن هو أن يوسف أراد بقوله لا تثريب معنى لا تقريع أو لا لوم عليهم آنذاك. فيكون معنى كلامه الموجه لنفسه وأخيه الصغير أن يستنكفا عن تذكير ما فعله إخوانهما ضدهما في حضورهم بعد ذلك اليوم.

وكلمة تثريب عربية استعملها العرب قبل القرآن بدليل يثرب ولكني لا أعرف كيف توصل علماء اللغة إلى معنى التقريع من كلمة كانت تدل على الشحمة الرقيقة كما يقولون.

لكننا نقرأ رسالة الآية من لحن يوسف حيث من الواضح أنه أراد إدخال الطمأنينة في قلب إخوانه بأنهم في سلام منه.

وأما إضافته "اليوم" فمقصوده الحياة الدنيا برأيي، بمعنى أنهم في أمان من أي قرع دنيوي من ذوي الشأن باعتبار أن المتضرر الحقيقي من بين المخاطبين هناك هو نفسه والمتضرر الأقل تأثرا أخوه الصغير الذي يتبعه ولا يخالف أمره كما يبدو[70].

[70] يجب أن نعرف بأن الله تعالى يختبر عبيده فيما يصيبهم بها من امتحانات دنيوية ليميز الخبيث من الطيب، فالطرف الأساسي للمطالبة بإنزال العقاب أو تعيين الثواب هو الله تعالى نفسه.

الكثيرون يظنون بأن حقوق الناس لا يمكن تلافيها إلا بإرضائهم وقد نسوا بأن الناس جميعا عبيد لرب العالمين فالواجب في المرتبة الأولى إرضاء رب العالمين وليس إرضاءهم.

ثم إن هدف رب العالمين كشف حقائق الناس فهو قد اكتشف حقائق إخوان يوسف بأن اختبرهم في أقرب الناس إليهم فلم يفوزوا. نعم ليوسف حق دنيوي يمكنه التغاضي عنه أو المطالبة به وهذا لا يؤثر أبدا في آخرة الظالمين.

فيوسف يعفو عن حقه الدنيوي الثابت له، ولكن النتائج الطبيعية للأعمال في الدنيا ويتلوها الجزاء الأوفى في الآخرة هي بيد رب العباد وحده. ولذلك دعا لهم أخوهم مستغفرا ومذكرا نفسه وإياهم بأن ربهم هو أرحم الراحمين.

وجدير بكل إنسان يؤمن بنظام الألوهية الذي يحكم الكائنات ولا يمكن أن يغفل عن مراعاة العدالة أن يفهم بأن الله تعالى الذي يتولى كل الحكم والتقدير لوحده وبدون أي تأثير من أي من الكائنات فهو في نفس الوقت أرحم من أي رحيم.

لو عرفوا ذلك لما ذهبوا للبحث عمن يساعدهم ضد ربهم. لو كان هناك إمكانية للمساعدة فإن الله تعالى هو أولى بأن يساعد عبيده فهو المالك الحقيقي لهم جميعا وهو الذي أوجدهم ورباهم وساعدهم فكيف لا يكون أرحم إليهم من كل رحيم.

أتمنى أن نفكّر جميعا كمؤمنين في حقيقة هذه المسألة التي تفوه بها يوسف أمام إخوانه ليقول لهم بأن ربهم في النهاية أرحم بهم من أخيهم ومن أبيهم كما كان أرحم به منهم ومن أبيهم أيضا.

لو قيل ليعقوب بأن ابنك مرشح لذلك النيل العظيم لو تجشم عناء السقوط في الجب والتغرب عن الوطن من صغر سنه والبيع في سوق النخاسة ثم العذاب النفسي من امرأة العزيز مثلوا بالسجن لعدة سنوات، لقال لا أريد له ذلك دون شك.

وأما يوسف نفسه فلم يملك الشجاعة لقبول كل ذلك بداية ولكنه يوم القيامة سيقول يا ليتني منيت أكثر من ذلك فأفوز بالمزيد من السعادة الأبدية.

هكذا يكون الله تعالى بتقديراته أيضا أرحم الراحمين لنا من كل أهلنا ومن أنفسنا أيضا. سبحانه من كريم لا يُضاهى ورحيم لا يُجارى.

نهاية الهامش 70.

ولنواصل سيرنا مع ما حصل للإخوة في حضرة أخيهم، وماذا حدث بعد تلك المفاجأة الصاعقة؟ وما هو حال يعقوب في تلك الأثناء؟ فيعقوب لا ينتظر أخبار يوسف وأخيه وهو يعلم من الله تعالى بأنهما بخير، بقدر ما ينتظر انتهاء اختبار أبنائه الذين عصوا واتبعوا سبيل المفسدين[71].

[71] قبل أن ننتقل للمقاطع الأخرى من القصة الكبرى فإنني أرى من الضروري أن أتطرق لرأي أخينا _الطباطبائي الذي سعى لفهم هذه الآيات الجميلة ولكشف أغوارها البعيدة وقال كلاما جميلا بحق ولكنه غير مصيب – في رأيي– وقد يسبب بعض الاضطراب لمن يطلع عليه.

قال في الميزان: **وإنما قيد نفي التثريب باليوم ليدل على مكانة صفحه و إغماضه عن الانتقام منهم و الظرف هذا الظرف هو عزيز مصر أوتي النبوة و الحكم و علم الأحاديث و معه أخوه و هم أذلاء بين يديه معترفون بالخطيئة.** انتهى كلام الطباطبائي.

أظن بأن يوسف أكبر من أن يفكر في أن يمن على إخوانه هكذا. والآية لا تدل على ذلك. وهو عليه السلام لم ينسب أي فضل لنفسه بل لله تعالى وحده فهو الغفار وهو أرحم الراحمين.

إنه برأيي كان متألما من أنهم يشعرون بالذل أمام إنسان قبل أن يعرفوا بأنه أخوهم يوسف. وسعيُ يوسف لكسر أنوفهم لم يكن لإرغامهم على طاعته بل لكسر الكبرياء العائلي في قلوبهم فيعودوا إلى الله تعالى الغني الفياض ويتخلوا عن تولي البشر والتمسك بالتجمعات العرقية البشرية الفقيرة بطبيعتها.

ولو قال يوسف بدلا عن ذلك: اليوم لا تثريب عليكم، لكان لاحتمال العلامة بعض المجال. ذلك باعتبار أن أصحاب الشأن عادة ما يبدؤون بذكر الظرف (اليوم، هنا، الآن) ليلفتوا الأنظار إلى أهمية الظرف الذي يتمتع فيه الخطيب بالقوة والعزيمة.

لكنهم لا يحتمون بالظرف القوي إلا إذا أرادوا التكرار. ولا أظن بأن لذلك الترتيب دليل علمي عدا السماع.

فالابتداء بعدم التقريع هو لنفي التقريع ولنفي النية فيه تماما وليس في ذلك أي تذكير أو تنبيه إياهم بالقوى التي يتمتع بها النبي يوسف.

لو نقرأ الآية التالية من نهاية سورة التوبة التي تتحدث عن نبينا وهو نموذج لإخوانه الأنبياء والرسل سنرى كيف يتعامل الرسل مع قومهم بمن فيهم أسرهم:

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (128).

إنه أحرص منهم على بني إسرائيل وعلى سلامة الأسرة المباركة التي ستحتضن مجموعة غير قليلة من أنبياء الله تعالى ورسله الكرام. لقد فعل ما بوسعه كما فعل يوسف ما بوسعه لتعديل توجهات الإخوة الذين غرر بهم الشياطين.

عرف يوسف بأن المحاولات البشرية التعليمية قد انتهت وبدأ دور آخر هو دور هجرة بني إسرائيل إلى مصر. إن قائد هذه الهجرة هو يعقوب وليس يوسف بالطبع. هي حركة عظيمة في سلسلة التحركات البشرية في الأرض وكانت عظيمة بالنسبة للأسرة أيضا.

لم تشمل دعوة يوسف كل الذين عاشوا معهم في بلادهم منذ هجرة إبراهيم إليها. إنها هجرة تغاير هجرة عمهم الكبير إسماعيل الذي نقله أبوه لوحده إلى مكة الفعلية والتي كانت بكة يومها ليبني الأمة التي سوف توازي بني إسرائيل في الاختبار السماوي الكبير لأهل الأرض جميعا.

وقال الطباطبائي أيضا في ختام تفسير الآية الكريمة: **ثم دعا لهم و استغفر بقوله: "يغفر الله لكم و هو أرحم الراحمين" و هذا دعاء و استغفار منه لإخوته الذين ظلموه جميعا و إن كان الحاضرون عنده اليوم بعضهم لا جميعهم كما يستفاد من قوله تعالى الآتي: "قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم" و سيجيء إن شاء الله تعالى.** انتهى كلام الطباطبائي.

وهذا الرأي أيضا غير دقيق بظني. أحتمل بأن الأستاذ الفاضل لم يكن منتبها لحقيقة قيام يوسف بصناعة بني إسرائيل أولا ثم غفل كما أرى بأن من واجب الأنبياء أن يكملوا رسالتهم قبل كل أمر آخر.

كان بإمكان يوسف أن يقول لهم من أول رؤية بأنه أخوهم فيدخل السرور في قلبي أبويه أيضا بأسرع وقت ممكن. كان يمكن له بعد أن فاز بالوزارة في مصر أن يبعث رسلا إلى أهله ويدعوهم أو يخبرهم بمكانه وبأنه نجا من المهالك.

إنه دون شك كان يحمل رسالة السماء لتصحيح مسار آباء بني إسرائيل ولتعديل أفكارهم العنصرية والعرقية الساذجة.

إن كل المجريات التي ذكرها الله تعالى تسير في هذا الاتجاه فلا يجوز له تجاهل بعض إخوانه. إنهم جميعا كانوا حاضرين دون أدنى شك.

هذا ما وعده الله تعالى وهو في مهوى الجب بأنه سينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. لم يستثن الله تعالى أحدا منهم. وأما الإشكال الذي يشير إليه في نهاية كلامه وقد وضعت تحته خط فسوف أتحدث عنه حينما نصل للآية الكريمة بإذن الله تعالى. نهاية الهامش 71.

وعلينا ألا ننسى بأن يوسف قد أخذ الإذن دون شك من ملك مصر وسنعرف بعد قليل بأن الملك كان منتظرا لهم[72].

[72] أنا لا أعرف كيف تم إقناع الملك بهذه الهجرة الخطيرة إلا أننا نعرف بأن الله تعالى وراء كل شيء وهو مقلب القلوب والأبصار سبحانه وتعالى.

ولمن يريد المزيد من التحقيق فإن ملوك مصر لم يكونوا مستبدين بل كانوا يستشيرون المحيطين بهم فلم تكن المسألة سهلة على الملك نفسه أيضا . والقرآن لم يتعرض لهذه المسألة باعتبار أنها ليست ضمن نطاق السرد لعملية صناعة بني إسرائيل بل هي قضية مصرية داخلية تولى الله تعالى دون شك أمرها، والعلم عنده. نهاية الهامش 72.

تأويل رؤياي

قال يوسف مخاطبا كل إخوانه وأظن بأن أخاه الصغير قد أرسله معهم أيضا ليحضر أهله إن كان متزوجا وليساعدهم:

اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿93﴾

عاد القميص مرة أخرى للصورة. هو نفس القميص الحقيقي الذي اتفق يوسف مع أبيه أن يحتفظ به لمثل ذلك اليوم فيكون في إرساله إليه دليلا قطعيا على انتهاء كل المسائل الفرعية وابتداء الهجرة.

ليس لدينا أي دليل على أن يعقوب كان يعرف الكتابة فلم يكن هناك أي طريقة لإرسال الرسائل إلا بمثل هذه العلامات.

لم يكن إخوة يوسف مأمونين على صدق الحديث فهم كما رأيناهم يستمعون إلى أبيهم ويُظهرون له الامتثال ثم يفعلون ما يبدو لهم، فهم خونة في الواقع. و دعنا نحتمل أن هناك شيئًا من هذه السجية المعيبة مع أولادهم اليوم فنجعلها في اعتباراتنا حينما نتعامل معهم. أتمنى أن لا يكونوا كذلك.

فهم قد يكذبون ويمكن أن يخونوا وليست الخيانة عيبا على من يرضى لنفسه أن ينزل إلى مستوى الكاذبين. إن يوسف يعرف بأن أباه لا يثق في إخوانه وأراد أن يقول لهم بأن نقل رسالته الشفهية لن تكون مقبولة ليعقوب حتى يرضى بالهجرة الكبرى.

انتبه الإخوة أيضا بأن هناك سرا كبيرا في هذا القميص واستيقنوا بأن ظنهم في السرقة كان ظنا خاطئًا ولعل ذلك كان مقصودا عند يوسف ليريهم سوء ظنهم عمليا.

وقد أكد يوسف عليهم بقوله: اذهبوا بقميصي هذا، ليقنعهم بأن يعقوب منتظر لهذا القميص وليس لغيره.

انتبه المتآمرون بالشر بأن أباهم ويوسف كانا أكثر منهم استعدادا لمواجهة مؤامرتهم وعرفوا تماما بأنهم كانوا في منتهى الضلال والجهل أمام يوسف وأبيهم.

ويبدو بأن يوسف كان ينتظر إنهاء كل المحاولات في ذلك اليوم أو في تلك الأيام، فكان القميص حاضرا عنده في مكان عمله وليس في مسكنه الذي لا يمكن أن يكون في إدارة المخازن.

قال لهم بأن طريقة إيصال القميص يكون بإلقائه على وجهه. وهذا لا يعني أن يرموه على وجهه الفيزيائي كما تصوره الكثيرون. فلو رموه على وجهه فسوف لا يرى شيئا ولا يعرف القصة، ناهيك عن أن العملية غير مؤدبة وغير جميلة فعلا.

إنه يعني بأن لا يتحدثوا معه شيئا ويكتفوا بإلقاء القميص في مقربة من وجهه ليراه.

يريد يوسف لأهله مفاجأة أخرى لعلهم يهتدوا وهي هذه كما سنعرف بعد قليل بإذن الله تعالى. مثل هذه المفاجآت المدروسة تقلل من المناقشات غير الضرورية وتبعث بالرسالة إلى المقصودين بكل دقة وبكل عناية.

وأما قوله: **يأت بصيرا**، فيعني بأن أباه سوف يعرف القصة وسوف يقبل منكم الكلام فيأمر بالهجرة.

ليست الهجرة مسألة سهلة ولا يمكن ليعقوب أن يرضى بها فينقل الجميع إلى مصر ثم يعود خائبا حيث يرى بأن الظروف غير مناسبة لهم مثلا وقد فقد في المقابل، بيته ومأواه ومأوى كل أهله.

فالبصير هنا ليست في مقابل الأعمى كما ظنوا ولكن في مقابل الجاهل أو الشاكّ. لم يكن يعقوب أعمى وليس في القرآن أية إشارة إلى ذلك. إنها استنتاجات غير دقيقة.

يعرف يوسف مدى شك يعقوب في إخوانه فأراد أن يبلغ أباه بأن المسألة مقبولة لدى السلطات المصرية وبأن كل الترتيبات قد تمت لإيواء المهاجرين في مصر.

إن كل الحركات التي يأمر بها يوسف مقصودة ومعروفة بينه وبين أبيه. ولعل من يقول لي مستندا إلى ظني بعودة الأخ الصغير معهم بأنه كان جديرا بأن يحمله يوسف رسالته التي سوف يتقبلها يعقوب.

فأقول بأن يوسف ويعقوب حينما تفاهما معا قبل خروجه الأخير مع إخوانه لم يكونا ليعرفا بأن الله تعالى سوف يقدر إرسال أخيهم الصغير بالشكل الذي حصل كما لما يكونا عالمين بالوقت الذي يتم فيه التنفيذ الكامل لأمر الله تعالى.

ولذلك فقد مهدا لكل الأخبار الضرورية بهذا الشكل وعدم تنفيذ أي منها كان باعثا للشك في قلب يعقوب. والعلم عند الله تعالى.

بيد أننا رأينا الأخ الأكبر الذي كان رافضا لإيذاء يوسف لم يتمكن من مخالفة إخوانه بل سايرهم حتى لا يتعرض لمكرهم فكيف بالأصغر الذي ليس من أمهم.

لم يكن هناك أية وسيلة لإقناع يعقوب بالهجرة إلا ضمانات يوسف نفسه ولم يكن هناك ما يبعث باليقين القطعي في قلب يعقوب غير العلامة المتفق عليها بينهما.

سيعلم يعقوب القضية ويقبل بالهجرة إن ألقوه على وجهه بالطريقة التي قال لهم وهم جميعا كانوا حريصين على هذه الهجرة التي تفألوا بها لتخرجهم من فقرهم وبؤسهم فكان احتمال اللعب في تعليمات يوسف غير مظنون.

لقد هابوا يوسف ودخل في قلوبهم الكثير من التعظيم لشخصه ولأبيهم الذي شعروا بخطورته عند مشاهدتهم لذلك الموقف من يوسف.

إنهم دون شك أعادوا دراسة القضايا بشكل عكسي وتفطنوا تماما للكثير من أخطائهم الكبيرة وللكثير مما جهلوه من معرفة لشخصيتي يعقوب ويوسف.

ثم أكمل يوسف تعليماته بأن قال لهم: **وأتوني بأهلكم أجمعين**. أحتار حينما أراجع ما قاله يوسف مع أبيه ورسائله إليه وأقارن بين مقولاته ومقولات بقية الأسرة.

يشعر الجميع بعظمة شخصية يعقوب ولكنهم لا يظهرون له الاحترام اللائق به إلا يوسف.

كانوا يتهمونه بالحرض وبالضلال وهم يعلمون بأنه نبي الله كما كانوا من جانب آخر يفتخرون بالانتساب إليه.

لكن يوسف لم يأمر أباه أبدا بأمر بل يترك الأمر له ولم يتحدث أبدا ضد أبيه. كان يسعى ليحترم وليكون على مستوى الابن الذي يتعلم من أبيه طيلة القصة الطويلة.

خاطب أباه بيا أبت حتى في عز قوته وفي قصر فرعون كما سيأتي. لم يقل يوسف ليأت أبي بل خاطب إخوانه: **وأتوني بأهلكم أجمعين**. يشمل الأهل أزواجهم وأولادهم وأخواتهم وأهليهن ومعهم أبويه أيضا ولذلك أكد على كلمة أجمعين حتى لا يفسروها تفسيرا خاطئا.

واستعماله صيغة المتكلم لوحده في (وأتوني) هو ليُعلمهم بأنهم سيكونون في ضيافته حتى يتمكنوا من تكوين أنفسهم وترتيب حياتهم المستقبلية في مهجرهم الجديد. والعلم عند الله تعالى.

سار الإخوة بجمعهم نحو بلدهم وهم في أسوء حال نفسي ليكشفوا كل شيء أمام أبيهم الذي يعرف كل شيء عنهم ولكنه كان حريصاً أن يسمع منهم.

سوف تُبلى السرائر قريبا وتعرف الأسرة كل القصة. لقد هشم يوسف أنوف إخوانه وأمرهم أن يذهبوا بأنفسهم إلى أبيهم معترفين.

اقتربت العير من مجمع القرى وراحت كل مجموعة تتجه إلى القرية التي أتت منها . ومن الطبيعي أن ينتشر خبر وصول القوافل التجارية إلى أهل القرية أو المدينة التي يسكنونها . شاع خبر الوصول بين العوائل القروية وبلغ يعقوب الخبر. وهكذا يحدثنا القرآن الكريم الخبر الذي كنا نجهله وكان رسولنا غافلا عنه:

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿94﴾

الدور الآن ليعقوب الذي يعرف بأن هذه القافلة ستأتي بأخبار يوسف وأغلب الظن أنه انتظر وصول العلامة من يوسف. إنه يعرف بأن يوسف الآن مسؤول كبير لا يمكنه ترك العمل وعليه بأن يدبر لهم أمراً آخر ليجمع شمل الأسرة.

أراد يعقوب أن يبدأ بترتيب الدور الحاسم الجديد لقصة أولاده بأن يذكرهم بما قاله لهم من قبل وبصورة أكثر دقة. ولذلك تفوه أمام الحاضرين وقبل وصول الإخوة بأنه يحتمل وصول أمانة من يوسف مع المقبلين من مصر.

وعبر عن الموضوع بأنه يجد ريح يوسف. ليس ليوسف ريح حقيقي يصل إلى مشام يعقوب من بعيد ولكنه تعبير عن علمه بأخبار يوسف. هو مثل تعبيرهم عن أخبار أحد أو أنباء سارة بريح الصبا أو نسيم الصبا . ولم يقل يعقوب بأنه يشم ريح يوسف بل قال يجد ليفصح عن الوجدان الفكري.

وأما بقية كلام النبي المحترم لأهله: **لولا أن تفندون**؛ فنعرف معناه مما قالوه له في الآية التالية. ولو أردنا أن نعود إلى أرباب اللغة لنعرف المعنى فسنضيع بين آرائهم غير المستقرة. الكذب واللوم وتخطئة الرأي والضعف أو الكبر والخرف أو ضعف العقل!

قَالُواْ تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ ﴿95﴾

قالوا له ذلك بعد أن أكد لهم ظنه بأن أخبار يوسف مع القافلة المقبلة. قالوا ذلك ليفندوا قول الأب إسرائيل الذي يمثل شرف الأسرة الكبرى وفخرها . فلنعرف من قولهم الجاهل كيف يتعاملون مع

أنفسهم ومع بُناة مجدهم ولا نتوقع من الإسرائيليين أن يكونوا واقعيين معنا . علينا أن نتعامل معهم فلا لغة مع بني إسرائيل غير لغة المعاملة والتجارة. كان يمكنهم أن يصبروا قليلا ساعة أو ساعتين فتتبين لهم حقيقة ادعاء شيخ بني إسرائيل. لكنهم لم يصبروا وتفوهوا بكلام أحمق لا يدل إلا على استعجالهم وعدم تأنيهم في الحكم حتى على أقرب الناس إليهم. فما معنى قوله عليه السلام: **لولا أن تفندون**؟

اعتبر الرسول قولهم السالف تفنيدا لظنه بأنه ينتظر أخبار يوسف من تلك القافلة العائدة فالتفنيد جاء بمعنى نسبة الجهل والضلال إلى الشخص بأنه يقول شيئا لا يدرك خطأه وليس بمعنى التكذيب طبعا .

فقد أصاب من أرباب اللغة من قال بأن التفنيد هو تضعيف الرأي بظني والعلم عند الله تعالى.

وأما قَسَمُهم بالله تعالى فهو ليس من باب الحلف الذي يطلب صاحبُه تأكيد زعمه ولكن من باب لجوء المتعجب إلى الله تعالى ليعينه على تحمل المخاطب. ولذلك قالوا: إنك لفي ضلالك القديم، بمعنى إنك لا زلت تتخبط كما كنت في آرائك الضعيفة الماضية. والواقع هو أن يعقوب وهو فخرهم وعزهم قد ادعى أمرا لم يظهر بعد خطأه، لكن بنو إسرائيل هم عادة أبناء الوقت فلو أنك لا تعطيهم الإثبات الفعلي فهم يستمرون في تكذيبك حتى تظهر لهم الحقيقة. وليس صعبا على بعضهم أن يصدقوك بعد ظهور الحق فالكثيرون منهم يحملون وجوها عريضة لا ترى فيها حمرة الخجل مع الأسف.

فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿96﴾.

وصل الإخوة ولعل القميص كان بيد أكبرهم لأنه كان أقل منهم إيذاء ليوسف وأكثرهم حرصا عليه وعلى صيانة وعده لأبيه. وهناك احتمال قوي بأن يكون البشير أخاه الصغير الذي عاد معهم دون ريب لإحضار أهله ولتجميع ما يريد حمله إلى المهجر الجديد .

كان طبيعيا هذا الحق للأخ الذي اتهموه مرة كما اتهموا أخاه مرة سابقة أن يكشف خطأ إخوانه الذين ظلموهما وظلموا بقية الأسرة الكريمة.

لكني احتملت الاحتمال الأول باعتبار الآية التالية التي تتحدث عن طلبهم الاستغفار فالأخ الصغير لم يكن ضمنهم في هذا الطلب.

جاء البشير فألقى القميص الكاشف لحقيقة كل ما قاله يعقوب والكاشف فعلا لكذبة الإخوة والمبَيِّن بأن يوسف فعلا في مصر، أمام وجه أبيه.

لقد فوجئت الأسرة جميعا لأن الإخوة نفذوا تعليمات يوسف كاملة احتمالا فلم يفتحوا القميص قبل أن يروا أباهم ولذلك عبر الكتاب الكريم بأنهم ألقوه على وجهه والإلقاء قد يضمر معنى المفاجأة.

من الطبيعي أن تتفتح أسارير يعقوب فيعلم بأنه كان على حق طيلة ما مضى ويسعى لإفهام أهله بأنه لم يكن مخطئا حينما خالف أولاده ولم يكن مخطئا حينما قال لهم بأن يوسف حي يعود ووو.

فمعنى ارتد بصيرا أنه عليه السلام انقلب في عيون وأسماع أهله إنسانا بصيرا عالما لا شيخا خرفا يكرر جهله وضلالاته القديمة.

ولذلك أسرع في بيان أنه لا يمكن أن يعلم شيئا بدون أن يُعلمه ربه فقال: **ألم أقل لكم إني أعلم من الله**. ذلك لأن ما قاله لهم فيما مضى كان يمثل علما يجهلونه وقد ثبت جهلهم وصدقه، فهم الآن قد يخضعون له ولعلمه.

وعلى الأنبياء ألا يسمحوا لأحد بأن يعبدهم ويخضع لأشخاصهم. ما أطيب هذه الصفوة الخيرة، عليهم جميعا سلام الله تعالى وتحياتنا واحترامنا ولهم جميع حبنا وودنا.

قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿97﴾

بادر الإخوة الخاطئون بالاعتذار من أبيهم ولكن بطريقة الأنبياء العارفين لا كالعامة من الناس. إنهم يعلمون بأن الأب العاطفي لن يرضى بأن يصيبهم أية تبعة لما ظلموه بل يدعو لهم دائما بالخير والصحة والسلامة، لكن الذي سوف يؤاخذهم دون شك هو الله تعالى.

إنهم يعلمون بأن الحياة الدنيا هي حياة اختبارية يريد الله تعالى أن يميز بها الخبيث من الطيب.

يكفي للتمييز أنهم قد تعمدوا التخطيط لقتل أخيهم ثم رضوا بنفيه إلى الأبد ظلما وعدوانا فهم مجرمون في منطق الرحمان وسوف لا يتركهم الله تعالى ولو رضي يعقوب ويوسف ألف مرة.

لقد ظهر للرحمن بأن نفوسهم ليست طيبة ولا يمكن أن يتقبل رضوان أهلهم العاطفي عنهم. إن الله تعالى يقتص من المجرمين في الآخرة ليُرضي المظلومين ولكنه في نفس الوقت يرمي بكل المجرمين في نار جهنم لأنهم مجرمون لا لمجرد الانتقام للمظلومين. ولذلك فإن المجرمين في العقيدة والاهتمام بالظلم سيدخلون النار أيضا ولو أننا في الحياة الدنيا لا نمسهم بأي أذى لأنهم لم يمسوا أحدا بسوء.

فنظام الحياة الأخرى لا يجانس نظامنا الدنيوي قطعا. إن نظامنا مبني على أساس السعي للتقليل من الظلم وحفظ النظام والبحث عن السلامة والأمان النسبي والسعي لمراعاة العدالة ما أمكن.

لكن النظام هناك مبني على أساس القسط إلى أبعد الحدود لتمييز النفس الطيبة من النفس الخبيثة. نحن ننظر للظاهر وهناك ينظرون للباطن. نحن ننظر للعمل وهناك يهتمون بالنية والقصد. نحن نريد العيش بسلام وهناك يريدون الفصل بين المؤمن والجاحد.

ولذلك طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم ربهم من ذنوبهم لأنهم كانوا خاطئين.

أرجو أن يتعلم المؤمنون ويعلموا بأن طلب العفو من المظلوم غير مجد لهم يوم الحساب. عليهم السعي لتغيير نفوسهم وجعلها نفوسا طيبة مؤمنة بشكل دائم وإلا فما فعلوه من ظلم سيبقى دليلا إجراميا ضدهم[73].

---

[73] بلغني بأن أحد الفضلاء المعاصرين فرّق بين الخاطئ والمخطئ بالقول بأن الأول يعني الخطأ المقصود والمتعمد والثاني يدل على السهو. وبعض السلف من اللغويين ظنّ ذلك أيضا. وفي ذلك مجانبة للصواب على ما أرى. فالله تعالى استعمل لفظة الخاطئ بالنسبة لقوم فرعون حينما أنقذوا موسى يوم كان رضيعا من البقاء في البحر وهم لم يتعمدوا ذلك بالطبع بل أخطأوا فيه. قال تعالى في سورة القصص: وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8). وقد قال بعض الإخوة المفسرين بأن الله تعالى بصدد التعليل ليكون موسى لهم عدوا وحزنا قال بأنهم كانوا خاطئين. حتى الزمخشري احتمل هذا الاحتمال ولو أنه لم يجزم. والواقع أننا لغويا لا يمكن أن نصل إلى معنى جازم للمقصود. ذلك لأن الخاطئ هو أصل فعل خطأ بدون زيادة ولكن المخطئ مزيد فيه من باب الإفعال وقد ورد كلاهما في القرآن لمعنى الخطأ المقصود وكذلك السهو. قال تعالى في سورة النساء: **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ,, 92**. فهذا هو ليس خطأ مقصودا ولم يأت مزيدا فيه. علينا أن نعرف بأن هناك قليلا من الأفعال في لغة العرب يتساوى فيها المجرد وباب الإفعال مثل: سرع وأسرع، خطأ وأخطأ، رفع وأرفع. بالطبع هناك فرق بسيط غير قابل للتعريف بالحد بينهما ولا داعي للدخول في هذه الأبحاث التخصصية.

لكن آية سورة القصص فعلا بصدد بيان أن قوم فرعون كانوا يحذرون من أمر وقعوا فيه دون أن يشعروا. نعرف ذلك حينما نقرأ معها عدة آيات أخرى قبلها وبعدها كما يلي: **وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (9)**.

وقد علل سبحانه التقاط آل فرعون لموسى ليكون لهم عدوا وحزنا لأن موسى هو الذي سبب إغراق فرعون وآله (حسب تعبير القرآن) في البحر يوم الخروج. والذي تعمد الإثم هو فرعون وهامان وليس جنودهما الذين ينفذون أوامر الأسياد دون أي قصد. لكنهم جميعا لم ينتبهوا بأنهم يساعدون العدو الحقيقي لهم حينما أنقذوا موسى من الموت في البحر. فساعدوه حتى لا يغرق ولكنه أغرقهم فيما بعد بأمر الله تعالى. فالإثم الحقيقي هو لفرعون وقد وضح الله تعالى ذلك في الآية الرابعة من نفس سورة القصص: **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)**. وأما إثم جنوده فهو في مساعدتهم له ولكنهم ليسوا أصحاب القضية في الواقع. هم في حمايتهم لفرعون كانوا يخشون من استعلاء بني إسرائيل عليهم لأنهم أكثر منهم ذكاء ونشاطا في جوانب الحياة المختلفة. فكانوا يحذرون بني إسرائيل وهم لا يدرون بأنهم قدموا الحماية للإسرائيلي الأول بتقدير رب العالمين عز اسمه. والآيات التالية تتحدث

لنعد إلى يعقوب النبي العظيم وننظر إلى تجاوبه مع طلب أبنائه.

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿98﴾

وبعيداً عن المجاملات والتعاطف أجَّل يعقوب الاستغفار لسبب علمي غاب على كثير من المفسرين مع الأسف.

قال بعضهم بأن يوسف رضي عنهم فورا لأنه شاب وبأن يعقوب لم يبد رضاه السريع لأنه عجوز لا يقبل الاعتذار بسرعة.

وقال بعضهم انه أخر الاستغفار لوقت السحر وهو كلام أكثر حكمة من القول الأول.

وأظن بأن النبي العظيم كان يعرف بأن الاستغفار دعاء ولا يجوز الدعاء أمام غير الله لأننا عبيده وعلينا أن نخفي سيئاتنا كعبيد عن أعين غير الله تعالى.

والاستغفار شهادة على النفس بالسوءى. ويعرف النبي أيضا، بأن كمال توقيره لله تعالى ألا يجهر بالقول لأنه يسمع همسات القلوب فسيكون الدعاء بالجهر قلة أدب أمام الديان العظيم.

ويعرف بأن العبد حينما يقف أمام ربه سائلا طالبا الرحمة فعليه أن يكون على يقين بأن الكريم لن يرد طلب عبده فيحتاج إلى أن ينعزل عن أبنائه ليستجلي اليقين والقطع قبل الشروع بإرسال الدعاء القلبي إلى ربه.

عن حكاية أخت موسى التي بصرت به عن جنب وهم لا يشعرون. ثم قالت لهم بأنها يمكن ان تدلهم على أهل بيت يكفلونه لهم وهم أيضا لم ينتبهوا.

والخلاصة أن الخطأ المشترك والمتساوي بين فرعون وهامان وجنودهما هو في موسى وليس في أنهم كانوا ظالمين. فالظلم بينهم ليس متساويا، ولذلك نجزم بأن الخاطئين في سورة القصص هو الخطأ في التعرف على موسى وليس الخطيئة المعروفة، والعلم عند الله تعالى. وبالمناسبة فإن لفظة المخطئ لم ترد في القرآن الكريم. نهاية الهامش 73.

ويعرف بأن الصبر هو مفتاح الفرج فعليه وعليهم أن يصبروا قبل أن يثقوا بأن دعوتهم قد استجيبت فلا داعي للاستعجال. دعهم يتعلموا على الصبر، والعلم عند الله تعالى.

وقد أعقب وعده بتذكير أولاده بأن ربه غفور رحيم تطييبا لخواطرهم وإعدادا لقلوبهم لئلا ينتظروا من ربهم غير المغفرة والرحمة.

إن انتظار المحتاج من سيده مرحلة مهمة من مراحل الاستجابة لدى المولى الكريم عز اسمه. والعلم عند المتعالي الكريم.

لكن يوسف لم يتحدث عن المغفرة في الآخرة بل وعدهم بأن لا يقرّعهم في الدنيا، والعلم عند الله تعالى.

لقد تحققت آمال يعقوب فابنه يوسف حي وقد رزقه الله تعالى النبوة وها هو يقوم بجلب أسرته إلى مصر تمهيدا لبناء أمة يمكنها أن تستقبل أعظم كتاب سماوي للإنس والجن قبل القرآن العظيم.

عاد أبناؤه إلى رشدهم ورضخوا للحقيقة وتقبلوا أخاهم يوسف بقلوب راضية. ستكون هجرتهم سهلة لأن ابنه قد سبقهم لإعداد كل التسهيلات للهجرة الكبرى.

عاد ولده الصغير وابنه الكبير إليه سالمين. اعترفت له الأسرة بأنه صادق في تنبؤاته واعترفوا بأنه يعلم من الله ما لا يعلمون.

استعدت الأسرة الكريمة للهجرة إلى أرض مصر بقيادة الأب العجوز يعقوب. لقد استعدوا جميعا وجاء يوم الرحيل ليرحلوا قاصدين أرض الأهرام ضيوفا على ابنهم الوزير المرموق في مصر.

لم يفكر أحد من بني يعقوب بهذا الأمر ولم يدر في خلدهم اي احتمال لتلك الهجرة المشرفة بتمهيد من العليم سبحانه وتعالى.

ليست الهجرة دعاء استجابه الله تعالى، ولكنها تقدير ربوبي لأمر كبير قد يجهله أبناء يعقوب وكل أسرته. لكن يعقوب ينتظر ذلك ولو أنه لم يعلم مكان الهجرة برأيي القاصر.

ذلك لأن من متطلبات العواطف الأبوية أن يبحث عن ابنه فبمجرد ما أرسل أبناءه إلى مصر بحثا عن يوسف فهو يعني بأنه استيقن يومها بأن يوسف مستقر في مصر. ولعله استيقن بأن الميعاد هو مصر، بل لا يبدو هناك كثيرُ شك في ذلك.

ومن جانبه فإن يوسف أعد العدة لاستقبال أسرة النبوة في أرض الميعاد المؤقت. ولا أظن بأن يوسف ويعقوب كانا يعلمان بأن مصر ليست مكانا دائما لبني إسرائيل أو بأن التوراة سوف لا تنزل في مصر.

وهذا من غرائب هذه الأسرة الكريمة. فأبوهم إبراهيم عجز عن أن يهدي أهله في العراق كما عجز موسى فيما بعد أن يهدي قومه من الأقباط في مصر.

لقد اضطر إبراهيم للهجرة كما اضطر موسى للهجرة.

وهل بقي محمد في منزله؟ كلا بل اضطر هو أيضا للهجرة. كل أصحاب الدعوات الكبرى هاجروا أو بقوا بين أقوامهم حتى عذب الله تعالى أولئك الأقوام إلا يوسف ويونس.

أما يونس فقد جاء قومه العذاب ولكنه لسبب قد يعود إلى مستواهم الفكري والعقلي، رفع الله تعالى عنهم العذاب في آخر لحظة، وهي قصة تستحق أن يفرد لها كتاب آخر. نسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى إنجاز ذلك في المستقبل القريب[74]

---

[74] كتب الله تعالى على نفسه الرحمة فهو يراعي كل حالات خلقه ولا يمكن أن يحاسبهم أو يجازيهم فيما لا يملكون عمله بكل حرية وإرادة ولذلك لا يحاسب الأطفال ولا المجانين. بالطبع أن هذا لا يعني بأنه سبحانه يكتفي في إثبات الجهل أو الضعف أو الجنون بما يدعيه الفاعلون أنفسهم، بل ينظر سبحانه إلى خفايا صدورهم ويحسب حقيقة قدراتهم وأعذارهم دون شك. فمثلا لم يقبل من بني إسرائيل ادعائهم

بأنهم اشتركوا مع السامري في صناعة العجل دون إرادة. قال تعالى في سورة طه: قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) . فرد عليهم الله تعالى بقوله: أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) . فاعتبرهم أشركوا بالله تعالى فأمرهم موسى بأن يقتلوا رغبات نفوسهم لعل الله تعالى أن يغفر لهم .

فبنو إسرائيل من أسرة قوية عريقة في المعارف الدينية وهم أذكياء من منبتهم وأولئك النفر منهم قد عاشوا فترة طويلة مع موسى بعد الرسالة وكانوا في قمة القوة فلا يمكن أن يقبل الله تعالى منهم الاضطرار أو الجهل .

ثم إنه تعالى رفض اعتذار كل الأمم الرسالية السابقة التي أنكرت دعوات رسلها ولم يصرف عنهم العذاب بعد أن رأوا مقدمات العذاب. لكنه سبحانه ميز قوم يونس عن غيرهم. قال تعالى في سورة يونس: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98) . كما ميز يونس بنفسه من قبل. فيونس من قبل أن يصير رسولا بل لعله لم يكن نبيا بعد بالفعل بل كان نبيا بالقوة، فإنه ظن أن لن يقدر الله تعالى عليه. قال تعالى في سورة الأنبياء: وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) . لا مجال لأن أشرح الواقعة كما أعرفها في هذا المكان ولكن يكفي بأن نعرف بأنه عليه السلام دخل ظلمات العاصفة واحتمل بأنها مقدمات العذاب حيث لا فائدة في التوبة ولكنه تاب وقبل الله تعالى توبته ورفع عنه الغم. أرجو أن يعلم القارئ بأن الله تعالى رفع عنه الغم ولكنه رأى العذاب مؤقتا في قصة غريبة سأشرحها بإذنه تعالى في ما بعد . إنه مرشح للرسالة وحاله كان كحال يوسف في السجن المؤقت حيث قدر الله تعالى أن يبقى عدة سنوات لتتغير بعض أفكاره فيستعد لتلقي رسالة ربه .

لقد تجاسر المعدُّ للرسالة تجاسرا كبيرا على سيد الكائنات حيث لم أجد في القرآن نبيا قام بما قام به يونس فكان عذابه أليما جدا ولكن الله تعالى أعاده إلى الحياة من جديد واكتفى بما رآه من العذاب وبعثه رسولا. ذلك دليل واضح بأنه سبحانه لم يعتبر يونس مجرما مع هول إثمه وفداحة ذنبه. لقد أعطي الفرصة مرة أخرى ليكمل اختباره رسولا إلى قوم من امثاله بالطبع. هذه هي عدالة السماء التي لا تقبل الإفراط ولا تقبل التفريط. إن عدالة الرحمن تقتضي الموازنة بين ما يمنح للممتحَنين وما ينتظره منهم. هذا البحث طويل نمر عليه بسهولة خوفا من الإطناب.

وهنا بحث آخر بأن الله تعالى لا يبعث الرسل إلا لأقوامهم الذين انحدروا منهم كنوح وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام جميعا أو يرسلهم اليهم في الصبا ليتربى الرسول بينهم ويتزوج منهم أحيانا فيصير واحدا منهم كإسماعيل ويوسف وموسى عليهم السلام، فكيف أرسل يونس إلى قوم بعيدين عنه؟ ولنعرف ذلك أولا دعنا نقرأ القصة من سورة الصافات: وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148).

لقد التقمه الحوت فمات دون شك بل تقطعت أوصاله ثم إن الله تعالى بعثه مرة أخرى بأن أدخل نفسه دون بدنه المأكول إلى الأرض كما يفعل بنا قبل يوم القيامة. نبذه بالعراء قبل أن يبرأ من سقمه حتى لا يدخل عالم البرزخ فيستحيل إعادته. ثم أنبت عليه شجرة من يقطين ليخلق لنفسه من خلية اليقطين بدنا حيوانيا يناسب نفسه كما سيكون عليه الناس في العالم الآخر. حوّل هو الخلية النباتية فنبت إنسانا يناسب النفس التي خُلق لها البدن تماما بعكس العملية الأولى عند تكون الجنين في بطن امه حيث يخلق الله تعالى للبدن المتكون نفساً تناسبه. إنها عملية طويلة تحتاج إلى زمان تتجاوز عشرات السنين لأنه نوع من النشوء والارتقاء السريع. هذا هو الفرق بين الإنسان الدنيوي والإنسان نفسه في الآخرة. وهكذا نكون بلا آباء ولا أمهات هناك فلا أنساب بيننا إطلاقا ولنترك الأساطير جانبا. ولذلك حينما أراد الله تعالى ليونس أن يمر بمرحلة مشابهة للمراحل الأخروية في الدنيا بعد أن خسر الجينات الموروثة من أبويه وصنع لنفسه جينات حيوانية سريعة داخل اليقطين فإنه خسر كل ارتباط بالبشر المنحدرين من آدم وحواء فلم يكن له قوم ولم يكن له أقارب بعد ذلك.

هذا البحث نتركه أيضا لوقت آخر ونكتفي هنا ببيان وحدة التعامل مع يونس وقومه لنعرف السر في إرساله إلى اولئك القوم الذين لم يكن ليعرفهم فضلا عن أن يكون منبثقا منهم. لقد آمن يونس حينما رأى الظلمات وآمن قومه حينما رأوا العذاب كما أشارت إليه الآيات التي أوردناها قبل قليل. لا نريد المقارنة مع قوم محمد (صلى الله عليه وآله) لأنهم كانوا في قمة التطور الفكري زمانيا ولكن دعنا نقارنهم بقوم نوح (عليه السلام). ليس في قصة يونس مع قومه أية إشارة إلى التدبر والتفكر وإلى أية مناقشة مع نبيهم كما ليس في القرآن أي حديث عن علم قوم يونس أو احتجاجهم على يونس أو أي اختلاف بينهم كأن يؤمن بعض ويبقى الآخرون في شركهم. لكن قوم نوح مارسوا أنواع الضغط الإعلامي ضد نوح وناقشوه كثيرا كما تحدث نوح معهم عن التطور وعن تشابه الأنظمة الشمسية وقد آمن فريق وبقي فريق في شركهم. كل هذا يدل على أن يونس وقومه لم يكونوا بالمستوى الفكري لبقية الأقوام والقرى الرسالية لكنهم كانوا يشكلون تجمعا قويا سماهم الله تعالى قرية وهي تعني المكان باعتبار ساكنيه القادرين على الاكتفاء الذاتي وعلى ضيافة الغير.

أظن بأن ما قلناه يدل على تمايز طبيعي بين الأمة اليونسية وبين الأمم الرسالية الأخرى. هذا التمايز مرتبط بالقدرات العقلية التي تدل على أن الله تعالى الذي يعمل ضمن نظام الطبيعة التي يملكها جل جلاله، قد حسب الممنوحات لديهم فرآها أقل مما هو لدى غيرهم من الأمم ولذلك خفف عليهم الواجبات والعقوبات تبعا لحقائقهم الذاتية. إن القوة العقلية هي التي تخول الإنسان الكامل للتمييز بين الصحيح والسقيم فكلما تجلت القوة لدى فرد أو أمة كلما ازداد التزامهم فيشتد تبعا لذلك عقابهم إن خالفوا سنن الله تعالى. بالطبع هذا الموضوع ليس بسيطا بل يتطلب بحثا علميا واسعا فنتركه أيضا لزمان آخر ومناسبة أخرى بتوفيق من ربنا الرحيم . لكنني سعيا لإشباع فضول القارئ الكريم أشير إلى بعض الأمور الوجدانية التي يسهل قبولها :

1. إن الله تعالى يخلق الكائنات كلها ضمن نظام الطبيعة فليست الكائنات التي نراها ونعيش معها بما فيها أبداننا صناعات تركيبية كصناعات البشر التي يعالجها الصناعيون ضمن خطوات تحويلية سريعة مستخدمين الحرارة المحددة المصنوعة والتركيب الكيماوي باليد والمعايير وكذلك التفريغ والحمل المتوالي بمساعدة الآلات المصنوعة والمخازن المدروسة المبنية بصورة خاصة وغير ذلك من مستلزمات الصناعة والعلاج الفني .

2. بناء على ذلك ليس الإنسان دمية مصنوعة من مواد أرضية بحتة نفخ الله تعالى فيها النفس الإنسانية فهي حينئذ لا تحمل شخصية ذاتية ولا يمكن وصفها بالسلالة المتطورة عن طريق النشوء والارتقاء .

3. لو كان الإنسان دمية نشطها الله تعالى بالنفس الإنسانية كما تصوره المعروفون برجال الدين اليهود والمسيحيين والمسلمين لكان لزاما وضمن العدالة التي نسميها في الصناعات وحدة المعايير (Standard)، أن نحمل نفوسا متشابهة في الإدراك ونحن لسنا كذلك. ولذلك لا يمكن توظيف مقياس الدزينات وما شابهها لبيان القوة البشرية كما نفعل لبيان القوة الحيوانية. على أن أفراد الحيوانات أيضا تحمل شخصيات مميزة ولكن الإنسان كل إنسان يحمل شخصية فردية لا يشاركه فيها أخوه وأبوه وابنه. الفروق بيننا أكثر بكثير من المشتركات، كما أن الفروق بين أممنا وأقوامنا البشرية أكثر بكثير من مشتركات الأمم البشرية .

4. هذا هو السر في خلافة كل منا بأمر الله تعالى في الأرض. قال تعالى في سورة الشمس: ونفس وما سواها . فكل نفس يسويها الله تعالى مع البدن الذي يختلف عن البدن الآخر كثيرا . والمؤثرات أكثر من أن نعدها ونحصيها وكل فرد بنفسه يتأثر بها بنسب متفاوتة جدا تفوق الحصر فلا نرى بنان أحد يشابه بنان شخص آخر في هذه الأرض التي تستضيف

لكن يوسف بقي في مصر ولم يهاجر ولم ينزل العذاب على أهل مصر. أنا لا أعرف السبب. فهل كان المصريون مسالمين أيام يوسف ولم يعارضوا دعوة رسولهم بل تقبلوه فاستحقوا الرضوان والغفران من ربهم؟ لو كان كذلك، فما بالهم يرفضون دعوة موسى التي فاقت كل الأعراف الرسالية بقوتها فلم يؤمن لموسى إلا السحرة وزوجة الملك ومؤمن آل فرعون وقليل من قوم فرعون.

بلايين الأفراد. وقال تعالى في سورة فاطر: . إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (39).

5. .بناء على ما قلناه نعرف بأن الإصالة هنا للبدن وبأن النفس مقدرة للتعايش مع البدن المختلف ونرى بعد ذلك وجدانا بأن كل إنسان منا يتغير بنفسه طيلة حياته الدنيوية التي نعيشها. لو نمعن في ذلك فسنعرف الفروق الكبيرة بين نفوسنا التي تفوق الفروق البدنية لدينا. والله تعالى يتعامل مع الأبدان لتقضي بها دنيانا ويتعامل مع النفوس ليقيمنا ويوزننا ويعطي كلاً منا حقه العادل في الحياة الأبدية.

6. .فكان ضروريا أن يذكر الله تعالى لنا قصة يونس ليبرهن على عدالته وملاحظته الدقيقة لكل ما منحنا في مقابل ما ينتظره منا من تجاوب. وليقول لنا بأنه لا يمكن أن يعطي أحدا أكثر مما يستحقه ملاحظا حدة الإدراك النفسي عنده كما لا يمكن أن يؤاخذ أحدا بجريرة إلا بعد إجراء كل مقاييس العدالة عليه دون تفريق بين الناس في المنح التي لا يد لهم فيها كالوطن والسلالة والموروثات الدينية والحضارية.

سبحانه من خالق قوي عادل عزيز و يا ليتنا نعرفه ولو قليلا فنفتخر به ربا غفورا رحيما كريما لا ينسانا فلا ننساه ولا يهملنا فنعشقه ولا يقطع رحمته عنا ولو عصيناه فلا نتخلى عن العبودية والرق له لنكون من أنصار الحقيقة ومن محبي العدالة والقسط. نهاية الهامش 74

تحتاج هذه المسألة إلى دراسة علمية عميقة لنتعرف بها على نفسيات إخواننا المصريين آنذاك وأنا لست في صدد ذلك الآن ولعلي لا أملك ما يؤهلني لهذا الأمر، رغم انه جدير بالبحث، كما لا أحب بأن أعزو ترحيبهم بيوسف لأنه نجاهم من الجوع لأنني أحب مصر وأحب أهل مصر.

وصلت قافلة النبوة إلى مصر وفتح يوسف أبوابه أمامها. أعني أبواب مصر بإذن من الله تعالى فهم مجموعة كبيرة قد يتوزعون في مختلف أرجاء بلاد النيل قريبا. وقد شرح الله تعالى الموقف بكل اختصار هكذا:

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ ﴿99﴾

إنني أجهل السبب في أن القرآن الكريم لم يذكر إلا إيواء يوسف لأبويه. فهل لم يحتضن يوسف أولاد إخوانه وبقية الأسرة التي قد تنطوي على بعض الأخوات أيضا إن كانت ليعقوب بعض البنات كما ذكر البعض.

على أي حال فإن دعوة يوسف إلى دخول مصر بسلام وأمان تشمل كل الأسرة المقبلة صغارا وكباراً، نساء ورجالاً.

والإنسان العاقل مثل يوسف يستعمل لفظة: إن شاء الله، حينما يكون الأمان محققا فعلا ولكنه يعزوه إلى مشيئة ربه صيانة له باعتبار أن الأمان الحقيقي بيد الله تعالى وكل ما نفعله نحن قد يكون أسبابا لزوال الأمن لولا مشيئة الرحمن عز اسمه.

لقد أبلغ يوسف الملك وهو ينتظر وصول هذه القافلة الكريمة ويستعد لاستقبال أبوي وزيره المحبوب يوسف وإخوانه.

قال لهم يوسف بأن الملك بانتظارهم وعليهم أن يستعدوا لدخول القصر الفرعوني في أقرب موعد . إن يوسف وزير يدخل على فرعون دون تشريفات ولكن على أسرته أن تمر بكل المراحل التي تسبق تشريفات المثول أمام ملك مصر الكبير.

لقد أضحى القصر الملكي على علم بأن إخوان يوسف عادوا إلى مصر مع أبويه وسوف يحظون باللقاء مع رب القصر الملكي فرعون مصر.

وحينما نتصور الموقف نرى بأن الوزراء عادة ما يسبقون الضيوف في أيام الاستقبال الملكية لاتخاذ أماكنهم الرسمية في الحضرة الفرعونية لتتكامل هيبة الحكم في عيون الآخرين.

حان موعد الزيارة وسبق يوسف أهله لاتخاذ مكانه بين الوزراء . ومما لا ريب فيه أنه أبلغ مسؤولي التشريفات بأن أهله سيزورون الملك في الساعة المعينة أو في الزمان المعين حيث أن الساعات الفعلية لم تكن متوفرة آنذاك.

هناك بروتوكولات رسمية وإعدادات تشريفية للضيوف قبل أن يرفعوهم إلى عرش الملك العظيم. فيوسف الآن في الحضرة الفرعونية جالس في مكانه المخصص له بين الوزراء وأسرته سوف يتحركون في الوقت المحدد باتجاه القصر.

هناك تسهيلات لإيصالهم إلى القصر دون شك. وحينما وصلت الأسرة إلى المدخل الأول من ساحة القصر الفرعوني كان في استقبالهم مأمورو التشريفات الفرعونية ليعلموهم البروتوكول.

أبلغوهم بأن الوزير يوسف سوف يكون قريبا في استقبالهم ليصاحبهم إلى عرش فرعون مصر. هناك بروتوكول لاستقبال وزير فرعون خاصة وهو في قصر الملك وفي الملابس الرسمية في مثل هذه

المناسبات. فحينما يصل الوزير إلى الضيوف فإن المأمورين عادة ما يبلغون الضيوف بوصوله بصوت عال للانتباه.

وحين وصول الوزير على الضيوف أن ينحنوا له احتراما لمصر وملكه الذي يتشرف هو بالوزارة لديه. لا يمكن لمسؤولي التشريفات أن يميزوا بين أب الوزير وغيره لأن الاحترام هو احترام لمصر وليس لشخص الوزير.

هذا هو معنى التشريفات الرسمية. تعلَّمت الأسرةُ كيفيةَ استقبال الوزير المصري كغيرهم من الناس. إن مصر هو أعظم بلد في الأرض وليس لأية مجموعة أي فخر على مصر آنذاك.

وصل الوزير يوسف بملابسه الرسمية أمام أبويه وإخوانه ليرافقهم إلى العرش الملكي فانحنى الجميع طبقا لتعليمات البروتوكول.

انتبه يوسف فورا لرؤياه التي تحققت بأمر الله تعالى في تلك الساعة. نسي يوسف بأنه وزير فرعوني في ملابسه الرسمية الآن ولم يتمالك نفسه ألا يقول لأبيه: يا أبت وهو في مركز الحكم.

انهدمت التشريفات الفرعونية لحظات تأملية ليوسف وأبيه ومن بعدهم إخوان يوسف الذين يرون بعض ما كان يدور بين يعقوب ويوسف من قديم الزمان من أسرار لم يعلموا عنها شيئا.

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿100﴾

انتهت مهمة هذه السورة الكريمة بتحقق الرؤيا وبقيت الحِكَم التي سنعرفها من الآيات التالية بعد هذا المقطع.

لم يكن يوسف ولا يعقوب ليعرفوا قبل ذلك اليوم السر في تلك الرؤيا الغريبة بأن يرى يوسف أبويه وإخوانه يخرون له سجدا .

ومعنى الخر سجدا هو أن ينحنوا برؤوسهم احتراما للشخص الواجب احترامه ثم يستقيموا مرة أخرى ولا شيء غيره كما سنعرف.

والسجود يعني الانكماش ولو قليلا وبالنسبة للإنسان فإن غاية السجود هو السقوط على الأرض كما نفعله أمام ربنا في الصلاة ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك باختيارنا لغير الله تعالى.

كما لا يجوز لنا أن نخضع خضوعا كاملا لمن دونه سبحانه وتعالى فهو الذي يستحق كل خضوع وهي العبادة بعينها . حتى الخضوع في الشكر والخضوع في الطاعة لا يجوز لغير الله تعالى لأنها عبادة حقا .

فالخر سجودا يعني الحركة المضطربة للرأس باتجاه الأسفل للاحترام.

فيعقوب وزوجته أم يوسف لم يسجدا لولدهما كما يظن البعض بل انحنيا احتراما للوزير باعتبار بروتوكول القصر الفرعوني وهو لا ينطوي على الخضوع للفرد أو للولد .

بالطبع أن هذا الاحترام سبق حضورهم أمام الملك والذي لا نعلم عنه شيئًا ولم يذكر لنا القرآن تفصيلا له لعدم أهمية ذلك المجلس بالنسبة لأهداف حكاية صنع بني إسرائيل.

المهم أنهم جميعا زاروا القصر الملكي دون ريب لقوله تعالى: **ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا .**

هناك احتمال أن تكون زيارة الملك خاصا بأبويه باعتبار بداية الآية ولكني أظن ظنا قويا بأن الملك رآهم جميعا إلا أن المقصود هو رفع يوسف لأبويه على العرش الفرعوني إكراما لهما .

ولكن الإخوة جميعا كانوا مدعوين بمعيتهما . تلك هي ضربة أخرى على أنوف إخوانه من غير أمه لعلهم يتورعون عن النيل من شرف يوسف وأخيه وأمهما كما فعلوا من قبل.

ثم بدأ يوسف ببيان إيجابيات الحكاية الطويلة متجاهلا السلبيات أو مارا عليها مرور الكرام. إنه مؤمن طيب لا يتحدث إلا بنعمة ربه ويأبى أن ينشر ما أصابه من أذى في طريقه الى العلياء .

بدأ كما رأينا ببيان تحقق منامه الغريب وانكشاف اللغز الكبير.

كان هو ويعقوب على علم بالمنام ولكنهما لم يعرفا الكيفية التي ستتحقق فيها الرؤيا دون المساس بمعتقداتهما الدينية.

ثم ذكر إحسان الله تعالى إليه في إخراجه من السجن. نعرف من هذا بأن السجن الذي مر به لم يكن أمرا هينا ولم يكن خروجه منه عاديا ولو أنه كان سجنا خاصا .

وعلى الرغم من أن الله تعالى ذكر لنا نوايا العزيز وزوجته ومن معهما على أن يسجنا يوسف لفترة محدودة.

ولقد رأينا بأن الفترة طالت ولم تظهر أية بادرة منهما لإخراجه من السجن. بقي يوسف سجينا لا يدري متى الخلاص حتى جاء وعد الله تعالى.

ولعل يوسف كان فرحا بأن الذي أدخله السجن هو العزيز وزوجته ولكن الذي أخرجه هو ربه. كل المؤمنين يحبون أن يروا الخير من ربهم لا من غير ربهم.

ثم ذكر المكرمة الربانية الثالثة أن جاء بإخوانه من البدو وهي البادية كما يقول علماء اللغة.

لا يمكن الجزم بأن إخوانه كانوا يزورونه لو علموا بأنه يوسف. كان ضروريا ألا يعرفوه كما كان لازما أن يعرفهم يوسف.

لقد نفذ يوسف فيهم بوادر مهمته الكبرى في إنشاء أمة إسرائيل العظمى وإعدادها لاستلام أول وحي سماوي لكل أهل الأرض. هذا التقدير الجميل والحكيم هو من ربه الحكيم العليم سبحانه.

ولا ينسى يوسف أن ينسب السلبيات إلى الشيطان الرجيم إذا ما اضطر إلى ذكرها. لكن هذه السلبية التي أراد منها الشيطان أن يخمد نور النبوة في أولاد يعقوب قد تحولت إلى مدخل ليتبوأ يوسف من الأرض المصرية الخصبة والغنية حيث يشاء وليصل إلى منصب مرموق في قمة المناصب الحكومية.

فهي نية شيطانية بائسة غزاها تقدير رباني حكيم ومفيد نعتبره رابع التقديرات الحكيمة.

بالطبع أن الله تعالى قام بعمله أيضا حيث بلور حقائق قلوب الإخوة وكشف عن مكنونات الضمائر بكل وضوح ولكل أهل يعقوب شيخ بني إسرائيل الحصيف.

فتبينت حقيقة يعقوب العبقرية إضافة إلى حلمه وقوة إيمانه بربه مقابل ضعف نفوس أولاده.

ولا نحتاج إلى أن نكتب المزيد عن جمال التقديرات الربوبية فهو سبحانه كما قال عبده يوسف: **لطيف لما يشاء**. لطيف في ربوبيته وعنايته لعبيده المخلَصين.

ذلك لأنه جل جلاله محيط بالكائنات بعلمه وقوي في حكمته التي يُحكم بها كل تقديراته فلا يمكن أن نرى فيها أي مجال للفساد والخراب أو عدم التجاوب والطاعة فتقديراته لطيفة حكيمة تأخذ طريقها نحو التنفيذ بكل قوة وسلاسة، جل جلاله.

ويستمر يوسف الصديق في بيان نعم ربه الكريم فيقول:

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿101﴾.

يبدأ يوسف ببيان النعمة الخامسة والسادسة ، الأهم فالأهم لا الأقدم فالأقدم. فقد وصل للملك بعد أن تعلم تأويل الأحاديث ولكن نعمة الملك أقل حصولا من نعمة العلم. فالله تعالى أوصله إلى الملك دون أن يسعى له وهذا هو المقصود من الإيتاء .

آتاه الله الملك من منطلق الربوبية هدفا ومنهجا . فربوبية المتعالي اقتضت أن يصل يوسف إلى مرحلة فعالة من القدرة السياسية المعبر عنها بالملك كما أن ربوبيته سارت مع يوسف خطوة خطوة ليصل إلى هدف السماء دون أن يفكر فيه ودون أن يعلم مصيره.

ليس متوقعا أن يصل أحد للسلطة في بلد غريب بعلمه. إنهم عادة ما يتخذون علماء القوميات والمناطق الأخرى كمستشارين فحسب.

ويوسف ليس من بلدهم ولا من قوميتهم وعرقهم ولا من دينهم ويحمل عرقا يبوح به فخرا كما رأيناه أمام صاحبيه في السجن. وكان من ضرورات تسنم ذلك المنصب أن يتعلم تأويل الأحاديث.

إنه ليس مصريا ولا يعرف أسرار اللغة وآداب المجتمع وخبايا المفاهيم والتعابير التي توضح هدف القائل للسامع بما لا يدع له حاجة للاستفسار.

فتأويل الأحاديث ضرورة ملحة لمن يريد أن يرتبط بالأمة. تلك هي اسباب طبيعية للهدف الأسمى الذي من أجله فطر الله تعالى السماوات والأرض ليأتي الإنس والجن ويحيوا في أراضي الكون الوسيع حياة طيبة يؤدون فيها اختبارهم.

وبعد الانتهاء من بيان نعم ربه يختم يوسف حمده لربه بالدعاء لنفسه. خاطب ربه بفاطر السماوات والأرض[75].

أراد يوسف أن يطلب من ربه الدار الآخرة ولكن عليه ألا يستهين بهذه الدار. وإنه على علم بأن ليس هناك من هو أقرب إليه من الله تعالى نفسه ولا أقوى منه ولا أرحم ولا من هو خير منه، سبوح متعالي.

---

[75] ذلك لأنه يريد أن يحمد ربه ويدعوه دعاء يصل إلى النشأة الثانية غير مكتف بهذه الدنيا وقصر مدتها وانعدام الأمان والسلام الحقيقي فيها. لكنه يعلم بأن نصيبه كإنسان أتى به ربه هنا للاختبار هو قليل من خيرات الدنيا.

يريد يوسف أن يعترف بأن النشأة التي خلقها الله تعالى والتي نحن ننعم في ظلالها اليوم ليست صغيرة أو قصيرة. ولذلك وليكمل حمد ربه فلا يستهين بخلقه، سماه فاطر السماوات والأرض.

هذا التعبير يشير إلى الانفطار الأول الذي بدأ الله تعالى بها الخلق قبل أن يكون هناك شيء غيره في الوجود. كان ذلك دون شك تفجيرا نوريا أو طاقويا مهيبا لا يمكن لنا إدراك جزئياته إذ لا وجود لخلق مدرك آنذاك ولا وجود لمكان ولا زمان.

ذلك الانفطار العظيم الذي خلق الله تعالى به بحارا عظيمة من المواد الكيماوية التي توسعت بسرعة خيالية لتصنع لنا الفضاء كما يبدو. هذه أهم مسألة في الخلق ويشير إليها سبحانه في سورة ق هكذا:

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15).

ويشير إليها سبحانه في سورة الروم:

الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27).

فالخلق الأول باعتبار انعدام المادة والفضاء هو أهم من إعادة الخلق لإنشاء الكون الأبدي بعد انهدام هذا الكون الفعلي. نهاية الهامش 75.

ولذلك خاطب ربه أمام أقرب الناس إليه قائلا: أنت وليي في الدنيا والآخرة. والولي تعني القريب الذي يفيد المرء، فكأنه يقول لوالديه وإخوانه: أحبكم ولكني أفضل أن لا أطلب من غير ربي شيئا . إنه خير لي منكم جميعا .

تلك هي صفة حميدة في رأي يعقوب ولكنها ضربة أخرى في وجه إخوانه الذين يؤمنون كثيرا بالحياة الدنيا ويهتمون بها وبزخرفها .

وقد لاحظ الإخوة بأن الذي ساعد يوسف هو الله تعالى وليس أبواه واعترفوا أمامه من قبل بأن الله قد آثره عليهم وبأنهم هم الذين أرادوا له الضر والشر. وأنا أضيف على قولهم بأنهم سعوا ضده وضد أخيه حتى آخر لحظة وآخر حول وقوة. هكذا يتعامل بنو إسرائيل عادة مع غيرهم ولا يمكن أن ينصاعوا للحق ولا يفيدهم إلا القوة ولكن لا يفيد استعمال القوة ضدهم بل من الواضح أنهم يخافون، فيكفي إدخال الرعب في قلوبهم إن تمردوا، أو استمالتهم بالأمل إن أحسنوا . إنهم ليسوا لؤماء ولكنهم يحملون صفات غير محمودة.

ويعلم يوسف أيضا بأن الاختبار مصاحب للمرء مادام يعيش الحياة الدنيا فهو دائما في خطر أن يخسر حالة التسليم للجبار ولذلك طلب من ربه أن يتوفاه مسلما .

ومن البديهي أن آخر اختبار هو المعيار الأساسي للحكم على نفسية الإنسان. إن المرء في صباه قد يسهو ويخطئ ويأتي بالموبقات تحت مختلف الضغوط ولكنه وكلما يزداد أشهراً وسنين من العمر فإنه يزداد بلوغا لأشده المعرفي والعقلي وتزداد معه حقيقة ماهيته في الظهور. فالخير والحظ السعيد لمن يسعد في أواخر عمره حتى الذي أخطأ في مقتبل العمر.

والتوفي يعني استرجاع أمانة الإرادة الممنوحة لنا لغرض الاختبار في الدنيا . فالذي يتوفاه الله مسلما هو الذي يسلم أمره إلى الله تعالى في حياته الدنيا ولو كان مستمرا في العيش[76] .

[76] هكذا اعتبر الله تعالى الذين قتلوا في سبيل الله أحياء لأنهم سلموا إرادتهم إلى ربهم قبل أن يخوضوا المعركة مع أعداء الله تعالى. هذه حالة خاصة بهم ولا يشاركهم فيها أحد حتى الأنبياء الكرام. لكن الله تعالى علم أنبياءه ومن يريد أن يعيش حياتهم بأن يوكلوا أمرهم إلى الله تعالى. قال سبحانه في سورة المزمل:

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9) .

وقال في بداية الأحزاب وأمره الكريم هناك يفيد الجميع برأيي:

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (3) .

إن اتباع القرآن بالنسبة لنا نحن المسلمون وترك غيره من الأحكام هو الدليل الواضح على توكلنا على الله تعالى وعلى أحكامه التي أنزلها بعلمه وهو أسهل السبل لأن يتوفانا مسلمين له وحده دون غيره.

أما التشبث بأي كائن غير الله تعالى فهو لعب بالنار واتكاء على الظنون والأوهام التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان.

لكن الاهتمام بغير القرآن دليل واضح على عدم قناعة المرء بتنزيل السماء وكأنه يظن بأن الله تعالى أهمل أو نسي بعض الضروريات التشريعية. حاشاه سبحانه فنحن لا نحتاج إلى أكثر من هذا الكتاب وبعض السنن التي ورثناها من أعمال آبائنا مثل الصلوات والحج وهم تعلموها من الصحابة والرسول ومن مواريث إبراهيم العملية.

وما زاد على ذلك من مستجدات الأحكام فمرجعها الحقيقي الى برلماناتنا ومجامعنا الوطنية والمحلية وليس كتب التراث البائدة التي لا قيمة لها في ميزان التطور العلمي الذي نلمسه بفضل من الله تعالى.

وجدير بأن نعلم أن نتيجة التسليم إلى الله تعالى هو أن يعيش المسلم بوجهه مع الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء الذين يلحقهم الله تعالى جميعا بالصالحين في يوم القيامة. قال سبحانه موضحا حال إبراهيم شيخ الأنبياء الذين أتوا من بعده كما في سورة النحل:

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) .

وقال تعالى في سورة البقرة:

دعنا ننتقل الان إلى القسم الأخير من السورة الذي ينطوي على الحكم والعبر الربانية وسنشرح كلمتي الخر والنزغ أو نزغ الشيطان الواردتين في الآية المكملة للمائة أعلاه[77].

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) .

وقال سبحانه في سورة العنكبوت:

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27) .

فنعرف من تلك الآيات أهمية دعاء يوسف ونعرف بأن الالتحاق بالصالحين ليس أمرا سهلا كما يتراءى للسذج من الناس.

إن منية المرسلين ومنية نبينا أن يجعلهم الله تعالى من الصالحين يوم القيامة فنعرف من كل ذلك أيضا بأن ما يظنه البعض من كرامات ووساطات لبعض الأنبياء أو غيرهم يوم القيامة لهو وهْم لا أساس له من الواقع. فنبينا يسعى ليتبع ملة إبراهيم حتى يكون بنفسه من الصالحين يوم القيامة. هذا هو الحق من ربنا وماذا بعد الحق إلا الضلال المبين. نهاية الهامش 76 .

[77] حتى نعلم معنى الخر سجدا فإننا نستنجد بالقرآن نفسه. ولأهمية الموضوع فإني أذكر بعض أقوال أرباب اللغة وأناقشها .

قال الراغب في مفردات ألفاظ القرآن: فمعنى خر سقط سقوطا يسمع منه خرير، والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو.

وقال ابن منظور في لسان العرب: الخَرِيرُ: صوت الماء والريح والعُقاب إذا حَفَّتْ. ثم أضاف التالي: وخَرَّ الحَجَرُ يَخُرُّ خُرُوراً: صَوَّتَ في انحداره.

وقال ابن فارس في مقاييس اللغة: الخاء والراء أصلٌ واحدٌ، وهو اضطرابٌ وسُقوطٌ مع صوتٍ.

لكن الجوهري لم يربط الصوت بالسقوط في صحاحه فقال: الخَرِيرُ: صوت الماء. ثم أضاف: وخَرَّ لله ساجداً يَخِرُّ خُروراً، أي سَقَط. فهو يفرق بين صوت الماء الذي ذكره كأول معنى ثم يعطي معنى ثانيا هو السقوط بغض النظر عن اقتران السقوط بالصوت.

وأما القرآن الكريم فلا يذكر الكلمة بمعنى الصوت فضلا عن صوت الماء . وقد استند الراغب رحمه الله تعالى في مفرداته على الآية التالية لإثبات الصوت في إحدى مكررات الخرير الإثني عشر في الكتاب العزيز فقال: وقوله تعالى: خروا سجدا [السجدة/15]، فاستعمال الخر تنبيه على اجتماع أمرين: السقوط، وحصول الصوت منهم بالتسبيح، وقوله من بعده: وسبحوا بحمد ربهم [السجدة/15]، فتنبيه أن ذلك الخرير كان تسبيحا بحمد الله لا بشيء آخر. انتهى كلام الراغب.

وسأبدأ بالرد على الراغب في سعيه لإثبات الخرير الصوتي من القرآن. قال تعالى في سورة الفرقان 73: وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَانا .

فهل يمكن أن نفسر جملة خر عليه صما بأنه أخرج صوتاً حينما مر على آية من آيات ربه؟ ولو قلنا ذلك جدلا فما نفعل بمعنى العمى المعطوف عليه؟ فقول الراغب في هذا الصدد لا يتجاوز الوهم برأيي. ثم إنه تعالى يقول في سورة الحج 31:

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ الطير أَوْ تَهْوِي بِهِ الريحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ.

فالذي يخر من السماء ليركب على جناح الريح أو الطير فهو لا يسقط على الأرض ولا يصدر منه صوت.

وأما تفسير الراغب بأن الخرير يقال لصوت الماء والريح مما يسقط من علو فهو غير دقيق. ذلك لأن الخرير هو صوت الماء بغض النظر عن سقوطه من علو أو سرعة جريانه في الجداول بحيث يصدر منه صوت أو أي حالة أخرى من حالات الطَّرْق المحدث للصوت ولو بالوسائل الميكانيكية الحديثة.

فلو سمعنا صوتا من الماء فهل علينا أن نتأكد من أنه يسقط من علو لنسميه الخرير أم أننا نقول سمعنا خرير الماء بدون النظر إلى مصدره؟ لو كان ذلك لما جاز للأعمى أن يسمي صوت خرير الماء خريرا .

وأما قول ابن منظور فهو أكثر صحة من قول الراغب الإصفهاني. لكنه غير دقيق أيضا . فلو انحدرت صخرة دون أن تصوت فهلا نقول لها قد خرت الصخرة؟ أو أن إنسانا خر على اسفنجة ناعمة بدون أن نسمع له صوتا فهلا يجوز أن نصف سقوطه بالخر لأننا لم نسمع منه صوتا ؟

أما زكريا الرازي في المقاييس فقد خلط بين الاضطراب والسقوط مع الصوت. ولا أدري هل يقصد الاضطراب مع الصوت أيضا وأظن بأنه يقصد ذلك فعلا.

إنه يعتبر الخاء والراء أصلا واحدا لا أصلين. لعله أراد أن يجمع بين الخرير الصادر من اضطراب الماء مع سقوط الجسم الصلب من الأعلى الذي يكون عادة مقرونا بالصوت. وعلى أي حال فإضافة الصوت إلى السقوط ليس دقيقا برأيي ولا أثر له في القرآن على الرغم من تكرار الجذر 12 مرة.

وقد تعجبت من قول المحقق الراغب في استناده إلى آية السجدة 15 وهي هكذا:

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّداً وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ.

فالتسبيح معطوف على خرهم سجدا كأنهم أتوا بفعل التسبيح بعد خرهم سجدا ولا نعرف هل هو تلفظ باللسان أم خضوع بالجنان؟ والتسبيح في حقيقته لا يمكن أن يتمثل لسانيا إلا في حدود الاعتراف بتنزيه الله تعالى أمام الناس للتدريب أو لإثبات المعية وتكوين الأمة المتوحدة. لكن حقيقة التسبيح هو الخضوع القلبي لله تعالى وامتثال أوامره ولا ارتباط له بما يخرج من لساننا من كلمات.

نرى الجبابرة اليوم وحينما يسمعون ذكر الله تعالى فإنهم يسبحونه باللسان وهم في أكبر حالات الاستكبار واستضعاف الآخرين. كما أن الله تعالى يعتبر تجاوب الكائنات مع أوامره تسبيحا وهن لا يتكلمن. قال تعالى في سورة الإسراء:

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44).

فكل الكائنات تسبح بحمد الله وليس كلها تستعمل الألفاظ، بل لعل كلها لا تتكلم ولا تستعمل مخارج الحروف إلا الإنسان.

وأما ما نعرفه من القرآن الكريم فبالإضافة إلى ما قلته فإننا نقرأ في سورة الأعراف الآية 143 بأن موسى خر صعقا بعد أن دمر الله تعالى الجبل العظيم. لنتصور صوت الجبل المهيب وهو يتهشم ونفكر في صوت سقوط موسى صعقا.

ليس هناك أي تأثير لهذا الصوت ولا معنى للاهتمام به. كان أجدر أن يقول الله تعالى إذن وسقط موسى صعقا. لكنه لم يقل ذلك بل قال: وخر موسى صعقا. لقد فقد موسى وعيه وتماسكه تماما فمال إلى الأرض مصعوقا وهو ما يريد القرآن ذكره. إنه لم يسقط من علو بل مال بجنبه احتمالا إلى الأرض ولعل الميلان تم بصورة تدريجية نسبيا فلا صوت حتى مع تجاهل صوت تهشم الجبل. وقال تعالى في سورة النحل 26:

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ.

هذه الآية للتمثيل ولا تقص علينا قصة حقيقية كما يبدو. المهم أن يعرف المشركون بأن الله تعالى قد يمكر بهم فيدمر كيانهم بتدمير قواعده، ولا ضرورة للحديث عن الصوت وغير الصوت. المقصود ميلان السقف على رؤوس أصحابه دون أن يشعروا فالصمت خير من الصوت لعدم الإشعار.

وأما قوله الكريم في سورة الإسراء:

قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (108) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109).

لعلنا نفسر الخر بأنه الاضطراب الذي وصل إليه صاحب المقاييس ولكن بدون الصوت، ولعله بدون السقوط أيضاً . يكفي أن يصاحب الميلانُ الاضطرابَ ليتحقق الخرّ .

فمن الواضح أن العلماء الحقيقيين يخرون سجدا للأذقان وهو انحناء الرأس حتى الذقن إلى الصدر كمقدمة للبكاء . فالخر ساجدا هنا هو مشابه لخر أهل يوسف ساجدين وهو هز الرأس باتجاه الصدر برأيي والعلم عند الله تعالى. هذا الخر لا صوت فيه ولا معنى لإقرانه بالصوت إلا إذا أردنا إرضاء علماء اللغة تكريما لهم! ومثلها الآية 58 من سورة مريم.

ونقرأ من الآية 24 من سورة ص أكبر تأييد لعدم اقتران الخر بالصوت وذلك لأن الخر هناك مسبوق بالركوع لا بالسجود:

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ.

وقال تعالى في سورة مريم: 90:

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدّاً .

فلو فسرنا الهد بالسقوط فتكون الكلمة مكررة بدون إضافة معنى حيث أن الخر عندهم تعني السقوط. ولو فسرنا الهد بصوت السقوط فتعني بأن الخر لا يدل على الصوت وأراد الله تعالى أن يضيف الصوت إلى السقوط فأضاف الهد .

بقي أن نتحدث قليلا عن الآية 14 من سورة سبأ:

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَآبَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ.

يفسرون المنسأة بالعصا أو بعصا الرعاة الكبيرة الغليظة. فسيكون المعنى حسب رأيهم بأن سليمان كان متكئا على عصاه فمات دون أن يسقط. ثم جاءت الأرضة واجتمعت على أكل أسفل العصا حتى سقطت العصا وسقط معها سليمان.

دعنا نتصور المدة اللازمة للأرضة حتى تجتمع وتأكل أسفل العصا والتي قد تربو على أسابيع وأشهر. وفي هذه المدة يتلاشى بدن الميت ويتبخر أكثر الرطوبة الموجودة فيه فيتناقص وزنه كثيرا ولا يمكن أن يحدث سقوطه أي صوت. فكيف يمكن تفسير الخر بالسقوط مع الصوت في هذه الآية الكريمة؟ وليكن واضحا بأن تفسيرهم لهذه الآية غير دقيق وينطوي على كثير من الإشكالات العلمية.

نستخلص مما مضى بأن القرآن لم يذكر الخر للسقوط مع الصوت كما يبدو. نهاية الهامش 77.

وعلى هذا فسيكون خرير الماء باعتبار اضطراب الماء وتمايله على جوانب تجمعه مما يحدث صوتا بصورة طبيعية.

فالخرير بمعنى صوت الماء ليس أصلا ولكنه مستعار ثم استعير لصوت النمر النائم لشبه بينه وبين صوت خرير الماء أو لاضطراب شعيرات أنفه إن كان في أنفه شعيرات وهلم جرا.

بعد أن فهمنا قليلا عن الخرّ يعترضنا في النص أن الشيطان ينزغ بين يوسف وإخوته ليفسد بينهم فتحمل الأخوة نتيجة هذا الفساد ذلكَ الإثم الذي حملهم على الإصرار على الكذب والظلم مدة طويلة بعد أن قاموا بتنفيذ مؤامرتهم البشعة ضد أخيهم الصغير المحتاج إلى محبتهم ورعايتهم[78].

---

[78] النزغ كما يقول اللغويون: هو الدخول بين شخصين أو في شيء بنية الإفساد. ولقد استعمل القرآن الكريم الكلمة لمنع الناس من أن يظنوا السوء في إخوانهم وليحملوا ما يرونه منهم محملاً طيبا ليرتاحوا نفسيا. قال تعالى في سورة الأعراف:

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (201) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ (202).

فحينما يسمع المرء من أهله وأحبابه ما يسيئه فإن الشيطان ينشط حينئذ ليفسد قلبه ضدهم. وعلاجه أن يترك الناس وساوس الشيطان ويحسنوا إلى أهليهم. قال تعالى في سورة فصلت:

وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36).

وقال في سورة الإسراء 53:

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً.

فالشيطان أفسد بين إخوة يوسف كما أفسد بينهم وبين قلوبهم وكان عليهم أن يستعيذوا بالله من اللعين الرجيم ويتركوا الأفكار الشيطانية لئلا يصابوا بالإثم العظيم. نهاية الهامش 78.

ولطالما رأينا بعض بني إسرائيل اليوم يسرحون وراء الشياطين حتى يقعوا في الحفر التي بنوها لإخوانهم من البشر. وهل يتورعون عن الفساد والنزغ بين الناس بمساعدة شياطينهم أم يستمرون في غيهم وضلالهم؟ نتمنى لهم أن يتركوا أفكارهم الشيطانية ويعلموا بأنهم بشر مثل بقية الناس فيعيشوا مع الآخرين بسلام وأمان حتى يقضي الله تعالى بينهم.

ماذا بعد

ماذا بعد ؟

ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿102﴾.

يظن الكثيرون بأن رسول الله عليه السلام كان يعلم كل قصص الأنبياء ولذلك فإنهم ينسبون القصص اليهودية أو يختلقون قصصا جديدة وينسبونها إليه عليه السلام لتكتسب القصة رونقها ويكون القَصّاص مورد المكرمات الملكية كما يشتري الأثرياء كتبه ومحرراته[79].

---

[79] ليس في القرآن أي دليل على أن الله تعالى كان يوحي إلى الرسول قصصا للأنبياء خارج نطاق القرآن الكريم ولا يُعقل ذلك. إن قصص الأنبياء أكثر عبرة للناس عامة من أن تكون عبرة للأنبياء أنفسهم.

إن رسولنا يتحلى بالكثير من صفات يوسف ويعقوب ومن سبقهم ومن لحق بهم من سلسلة النبوة الكريمة، ولكننا نحن العامة فاقدون للكثير من تلك الصفات الطيبة ولا نطمئن بها حتى نسمع قصصهم. فقصص الأنبياء أكثر عبرة لغير الأنبياء. وأما قول البعض بأن الرسول كان يحتاج إلى أن يعلم قصص السلف من إخوانه ليحتج بها على مخالفيه فهو كلام غير منطقي.

إن الله تعالى يرد على كل إشكالات الذين خالفوا رسولنا في القرآن ولم يترك المجال لنبينا أن يرد على إشكالات المخالفين من معلوماته الشخصية. إن الله تعالى هو الذي بنى الدين الجديد والرسول هو الذي استلم المسائل واحدة تلو الأخرى من العليم الحكيم وأبلغها أصحابه.

هناك فرق بين وحي التوراة ووحي القرآن. التوراة عبارة عن مجموعة ألواح تسلمها موسى من ربه دفعة واحدة في التكليم الثاني والأخير من الله تعالى، وأما بقية أعمال موسى فكانت بوحي ليعمل شيئا ما دون أن يصاحب الوحي آيات وجمل مكتوبة كما يظهر من قصص موسى في القرآن.

وليس لرسولنا أي وحي من النوع الثاني بل كل وحيه هو القرآن الكريم.

هناك قصة واحدة تدل على أن الله تعالى نبأ نبينا موضوعا شخصيا يخص حياته مع أزواجه والقرآن لم يهمله كما أن هناك مناما رآه الرسول في إحدى حروبه ولا غيرهما كما أظن. والله تعالى نقل لنا الأمرين لنستيقن بأن الرسول الخاتم كان مأمورا أن يبلغ كل ما يتسلمه من ربه.

والواقع أن كل ما ينزله الله تعالى من علم على الرسل فهو للناس عامة. قال تعالى في نهاية سورة الجن:

عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلاّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (27) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (28) .

وبما أن رسولنا جاء بما هو عام لصحابته ولمن لم يأتوا بعده، ولا نبي بعده فكان من الضروري أن يتولى اللهُ تعالى – الذي يعلم السر والغيب – كلَّ المسائل التشريعية والعلمية والتبشيرية والحكم والعبر بنفسه. وليس بيدنا مدونة ألفها رسول الله عليه السلام أو أحد من صحابته.

في الواقع، إن تراثهم العلمي محصور بالقرآن وهو كتاب الله تعالى لهم ولنا . والآية الكريمة بصدد بيان عدم إمكانية أن يكون بشر مطلعا على ما حصل قبل آلاف السنين ولا سيما أن الكثير من المسائل كانت وراء الجدران المغلقة كما فعله إخوان يوسف وهم يمكرون ضد أسرتهم سواء قبل إقناع أبيهم بأخذ يوسف معهم للرتع أو قبل أن يُجمعوا أمرهم لإنزاله في الجب. كل ذلك غيب لم يعلمه يعقوب الذي كان نبيا عظيما حاضرا فكيف يعلمه نبينا الذي لم يولد بعد .

وقوله تعالى: ذلك، إشارة إلى بداية السورة الكريمة وتوصيفه قصة يوسف بأحسن القصص. فاعتبرها سبحانه نبأ باعتبار أهميتها . قال الراغب في المفردات: النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، وحق الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب، كالتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبي عليه الصلاة والسلام، ولتضمن النبإ معنى الخبر يقال: أنبأته بكذا كقولك: أخبرته بكذا، ولتضمنه معنى العلم قيل: أنبأته كذا، كقولك: أعلمته كذا. انتهى كلام الراغب.

وقد أضاف الله تعالى هذا النبأ الهام بالغيب وأثبت ذلك بأنه يتضمن مسائل لا يمكن لأحد غير عالم الغيب سبحانه أن يطلع عليها .

وقد عرفنا بان القصة ليست قصة مسلية فحسب بل هي مجموعة من العبر وهي قصة بناء أسرة مهمة في الأرض لحمل أول كتاب سماوي للجن والإنس وكيف مهد الله تعالى للهجرة الإسرائيلية إلى أرض مصر ليتعلموا ويتفقهوا ويستفيدوا من الحضارات الكبرى للبشرية قبل أن يتصدوا لحمل الرسالة. وحتى نطلع على أهميتهم نقرأ هذه الآية من سورة الأنبياء:

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73) .

ونشفعها بالآية التالية من سورة السجدة:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (23) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25) .

الآية الكريمة مقدمة ليعلم الرسول بأن ايمان من يؤمن غير منوط بنشاط الرسول أو حرصه على أن يؤمنوا .

يعقوب نبي كبير مثل نبينا وقد حرص أشد الحرص على أن يؤمن أولاده، ولم نعلم بأن الله تعالى قد تقبلهم في النهاية مؤمنين صالحين أم أنهم من أصحاب النار؟ فقال له سبحانه:

ولعلنا نعرف الآن بأن السر في ذكر الله تعالى نبأ مكر أبناء يعقوب، وهو فعل شائن بعيد عن روح النبوة والهدى وإمامة الناس، هو أن الله تعالى لا ينظر إلى عاجل فعل الإنسان كما ينظر إلى الإمكانات التي ينطوي عليها المرء فينميها ويساعد صاحبها على تجاوز أخطائه ليتغير ويتطور ويأخذ طريق الخير ويترك سبل الشر والمكر. هؤلاء الماكرون هم آباء الأنبياء الذين جعلهم الله تعالى أئمة يهدون بأمر ربهم.

ولعل القارئ يعلم بأن المكر نفسه دليل على قوة العقل، ولكن صاحبه لم يوجه عقله التوجيه الصحيح فصار يستعمل تلك القوة المفيدة في طريق الباطل.

والله تعالى لم يواجه بني اسرائيل مواجهة قاسية، بل ساعدهم وساعد نسلهم ليعملوا الخير فخلفوا بشرا قادرين على حمل وحي السماء. فعلينا ألا نحكم على الأفراد بمجرد أن نرى منهم خطأ بل نساعدهم ليتجاوزوا ذلك ونسعى لاستكشاف مشاكلهم فنعينهم على حلها لينقلبوا بشرا مفيدين بعد أن كانوا أناسا غير صالحين.

لقد انتبهت بعض الحكومات والمؤسسات الإنسانية منذ الثورة الصناعية في أوروبا لهذه الحقيقة فاستفادوا من إمكاناتهم البشرية. ولكن بعض الشعوب ومنها بعض العرب وبعض الشعوب الإسلامية لا زالوا يتبعون الشهوات ويتخلون عن عقولهم وشبابهم المفكر. ألا ينظر هؤلاء بأن الكثير من ذوي الألباب من بينهم قد تخلوا عن أوطانهم وصاروا يخدمون الشعوب الأخرى؟ ألم يكن حريا بهم أن يصونوا أبناءهم الذين قدر الله تعالى لهم أن ينجبوهم ليعيشوا بينهم فيساعدوهم على مواصلة الركب الحاضر الذي ابتعدوا عنه بشائن تصرفاتهم المخزية مع بالغ الأسف؟ ألا ينظر بنو جلدتي إلى تقدم الشرق والغرب من شمال الأرض وجنوبها وبقاء أمتنا على ذكر الأمجاد البالية واتباع الأساطير الكاذبة؟ إلى الله المشتكى. نهاية الهامش 79.

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿103﴾.

فالذي يريد الرحمن أن يهديه يجعل قلبه متقبلا للحقيقة فيستفيد من دعوة الرسول ويتعلم من رسالته ومن لا يريد الله تعالى أن يهديه لعدم استحقاقه فإن الرسول قد يؤذي نفسه دون جدوى. والله تعالى يعلم بأن أكثر الناس لا يؤمنون حقا.

القصة التي قصها سبحانه على رسوله وعلينا تشتمل على أدوار اشترك فيها نبيان أب و إبن وأحد عشر شخصا.

يمكن أن نلخص النتيجة الإيمانية بأن النبيَّين وابناً صغيراً كانوا من المؤمنين إضافة إلى الابن الأكبر مع تردده. والتسعة الباقون لم يكونوا من المؤمنين حقا فهم ثلثا المجموعة التي تمثل أسرة نبوية واحدة. ذلك مع احتفاظهم بمواريثهم العائلية واهتمامهم بها فكيف بالغرباء البعيدين عن تعليمات السماء.

لكن كل هذه المجموعة تصلي وتصوم وتتظاهر بالدين وتؤمن حقيقة بالله تعالى، إلا أن واقعهم مغاير لظاهرهم. هذه حقيقة إخواننا البشر مع الأسف[80]. إن الذين لا يريدون أن يؤمنوا يعرضون في العادة عن

---

[80] يكمل الله تعالى بيانه لحقيقة حاضري الرسالات الذين يُعتبرون نماذج لكل البشر بذكر ثلاثة مسائل مهمة جدا لبيان تكامل الدعوة النموذجية وبأن المشكلة تكمن في نفسيات المدعوين وليست في عناصر الدعوة. والمسائل هي:

1. لم تظهر من الرسول محمد (ص) أية علامات تدل على أنه يحمل هموما دنيوية يريد بدعوته أن يتوصل إليها. على أنه كان يعلم الناس ويبين لهم حقائق لم يعرفوها من قبل، كما أنه بنى لهم كيانا وتجمعا نظيفا ليتمكنوا من إبراز قدراتهم الفنية والبدنية والعقلية بكل حرية. وقد رأوا بأن الرسول لا ينتظر منهم أجرا ولا يستهدف مرامي مستقبلية له ولأسرته.

بالطبع أن ما يذكره المؤرخون من خارج القرآن من دعوة الرسول لأهل بيته فهو غير مشفوع بدليل قرآني ولا يمكن التعويل عليه بل يجب رده ورفضه لأنه يخالف نص القرآن كما يخالف العقل والإنصاف.

حتى زواج الرسول لم يكن بقصد التمتع الجنسي أو التكاثر. كان لرسول الله زوجة واحدة أنجب منها ابنة واحدة هي فاطمة وينص القرآن على عدم وجود أبناء له كما يمكن الاستنتاج من عدم وجود بنات للنبي غيرها.

الانبياء ولا يهتمون بهم بل يطالبون النبي محمد عليه السلام بمعاجز كما كان لموسى وعيسى. بينما الأمر بيد الله تعالى وهو الذي يقرر ذلك وحسب ما تقتضيه الضرورات التي يراها سبحانه.

والنبي على كل حال يقوم بدوره دون أن يكترث لهذه الامور ودون أن يقصر في أداء رسالته وأما مسألة الآيات التي تعين على دفع الناس إلى الإيمان فموكولة إلى الله تعالى. هذا ما نفهمه من الآيتين التاليتين:

وقد عاش مع مجموعة من النساء في بيت صغير يضم غرفا صغيرة لكل واحدة منهن. فهو ليس بيت المتعة الزوجية بل هو بيت العلم وتلاوة آيات الله تعالى والحكمة كما يقوله القرآن لا كما يفتري المؤلفون المدفوع لهم من السلطات العباسية الآثمة وغيرهم من الملوك الجبابرة المجرمين.

2. لم تكن الدعوة خاصة بأهل النبي أو بقريش أو بأهل مكة والحجاز بل كانت عامة لكل البشر والجن باعتبار أنها دعوة من رب العباد لعبيده والرسول ليس إلا ناقلا للدعوة. وكان الرسول الأمين أول المسلمين والعاملين بأوامر القرآن الكريم.

هذا الأمر كان متجليا للجميع ولم يتهمه أحد من الحاضرين بأنه يطلب سلطانا له أو لخاصته. كان يستقبل كل من يأتي، ولو أنه خصص وقتا لمجموعة قوية ليدعوهم وداهمه شخص عادي وأراد الرسول أن يتعامل مع القادم بالقانون وبأن الحق لغيره في هذا الوقت جاءه التقريع من ربه بأنه عبس وتولى أن جاءه الأعمى. رسالة عامة لمن يريد أن يتذكر دون تفريق ودون ملاحظة للمصالح القومية والعامة فضلا عن المصالح الشخصية والأسرية. هي دعوة الله تعالى لعبيده، والرسول لا يتجاوز أن يكون بشيرا ونذيرا.

3. لم يكن نبينا حاملا لأية قوة إعجازية كما كان عليه موسى وعيسى فلم تظهر على يده أية معجزة بنص القرآن. بالطبع أن المحدثين يذكرون معاجز ليس لنا إلا رفضها لقوله تعالى في سورة الأنعام:

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36).

لكن الصحابة رأوا آيات أخرى من الله تعالى مثل القرآن نفسه وما رأوه من نصر في بدر وغيره وكذلك توسع الدعوة بصورة غير عادية وغير متوقعة وما إلى ذلك من آيات عامة لا تدخل في نطاق المعاجز النبوية. نهاية الهامش 80.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿104﴾ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿105﴾ .

الآيتان تشيران إلى تأكيد من الله تعالى بأنّ الرسول كان يدعو الكل دون تميز في التعامل فهو لا ينتظر أجرا أبدا[81].

[81] كان الرسول لا يسأل أحدا علما أو أخبارا بل كان مصدره الوحيد هو الوحي والقرآن وكان الوحي عنده مستمرا طيلة سني الدعوة وفي كل مناسبة ضرورية. أما حروبه فكانت دفاعية ولم يقم بغزوات كما ذكر المؤرخون زورا وبهتانا . حتى فتح مكة لم يكن غزوا بل دخلها لينجي أهلها من المشركين وطهرها من الأوثان ثم خرج منها إلى مدينته الجديدة يثرب.

كانت مكة وطنه الأصلي ولكنه استوطن بلدة أخرى ولم يعد إلى مكة مواطنا بل نظفها وأعادها إلى أهلها ولم يطالب أحدا بجزية أو غنيمة.

يقولون بأنه عليه السلام أعاد مفاتيح الكعبة إلى نفس الشخص الذي كان يديرها من قبل المشركين قبل أن يعلن الشخص إسلامه كما يبدو. ففتح مكة كان لأهل مكة أكثر من أن يكسب النبي شيئا منه. إنه فتح مكة لكل البشر كما يريد الله تعالى، ودعا الناس جميعا إلى الحج فأتى بالخير والمال لأهل مكة.

الصحابي في منطق القرآن هو كل من حضر الرسالة سواء آمن أو لم يؤمن. ولم نسمع أن كان للمؤمنين من الصحابة كتاب آخر غير القرآن أو مرجع علمي غير هذا الكتاب الذي نتشرف به اليوم وسيبقى بإذن الله تعالى داعيا إلى الحق حتى تنتهي الحياة البشرية في هذا الكوكب.

هذا الكتاب لم يُطبع لقاء مال للرسول و لم يطالب أحد بحق النشر والتوزيع من الناشرين أو الطابعين. فليس للنبي ولا لصحابته أو أسرته الشخصية أي عائد من القرآن.

ولو نقرأ القرآن بعناية فإننا لا نرى فيه أية إشارة بأنه كتاب المسلمين إطلاقا . حتى الجن شركاء مع المسلمين في التمتع بمزايا القرآن وهناك سور مشتركة بيننا وبينهم مثل سورتي الأنعام والرحمن.

لم يطالب أحد طيلة تاريخ المسلمين أحدا بأجر مقابل تفسيره أو التنفع به أبدا وليس بمقدور أحد أن يدعي مالكية القرآن أو يمنع الغير من الاستفادة منه بالشكل الذي يريده. وليس للمسلمين الأوائل كتاب آخر كما لم يقم الرسول بكتابة أي شيء باسمه، ولم يدون المحيطون به كتبا يتنفعون بها .

ثم إن الرسول لم يعين موظفين أو أصحاب ملابس وألقاب خاصة لإمامة المساجد أو لجمع الزكوات والنذورات والحقوق الموسومة بالشرعية. لم يكن للرسول خزينة خاصة. حتى غنائم الحرب كانت توزع على المشتركين بالسوية فأين أجر الرسول؟ كان عليه السلام يعيش على الصدقات من قومه وصحابته بنص القرآن. قال تعالى في سورة التوبة:

وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (99) وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (101) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (102) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104).

كانت الصدقات له ولغيره وليست الصدقات محرمة عليه كما ادعى بنو العباس. وليست الصدقة عيبا فهي تعني المال الذي يدفعه صاحبه لتكوين الصداقة مع المدفوع له. إن الله تعالى يقصد بالكلمة أن يحترم الذي يدفع والذي يأخذ على حد سواء فيسميها الصدقة ويعتبر نفسه آخذا للصدقات سبحانه وتعالى. والصدقة ليست أجرا. كما أن الزواج بالطريقة التي قام بها رسول الله لم يمثل أجرا.

والأجر في الواقع لا يمثل قيمة الحياة العادية التي يحق لكل أحد أن يعيشها حتى في الأنظمة البشرية المتطورة فكيف بنظام السماء. لكن الأجر في واقعه هو المقابل الحقيقي للعمل وهو ليس في مقدور أحد توفيره إلا الله تعالى الذي يثيب الرسول على عظيم كفاحه وتضحياته للبشرية.

نرى هناك بعض البشر الذين يتسلطون على رقاب الناس ويستمتعون بكل خيراتهم ويعتبرهم الكثيرون ذوي حق يجوز لهم أن يسكنوا القصور ويعيشوا الترف لأنهم يديرون البلاد. ونراهم لا يكتفون بالقصور وبالتمتع بالعديد من النساء بل يملؤون بنوك الأرض بما يسرقونه من أموال الشعوب ويعتبرون ذلك حقا لهم.

كان رسولنا يحكم بالمجان ويدافع عنهم بالمجان وقد بنى لهم كيانا باقيا حتى اليوم بالمجان، فأين الأجر الذي طالب به؟.

إن حقيقة دعوته أنه عليه السلام كان ينظر إلى ربه الذي يريد توسيع الدعوة لكل أهل الأرض فيدعو البشرية جمعاء لاتباع القرآن. ولو أن بعض المجرمين تحكموا في رقاب الناس باسم الدين والإسلام مثل بني أمية وبني العباس والفاطميين وغيرهم من الأسر الحاكمة الظالمة، فهم ليسوا على خط الدعوة المحمدية بل هم يدّعون دون دليل.

كأين: اسم يفيد الكثرة أو "كم" وهو مركب من كاف التشبيه وأي ويكتب بالنون قرآنيا لجواز الوقف عليه، كما يقوله النحويون.

ونحن لو ننظر في واقع المحيط الذي نعيش فيه لرأينا أنفسنا نمر على الحركات الكونية المختلفة يوميا والمعبرة عن قوة خلقية هائلة والمشعرة لقدرة إدارية مهيبة، ثم ننظر إلى أنفسنا مرة أخرى لنراها تدور ضمن نظام فاقد للخيار ولكننا نحن ندور باختيارنا، لأصبحنا مؤمنين حقا .

ذلك لأننا نشعر ونعلم بأننا مخلوقون من هذه الكواكب المتحركة ولكنها لا تدري ولا تريد ونحن ندري ونريد .

فهناك صانع وراءها أراد لنا ما نحن فيه من عقل مدبر لا تملكه أُمُّنا الشمس ولا جدتنا مجرة درب اللبانة.

فهي آية معجزة للرحمن ونحن أيضا آيات للرحمن ونمر على تلك الآيات دون أن نفكر بأننا لم نُمنح العقل والفكر سدى. وكل ما يمر الزمان فإننا نزداد علما بأعماق الكون المحيط ونتعرف على المزيد من آيات الربوبية فيزداد المؤمنون منا تمسكا بالله العظيم وخوفا منه ويزدادون تقوى ليتجنبوا مساءلة العزيز الحكيم لهم يوم القيامة عن السبب في إعراضهم عن آيات الله تعالى وعدم اهتمامهم بالتفكير فيها فهل مُنحنا القوة العقلية دون أن يُنتظر منا التجاوب معها ؟

ذلك إلى جانب الحواصب والزلازل والأمراض الوبائية وغير الوبائية ومختلف الظواهر الأرضية واكتشاف الكنوز الخفية والقدرات والطاقات التي نعيشها ونتعرف عليها شيئا فشيئا .

كل ذلك والله تعالى يري البشر دوما آيات كونية تذكر ذوي الألباب بأن الله تعالى حي قيوم يدير كل الوجود الممكن بعلمه وقدرته والناس يرون ذلك ولا يؤمنون إلا قليلا. نهاية الهامش 81.

حتى التطور البشري الصاعد إلى الأمام يدل على وجود المدير الكبير الذي يشاء لخلقه الصعود والتبدل إلى أحسن الحال.

ونرى كل المخلوقات التي تفيدنا تتطور مع تطور البشر. أليس كل ذلك آيات لله تعالى والبشر يُعرض عن ربه ويتمسك بغيره!؟ والذين يؤمنون به فهم يشركون به ما لم ينزل به سلطانا دون وجه حق.

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿106﴾.

كل الناس هم أبناء يعقوب من حيث الإيمان وكل الناس هم من نفس النمط القديم الذي قرأنا عنهم فيما مضى. يقل المؤمنون ويكثر المشركون مع الأسف. كلهم يؤمنون بقوة الجبار العظيم ويظنون بأن للغير أدوارا أخرى حتى يتمسكوا شيئا فشيئا بالغير ويسعوا ليخدعوا الله تعالى وهو خادعهم دون أن يشعروا وهو يستدرجهم لأنهم لا يستحقون الهدى، سبحان الله العزيز الحكيم.

الكثير من الناس لا يستفيدون من نصح الرسل ولا من منطق القرآن الكريم ولا يتأثرون بأي مناقشة بل يصرون على ما ورثوه ويعتبرونه جزءا من كيانهم.

يقول الكثيرون – بوحي من الشياطين طبعا– بأنهم بلغوا اليقين فلا يمكن أن يتقبلوا قول الآخر.

كلهم يخالفون كتاب الله تعالى وكلهم بعيدون عن المنطق وعن الحق. هذه هي حال الأكثرية يؤمنون بالله تعالى ويتبعون غير الله تعالى.

ولا فرق بين أن يكون غير الله هم رجال المذاهب أو أصحاب التيجان أو ذوو الثروات أو أهواؤهم وشهواتهم الشخصية.

المهم أنهم يخضعون لغير الله تعالى سواء بالطاعة العمياء أو بالحب المفرط أو بالشكر الخاضع فهي كلها تمثل العبادة ولا يجوز أن نأتي بها لغير الله تعالى.

ولنكن أكثر واقعية فإني لا أقصد بكلمة الطاعة أعلاه المعنى القرآني بل أقصد المعنى المتعارف بيننا وهو تنفيذ أوامر المطاع[82].

والمشرك في هذه الآية الكريمة لا يشير الى من سماهم الله تعالى مشركين من الذين صدوا عن سبيل الله وحاربوا رسوله ومن اتبعه.

بل المقصود الذين يشركون عمليا بالله بأن يعصوه سبحانه بأي حال من الأحوال. فالذي يعصي الله تعالى ليس إلا متبعا لأهوائه فهو لم يخضع خضوعا كاملا لربه فهو مشرك عمليا ولا يجوز أن نسميه مشركا أو نناديه بـ "يا مشرك" كما يفعل البعض.

لو جاز ذلك لجاز للمسلمين أن يدعو بعضهم البعض بالمشركين لأنهم على الأغلب لا يتبعون أوامر الله تعالى بل يتبعون أهوائهم ورجال دينهم وملوكهم وحتى أزواجهم أحيانا.

فالمشركون في هذه الآية اسم فاعل لمن يقوم بعمل الشرك.

---

82 ذلك لأن الطاعة في القرآن تعني قبول كلام المطاع وعدم الجدال في بياناته ولذلك أمرنا الله تعالى بطاعة الرسول أيضا واعتبرها طاعة لله تعالى.

فهل كان الرسول عليه السلام يحمل عصا يضرب بها من يخالفه ويعتبره خارجا عن الملة كما يقولون؟ ليس في القرآن ما يؤيدهم.

إنهم يظنون بأن الذي يرتد عن دينه يجب قتله والقرآن يعطي الحق لكل شخص أن يقبل أو يرفض الدين ولا عقاب عليه إلا في الآخرة.

ولذلك فإننا نرى كما نفهمه من كتاب الله تعالى بأن بعض المسلمين وهم جميعا صحابة رسول الله طبعا كانوا يلجؤون لغير الرسول ليفسر لهم كتاب الله تعالى والله يلومهم في ذلك.

ليس في كتابي هذا مجال لمثل هذه المواضيع ولكني اضطررت للإشارة إليها دفعا للإشكال. نهاية الهامش 82.

وكما نعرف بأن جزاء الشرك بالله تعالى هو العذاب في الدنيا والآخرة ؛ حتى ولو كان الذي يشرك مسلما مؤمنا يتقي ربه أحيانا. والسبب في ذلك هو أن الله تعالى يملك نظاما شموليا يتحكم به في كل الكائنات فمن يقف أمام نظامه فهو قد يؤثر في سلاسة وسلامة هذا النظام الكوني البديع الذي نراه يدير كل ما هو محيط بنا وكل ما هو تحتنا من طاقات أرضية.

والله تعالى يصون نظامه بالطبع ولذلك قد يقدر للعصاة دحرا وهلاكا دنيويا أحيانا . لكن هذا الخطر الذي يصيب الناس دون سابق إنذار يُخالف نظام الرحمة الذي فرضه الله تعالى على نفسه بأن يهدي الناس ولذلك أردف هنا قائلا:

أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿107﴾.

عذاب الله تعالى هو العذاب الذي يفرضه نظام الألوهية الشامل لصيانة النظام كما قلنا وهو غير مأمون أبدا .

ولنعلم بأن نظام الألوهية بكامله مشروح في كتاب الله تعالى ولا يمكن أن يشمل ما كتبوه في الكتب الأخرى أو ما يتفوه به أصحاب الفتوى والمراجع الذين عينهم البشر لأنفسهم.

ليس هناك عذاب دنيوي لمن يُخالف نظاما بشريا إلا في حدود قدرات الناس أنفسهم. كل ما يفتيه أصحاب الملابس والألقاب غير ملزم شرعا لأحد إلا في حدود تخويل أتباعهم لهم.

ليسوا هم أكثر من نواب البرلمان لو أن الشعوب اختارتهم وإلا فهم فرضوا أنفسهم أو خدعوا الناس وتمنى أن يتركوا تخيلاتهم غير المستدلة ويصارحوا أتباعهم بأنهم أناس عاديون لا حق لهم على عبيد الرحمن جل جلاله.

وبعيدا عن هذه التخرصات الوهمية المنتشرة بين أهلينا شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وفي كل زمان مع الأسف فإن عذاب الله تعالى لا يمكن أن يشمل إلا من يخالف نظام الله نفسه. ولا أحد هو وكيل لله تعالى بل هو سبحانه على كل شيء وكيل.

والغاشية: تعني المستورة التي لا يمكن أن يتنبأ بها البشر.

وأرجو الانتباه بأن الله تعالى يخاطب رسوله الذي يوحي إليه ويتحدث عن صحابته المحيطين به لا عن غيرهم.

فالعذاب الدنيوي يمكن أن يأتيهم دون سابق إنذار، ولذلك يقول الله تعالى في بداية الآية بلفظ الاستفهام الإنكاري: **أفأمنوا؟**

ولو نلاحظ بأنه سبحانه لم يبلغ الرسل السابقين مثلا بالعذاب الدنيوي إلا في وقت متأخر وأمرهم بالابتعاد عن المكان أو باللجوء إلى البحر حتى لا يمسهم العذاب. لنقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة هود:

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76) وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (78) قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (79) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80) قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (82) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83).

نلاحظ بأن الرسل جاؤوا إبراهيم قبل لوط نفسه باعتبار أنه هو المسؤول عن لوط كما يبدو. ولما قال لهم إبراهيم ما قاله مجادلا حول قوم لوط لعله يؤخر عنهم العذاب، قيل له: **قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود.**

ورأينا بأن العذاب كان ضمن إعصار سماوي يحتاج إلى مقدمات قدرها الله تعالى قبل أيام كما نرى الأعاصير اليوم أيضا.

ثم رأينا بأن العذاب لم يقتصر على الأعاصير العاتية بل شمل حجارة حملتها تلك الاعاصير من الأرض في مكان مخصص ومسوم من الله تعالى لمثل هذه الحالات ولتكون في متناول يده سبحانه ليحركها متى ما شاء وأراد.

ولو ننظر اليوم فإن أكبر تسونامي واجهناها من المحيط الهندي قبل عدة سنوات، جاء دون سابق إنذار وقد غفل المهتمون أن يضعوا أجهزة إنذار في المحيط.

هكذا كل العذاب الدنيوي يأتي دون سابق إنذار لو كان المقصود العذاب. فالكوارث الكبرى كلها غاشية مستورة لا يساعدنا العلم كثيرا لنتنبأ بها.

حتى الوحي لا يساعد الرسل أن يتنبؤوا بها قبل أن يريد الله تعالى إخبارهم لينجي المؤمنين. ذلك لأن الوحي لا يشمل كل شيء كما يظنه البعض.

يظنون بأن المرتبط بالوحي هو على علم بكل شيء حتى الأخبار الغيبية. وهذا وَهْم هداهم الله تعالى وإيّانا.

هذه هي الغاشية التي تأتي دون سابق إنذار ليعذب الذين يصدون عن سبيل الله أحيانا حتى لا يتأثر نظام الألوهية في الواقع فيصعب أو يستحيل اختبار الناس وهو هدف هذه النشأة العظيمة.

وأما **الساعة** فهي باختصار تمثل عدة حركات كونية كبيرة هي بالنسبة لنا في هذا الكوكب: الدمار الشمسي ثم الدمار الكوني ثم يوم الفصل. والساعة كما قاله الزجاج منقولا عنه في لسان العرب: هي ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم فلقلة الوقت الذي تقوم فيه سماها ساعة. إنه بيان جميل ومثمر في الواقع ولا يخالف ما نفهمه من كتاب الله تعالى حول الساعة.

فالساعة تمثل اللحظات السريعة التي يغير الله تعالى فيها سير النظام العام.

فلا يمكن أن تمثل الساعة نظام المشيئة بل تنطلق من نظام الإرادة ولذلك سماها سبحانه ساعة والعلم عنده وحده.

المهم بأن غاشية العذاب الدنيوي أو الساعة تأتي دون سابق إنذار.

وفائدة تذكير الناس بهذا الموضوع هي لدفع الناس للتخلص من حالة التسويف الذي يمارسه دون علم كثير من المؤمنين بالله تعالى وباللقاء معه.

يقول الكثيرون في أنفسهم بل يتجاهرون أحيانا بأن القيامة بعيدة وسوف نحضر أنفسنا قبلها لنأمن عذاب ربنا.

بالطبع أنهم في الدرجة الأولى يجهلون معنى النشأة ويظنون بأن الجزاء في الآخرة يقابل الأعمال. ليس الجزاء هناك مقابلا للأعمال وإلا لما كان لمفهوم الأبدية معنى.

إن الأعمال مهما كبرها الله تعالى فإنها لا تقاوم الأبدية بل تنتهي في حد ما فما هو مصير المؤمنين بعد ذلك؟

وهكذا الذين كفروا بآيات ربهم فإنهم لو دخلوا النار فلا يمكن أن يخرجوا منها وليس هناك مرحلة تنظيف كما يدعيه البعض بل الله تعالى يرفض ذلك تماما . قال تعالى في سورة البقرة:

وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82) .

فالأعمال دلائل على سلامة النفوس وسعادتها أو مرضها وشقائها .

والجنة مكان يخلقه الله تعالى ضمن النشأة الثانية والأخيرة للسعداء كما أنه سوف يخصص في نفس الأرض الجديدة مكانا للأشقياء ويسميه جهنم.

فلو أحاطت الخطيئة بأحد وتعني أن تتأثر النفس بها فتأخذ صبغة مرفوضة عند الله فإن صاحبها من أهل النار والعكس صحيح فيما يتعلق باهل الجنة.

والله تعالى يرد على الذين يفكرون في تغيير أعمالهم بأن العذاب الدنيوي موجود وغير مضمون ولا يمكن التنبؤ به وهو عذاب مميت كما أن يوم القيامة بحسب ما هو مشهور بين الناس غير محدد في زمان يعرفه البشر.

إنه ساعة يغير الله تعالى فيها النظام السائد خلال لحظات فتأتيكم بغتة وأنتم لا تشعرون. ثم يكمل الله تعالى موعظته لرسوله كما يلي:

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿108﴾.

لقد قرأنا قصة أولاد يعقوب وكيف تفاجأوا بلحظة عذاب مضنية وعسيرة على يد أقرب الناس إليهم وهو أخوهم يوسف.

لقد تغير كل شيء أمام أعينهم خلال لحظات قصيرة زمانيا وشديدة على النفس. انهار كبرياؤهم بصورة كاملة أمام أخيهم الصغير ولعلهم لحظتها فضلوا الموت على الحياة.

هذا الأخ الذي كان قبل سنوات مثل الشاة التي يجرونها للذبح قد أصبح اليوم سيدا يلتمسون المغفرة على يديه، ففاجأهم يوسف الطيب صاحب الخلق الكبير بقوله: **لا تثريب عليكم اليوم**.

ذلك لأنه ليس فقط أخوهم الصغير بل هو رسول من الله تعالى والرسل جميعا أصحاب خلق عظيم لا يضمرون الشر لأحد أبدا. إنهم ينسون أنفسهم ويهتمون بالله تعالى فهو موئلهم ورضوانه مبتغاهم وجنته مأواهم.

لا ينتقم الرسل من الذين يؤذونهم بل يسعون لإصلاح الناس ويعفون عما فعلوه ضدهم. إنهم يستمتعون بأن يعود الناس إلى ربهم ولو على حساب راحتهم[83].

---

[83] لذلك فإن سبيل الرسول الذي لا يشعر بالأمان من مباغتة الساعة أو الغاشية من عذاب الله تعالى هو أن يستغل كل فرصة لتطهير نفسه وتزكيتها وتزكية غيره والسعي لهداه باستمرار، فقد تفوته الفرصة ولا تتكرر. هذه سبيل الرسول وسبيل من اتبعه وهي ثلاثة مراحل:

1. يدعو الرسول نفسه وغيره على بصيرة إلى الله تعالى وحده لا إلى الرسول ولا إلى أي كائن آخر، والأمر ينطبق على من يتبعونه.

والبصيرة تعني العلم بإدراك واسع وبتحقيق شخصي. فالرسل وأتباعهم يسعون دائما للمزيد من العلم والمعرفة كما يسعون دائما لدعوة الغير إلى الله تعالى.

ومعرفة الله تعالى بعمق ضرورية لمن يريد أن يدعو إليه سبحانه وإلا فسوف تكون دعوته دعوة جاهلة قد تعقبها السخرية والاستخفاف.

وحق الدعوة إلى العليم الخبير أن يكون الداعي على علم ومعرفة بالله تفوق علم الذي يريدون دعوته إلى الله تعالى. كما أن حق الدعوة إلى الله تعالى ألا يدعو الداعي لأحد غير الله. فالله سبحانه كاف عبده ولا يحتاج المرء أن يتشبث بأحد غير الله تعالى مع الله.

والإيمان بالرسل المشار اليه في القرآن هو جزء من الإيمان بكمال الربوبية. إن شأن الرب أن يرسل الرسل ليوحي إلى عبيده عن طريقهم.

لا يمكن الإيحاء إلا بعد تهذيب نفسي خاص قد لا يتاح لكل الناس ولو كانوا مؤمنين. والإيحاء العام لا يفيد اليقين كما يوحي الله تعالى إلى الرسل.

2. يسبح الرسول ومن اتبعه الله تعالى بأن قدسيته لا تسمح بأن يحب من يعصيه. إن المشرك يعصي الحقيقة المطلقة ويخالفها فهو لا يستحق المزيد من الهدى من ربه. فالذي يعصي الله تعالى لو لم يتب من قريب فإنه سوف يخسر الهدى شيئا فشيئا. سوف تتعسر عليه العودة إلى ربه كلما طال به الزمان. على العاقل الذي يعرف بأن الله تعالى منزه عن كل عيب بأن يشعر نفسه بأن ربه يكره كل ما يخالف الحقيقة فيسعى لإرضاء ربه قبل فوات الأوان.

3. يتبرأ الرسول ومن اتبعه من الذين أشركوا فينظرون إلى القضايا نظرة شك ولو احتملوا شركا سعوا لتجنبه. هكذا يمكنهم أن يقولوا بأنهم ليسوا من المشركين. ذلك لأن من يشرك ولو مرة واحدة ولو شركا يسيرا فإنه مشرك عمليا والمشرك مهما صغر شركه فهو خاسر لجزء مما كتبه الله تعالى حين خلقه بأن يعطيه الهدى أيضا. سبحان ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

بالطبع أن رسولنا قال كل ذلك لمن اتبعه يومها لأنه أول المسلمين دائما. إنه أول من يعمل بالقرآن وهو على علم بأنه ليس عِدلا لكتاب الله تعال بل هو مطيع خاضع لهذا الكتاب العظيم. ولا بأس بأن نعلم بأن الدعوة إلى الله تعالى في عمق معناها تعني الدعوة إلى النظام الطبيعي الذي وضعه الله تعالى لإدارة الكون وهو نظام حق وعدل.

هي حقيقة لا يمكن للعاقل أن يتجاهلها كما لا يمكن له أن يتجاهل احتمال كل مصيبة تفوق قدرة المقاومة عنده. فلو أمرنا الله تعالى بأن نتمسك به باعتباره العروة الوثقى لا انفصام لها فهو لأنه أسس نظاما محكما قويا يُمسك به كل الكائنات التي تمتعت برحمة ربها وبقيت بلايين السنين تعمل دون توقف.

والإنسان المدرك عليه أن يتبع أوامر ومواعظ ربه ليسير مع هذا الكون البديع وإلا فهو الخاسر. ولذلك فالتمسك بغير الله تعالى لا يعني إلا الخذلان والخسران. وأما الذين يدعون إلى غير الله تعالى فهم يظنون بأن الموضوع مرتبط بالتشريفات ولا يدركون بأنه حقيقة لا انفصام لها ولا يمكن تجاهلها. لكننا يمكن أن نتجاهل كل من هو دون الله تعالى. كل صحابة الرسول شعروا بأن رسولهم نعمة ورحمة من ربهم ثم خسروا الرسول فهل اضطربت أحوالهم أم بقوا بقوتهم وازدادوا قوة وعلما على مر الزمن؟.

هذه هي طريق الأنبياء والصالحين جميعا فهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا فكيف يملكون لغيرهم أمرا؟

الكل يدعون إلى الله تعالى والقرآن هو رسالة السماء الأخيرة وهو ملاذ العقلاء ومرجع ذوي الألباب. ومن يخالف نظام السماء فهو الخاسر ولذلك أعقب الله تعالى ما ذكره لنا من أمر رسوله بالآية التالية ليوضح لنا بأن الجميع يسيرون في خط العبودية لربهم والمخالف يخسر فقال سبحانه:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿109﴾.

اختار الله تعالى بعض القرى والتجمعات المتكاملة ليرسل إليها رسلا يوحي إليهم. سماهم الله تعالى رجالا ولم يسمهم رسلا ليوضح للمستمع اهتمام رب العالمين بأصحاب النشاطات المختلفة.

الرجال ليست في مقابل النساء بل تعني رجال العلم ورجال الصناعة ورجال التجارة وهلم جرا. والقرى تعني أماكن تجمع الأثرياء القادرين على استضافة غيرهم فيكونون مرجعا يزورهم القاصي والداني لتعمّ أخبارهم الكثيرين من غيرهم.

ولذلك يأمر الناس أن يتقصوا أخبارهم حتى الذين انقرضوا منهم فإن قصصهم وحكاياتهم تتناقل بين صدور الذين تعاملوا معهم وارتبطوا بهم.

لقد علم أولو الألباب بأن الرسول بشر مثلهم فهم يتلذذون بالتحدث إليه ولكن الحقيقة أنه لا يملك شيئا ولا يمكن له أن يتصرف في أي شيء. فسبيل الرسول هو سبيل من اتبعه كما أن سبيل من اتبعه هو سبيل الرسول وهو الطريق التي تؤدي إلى رضوان الله تعالى وتساير نظامه المتقن ولا شيء غيره.

فأرجو أن نكون مثلهم على بصيرة من الأمر فنتمسك بما يمكن أن يمسكنا ولا نذهب وراء الظنون والتخرصات الباطلة. نهاية الهامش 83.

لنعلم بأن المقصود من إرسال الرسل ليس مسح الكرة الأرضية بالرسل في كل زمان ومكان فهذا ليس لصالح البشر.

ولكن الله تعالى يختار بعض الأماكن وبعض الأزمان ليرسل رسلا فيتخذ منهم ومن صحابتهم نماذج ليوم القيامة ويجعلهم فتنة وعبرة لغيرهم من الذين يريدون أن يهتدوا بهدى ربهم[84].

فلنقارن بين –ما يحتملهم الكثير من المفسرين بأنهم– الأقباط من أهل مصر الذين أنزل عليهم وحي السماء على يد موسى فكذبوه فدمرهم ربهم وبين مجموعة فقيرة احتمالا من بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى وانفصلوا عن بقية بني إسرائيل وهاجروا مع موسى فاستلموا التوراة فبنى موسى لهم كيانا قويا في ظلال كتاب السماء ولكنهم تباطؤوا عن دخول الأرض المقدسة حتى جاء داوود فقاد قومهم إلى الأرض الموعودة فأصبحوا ظاهرين أقوياء ذوي علم ومكنة. من هذه القصة نعرف سر الآية التالية:

---

[84] لقد وصلت الأسرة النبوية الكريمة إلى سدة الحكم ولو بصورة جزئية كما ارتقى أبناء إسرائيل في البلاط الفرعوني نسلا بعد نسل حتى جاء موسى.

وحتى بعد خروج موسى من مصر وعودة بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة فإن فريقا منهم من الذين خدموا قصور الفراعنة بقوا وصاروا أكثر قوة وأكثر أهمية بعد غرق الملك مصحوبا بملأ من أعوانه. قال تعالى في سورة الشعراء:

فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (64) وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (67).

فهناك مجموعة من بني إسرائيل هم موظفو البلاط وحاشية فرعون ورثوا جنائن الفراعنة وهناك فريق آخر منهم هم أصحاب موسى الذين عبروا البحر وهم المقصودون من صناعة بني إسرائيل وإعدادهم لاستقبال التوراة العظيمة. نهاية الهامش 84.

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿110﴾.

وكما وضحت في بيان الآية 80 من هذه السورة المباركة فإن الاستيئاس: يعني بذل كامل الجهد لبلوغ الهدف ثم انقطاع الأمل بسبب شعور اليائس بأن الجهد لم يكن في المسار الصحيح.

فالاستيئاس هنا ليس من الله تعالى بل من قومهم أن يؤمنوا بهم. فبعد أن سعى الرسل بكامل نشاطهم لم يجدوا من قومهم تجاوبا مناسبا لدعواتهم إياهم.

وأما ظن الرسل بأنهم قد كُذبوا – بدون تشديد الذال – فهو يعني بأن الرسل رجحوا بأن قومهم ظنوا في أن رسلهم قد كذبوا عليهم واعتبروهم دجالين غير صادقين في ما يقولونه لقومهم.

والواقع أن أقوام الرسل عادة ما يصدقون رسلهم لأنهم مختارون من الصفوة الخيرة من بينهم ولكنهم يقولون بأنهم مسحورون أو مجانين.

فهم يكذبون الرسالة ولا يكذبون شخص الرسول. لكن الاستمرار في رفض الرسالة يؤدي إلى أن يفكر الرسول بأن قومه يشكون في صدق حديثه[85].

---

[85] إنها حالة صعبة ومريرة جدا وقد حصلت لبعض الرسل ولكن لا أظن بأنها حصلت لرسولنا. ذلك لأن رسولنا كان محاطا بمجموعة غير قليلة من المصدقين فكيف يستيئس؟ وكيف يظن بأنه قد كُذب؟

كانت القصة مع رسولنا بعكس ما حصل لمن سبقه من الرسل، فقد كان المؤمنون من صحابته لا ييأسون من التحاق المشركين بهم ليعمّ الإسلام بين كل أهليهم. قال تعالى في سورة الرعد:

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31).

فالله تعالى يتساءل لماذا لا ييأس الذين آمنوا من التحاق المشركين من أهليهم بهم بأن الله تعالى لو شاء لهدى الناس جميعا؟ ومشيئته سبحانه لا تقتضي هداية هؤلاء لعدم استحقاقهم طبعا.

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿111﴾.

بهذه الآية الكريمة نأتي إلى ختام أطول قصة في القرآن الكريم. لقد اتخذت القصة شكلا روائيا ولكنها بكل حكاياتها تمثل الحقيقة الصادقة بتصديق الذي يتحرك كل شيء بإرادته وعلى سمعه وبصره.

أظن بأن الذي يقرأ القصة كما هي في القرآن ويترك الإضافات التي أضافها القصاصون سواء من اليهود أو من المسلمين إليها فسيشعر بأن كل خطواتها تمثل المعرفة والعلم وأنها تنتج العبرة والاتعاظ. وأما العبرة فقد قال الراغب كلاما جميلا لبيانها وهو في مفرداته: والاعتبار والعبرة: (فهي مختصة) بالحالة التي يُتوصل بها من معرفة المشاهَد إلى ما ليس بمشاهَد. انتهى.

قارنوا بين توقعات هؤلاء للمزيد من المؤمنين وبين من آمن مع موسى. قال تعالى في سورة يونس:

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83).

ولعل من يظن بأن القوم قوم فرعون فليكمل قراءة الآيات حتى يصل إلى الآية التالية من نفس السورة:

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90).

هم نفسهم القليل ممن آمنوا معه من قومه من بني إسرائيل. لقد آمن مع رسولنا عدد غير قليل من أصحاب الثروات مثل أبي بكر وعثمان وغيرهما.

لكن ليس بيدنا دليل قرآني بأن أثرياء بني إسرائيل قد آمنوا بموسى. لقد نجى الله تعالى هذا العدد القليل من قوم موسى وأغرق المجرمين من قوم فرعون مع سيدهم في البحر.

والمثل الأعلى لقلة المتقبلين للدعوة هم قوم نوح غب دعوة مضنية لزمن يقارب ألف عام. قال تعالى في سورة هود:

حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (40).

وأما قول المحدثين عن لسان نبينا بأن ما أوذي نبي مثل ما أوذيت؛ فهو قول باطل لا دليل عليه من كتاب السماء. وليس للرسول أن يقول ذلك لأنه لا يعلم عن أحوال من سبقه من الرسل إلا ما هو بين يدينا من القرآن. نهاية الهامش 85,

هذا كلام مقبول لأن المقصود من ذكر القصة في القصة وخاصة في كتاب السماء هو إيصال المتفكر في سيره إلى حقائق كلية يستفيدها من قصص جزئية فيقول في نفسه: قد تتكرر هذه الحالة معي ومع غيري. ولولا العبرة لكانت القصة مجرد تسلية لقتل الوقت لمن لا يعرف كيف يستفيد من وقته.

والقصة المفيدة لا تُجدي إن لم تحتج معها إلى إعمال الفكر وبذل الجهد لفهم أسباب أحداثها ثم تفكر كيفية تجنب ذلك إن كانت النتائج كما تُروى لك ضارة أو تسعى لتكرار التجربة عند اللزوم إن كانت ذات فائدة.

ولذلك قيد سبحانه العبرة بأولي الألباب الذين يتعمقون في القضايا لمعرفة جذورها ولا يكتفون بالظاهر الذي قد لا يعني من لم يعيشوا مع أصحاب القصة مكانيا أو زمانيا .

فبَواطن قصة بني إسرائيل تمثل الحقيقة التي تعني كل إنسان على وجه الأرض. إنهم اليوم متداخلون في السياسة الدولية ويتحكمون في سياسة أقوى دولة على الأرض كما أنهم يملكون الكثير من المقومات المالية والعلمية والسياسية و الصناعية والتجارية التي تعطيهم القدرة على التحكم في المتغيرات أكثر من قدرة أصحاب الثروات النفطية مجتمعين.

وقد وعدهم ربهم أن يبقوا حتى يوم القيامة فلا ينبغي التفكير بالتخلص منهم بل يجب التعامل معهم. هناك الكثير من المشتركات بين المسلمين والمسيحيين وبينهم. والواقع أن مشتركات المسلمين معهم أكثر من مشتركات المسيحيين. لكن بعض المسلمين يجهلون التعامل معهم ويبثون الخوف في قلوبهم فليس لبني إسرائيل إلا أن يواجهوا المسلمين بكل قوة. وقوتهم لا يُستهان بها .

وأنا هنا لا أريد الخوض في الجوانب السياسية وما يقوم به الساسة من مكائد وإشعال للفتن بين المؤمنين من أتباع الديانات الثلاث فهؤلاء في الحقيقة يخلقون إفكا ويصنعون أوهاما لمجرد الحصول على الدنيا الزائلة، وإنما أتكلم بصفة عامة عن الناس العاديين بما هم مؤمنون بالله تعالى ومتبعون لتعاليم أديانهم سواء

منهم المسلمون أو اليهود من ذرية بني إسرائيل أو المسيحيون، فأديان هؤلاء جميعا تأمر بالسلام والتعايش السلمي مهما اختلفت التحليلات العقائدية وتباينت فإن ذلك أمر ممكن علاجه.

يجب تطليق لغة القتل والتدمير والإبادة والطرد بشكل كامل والذهاب وراء لغة التعامل والجذب والتعاون وتحسس آلام الغير. وكلما مرّ بنا الزمان كلما ازداد الطين بلة فأرجو أن يعتبر الجميع بقصة يوسف فيطبقوا حالاتهم عليها ويطلبوا جميعا من ربهم المساعدة والمعونة وهو ليس بخيلا على إعانة عبيده إن أذعنوا له وحده ولم يشركوا به أحدا.

ولعل هذه هي رسالة السورة حيث يختمها سبحانه بأن هذه القصص **هدى ورحمة لقوم يؤمنون**. والرحمة قد تكون عين الهدى ولكن الله تعالى عطفها على الهدى لأن الرحمة أكثر شمولا من مجرد بيان الطريق فتتعدى الهدى ليشمل إيصال المهتدي إلى الهدف المرجو إيصالا مكرما.

هذه حقيقة بأننا لو تعرفنا على من نتعامل معه بدقة فراعينا أحواله فسنفوز بالصداقة معه وسيخلق الله تعالى المحبة بيننا وبينه ولو محبة تقليدية. المقصود هو العيش بسلام واحترام حقوق بعضهما بعضا والتفاهم الكامل والمعقول في القضايا. لكنك لو لم تعرف حقيقة من تتعامل معه فتستفزه بدلا من أن تجذبه ثم إنك سوف تخسره. إنك ستلقي في قلبه الرعب فتدفعه لأن يفعل كل شيء للقضاء عليك. هذا هو الحاصل بين المتخاصمين اليوم. إن كل جانب يستعمل كل قوته ضد الآخر وهو أكبر خطإ.

مقارنة بين بني إسماعيل وبني إسرائيل:

أظن بأن الله تعالى الذي ساعد إسرائيل ويوسف أن يبنيا كيانا عائليا كما يحبان لبني إسرائيل في الأرض المقدسة وما حولها وساعد إسماعيل ليبني أمة مهتمة بإنسانيتها ومستضيفة لكل من يشاركهم في الحياة كما كان يحب إسماعيل في الأرض المحرمة وما حولها؛ فإنه سبحانه سوف يجاري بينهما يوم القيامة.

يشعر الذي يدرس المسألة ويحقق فيها بأن الله تعالى يملك حجة بالغة ضد العصاة من البشر لأنه قام بكل التجارب الممكنة بينهم؛ وقد نشر الله تعالى اليهود والمسلمين في الأرض كما نرى.

سوف يقول لنا ما اختلفنا فيه حول أهمية الاهتمام بالعائلة في مقابل الاهتمام بالعقود والقوانين التي تعتبر كل الناس سواسية بغض النظر عن عوائلهم وأنسابهم وأحسابهم.

سوف يظهر لنا جميعا بأن الاهتمام بالعقود كان خيرا من الاهتمام بالأنساب.

هذه مقارنة بين الأمتين العظيمتين ضمن النطاق الديني في الأرض مما ذكره الله تعالى نفسه في القرآن والذي أعلم بصحته ولا أشك فيه لنراهما كيف سارا جنبا إلى جنب فننظر أيهما أوفق لقوانين الألوهية. لعل هذا يساعد المؤمنين الذين يسعون لفهم الحقيقة أن يصححوا بعض معتقداتهم لتنسجم مع قوانين السماء[86].

---

[86] قبل الدخول في المسألة يجب أن نرفع إشكالين تاريخيين كبيرين من بعض الأذهان.

أحدهما: مسألة منام إبراهيم وظنه بأن عليه أن يقتل أحد ولديه.

والإشكال الثاني: هو حكاية أم إسماعيل وهل كانت حرّة ام مملوكة.

الإشكال الاول :

لعل غالبية المسلمين يظنون بأن الولد الذي ظنّ ابراهيم أن عليه ذبحه هو إسماعيل ولكن بني إسرائيل ومن ورائهم المسيحيين وبعضا من مؤرخينا يظنون بأنه إسحاق.

لا يسعني ولا يساعدني وقتي أن أناقش المسألة من واقع الكتاب المقدس وأكتفي بأن أناقشها قرآنيا لنكتشف مقصود القرآن فقط. ذلك لأن أكثر من سيطلع على هذا الكتاب سيكون من المسلمين كما أحتمل.

إن أقل فائدة لهذا التحقيق هو إحباط الحجة علينا من واقع ما كتبه بعض مؤرخي ومحدثي المسلمين. لنقرأ قصة الذبح وهي في سورة الصافات:

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (108) سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (113) .

يتضح من الآيات السابقة بأن الذبيح هو ليس إسحاق.

لقد بشر الله تعالى إبراهيم بغلام حليم ثم ذكر قص منامه لذلك الغلام ثم بعد ذلك بشره بإسحاق نبيا من الصالحين.

ولم يذكر القرآن لإبراهيم أكثر من ولدين هما إسماعيل وإسحاق. وقد وعد إسماعيل أباه بأن يصبر على الذبح كما في الآية 102 أعلاه. ثم يشير سبحانه إلى صدق وعد إسماعيل في سورة مريم:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (54) .

ونعلم من الآية 102 أعلاه بأنهما كانا في السعي وهو في مكة ولم يذكر القرآن بأن إسحاق انتقل مع إبراهيم إلى مكة بل ينفرد إسماعيل في كل حكايات إبراهيم داخل الأرض المحرمة.

وحينما نقرأ القصص بدقة نرى بأن الله تعالى قد وهب لإبراهيم ولديه إسماعيل وإسحاق في الكبر ولكن إسماعيل كان أكبر بكثير من إسحاق.

قال تعالى في سورة إبراهيم:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء (39) .

ثم قال في سورة هود:

وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73) .

لقد تعجبت زوجته من أن تلد وهي عجوز كما ذكرت زوجها بالشيخوخة. هذا يعني بأن شيخوخة إبراهيم تحققت بعد ميلاد إسماعيل بفترة زمنية لتغير حاله من الكهولة إليها.

الإشكال الثاني: هل كانت أم إسماعيل عبدة مملوكة لإبراهيم؟:

يقول بنو إسرائيل بأنها أَمَة لإبراهيم. بالطبع إنهم في الواقع يعيروننا بأننا انحدرنا من الإماء وهو ليس محبذا لديهم.

والمسلمون من بعد وفاة خاتم النبيين عليه السلام وظهور الممالك العباسية والفاطمية أباحوا لأنفسهم الارتباط الجنسي بالإماء بلا زواج ولا مهر مخالفين النصوص القرآنية مع الأسف.

وأنا الآن لست بصدد بحث هذه المسألة الخطيرة وتبعاتها في النسل العربي وفي نسل المسلمين. لكني أحب أن أوضح بأن القرآن أنزله رب الطبيعة ورب هذا النظام المسيطر على الكائنات، فلا يمكن أن نتصور بأن أحكامه تتغير بدون تغير النظام.

والنظام لم يتغير فعلا لكن بعض الأحكام البسيطة تغيرت مع نزول الإنجيل ثم القرآن وهي أحكام عقابية ضد بني إسرائيل مثل تحريم شحوم الأنعام. فكان التحريم مؤقتا بطبيعته.

والله تعالى يؤكد كثيرا بأن هذا الكتاب مصدق لما قبله. ولنعرف بأن إبراهيم الذي لم نعرف شيئا عن كتابه، يحمل أولى الصحف السماوية. فهو لا يمكن أن يخالف نظام الطبيعة وهو أبو بني إسرائيل.

قال تعالى في سورة النساء:

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (25) يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26) وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا (27).

تلاحظون من الآية الأولى بأن الله تعالى يسمح بالنكاح مع الفتيات المؤمنات (المملوكات) إن لم نستطع ماليا على الزواج من الحرائر.

فالله لا يحب الزواج مع الفتاة غير الحرة ويؤكد سبحانه ذلك في نهاية الآية بأن هذا الجواز هو لمساعدة الذي يخاف على نفسه الشدة والمشقة.

فهل كان إبراهيم في مشقة حتى يتزوج بعبدة مملوكة كما يدعيه اليهود؟، أم أنهم يريدون أن ينسبونا إلى الإماء؟

وإبراهيم هو مسلم لأنه نبي وكل الأنبياء مسلمون، وهو الذي أحب أن يمنحنا اسم المسلم اسم علم لنا.

وواضح أن المسلم العَلمي لا يمثل الإسلام الحقيقي بالضرورة لكن إبراهيم هو المسلم الحقيقي. كان العرب يصلون ويحجون قبل الإسلام بإرث من إبراهيم وإسماعيل.

وأما الآية الثانية أعلاه فهي توضح السبب في تفوق بني إسرائيل علميا .

إن سنتهم أن لا يتزوجوا مع الإماء لتقوية النسل والنسل القوي أكثر استعدادا من حيث الجينات للتفكر والتعقل.

إن هذه الحقيقة واضحة لمن يتدبر في عمق الآيات الحكيمة.

فالإنسان المفكر بحاجة إلى المزيد من الحرية وإلى المزيد من الشعور بالأمان الفكري والمرأة كأم تمثل أكبر وأهم عامل من عوامل البنيان البدني.

إنها هي التي تصنع الطفل وهي التي تغذيه وهو في بطنها ثم هو خارج البطن. فلو أنها لا تشعر بالحرية، فإنها تنقل هذا الشعور للطفل وهو الذي يسبب عدم مسايرة أولاد الإماء أو من في حكمهن مع الركب الحضاري الذي يتولى أمره الله تعالى بحكمته. وهو العرف في لغة القرآن الكريم.

والآية الثالثة تؤكد على المسلمين ألا يتبعوا الشهوات. وقد اتبع آباؤنا شهواتهم فعلا وتركوا تعاليم قرآنهم وسنوا وشرعوا لأنفسهم قوانين تخالف شريعة الله تعالى وسموها التشريع الإسلامي مع الأسف.

وها نحن نمد يد الاستعانة إلى سوانا ليساعدونا علميا وصناعيا وسياسيا .

وأما ما نراه اليوم من استهانة اليهود بالمرأة – وهي بالطبع ترى أقل مما تراه المرأة من تحقير لدى الشعوب المسلمة– فهو ليس من التوراة كما أن ما يفعله المسلمون ليس من القرآن.

حتى التاريخ غير الموثوق الموجود بين أيدينا يذكر بأن النساء كن يجلسن مع الرجال منذ عهد الرسالة المجيدة وحتى في عهد الأمويين والذين فرقوا بين الرجل والمرأة هم بنو العباس.

والقرآن قص لنا قصة مريم وأمها وقد مدحهما الله تعالى بما لم يمدح به رجلا ولا امرأة أخرى. ونرى بأن أم مريم نذرت ما في بطنها دون الرجوع إلى زوجها عمران بدليل أن الله تعالى لم يذكر إذن الزوج لها في القرآن. ولو كان إذنه ضروريا أو واجبا لذكره ربنا حتى لا نقع في الضلال.

ونرى بأن مريم كانت تعيش في النهار مع أهل المسجد أو أي مكان لعبادة القدماء من بني إسرائيل. ونرى بأن كفيلها هو زكريا وهو كما يقولون ليس من محارم مريم. ونرى بأنها اتخذت مكانا شرقيا لنفسها في المعبد وهو المكان الذي يستلم نور الشمس ليكون أكثر إشراقا من غيره.

فأين هذا السواد الذي لبدنا به نساء المسلمات اليوم ونحن ندعي بأنه شريعة الله؟!

نحن غير صادقين فالله تعالى بحسب تواريخهم أمر النساء أن يطفن مع الرجال حول الكعبة حينما كان العرب يفرقون بين الجنسين في الطواف. كان الرجال يطوفون في النهار والنساء في الليل.

وأمرهم جميعا بأن يصلوا معا حول الكعبة. فمن أين أتوا بحكم أن تصلي المرأة خلف الرجل وجوبا؟ إنهم يخالفون سنة الرسول.

ألم يفكر المسلمون الذين يذكرون لرسولنا الحبيب عليه السلام صحابيات في كيفية كونهن صحابيات؟. إنهم يعتبرون بعض النساء من رواة الأحاديث فكيف روين الأحاديث إن لم يختلطن مع الرجال في مجالس الرسول؟

لننتبه بأن الرسول لم يملك مايكروفون ولا مكبر صوت ولا أشرطة ولم يقل أحد بأن كان له مجلسان للرجال والنساء.

أرجو أن يفكر المسلمون اليوم قليلا ويعيدوا النظر في أحكامهم الجائرة التي نسبوها إلى الله تعالى والله لم يأمر بها قطعا. ليس لله كتاب بين أيدينا غير القرآن فكيف ننسب أمرا إليه سبحانه وهو ليس في كتابه؟. لنتقي الله تعالى فإن عذاب ربنا غير مأمون لأنه عادل لا يمكن أن يظلم.

أنا لا أريد مناقشة أحكام العلاقات بين الرجال والنساء فهي علاقات غير سليمة في تشريعاتنا وغير منطبقة مع كتاب الله تعالى. وقد ذكرت ما ذكرت حتى أضمن قلة الإشكالات علي في بياني لأسرار سورة يوسف وللمرأة أدوار أساسية في هذه القصة.

يكفي بأن نرى رسولا عظيما مثل يوسف عليه السلام يعيش مع امرأة غير محرم وبجالس مجموعة من النساء في متكإ خاص بهن. ولم يذكر القرآن بأن دخوله على امرأة العزيز كان خطأ وغير شرعي بل ذكر بأن محاولة المرأة للزنا كانت خاطئة.

وأنا أخاف على أهلي أن يواجهوا العذاب القاسي يوم القيامة متبوعا بالنار الأبدية لما قاموا به من ظلم للمرأة ولما نسبوا هذه الحقوق الرجولية والفقه الذكوري غير الصحيح إلى سيد الكائنات جل جلاله.

فكأن الله تعالى خلق المرأة ضعيفة وخلق الرجل قويا! ولو نقرأ آية أخرى بعد ما ذكرتها أعلاه من سورة النساء لنرى بأن جميعنا ضعفاء في هذا الكوكب والسبب ليس هو من الله تعالى بل هو من أبوينا آدم وحواء. قال تعالى في سورة النساء بعد ما ذكرناها أعلاه:

يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (28). نهاية الهامش 86.

والآن لنأتي إلى المقارنة من واقع القرآن فقط وفي حضور الرسل الكرام. فستكون المقارنة استنادا إلى الكتاب السماوي الصحيح سهلة وبسيطة وصحيحة بإذن الله تعالى. كل القضايا التي ذكرناها حصلت أيام الرسل. والواقع أن الله تعالى يعاملهم مثل بقية الناس يوم ظهور خاتم النبيين لأن كل حاضري الرسالات إذا كانوا في المنطقة الجغرافية التي أعلن فيها الرسول دعوته فهم أصحاب ذلك الرسول.

1, أرسل الله تعالى إلى بني إسرائيل ثلاثة أنبياء يحملون كتبا سماوية هم: موسى وداود وعيسى؛ وأرسل الله تعالى إلى بني إسماعيل نبيا يعمل بصحيفة أبيه كما يبدو وهو اسماعيل نفسه ثم نبيا آخر هو محمد مع كتاب كامل.

وكان العرب قبل الإسلام يعبدون الله ويعبدون أصنامهم أيضا لكنهم يصلون ويحجون لله فجاء القرآن مصدقا لما معهم من عبادات وعقائد ورثوها من إسماعيل وصحح لهم ما اختلط بشرك. كما نقرأ في سورة الأعراف:

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110).

ولكن السلالة النبوية من بني إسرائيل لم يكونوا كذلك كما نقرأ من الآيات التالية من سورة البقرة:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85).

2. قال تعالى في نهاية سورة المزمل:

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ,, .

والسورة كما يظهر من مواضيعها تعتبر من السور التي نزلت في بدايات الدعوة.

فكان هناك طائفة من الصحابة يتهجدون، والتهجد عبادة لا يأتي بها إلا الذين بلغوا مرتبة من اليقين والحب لله.

ولننظر إلى قوم موسى بعد عدة عقود من الدعوة الموسوية المجيدة وبمعية نبي كريم آخر هو هارون كما نقرأه من سورة المائدة بعد أن رفض قومهما دخول الأرض المقدسة:

قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) .

شهد نبيهم عليهم بأنهم غير صالحين. أما حالهم قبل ذلك وبعد أن دمر الله تعالى لصالحهم فرعون وقومه فهو مخجل فعلا. قال تعالى في سورة الأعراف:

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ (137) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) .

3. فتح الله مكة في عهد نبينا محمد على المسلمين كما أمر من قبل موسى أن يدخل الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ولكنهم خافوا وأبوا اقتحام المدينة حتى مات موسى وهارون ثم بعد فترة جاء

داود وفتحها لهم. والقصتان معروفتان في القرآن الكريم. ولا أظن أن التاريخ اليهودي يخالف حصول القصتين كما ذكر القرآن الكريم.

نكتفي بهذا الحد لنصل إلى المقصود. فالمتدبر يشعر بأن التشبث بالسلالات يضر بالناس ولكن الاهتمام بالعقود الاجتماعية بين البشر وبعهود الأفراد الطبيعية مع ربهم هو الطريق الأفضل لتزكية النفوس وكسب الرضوان.

ولنا في قصة بني العباس وهم أقرب الحاكمين إلى رسول الله وهم الذين اختلقوا هذا الكم الهائل من الأحاديث المفتراة على الرسول في مدح أهل البيت دفاعا عن كيانهم، خير شاهد على ما نقول[87].

---

[87] قتل بنو العباس كل من طالته أياديهم الآثمة من بني أمية حتى الأطفال بحجة أنهم قتلوا أطفال الحسين. وناهيك عن عدم جواز قتل أطفال القتلة فأنا أشك في أن بني أمية قتلوا أطفال الحسين في كربلاء لأن الذين دفعهم المجرم عبيد الله بن زياد للمعركة هم من شيعة علي ومن أحبابه. فلا يمكن أن نتصور فيهم تلك القسوة التي نسمعها من الذين يسعون لإبكاء الناس بعد مئات السنين اليوم.

ولا يمكن أن يجرؤ الذين أتوا من الشام على تلك الوحشية في حضور صحابة علي. إنهم قتلوا الحسين بن علي عليهما السلام بعد أن أقنعتهم السلطة بأنه خالف أخاه الحسن في البيعة مع بني أمية.

لقد أخطأوا وجنوا ثم تابوا فيما بعد ولكنهم ليسوا كما يصفونهم أصحاب المصالح. إنهم آباء هؤلاء الذين يدقون صدورهم اليوم وهم قد رأوا سماحة علي بن أبي طالب ولمسوا كرمه فكيف نقبل ذلك؟

وحينما نحلل الروايات التي اختلقها بنو العباس في مدح أهل البيت فإننا – بفرض قبولها – سنصل إلى الشرك الحقيقي بالله تعالى وإلى أن الموتى لهم دور في حياتنا الفعلية وإلى أن الأرض بحاجة إلى بشر يمسكونها وكأن الله تعالى الذي يمسك السماوات كلها عاجز عن أن يمسك الأرض حتى لا تسيخ بأهلها.

لقد صوروا لنا رسولنا الحبيب عليه السلام وكأنه جاء لتثبيت الحكم الدنيوي لأهل بيته كما فعل بنو أمية من قبلهم في تقديس الصحابة ليثبتوا الحكم لبني أمية من جديد.

إن في سورة يوسف لعبرة حقيقية لمن يريد أن يهتدي بحق. نرى في هذه السورة أن النبي يوسف الذي أسس بنيان بني إسرائيل يضع ثقته في فتيانه المصريين الذين اختارهم من بين بقية الخدم أكثر من ثقته بإخوانه أهل بيت النبوة.

إن ذلك السجين القبطي الذي يسقي الخمر للملك كان أكثر رحمة لنبي بني إسرائيل من أقرب الناس إليه الذين أنزلوه في آبار الطرق ليستملكه القوافل التجارية الغريبة.

فلا يمكن أن يكون لقرابة الرسول ولا لأبنائه ولا لعشيرته القرشية التي سادت لتسرق وتزني وتقتل الأبرياء من المسلمين وغير المسلمين، أية فضيلة أو أهمية في الموازين الإلهية. بالطبع لا نقصد المؤمنين من عشيرة الرسول رضي الله تعالى عنهم وعنا.

الميزان الحقيقي هو التقوى ولا دخل لنا بما فعله السلف. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولنا ما كسبنا.

علينا ان نترك التمسك بغير الله تعالى الحي القيوم وبالقرآن الذي صانه الله تعالى لهدايتنا.

هذا الكتاب هو الذي هدى رسولنا والمهاجرين الأولين الذين نصروا رسول الله ساعة العسرة كما هدى الأنصار وكل مسلم بل كل إنسان باحث عن الحقيقة بعد وفاة الرسول.

علينا ان نتمسك بالحي والموجود ونترك الأساطير والأوهام الخرافية التي يرفضها العقل السليم. أتمنى أن أجد آذانا صاغية تسعى لفهم حقائق القرآن وترك ما سواه من المواريث.

والواقع أن الرسول بشر لا يدري ما يُفعل به يوم القيامة ولا ما يُفعل بصحابته أو أهل بيته. إنه تابع وخاضع للقرآن وليس مؤهلا ليعين عدولا للكتاب العظيم الذي أنزله سيد الكائنات جل جلاله. نهاية الهامش 87.

وحتى نطمئن تماما بأن القرآن هو الموجه والقائد للرسول وليس الرسول عدلا للقرآن فإني أتلو عليهم آيات من القرآن. قال تعالى في سورة القصص:

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (85) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (86) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88). فهل مثل هذا الشخص عِدل للقرآن؟

وقال سبحانه في سورة الأنعام:

قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15).

فالرسول هو أول المسلمين وأول من يعمل بالقرآن ويخاف من العذاب مثل بقية الناس الذين يخافون من عذاب الله تعالى. ثم يوضح الله تعالى بأن وسيلة الإنذار بيد النبي هي القرآن:

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (19).

ثم تستمر سور الأنعام الكريمة في بيان أن فهم القرآن متاح للمؤمنين دون غيرهم:

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (25) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ

عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) .

ثم تستمر السورة في بيان التبعات الأخروية لمن يكذب القرآن وتسعى السورة الكبرى لتطييب خاطر رسول الله تعالى بأن المكذبين يكذبون الله ولا دخل لهم به شخصيا:

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ (33) .

وبعد ذلك تعبر السورة عن عجز الرسول عن الإتيان بآية من ربه عدا القرآن طبعا وتمنع الرسول من أن يتشبه بالجاهلين فيطلب شيئا غير القرآن من الله تعالى:

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) .

ثم تستمر السورة في بيان أن الذين لم يهدهم الله تعالى فلن يهتدوا والله تعالى لا يهدي الذين أشركوا به.

وتعود السورة مرة أخرى إلى الاستمرار في واجبه الدعوي وترك عملية تحقيق الهدى لله تعالى.

تقول السورة بأن الرسول ليس إلا مبشرا ونذيرا للوحي وهو القرآن الكريم وهو لا يعلم الغيب وغير مسيطر على خزائن الله تعالى:

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (48) وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (49) قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ (50) وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51) .

وأختم ما أردت نقله من سورة الأنعام بالآيات التالية ليعلم الإخوة والأخوات بأن رسول الله عليه السلام هو واحد من المسلمين وهو مأمور بأن يتبع القرآن وليس له أن يأتي بقرآن مثله:

قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) .

والأمر عائد إليكم لتختاروا كتاب الله تعالى أو تتبعوا ما خطته أيادي أناس أمثالكم.

وبهذا أختم الكتاب راجيا من الله تعالى أن يتقبل ما سعيته لبيان حِكَمه ولعلي أوضح بعض ما خفي على بني جلدتي من كتابه الحكيم.

أتمنى من ربي أن يغفر لي ذنوبي وأن يوفق البشرية للعودة إليه سبحانه وتعالى حتى ننعم جميعا ببركاته العظيمة ونلمس التوفيق الحقيقي من ربنا فنميز بين الحق والباطل ونكسب الرضوان. والحمد لله أولا وآخرا.

أحمد المُهري

المملكة المتحدة

في 24 يناير 2012